بنیاد پژوهشهای اسلامی
آستان قدس رضوی

آيات العقائد

تأليف
آية الله السيد ابراهيم الحجازي

تحقيق وإعداد
رامين الگلمكاني

بسم الله الرحمن الرحيم

آية‌الله السيد ابراهيم الحجازى

آيات العقائد

تحقيق و إعداد: رامين الگلمكانى

حجازي طبسي، ابراهيم، ١٣٠٤ - ١٣٧٧.
آيات العقائد / تأليف ابراهيم حجازي طبسي؛ تحقيق و إعداد. رامين گلمكاني.ـ
مشهد: مجمع البحوث الاسلامية، ١٤٢٤ ق.= ١٣٨٢ش.
ص.٥٢٥. ISBN 964 - 444 -557 - 0
فهرستنويسي بر اساس اطلاعات فيپا.
عربي.
كتابنامه: ص. ٥٠٥ - ٥١٦؛ همچنين به صورت زيرنويس.
١. خداشناسي -- جنبه‌هاي قرآني. ٢. خداشناسي -- احاديث. ٣. اسلام -- عقايد -- جنبه‌هاي قرآني. ٤. قرآن -- تحقيق. الف. گلمكاني، رامين، ١٣٤٨ - مصحح. ب. بنياد پژوهشهاي اسلامي. ج. عنوان.
٣٢٩ ح /١ / ١٠٣ BP ٢٩٧ / ١٥٩
كتابخانه ملّي ايران ٧٩٥ ـ ٨٢م

آيات العقائد

آيةالله السيد ابراهيم الحجازي

تحقيق و اعداد: رامين الگلمكاني
الطبعة الاولى: ١٤٢٤ ق. / ١٣٨٢ ش.
١٠٠٠ نسخه
الثمن: ٢٧٠٠٠ ريال
الطباعة: مؤسّسة الطبع و النشر التابعة للآستانة الرضويّة المقدّسة

مراكز التوزيع
مجمع البحوث الإسلاميّة، الهاتف والفاكس (مشهد) ٢٢٣٠٨٠٣، ص. ب ٣٦٦ ـ ٩١٧٣٥
شركة به‌نشر، (مشهد) الهاتف ٧ ـ ٨٥١١١٣٦، الفاكس ٨٥١٥٥٦٠
Web Site: www.islamic-rf.org E-mail: info@islamic-rf.org

مقدّمة المحقّق

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ خاتم النبيّين محمّد المصطفىٰ وعلىٰ أهل بيته الطيّبين الطاهرين.

وبعد..

هذا الكتاب الذي نقدّمه للقرّاء الأعزّاء هو من آثار المرحوم آية الله السيّد إبراهيم الحجازي الطَّبَسيّ طاب ثراه، أحد علماء خراسان المعاصرين ومن المدرّسين المتميّزين في الحوزة العلميّة بمدينة مشهد المقدّسة.

ولد رحمه الله في الثاني عشر من شهر خرداد عام ١٣٠٤ هـ. ش في مدينة طَبَس. وبعد أن دَرَس فيها المقدّمات قَصَد عام ١٣٢٢ هـ. ش مدينة مشهد لمواصلة الدراسة في حوزتها العلميّة، فحضر درس الأستاذ أديب النيشابوريّ الثاني، وآية الله الميرزا أحمد المدرّس. ثمّ شدّ الرّحال إلى النجف الأشرف فأقام فيها ثماني عشرة سنة، حَضَر خلالها دروس البحث الخارج في الفقه والأصول لدىٰ آية الله العظمىٰ السيّد الخوئيّ وغيره. وعاد بعدها إلىٰ إيران للتدريس في حوزة مشهد العلميّة، إذ مارَسَ التدريس في السطوح العالية (فقهاً وأصولاً) وفي الأخلاق، وظلّ مَعنيّاً بإعداد الطلاب وإقامة صلاة الجماعة حتّىٰ وفاته في السابع والعشرين من شهر آبان عام ١٣٧٧ هـ. ش.

وفي مشهد كان المرحوم آية الله العظمى السيّد الميلانيّ قد أسّس في مشهد، من جملة ما أسّس من المدارس: المدرسة الحسينيّة العالية (مدرسه عالى حسينى)، بوصفها مركزاً علميّاً هدفه ـ طيلة سنوات قبل الثورة الإسلاميّة ـ إعداد الباحثين والكتّاب والمتخصّصين في العلوم الإسلاميّة. وكان من شروط قبول الطلّاب: اجتياز امتحان في كتاب (كفاية الأصول) بجزءيه. وقد كان المرحوم آية الله

الحجازي أحد الأساتذة البارزين في تلكم المدرسة، وكانت له مشاركة علميّة في المدرسة منذ أوائل تأسيسها، وقد عُهد إليه بالتدريس فيها، وكان من دروسه : (آيات الأحكام) و(آيات العقائد).

وهذا الكتاب في الأصل هو مدوّنات المرحوم آية الله الحجازيّ في موضوع العقائد الإسلاميّة الذي كان يتولّىٰ تدريسه في المدرسة الحسينيّة العالية استمداداً من آيات القرآن الكريم. وكان يضيف إليه بين الوقت والآخر ما يَعِنّ له من إضافات ومباحث، لكي يكتمل بمرور الأيّام، لكنّه ـ ولأسباب معيّنة ـ قد انصرف عن إكماله ووضعِه بالصيغة النهائيّة المطلوبة.

وبعد ارتحال المرحوم الحجازيّ اقترح علَيّ حجّةالإسلام والمسلمين علي أكبر إلهي الخراسانيّ ـ باعتباره وصيّ المؤلّف علىٰ مدوّناته العلميّة ـ أن أجعل تحقيق الكتاب وإعداده رسالة التخرّج للمستوى الثالث. فاطّلعت علىٰ مدوّنات الكتاب وتعهّدت بالعمل لإحيائه ونشره.

هذا الكتاب يستند أساساً إلى القرآن الكريم، ثمّ أحاديث المعصومين عليهمالسلام، وهو لا يخلو من براهين عقليّة حيثما دَعَت الحاجة في بعض المواضع.

وقد واجهتُ في إعداد الكتاب وتحقيقه عقبات عديدة استغرقَت من الجهد والوقت غير قليل؛ ذلك أنّ المدوّنات التدريسيّة بصيغتها التي خلّفها المؤلّف رحمة الله عليه فَرَض علَيّ أن أعكف علىٰ قراءة الكتاب قراءة متأنّية، وأن أُعالج ما فيه من مشكلات وتداخلات لم تكن هيّنة، على الرغم من تجربتي السابقة في تحقيق النصوص.

ومن المفيد هنا إطلاع القارئ الكريم علىٰ عملي في الكتاب وعلى الجهد الذي بذلته في تحقيقه وإعداده، حتّى استوىٰ علىٰ صورته الحاضرة:

أوّلاً : إعادة استنساخ الكتاب من جديد. وفي خلال ذلك كنت أعمل ـ بمناسبات شتّىٰ ـ علىٰ إصلاح ما يحتاج إلى إصلاح، وإكمال ما يحتاج إلىٰ إكمال بالرجوع إلى الروايات التي اكتفى المؤلّف بالإشارة إلىٰ مصدرها، أوبإضافة روايات أخرىٰ مناسبة لموضوع البحث ولسياقه. وقد بلغ مجموع ما أضفته في هذا الصدد

حوالي (٦٠) صفحة.

ثانياً : مراجعة و تخريج الآيات والروايات و الأقوال، وقد راجعت في هذا الصدد ما يربو علىٰ (١٢٥) كتاباً.

ثالثاً : التنقيح الأدبيّ و الملاحظة العلميّة للنصّ.

رابعاً : كان الكتاب بسبب سعة مادّته، و ما كان المؤلّف يضيف اليه باستمرار لا يخلو من تكرار في عدد من المطالب أوفي جوانب منها، ممّا يُفقده التجانس المنهجي في غير قليل من المواضع، وقد اضطرّني هذا إلىٰ إدغام بعض المطالب ببعض، و إلىٰ نقل عدد من المباحث إلىٰ مواضع أنسب لها في تضاعيف الكتاب.

خامساً : تَمّ تجديد النظر في كلّ العناوين الأوليّة للكتاب و وضع عناوين جديدة مناسبة.

سادساً : لمزيد من الفائدة قمت في الهامش بتعريف مختصر بالأعلام الواردة في النصّ.

سابعاً : إعداد فهارس فنيّة للآيات و الروايات و الموضوعات و مصادر التحقيق، ألحقتُها في آخر الكتاب.

وفي الختام.. أجد من الوفاء أن أتقدّم بالشكر للأستاذ المشرف حجّةالإسلام و المسلمين علي أكبر إلهي الخراسانيّ، علىٰ إشرافه وتوجيهاته القيّمة. و أشكر كذلك الأستاذ إبراهيم رفاعة الذي رافقني في عملي هذا و تحمّل عبء قراءة الكتاب و مراجعته الأدبيّة و المنهجيّة و حلّ معضلاته. و أذكر أيضاً بالشكر حجّةالإسلام غلام علي اليعقوبيّ لمساعيه المحمودة في العثور علىٰ بعض النصوص من مصادرها، و حجّةالإسلام محمد القائميّ لتهيئته عدد من مصادر التحقيق، و السيّد نعمة الله الطباطبائي لتنضيده حروف هذه الرسالة. أسأل الله تبارك و تعالى لهم و لكلّ مَن أعان مِن الأصدقاء علىٰ إتمام هذا العمل، وافر الخير ومزيد التوفيق.

مقدّمة المؤلّف

الحمد لله الّذي تقدّس عن إدراك الأفهام و جلّ و علا عن إحاطة العقول والأوهام، الّذي حارت لطائف الأوهام في بَيداء كبريائه، و كلّت الأفكار في ميدان جبروته، و بُلْبِلَت الألباب في صِقع جلاله؛ فكلّما تقدّم الفكر و العقل فيه شِبراً، فرّ مِيلاً و رجع لايهتدي إليه سبيلاً.

و الصلاة و السلام على سيّد الأنبياء و أفضل المرسلين و خير الأولياء و أشرف الصّديقين الّذي كان نبيّاً و آدمُ بين الماء و الطين: محمّد المبعوث رحمةً للعالمين وعلى آله الطيّبين المعصومين الّذين أذهب الله عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً، وجعلهم عِدلاً للقرآن الحكيم، و دعاة إلى الحقّ المبين؛ فمَن ركب سفينتهم نجا، ومن تخلّف عنها غرق و هوى.

أمّا بعد، فإنّ القرآن النازل من ربّنا إلينا مائدة سماويّة و هديّة رحمانيّة عهداً من الله سبحانه و هو الصادق البارّ، فيه خبرنا و خبر مَن قبلَنا و خبر مَن بَعدنا، و هو الشافع المشفَّع، و الماحل المصدّق، مَن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، و من جعله خلفه ساقه إلى النار. و هو الدليل يدلّ على خير سبيل، فيه تفصيل و بيان و تحصيل. و هو الفصل ليس بالهزل، لاتُحصى عجائبه و لاتَبلى غرائبه، فيه منار الهدى و مصابيح الدجى، شفاء لما في الصدور، و تبيان من العمى، نور من الظلمة، و استقالة من العثرة، ضياء من الأحداث، عصمة من الهلكة، رشد من الغواية، و أمان من الفتن، بلاغ من الدنيا إلى الآخرة، فيه كمال الدين و تمام النعمة، مَن أخذ عقائده منه تزول الجبال الرواسي ولايزول.

من هنا كان خليقاً بنا أن نتّخذ القرآن مصدراً للمعرفة الواقعيّة و منهجاً للحياة

الإنسانيّة السويّة: نستضيءُ بنوره، و نهتدي بهداه، و نقفو آثاره، و نُقبل علىٰ تفهّم حقائقه، و نداوي أدواءنا الفرديّة و الاجتماعيّة و السياسيّة بلطائفه و دقائقه.. لعلّ الله يوفّقنا إلىٰ ما يوجب رضوانه، و يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنَه، فينقذنا من الهوان و الشفاء، إنّه ذو الفضل و الإكرام و الجود و الإنعام.

الهدف من تأليف الكتاب:

يمتلئ عالَم اليوم بوسائل الاتّصال المقروءة و المسموعة و المرئيّة، و هي ما تفتأ في الغالب تبثّ موجات من الأفكار و الاتّجاهات و الظواهر التي يوجّهها الأعداء؛ لزرع الفرقة، و تعميق الاختلاف، و نشر بذور الشكّ في الأديان الإلهيّة، لاسيّما الدين الإسلاميّ الحنيف. و كثير منها يعمل على الطعن و التشكيك في منهج الإسلام الذي يمثّله أهل البيت عليهم السلام، و ذلك بإلقاء الشبهات و إضعاف الركائز والعقائد لدىٰ الناس؛ وصولاً إلىٰ أهداف شيطانيّة في تجريد الإنسان من المعتقَد الديني وسلبه الإيمانَ بالمقدّسات الذي هو أساس للحياة الإنسانيّة السليمة، و أساس لتماسك الفرد و المجتمع، و دعامة فعّالة للوقوف بوجه الطامعين و المستكبرين بمختلف أشكالهم و صورهم.

و لا ريب أنّ الاعتصام بكتاب الله و بسنّة رسوله و الهداة الطاهرين من أهل بيته صلوات‌الله عليهم أجمعين إنّما هو أمان لنا ـ نحن البشر ـ من الفرقة، و عصمة من الزلل و السقوط، و نجاة من الفساد و الخسران. و لا ريب أيضاً أنّ حاجتنا إلى الاستمساك بهذا المنهج الإلهيّ الأصيل يزداد ضرورةً في مثل هذه الظروف العصيبة المليئة بمكائد الأعداء الظاهرين و المستخفين.

من هنا رأينا أن نؤكّد في هذا الكتاب على العودة إلىٰ الينابيع الصافية و الجذور الأصلية، فنتعرّف علىٰ الحقائق الوجوديّة كما هي، متأسّين في ذلك برسول‌الله صلى الله عليه وآله في بيان الصراط المستقيم الذي بيّنه الخالق الحكيم و أوضحه في كتابه المنزَل الكريم و فسّره الرسول الأمين و الأئمّة الهادون المعصومون عليهم صلوات‌الله الملك الحقّ المبين.

و قد استهدينا ـ في هذا البحث ـ القرآن و السنّة القطعيّة (نبويّة و وَلَويّة) في

مجال العقائد الالهيّة الضروريّة للإنسان، من أجل أن تكون تبعيّتنا في العقيدة للكتاب و السنّة، ذلك أنّ من أخذ دينه من الكتاب و السنّة تزول الجبال و لا يزول، و مَن أخذ من أفواه الرجال زال بزوال الرجال.

و قد ذكرنا ـ في كلّ موضوع ـ الآيات و الأخبار و البرهان المستفاد منهما، و لا نتعدّاهما إلىٰ الآراء الشخصيّة؛ فإنّ ثبوت الحقّ ينفي كلّ شبهة لمن أراد الواقع وكان رائده الإنصاف.

و قد تمّ ترتيب الأبحاث علىٰ نحوٍ موجز يسهّل على القارئ مطالعتها، و يقرّب إليه الأخذ بها و الإقبال عليها. و آثَرنا أن نستهلّ هذه الأبحاث بوصف القرآن الكريم ـ باعتباره المصدر الأوّل للمعرفة ـ بما وصف به نفسه، من أجل أن نتعرّف عليه تعرّفاً صحيحاً يفضي بنا إلى اليقين، متوكّلين على الله طالبين هدايته، و من يتوكّل على الله فهو حسبُه.

تمهيد: التعرّف على القرآن

الفصل الأوّل
القرآن في الآيات و الرّوايات

القرآن وحي و تنزيل من الله تعالى

إنّ جملة وافية من الآيات قد تعرّضت لتعريف القرآن و توصيفه، من ذلك ما عرّفه بأنّه: وحي من الله تعالى و تنزيل من عنده.

﴿وَ أُوحِىَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْءَانُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ﴾[1].

﴿وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ بَيِّنٰتٍ مِنَ الْهُدىٰ﴾[3].

﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰلَمِينَ نَذِيراً﴾[4].

﴿اَللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰباً مُتَشٰبِهاً مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[5].

نور و رحمة و ضياء للعالمين

﴿قَدْ جَآءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [١].

﴿وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ [٣].

﴿قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [٤].

ذِكر و تذكرة و ذكرىٰ

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [٥].

﴿قُل لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِن هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [٦].

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا﴾ [٧].

﴿وَ جَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٨].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ﴾ [٩].

﴿فَمَالَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [١٠].

﴿وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [١١].

---

١ ـ المائدة ١٥/٥.
٢ ـ الإسراء ٨٢/١٧.
٣ ـ النساء ١٧٤/٤.
٤ ـ الأنعام ١٠٤/٦.
٥ ـ آل عمران ٥٨/٣.
٦ ـ الأنعام ٩٠/٦.
٧ ـ الأعراف ٦٣/٧.
٨ ـ هود ١٢٠/١١.
٩ ـ ق ٣٧/٥٠.
١٠ ـ المدّثّر ٤٩/٧٤.
١١ ـ الحاقّة ٤٨/٦٩.

كتاب مبين يَفرُق بين الحقّ و الباطل

﴿وَ لَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [١].

﴿الٓر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [٢].

﴿وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَ رَحْمَةً﴾ [٣].

﴿وَ قُرْءَاناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ و نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [٤].

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَ كِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَ بُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥].

تبيان لكلّ شيء و هو حقّ ينطق بالحقّ

﴿مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [٦].

﴿وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [٧].

﴿وَ قُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [٨].

﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُمْ مِّـن نَّذِيرٍ﴾ [٩].

﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [١٠].

﴿وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [١١].

---

١ ـ الأعراف ٥٢/٧.
٢ ـ إبراهيم ١/١٤.
٣ ـ النحل ٨٩/١٦.
٤ ـ الإسراء ١٠٦/١٧.
٥ ـ النمل ١/٢٧ـ٢.
٦ ـ الأنعام ٣٨/٦.
٧ ـ النحل ٨٩/١٦.
٨ ـ الكهف ٢٩/١٨.
٩ ـ السجدة ٣/٣٢.
١٠ ـ الجاثية ٢٩/٤٥.
١١ ـ النجم ٣/٥٣ـ٤.

هدىً يهدي إلى الحقّ

﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١].

﴿يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[٢].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[٣].

صدق و مبارك و مصدّق

﴿وَ هَـٰذَا كِتَٰبٌ أَنْزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٤].

﴿وَ هَـٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَٰهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾[٥].

﴿بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٦].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ﴾[٧].

﴿وَ الَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٨].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾[٩].

أحسن القصص

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ﴾[١٠]

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾[١١].

---

١ ـ البقرة ٢/١ـ٢.
٢ ـ المائدة ٥/١٦.
٣ ـ الإسراء ١٧/٩.
٤ ـ الأنعام ٦/٩٢.
٥ ـ الأنبياء ٢١/٥٠.
٦ ـ الصافّات ٣٧/٣٧.
٧ ـ صٓ ٣٨/٢٩.
٨ ـ الزمر ٣٩/٣٣.
٩ ـ الزمر ٣٩/٣٢.
١٠ ـ يوسف ١٢/٣.
١١ ـ الزمر ٣٩/٢٣.

﴿وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِن رَّبِّكُمْ﴾[١].

معجز

﴿وَ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِّثْلِهِ﴾[٢].
﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[٣].
﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْءَانِ لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[٤].

موعظة و منذر و مبشّر

﴿وَ جَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥].
﴿قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦].
﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً﴾[٧].

هذه جملة من الآيات المعرّفه للقرآن بأنّه كتاب مبين لاريب فيه، هدىً وموعظة للمتّقين، نزل من الله العزيز الحكيم، أوحي إلى عبده الأمين الكريم، هو نور و رحمة، مبارك مصدّق الّذي مضى. قد فُصّل على علم، يهدي إلى الصراط المستقيم، لاعِوَج فيه، يبشّر المؤمن و ينذر الكافرين و الفاسقين، قد أُحكِمت آياته، يخرج الناس من الظلمات إلى النور، يهدي من اتّبع رضوانه إلى السلام و إلى الطريقة الّتي هي أقوم، و هو تبيان لكلّ شيء، لميفرّط فيه شيء، و هو أحسن

---

١ ـ الزمر ٥٥/٣٩.
٢ ـ البقرة ٢٣/٢.
٣ ـ هود ١٣/١١.
٤ ـ الإسراء ٨٨/١٧.
٥ ـ هود ١٢٠/١١.
٦ ـ الكهف ٢/١٨.
٧ ـ مريم ٩٧/١٩.

القصص و ذكرى و تذكرة و ذكر للعالمين و شفاء و رحمة للمؤمنين. قد تلقّاه الرسول من لَدُن حكيم عليم، فلاياًتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً، و لو تقوّله عليه تعالى لأخذه باليمين و لَقطع منه الوتين، و هو الفارق بين الحقّ و الباطل، برهان و بصائر من عند الجليل، و بصيرة لمن استبصر و هداية لمن استهدى، حقّ نزّل من السماء لمينطق به الرسول عن الهوى. فَمَن التمس الهدى منه فقد نجا و من تخلّف عنه فقد هوى.

و إذا رجعت إلى الكتاب العزيز وجدتَ تعريفاً له أكثر ممّا ذكر، و إنّما تعرضّنا لجملة من الآيات المشتملة على توصيفه نموذجاً لهذا المقصود[1]، و نذكر من

---

١ ـ وردت للقرآن الكريم ـ في القرآن نفسه ـ أوصاف أخرىٰ غير ما نصّ عليه المؤلّف، و من هذه الأوصاف:

أحسن الحديث: ﴿اللهُ نَزَّلَ أحسَنَ الحَديثِ كتاباً مُتَشابِهاً مَثاني﴾ الزمر ٢٣/٣٩.

أحسن ما أُنزِل: ﴿و اتَّبِعُوا أحسَنَ ما أُنزِلَ إليكُم مِن ربِّكُم﴾ الزمر ٥٥/٣٩.

بلاغ: ﴿هذا بَلاغٌ لِلناسِ و لِيُنْذَروا بِهِ﴾ ابراهيم ٥٢/١٤.

بيان: ﴿هذا بَيانٌ للناسِ و هُدىً و مَوعظةٌ للمُتَّقين﴾ آل عمران ١٣٨/٣.

بَيّنة: ﴿فقد جاءكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُم و هُدىً و رحمة﴾ الأنعام ١٥٧/٦.

تفصيل كلّ شيء: ﴿ما كانَ حديثاً يُفترىٰ و لكنْ تصديقَ الذي بينَ يدَيه و تفصيل كلِّ شيءٍ و هُدىً و رحمةً لِقَومٍ يُؤمِنون﴾ يوسف ١١١/١٢.

حَبل الله: ﴿و اعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جميعاً و لا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران ١٠٣/٣.

حديث: ﴿فَلْيأتُوا بحديثٍ مِثلِه﴾ الطور ٣٤/٥٢.

حسرة على الكافرين: ﴿و إنَّهُ لَحَسرَةٌ علَى الكافرين﴾ الحاقّة ٥٠/٦٩.

حقّ اليقين: ﴿و إنَّهُ لَحقُّ اليَقين﴾ الحاقّة ٥١/٦٩.

حكيم: ﴿يس. و القرآنِ الحكيم﴾ يس ١/٣٦ ـ ٢.

رُوح: ﴿و كذلكَ أوحَينا إليكَ رُوحاً مِن أمرِنا﴾ الشورىٰ ٥٢/٤٢.

صُحُف مطهَّرة: ﴿رسولٌ مِن اللهِ يتلو صُحُفاً مُطهَّرة﴾ البيّنة ٢/٩٨.

عَرَبيّ: ﴿إنّا أنزَلناهُ قُرآناً عَرَبيّاً لَعَلَّكُم تَعْقِلون﴾ يوسف ٢/١٢.

عزيز: ﴿و إنَّهُ لَكتابٌ عزيز﴾ فُصّلت ٤١/٤١.

عظيم: ﴿و لقد آتَيناكَ سَبعاً مِن المَثاني و القرآنَ العظيم﴾ الحِجر /٨٧.

الأخبار في هذا الباب عدداً يسيراً، يجدُ الكثيرَ منها من يرجع إلى مظانّها[١].

القرآن في الروايات

يقول أميرالمؤمنين صلوات الله و سلامه عليه يصف القرآن : و أنـزل عـليكم الكتاب تبياناً لكلّ شيء و عَمَّرَ فيكم نبيّه أزماناً حتّى أكمل له و لكم ـ فيما أنزل من كتابه ـ دِينَه الّذي رضي لنفسه...[٢].

و قال في موضع آخر : ذلك القرآن فاستنطِقوه، و لن ينطقَ، و لكنْ أُخبركم عنه :

علم : ﴿و كذلكَ أنزلناهُ حُكماً عَرَبياً و لَئِنِ اتَّبَعْتَ أهواءهُم بَعدَ ما جاءك مِن العِلمِ ما لَكَ مِن اللهِ مِن وليٍّ و لا واقٍ﴾ الرعد ٣٧/١٣.

عليّ : ﴿و إنّه في أُمِّ الكتابِ لَدَينا لَعليٌّ حكيم﴾ الزخرف ٤/٤٣.

قَول : ﴿و لقد وَصَّلنا لهُم القَولَ لعلّهُم يَتَذكَرون﴾ القصص ٥١/٢٨.

قول رسولٍ كريم : ﴿إنّه لَقَولُ رسولٍ كريم﴾ التكوير ١٩/٨١.

قَولٌ فصل : ﴿إنَهُ لَقولٌ فَصل﴾ الطارق ١٣/٨٦.

كتاب : ﴿ألم. ذلكَ الكتابُ لا رَيبَ فيه﴾ البقرة ١/٢ ـ ٢.

كريم : ﴿إنّه لَقرآنٌ كريم﴾ الواقعة ٧٧/٥٦.

كلام‌الله : ﴿و إنْ أَحدٌ مِن المشركينَ استَجارَكَ فأجِرْهُ حتّى يَسمَعَ كلامَ الله﴾ التوبة ٦/٩.

كلمة : ﴿و تَمَتْ كلمةُ ربِّكَ صِدقاً و عَدلاً لا مُبَدِّلَ لكلماته﴾ الأنعام ١١٥/٦.

مبارك : ﴿و هذا كتابٌ أنزَلناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الذي بينَ يَديه﴾ الأنعام ٩٢/٦.

متشابه : ﴿اللهُ نَزَّلَ أحسَنَ الحديثِ كتاباً مُتَشابِهاً﴾ الزمر ٢٣/٣٩.

مَثاني : ﴿اللهُ نَزَّلَ أحسَنَ الحديثِ كتاباً مُتَشابِهاً مَثاني﴾ الزمر ٢٣/٣٩.

مجيد : ﴿ق. و القرآنِ المجيد﴾ ق ١/٥٠ ـ ٢.

موعظة : ﴿هذا بيانٌ للناسِ و هُدىً و مَوعظةٌ للمُتَّقين﴾ آل عمران ١٣٨/٣.

مهيمن : ﴿و أنزَلنا إليكَ الكتابَ بالحقِ مُصدِّقاً لِما بينَ يَدَيه مِن الكتابِ و مُهَيمناً عليه﴾ المائدة ٤٨/٥.

١ ـ بحار الأنوار ج ١٩ : تجد فيه ما يشفيك في فضل القرآن وتوصيفه و ثواب قراءته و آثاره و عجائبه (المؤلف).

٢ ـ نهج البلاغة ١١٧ الخطبة ٨٦.

ألا إنّ فيه علم ما يأتي، و الحديث عن الماضي، و دواء دائكم، و نظم ما بينكم [١].

و قال في موضع آخر : فالقرآن ... أتمّ نورَه، و أكمل به دِينَه، و قَبَضَ نبيّه ﷺ و قد فَرَغَ إلى الخلق من أحكام الهُدى به، فعظّموا منه سبحانه ما عظّم من نفسه، فإنّه لم يُخْفِ عليكم شيئاً من دينه، ولم يترك شيئاً رَضِيَه أو كَرِهَه إلّا و جعل له عَلَماً بادياً، و آيةً مُحكمة، تَزْجُرُ عنه، أو تدعو إليه... [٢].

و قال في موضع آخر: و في القرآن نبأ ما قبلكم، و خبر ما بعدكم، و حُكْم ما بينكم [٣].

و قال أيضاً: و اعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الّذي لايَغُشّ، و الهادي الّذي لايُضِلّ، و المُحدِّث الّذي لايَكْذِبُ. و ما جالَسَ هذا القرآنَ أحدٌ إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادةٍ في هُدىً، أو نقصان من عَمَىً. و اعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، و لا لأحد قبل القرآن من غِنىً، فاستشْفُوه من أدوائكم، و استعينوا به على لأْوائكم، فإنّ فيه شفاءً من أكبر الداء: و هو الكفر و النفاق، و الغيّ و الضلال، فاسألوا الله به ، و توجّهوا إليه بحُبّه، و لاتسألوا به خَلْقه، إنّه ما توجّه العباد إلى الله تعالى بمثله . و اعلموا أنّه شافع مُشَفَّع، و قائل مُصَدَّق، و أنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفِّعَ فيه... [٤].

عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ : أيّها الناس إنّكم في دار هِدْنة ... ـ إلى أن قال ـ فإذا التَبَست عليكم الفتن كقِطَع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ؛ فإنّه شافع مشفّع، و ماحل مصدّق من جعله أمامه قاده إلى الجنّة، و من جعله خلفه ساقه إلى النار، و هو الدليل يدلّ على خير سبيل، و هو كتاب فيه تفصيل و بيان و تحصيل، و هو الفصل ليس بالهزل، و له ظهر و بطن؛ فظاهره حكم و باطنه علم، ظاهره أنيق و باطنه عميق، له نجوم و على نجومه نجوم، لا تُحصىٰ عجائبه

---

١ ـ نفس المصدر ٢٢٣، الخطبة ١٥٨.

٢ ـ نفس المصدر ٢٦٥ ـ ٢٦٦ الخطبة ١٨٣.

٣ ـ نفس المصدر ٥٣٠ الحكمة ٣١٣.

٤ ـ نفس المصدر ٢٥٢ الخطبة ١٧٦.

و لا تَبلىٰ غرائبه، فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة و دليل على المعرفة لمن عرف الصفة ... الحديث[1].

العيّاشيّ بإسناده عن الحارث الأعور قال : دخلت على أميرالمؤمنين عليّ بن أبي‌طالب عليه‌السلام فقلت : يا أميرالمؤمنين، إنّا إذا كنا عندك سمعنا الّذي نشدّ به ديننا ـ إلى أن قال ـ سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول : أتاني جبرئيل فقال : يا محمّد، سيكون في أمّتك فتنة، قلت : فما المخرج منها ؟ فقال : كتاب الله فيه بيان ما قبلكم من خبر، و خبر مابعدكم و حكم ما بينكم، و هو الفصل ليس بالهزل، من ولّاه من جبّار فعمل بغيره قصمه الله، و من التمس الهُدىٰ في غيره أضلّه الله، و هو حبل الله المتين، و هو الذِّكر الحكيم، و هو الصراط المستقيم، لاتزيغه الأهوية، و لاتلبسه الألسنة، و لايخلق على الردّ و لاتنقضي عجائبه، و لايشبع منه العلماء، هو الّذي لم‌تكنّه الجنّ إذ سمعته أن قالوا﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءآناً عَجَباً* يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ﴾ من قال به صدق، و من عمل به أُجِر، و من اعتصم به هُدِي إلى صراط مستقيم، هو الكتاب العزيز الّذي لايأتيه الباطل من بين يديه و لامن خلفه تنزيل من حكيم حميد[2].

قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : القرآن هدىً من الضلالة، و تبيان من العمىٰ، و استقالة من العثرة، و نور من الظلمة، و ضياء من الأحداث، و عصمة من الهلكة، و رشد من الغواية، و بيان من الفتن، و بلاغ من الدنيا إلى الآخرة، و فيه كمال دينكم، و ما عَدَل أحد عن القرآن إلّا إلى النار[3].

عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قال : إنّ هذا القرآن مأدبة الله فتعلّموا من مأدبته ما استطعتم، إنّ هذا القرآن حبل الله و هو النور المبين، و الشفاء النافع، عصمة

---

١ ـ الأصول من الكافي ٢ : ٥٩٨ ـ ٥٩٩، في بعض النسخ: (له تخوم و على تخومه تخوم) بدل (له نجوم و على نجومه نجوم)، و التخوم ـ على ما قيل ـ جمع تخم بمعنى منتهى الشيء، أُنظر هامش المصدر.

٢ ـ تفسير العيّاشيّ ١ : ٣ ـ ٤ و الآيتان في سورة الجنّ ٧٢/١ ـ ٢.

٣ ـ الأصول من الكافي ٢ : ٦٠٠ ـ ٦٠١.

لمن تمسّك به، و نجاة لمن تبعه، لايَعْوَجّ فيُقَوَّم، و لايزيغ فيُستَعتب، و لاتنقضي عجائبه، و لايَخلق عن كثرة الردّ، فاتْلُوه فإنّ الله يؤجركم على تلاوته لكلّ حرف عشر حسنات، أما إنّي لا أقول: ألم عشر و لكن: ألف عشر و لام عشر... و ميم عشر... الحديث [١].

قال أميرالمؤمنين عليه السلام في وصيّته لابنه محمّد بن الحنفيّة: ... و عليك بقراءة القرآن، و العمل بما فيه، و لزوم فرائضه و شرائعه و حلاله و حرامه و أمره و نهيه، و التهجّد به، و تلاوته في ليلك و نهارك؛ فإنّه عهد من الله تعالى إلى خلقه، فهو واجب على كلّ مسلم أن ينظر كلّ يوم في عهده و لو خمسين آية ...الحديث [٢]. و غيره و من طرق القوم كثيرة جدّاً.

---

١ ـ مجمع البيان ١ : ١٦.

٢ ـ وسائل الشيعة ١١ : ١٣٠.

الفصل الثاني
آيات و روايات تدعو إلى التدبّر عامّة

الدعوة إلى التدبّر و التعقّل و التفكّر مطلقاً

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1].

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[2].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَآيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[3].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[5].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ﴾[6].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَ قُعُوداً وَ عَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[7].

﴿وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[8].

---

١ ـ محمّد ٢٤/٤٧.

٢ ـ المؤمنون ٦٨/٢٣.

٣ ـ صٓ ٢٩/٣٨.

٤ ـ البقرة ٢١٩/٢.

٥ ـ الأعراف ١٨٤/٧.

٦ ـ الروم ٨/٣٠.

٧ ـ آل عمران ١٩١/٣.

٨ ـ النحل ٤٤/١٦.

﴿إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١].

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ [٢].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَٰناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [٣].

﴿إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ الَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِی تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ مَآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَ تَصْرِيْفِ الرِّيَاحِ وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَ الْأَرْضِ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٤].

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لايَعْقِلُونَ﴾ [٥].

﴿وَ لَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٦].

﴿وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِی هَـٰذَا الْقُرْءَآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٧].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٨].

﴿وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِیَ خَيْراً كَثِيراً وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [٩].

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لايَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ ءَاذَانٌ لايَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [١٠].

الدعوة إلى العلم المائز بين الحقّ و الباطل

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [١١].

---

١ ـ الزمر ٤٢/٣٩.
٢ ـ النساء ٨٢/٤.
٣ ـ يوسف ٢/١٢.
٤ ـ البقرة ١٦٤/٢.
٥ ـ الأنفال ٢٢/٨.
٦ ـ القصص ٥١/٢٨.
٧ ـ الزمر ٢٧/٣٩.
٨ ـ الدخان ٥٨/٤٤.
٩ ـ البقرة ٢٦٩/٢.
١٠ ـ الأعراف ١٧٩/٧.
١١ ـ الرعد ١٩/١٣.

﴿وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾[١].

﴿هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٢].

و تَعُدّ بعض الآيات العلم أوّل نعمة قبل الوجود ﴿الرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْءَانَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٣] و يمنّ الله سبحانه و تعالى على أنبيائه العظام بما علّمهم من العلوم و المعارف، فيقول مخاطباً نبيَّه الكريم ﴿وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ﴾[٤] و يُذكّر تعالى أنّه لايستفيد من القرآن و آياته و لا يستنير به إلّا العالم فيقول:

﴿وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[٥].

﴿إِنَّ فِى ذَ ٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[٦].

﴿وَ نُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٧].

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٨].

ثمّ جعل الرجس على الّذين لايعقلون و طبع على قلوب الّذين لايعلمون فقال ﴿كَذَ ٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٩].

و قد حصر الخشية منه تعالى بالعلماء فقال ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَـٰؤُا﴾[١٠].

هذه جملة من الآيات الدالّة على أنّ التدبّر و التفكّر و العلم أساس دين الإسلام، الدين الإنسانيّ الّذي يسير مع الأجيال سير الشمس و القمر.

في نهج البلاغة عن أميرالمؤمنين عليه السلام: لاترى الجاهل إلّا مُفرِطاً أو مُفرِّطاً[١١].

---

١ ـ الحجّ ٢٢/٥٤.
٢ ـ الزمر ٣٩/٩.
٣ ـ الرحمٰن ٥٥/١ ـ ٤.
٤ ـ النساء ٤/١١٣.
٥ ـ العنكبوت ٢٩/٤٣.
٦ ـ الروم ٣٠/٢٢.
٧ ـ التوبة ٩/١١.
٨ ـ فصّلت ٤١/٣.
٩ ـ الروم ٣٠/٥٩.
١٠ ـ فاطر ٣٥/٢٨.
١١ ـ نهج البلاغة ٤٧٩ الحكمة ٧٠.

العلم وراثة كريمة[١]. لاشرف كالعلم[٢].

و قال أيضاً في خطبة :... فإنّ العامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فلايَزيده بُعْده عن الطريق الواضح إلّا بعداً من حاجته، و العامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح، فلينظر ناظر : أسائرٌ هو أم راجع؟...[٣].

و قال أيضاً لكميل:... العلم خير من المال؛ العلم يحرسك و أنت تحرس المال، و المال تنقصه النفقة و العلم يزكو على الإنفاق، و صنيع المال يزول بزواله ـ إلى أن قال ـ يا كميل، هلك خُزّان الأموال و هم أحياء، و العلماء باقون ما بقي الدهر: أعيانهم مفقودة و أمثالهم في القلوب موجودة...[٤].

و في خطبة قال عليه السلام : ... فبادروا العلمَ مِن قبل تَصويح نَبْتِه، و من قبل أن تُشغلوا بأنفسكم عن مستشار العلم من عند أهله...الخطبة[٥].

ممّن يؤخذ العلم

﴿ أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ اَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لايَهِدِّى إِلاَّ أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[٦].

﴿ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ ﴾[٧].

﴿ مَا ءَآتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[٨].

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَآيَاتِنَا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْتَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾[٩].

---

١ ـ نفس المصدر ٤٦٩ الحكمة ٥.

٢ ـ نفس المصدر ٤٨٨ الحكمة ١١٣.

٣ ـ نفس المصدر ٢١٦ الخطبة ١٥٤.

٤ ـ نفس المصدر ٤٩٦ الكلام ١٤٧.

٥ ـ نفس المصدر ١٥٢.

٦ ـ يونس ٣٥/١٠.

٧ ـ النحل ٤٣/١٦.

٨ ـ الحشر ٧/٥٩.

٩ ـ البقرة ١٥١/٢.

﴿ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[١].
﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾[٢].
و في الأخبار ما يبيّن ذلك و أنّه لابدّ من أخذ العلم من أهله:

عليّ بن سُوَيد السائيّ قال: كتب إليّ أبوالحسن الأوّل و هو في السجن: و أمّا ما ذكرت يا عليّ ممّن تأخذ معالم دينك ؟ لا تأخذنّ معالم دينك عن غير شيعتنا؛ فإنّك إن تعدّيتهم أخذت دينك عن الخائنين الّذين خانوا الله و رسوله و خانوا أماناتهم. إنّهم ائتُمِنوا على كتاب الله جلّ و علا فحرّفوه و بدّلوه، فعليهم لعنة الله ولعنة رسوله و ملائكته ولعنة آبائي الكرام البررة و لعنتي و لعنة شيعتي إلى يوم القيامة[٣].

ربعيّ بن عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: أبى الله أن يُجري الأشياء إلّا بالأسباب، فجعل لكلّ سبب شرحاً، و جعل لكلّ شرح علماً، و جعل لكلّ علم باباً ناطقاً، عَرَفه مَن عرفه، و جهله من جهله، ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله و نحن[٤].

أبوبصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: إنّ الحكم بن عُتَيبة ممّن قال الله: ﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَ بِالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، فَلْيُشَرِّق الحكم و لْيُغَرِّب، أما و الله لايصيب العلم إلاّ من أهل بيت نزل عليهم جبرئيل[٥].

جابر قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: اطلبوا العلم من معدن العلم، و إيّاكم و الولائجَ فيهم الصَّدّادون عن الله، ثمّ قال: ذهب العلم و بقي غبرات العلم في أوعية سوء... الحديث[٦].

روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: مَن دخل هذا الدينَ بالرجال، أخرجه منه الرجال كما أدخلوه فيه، و مَن دخل فيه بالكتاب و السنّة، زالت الجبال قبل أن

---

١ ـ النحل ١٦/٤٤.
٢ ـ عبس ٨٠/٢٤.
٣ ـ بحار الأنوار ٢ : ٨٢.
٤ ـ بصائر الدرجات ٦.
٥ ـ نفس المصدر ٩ و الآية في سورة البقرة ٢/٨.
٦ ـ بحار الأنوار ٢ : ٩٣.

يزول[١].

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : من تعلّم باباً مَن العلم عمّن يثق به، كان أفضل من أن يصلّي ألف ركعة[٢].

عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : مَن دان بغير سماع ألزمه الله البتّة إلى الفناء، و من دان بسماع من غير الباب الّذي فتحه الله لخلقه فهو مشرك، و الباب المأمون على وحي الله محمد صلى الله عليه وآله [٣].

الفكر و التدبّر منشأ الكمال و الرّشد

كما قال عليّ عليه السلام : من اعتبر أبصر، و من أبصر فهم، و من فهم علم [٤]. الفكر يفيد الحكمة[٥]. الفكر جلاء العقول [٦]. الفكر ينير اللُّبّ[٧]. الفكر يهدي إلى الرشـاد[٨]. الفكر يهدي إلى الرشد[٩]. التفكّر يدعو إلى البرّ و العمل به[١٠]. مَن تفكّر أبصر[١١]. تفكّرك يُفيدك الاستبصار و يُكسبك الاعتبار[١٢]. الحيلة فائدة التـفكّر[١٣]. الرّأي بـالفكر[١٤]. أصل العقل الفكر و ثمرته السلامة[١٥]. الفكر في العواقب ينجي من المَعاطب[١٦].

و قال الحسن عليه السلام : أوصيكم بتقوى الله و إدامة التفكّر؛ فإنّ التفكّر أبو كلّ خير و أمّه[١٧].

---

١ ـ نفس المصدر ٢ : ١٠٥.
٢ ـ وسائل الشيعة ١٨ : ١٤.
٣ ـ عيون أخبار الرضا ٢ : ٩.
٤ ـ بحارالأنوار ٧١ : ٣٢٧.
٥ ـ شرح غرر الحكم و درر الكلم ١ : ٢٢١.
٦ ـ نفس المصدر ١ : ٢٣٢.
٧ ـ نفس المصدر ١ : ١٠٠.
٨ ـ نفس المصدر ١ : ١٧٢.
٩ ـ نفس المصدر ١ : ١٨٦.
١٠ ـ بحار الأنوار ٧١ : ٣٢٨.
١١ ـ نفس المصدر ٧٧ : ٢١٦.
١٢ ـ شرح غرر الحكم و درر الكلم ٣ : ٣١٦.
١٣ ـ نفس المصدر ١ : ٨.١.
١٤ ـ نفس المصدر ١ : ٢٠.
١٥ ـ نفس المصدر ٢ : ٤١٧.
١٦ ـ نفس المصدر ١ : ٣٨٠.
١٧ ـ تنبيه الخواطر و نزهة النواظر ١ : ٥٢.

الفصل الثالث
آيات التدبّر

طوائف من الآيات و الروايات الدالّة على التحريض على التدبّر و التعقّل و التفكّر في الموجودات:

الجسم الإنساني في مبدئه و معاده

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿وَ مِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَ مِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾[3].

﴿وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ

---

١ ـ غافر ٤٠/٦٧

٢ ـ الروم ٣٠/٢٠ ـ ٢١

٣ ـ الكهف ١٨/٣٧.

خَلْقاً ءَآخَرَ فَتَبَارَكَ اَللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[١].

في نهج البلاغة : أيّها المخلوق السويّ، و المنشأ المَرعيّ في ظُلُمات الأرحام، و مُضاعَفات الأستار، بُدِئْتَ ﴿مِن سُلالَة مِن طِين﴾ و وُضِعْتَ ﴿في قَرارٍ مَكينٍ، إلىٰ قَدَرٍ مَعلوم﴾، و أجَلٍ مَقسُوم، تَمُورُ في بطن أُمّك جنيناً لاتُحِير دُعاءً، و لاتَسمع نِداءً، ثمّ أُخرِجتَ مِن مَقرّك، إلى دارٍ لم تَشهدها، و لم تَعرف سُبل منافعها. فَمَن هداك لاجترار الغِذاء من ثَدْي أُمّك، و عَرّفَك عند الحاجة مواضع طلبك و إرادتك؟ هيهاتَ، إنّ مَن يَعجز عن صفات ذي الهيئة و الأدوات فهو عن صفات خالقه أَعجَز، و مِن تَناوُلِه بحدود المخلوقين أَبعَد[٢].

و في حديث المفضّل قال عليه السلام : نَبتدئ يا مفضّل بذِكر خلق الإنسان فاعتبِرْ به، فأوّلُ ذلك ما يُدَبَّر به الجنين في الرحم، و هو محجوب في ظلمات ثلاث : ظلمةِ البطن و ظلمةِ الرحم و ظلمةِ المَشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء، و لا دفعِ أذىً، و لا استجلاب منفعة، و لا دفع مَضرّة، فإنّه يجري إليه من دم الحيض ما يَغذوه كما يغذو الماءُ النباتَ، فلايزال ذلك غذاؤه حتّى إذا كمل خلقه، و استحكم بدنه، وقَوِيَ أديمُه على مباشرة الهواء، و بصرِه على ملاقاة الضياء، هاجَ الطَّلْقُ بأُمّه فأزعجه أشدّ إزعاج و أعنفَه حتّى يولد... الحديث [٣].

و في سؤالات ابن أبي العوجاء للصادق عليه السلام ـ إلى أن قال ـ فقال لي [أي الصادق عليه السلام]: ويلك! و كيف احتجَبَ عنك مَن أراك قدرته في نفسك: نُشوءك ولم تكن، و كِبرك بعد صغرك، و قوّتك بعد ضعفك، و ضعفك بعد قوّتك، و سقمك بعد صحّتك، و صحّتك بعد سقمك، و رضاك بعد غضبك، و غضبك بعد رضاك؟!... الحديث [٤].

هشام بن سالم قال : حضرتُ محمّدَ بن النعمان الأحول، فقام إليه رجل ـ إلى

١ ـ المؤمنون ٢٣/١٢ ـ ١٤.
٢ ـ نهج البلاغة ٢٣٣ ـ ٢٣٤ الخطبة ١٦٣.
٣ ـ بحار الأنوار ٦٠ : ٣٧٧ ـ ٣٧٨.
٤ ـ التوحيد للصدوق ١٢٧.

أن قال ـ إن سأل سائل فقال : بمَ عرفتَ ربّك ؟ قلت : عرفتُ الله جلّ جلاله بنفسي؛ لأنّها أقرب الأشياء إليّ، و ذلك أنّي أجدها أبعاضاً مجتمعة، و أجزاء مؤتلفة، ظاهرة التركيب متبيّنة الصنعة، مَبنيّة على ضروب من التخطيط و التصوير، زائدة من بعد نقصان، و ناقصة من بعد زيادة ... الحديث [١].

محمّد بن عبد الله الخراسانيّ خادم الرضا عليه السلام في حديث ـ إلى أن قال ـ قال الرجل: فأخبِرني متى كان؟ قال أبوالحسن عليه السلام: أخبِرني متى لم يكن فأُخبِرَك متى كان. قال الرجل: فما الدليل عليه ؟ قال أبوالحسن عليه السلام : إنّي لمّا نظرت إلى جسدي فلم يمكنّي فيه زيادة و لانقصان في العرض و الطول، و دفع المكاره عنه و جرّ المنفعة إليه، علمت أنّ لهذا البنيان بانياً، فأقررتُ به ... الحديث [٢].

و في الخبر المرويّ عن المفضّل عن الصادق عليه السلام ... إلى أن قال: و العجب من مخلوق يزعم أنّ الله يخفى على عباده، و هو يرى أثر الصنع في نفسه بتركيب يَبهر عقله، و تأليف يُبطل حجّته ! و لَعَمري لو تفكّروا في هذه الأمور العظام لَعاينوا من أمر التركيب البيّن، و لطف التدبير الظاهر، و وجود الأشياء، مخلوقة بعد أن لم تكن، ثمّ تحوّلها من طبيعة إلى طبيعة، و صنيعة بعد صنيعة، ما يدلّهم ذلك على الصانع ؛ فإنّه لايخلو شيء منها من أن يكون فيه أثر تدبير و تركيب يدلّ على أنّ له خالقاً مدبّراً، و تأليف بتدبير يهدي إلى واحد حكيم... الحديث [٣].

الحالات العارضة على الروح

﴿وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسِانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٤].

---

١ ـ نفس المصدر ٢٨٩.
٢ ـ نفس المصدر ٢٥١.
٣ ـ بحار الأنوار ٣: ١٥٢ ـ ١٥٣.
٤ ـ يونس ١٠/١٢.

﴿وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ﴾ [١].

﴿وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ [٢].

﴿وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [٣].

﴿وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَان وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [٤].

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [٥].

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَءَاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [٦].

﴿وَ مَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [٧].

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَ لَاأُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [٨].

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَ ادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [٩].

في النهج : أم هذا الّذي أنشأه في ظلمات الأرحام، و شُغُف الأستار، نُطفةً دِهاقاً، وعَلقةً مِحاقاً، و جنيناً و راضعاً، و وليداً و يافعاً، ثمّ مَنَحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً ؛ ليفهم معتبراً، و يُقصّر مُزْدَجِراً، حتّى إذا قام اعتداله، واستوى مثاله، نَفَر مستكبراً، و خَبَط سادراً، ماتحاً في غَرب هواه، كادحاً سَعْياً

---

١ ـ هود ٩/١١.
٢ ـ الإسراء ٦٧/١٧.
٣ ـ الزمر ٨/٣٩.
٤ ـ ق ١٦/٥٠.
٥ ـ الفجر ١٥/٨٩ ـ ١٦.
٦ ـ العلق ٦/٩٦ ـ ٧.
٧ ـ يوسف ٥٣/١٢.
٨ ـ القيامة ١/٧٥ ـ ٢.
٩ ـ الفجر ٢٧/٨٩ ـ ٣٠.

لدنياه، في لذّات طَرَبه، و بَدَوات أَرَبه...[١].

أعضاء البدن

﴿ وَ اللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ اُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْـصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾[٣].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْرِفُونَ﴾[٤].

في نهج البلاغة قال عليه السلام : جعل لكم أسماعاً لِتَعيَ ما عناها، و أبصاراً لِتَجلوَ عن عَشاها، و أشلاءً جامعة لأعضائها، ملائمة لأحنائها، في تركيب صُـوَرها، و مُـدَدِ عُمُرها، بأبدانٍ قائمة بأرفاقها، و قلوبٍ رائدة لأرزاقها...[٥].

و في قصار كلماته قال عليه السلام : إعجَبوا لهذا الإنسان؛ ينظر بِشَحم، و يتكلّم بِلَحم، و يسمع بعَظم، و يتنفّس مِن خَرم[٦]!

قال الصادق عليه السلام : فكّرْ يا مفضّل في أعضاء البدن أجمع و تـدبير كـلّ مـنها للأرب؛ فاليَدان للعلاج، و الرِّجلان للسعي، و العَينان للاهتداء، و الفـم للاغـتذاء، والمعدة للهضم، والكبد للتخليص، و المنافذ لتنفيذ الفـضول، و الأوعـية لحـملها، و الفرج لإقامة النسل، وكذلك جميع الأعضاء إذا تأمّلتها و أعـملت فكـرك فـيها و نظرك وجدت كلّ شيء منها قد قُدّر لشيء، على صواب و حكمة[٧].

و قال أيضاً: يا مفضّل، مَن غيّبَ الفؤادَ في جوف الصدر، و كساه المِدْرَعة الّتي

---

١ ـ نهج البلاغة ١١٢ ـ ١١٣ الخطبة ٨٣.
٢ ـ النحل ١٦/ ٧٨.
٣ ـ الملك ٦٧/ ٢٣.
٤ ـ الأنعام ٦/ ٤٦.
٥ ـ نهج البلاغة ١١٠ الخطبة ٨٣.
٦ ـ نفس المصدر ٤٧٠ الحكمة ٨.
٧ ـ بحار الأنوار ٣: ٦٧.

هي غِشاؤه، و حَصّنه بالجوانح و ما عليها من اللحم و العَصَب لئلّا يصل إليه ما يَنْكؤه؟! مَن جعل في مخرج الحلق منفذَين: أحدهما لمخرج الصوت و هو الحُلقوم المتّصل بالرية، و الآخر منفذ الغذاء و هو المريء المتّصل بالمعدة الموصل الغذاء إليها؟! و جعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل إلى الرية فيقتل ... الحديث[١].

الآيات الآفاقيّة

الخليقة

﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ـ إلىٰ قوله تعالىٰ ـ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٢].

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾[٣].

﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ﴾[٤].

﴿إِنَّ فِى اخْتِلَافِ الَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[٥].

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[٦].

﴿وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[٧].

﴿وَ مِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتَ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[٨].

﴿أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[٩].

---

١ ـ نفس المصدر ٣: ٧٣.
٢ ـ النحل ١٦/ ١٠ ـ ١٧.
٣ ـ البقرة ٢/ ٢٩.
٤ ـ الأعراف ٧/ ١٨٥.
٥ ـ يونس ١٠/ ٦.
٦ ـ الإسراء ١٧/ ٩٩.
٧ ـ الفرقان ٢٥/ ٢.
٨ ـ الروم ٣٠/ ٢٢.
٩ ـ يس ٣٦/ ٨١.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَيَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [1].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [2].

قال أميرالمؤمنين ﷺ : **بِصُنع الله يُستدَلّ عليه، و بالعقول تُعتقَد معرفته، و بالتفكّر تَثبُت حجّته، معروف بالدلالات، مشهور بالبيّنات** [3].

الأرض و ما فيها و ما عليها

﴿اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجْلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ❊ وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَ أَنْهَاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [4].

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [5].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَفَلَايُبْصِرُونَ﴾ [6].

﴿ وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [7].

﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [8].

﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ❊ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً ❊ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً ❊ فَأَنْبَتْنَا

---

١ ـ النحل ١٦/ ١٧.
٢ ـ الملك ٦٧/ ١٤.
٣ ـ جامع الأخبار ٣٥.
٤ ـ الرعد ١٣/ ٢ ـ ٣.
٥ ـ الملك ٦٧/ ١٥.
٦ ـ السجدة ٣٢/ ٢٧.
٧ ـ الحجّ ٢٢/ ٥.
٨ ـ الزخرف ٤٣/ ١٠.

فِيهَا حَبّاً * وَ عِنَباً وَ قَضْباً * وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلاً ﴾[١].

﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

﴿وَ فِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَ غَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣].

في نهج البلاغة : كَبَسَ الأرضَ على مَوْر أمواج مُستفحِلة، و لُجَجِ بحار زاخرة، تَلْتَطِمُ أَواذِيُّ أمواجها، و تَصطَفِق مُتَقَاذِفَات أَثبَاجِها، و تَرغُو زَبَداً لها كالفُحول عند هِياجها، فخَضَعَ جِماحُ الماء المتلاطم لِثِقل حملها، و سكنَ هَيْج ارتمائه إذ وَطِئته بكَلكَلِها، و ذَلَّ مُستخذِياً، إذ تَمَعَّكَتْ عليه بكواهلها، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه، ساجياً مقهوراً، و في حَكَمَة الذُلّ منقاداً أسيراً، و سكنت الأرض مَدحُوَّة في لُجَّة تَيّاره ، و ردّت من نَخْوة بَأْوِه و اعتلائه، و شموخ أنفه و سُموّ غُلَوَائه، و كَعَمَتْه على كِظَّةِ جَريَتِه، فهَمَد بعد نَزَقاته، و لَبَد بعد زَيَفان وَ ثَباته، فلمّا سكن هَيْجُ الماء مِن تحت أكنافها، و حمل شواهق الجبال الشُّمَّخ البُذَّخ على أكتافها، فجّر ينابيعَ العيون من عَرانين أُنُوفِها ... الخطبة[٤].

قال [الإمام الصادق]ؑ للمفضّل: فكِّرْ في خلق هذه الأرض على ما هي عليه حين خُلِقت راتبةً رَكِنَة فتكون مَوطناً مستقرّاً للأشياء، فيتمكّن الناس من السعي عليها في مآربهم، و الجلوس عليها لراحتهم، و النوم لهدئهم، و الإتقان لأعمالهم؛ فإنّها لو كانت رَجراجة مُتكفّئة لم يكونوا يتستطيعون أن يُتقنوا البناء و التجارة و الصناعة و ما أشبه ذلك، بل كانوا لايتهنّئون بالعيش و الأرضُ ترتجّ مِن تحتهم.

---

١ ـ عبس ٨٠/٢٤ ـ ٢٩.
٢ ـ النحل ١٦/١٠ ـ ١١.
٣ ـ الرعد ١٣/٤.
٤ ـ نهج البلاغة ١٣١ ـ ١٣٢ الخطبة ٩١.

و اعتبر ذلك بما يصيب الناس حين الزلازل على قلّة مَكثها حتّى يصيروا إلى ترك منازلهم و الهرب عنها[١].

و قال أميرالمؤمنين عليه السلام : التفكّر في ملكوت السماوات و الأرض عبادة المخلصين[٢].

السماء و الكواكب

﴿وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٣].

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ الَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَ الْأَرْضِ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٥].

﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَ قَمَراً مُنِيراً ۞ وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَ النَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾[٦].

﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ

---

١ ـ بحار الأنوار ٣ : ١٢١.
٢ ـ شرح غرر الحكم و درر الكلم ٢ : ٤٩.
٣ ـ العنكبوت ٦١/٢٩.
٤ ـ يونس ٥/١٠.
٥ ـ البقرة ١٦٤/٢.
٦ ـ الفرقان ٦١/٢٥ ـ ٦٢.

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١].

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَآءِ رِزْقاً وَ مَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ﴾[٢].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا وَ مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[٣].

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾[٤].

في نهج البلاغة قال عليه السلام :... فسَوّى منه سبعَ سماوات، جعل سُفلاهنّ مَوجاً مكفوفاً، و عُلياهنّ سقفاً محفوظاً، و سَمْكاً مرفوعاً، بغير عَمَد يَدعمها، و لا دِسار يَنظِمها . ثمّ زيّنها بزينة الكواكب، و ضياء الثواقب، و أَجرىٰ فيها سراجاً مستطيراً، و قمراً منيراً في فلك دائر، و سقف سائر، و رقيم مائر[٥].

قال الإمام الصادق عليه السلام للمفضّل : فكّرْ في لون السماء و ما فيه من صواب التدبير؛ فإنّ هذا اللون أشدّ الألوان موافقة للبصر ـ إلى أن قال ـ فانظرْ كيف جعل الله جلّ و تعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد ليمسك الأبصار المنقلبة عليه فلاينكأ فيها بطول مباشرتها له، فصار هذا الّذي أدركه الناس بالفكر و الرويّة و التجارب يوجد مفروغاً منه في الخلقة حكمة بالغة ليعتبر بها المعتبرون و يفكّر فيها الملحدون ... الحديث[٦].

و فيه أيضاً قال عليه السلام :... فكّرْ يا مفضّل في طلوع الشمس و غروبها لإقامة دولتَي النهار و الليل، فلولا طلوعها لَبطلَ أمرُ العالم كلّه... الحديث[٧].

و فيه أيضاً قال عليه السلام :... ثمّ فكّرْ بعد هذا في ارتفاع الشمس و انحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، و ما في ذلك من التدبير و المصلحة ... الحديث[٨].

---

١ ـ النحل ١٦/ ١٠ ـ ١٢.
٢ ـ غافر ٤٠/ ١٣.
٣ ـ ق ٥٠/ ٦.
٤ ـ الملك ٦٧/ ٣.
٥ ـ نهج البلاغة ١: ٤١ الخطبة ١.
٦ ـ بحار الأنوار ٣: ١١١.
٧ ـ نفس المصدر ٣: ١١٢.
٨ ـ نفس المصدر و الموضع .

خلقة الحيوانات

﴿وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَايَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لَايَشْعُرُونَ﴾[٢].

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَ إِلَى السَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[٣].

﴿وَ إِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ۞ وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٤].

في نهج البلاغة قال عليه السلام: و مِن أعجبها خَلقاً: الطاووس الّذي أقامه في أحكم تعديل، و نَضَّدَ ألوانه في أحسن تنضيد، بجناح أَشرَجَ قَصَبه، و ذَنَبٍ أطال مَسحَبَه... الخطبة[٥].

و فيه أيضاً قال عليه السلام : و لو فكّروا في عظيم القدرة، و جسيم النعمة، لَرجعوا إلى الطريق، و خافوا عذاب الحريق، و لكن القلوب عليلة، و البصائر مدخولة. ألاينظرون إلى صغير ما خَلَق، كيف أحكم خَلْقه، و أتقن تركيبه، و خلق له السمع و البصر، و سَوَّىٰ له العظم و البَشر؟! انظروا إلى النملة في صِغَر جُثّتها، ولطافة هيئتها، لاتكاد تُنال بلَحظ البصر، و لا بمستدرَك الفكر، كيف دَبّتْ على أرضها و صُبّت على رزقها، تَنقُل الحبّة إلى جُحْرها، و تُعِدّها في مستقرّها، تَجمعُ في حَرّها

---

١ ـ النحل ١٦/٦٨ ـ ٦٩.
٢ ـ النمل ٢٧/١٨.
٣ ـ الغاشية ٨٨/١٧ ـ ٢٠.
٤ ـ النحل ١٦/٦٦ ـ ٦٧.
٥ ـ نهج البلاغة ٢٣٦ الخطبة ١٦٥.

لبردها، و في وِرْدِها لصدرها، مكفولة برزقها، مرزوقة بوِفقها، لايُغفلها المنّان، ولايَحرِمها الديّان، و لو في الصَّفا اليابس، و الحَجَر الجامِس. و لو فكّرتَ في مجاري أَكْلها، و في عُلْوها و سُفلها، و ما في الجَوف من شَراسِيف بطنها، و ما في الرأس من عينها و أُذُنها، لَقَضَيتَ مِن خلقها عَجَباً، و لَقِيَت من وصفها تَعَباً...[١].

و فيه أيضاً قال ﷺ : و إن شئتَ قلتَ في الجَرادة ؛ إذ خلق لها عَينَين حَمْراوَين، و أَسْرَج لها حَدَقتين قَمْراوين، و جعل لها السمع الخَفِيّ، و فتح لها الفم السَوِيّ، و جعل لها الحسّ القويّ، و نَابَينِ بهما تَقرِض، و مِنجَلَين بهما تَقبِض، يَرهبها الزُرّاع في زرعهم، ولايستطيعون ذَبَّها و لو أَجلبوا بجمعهم، حتّى تَرِد الحرثَ في نَزَواتها، و تَقضي منه شهواتها...[٢].

لبعض أصحابنا عن أبي عبد الله ﷺ، قال: ما خلق الله خلقاً أصغر من البعوض، و الجِرْجِس أَصغر من البعوض، والّذي يسمّونه الوَلْغ أَصغر من الجرجس، و ما في الفيل شيء إلّا و فيه مثله، و فضّل على الفيل بالجناحَين[٣].

و إنّك إذا تأمّلت في هذا القسم من الآيات تجد أنّ الله حرّض الناس على التدبّر و التفكّر و التعقّل فجعل من لميتدبّر في القرآن و في المخلوقات من شرّ الدوابّ و اعتبره أضلّ من الأنعام، فيكون التدبّر فارقاً بين الإنسان و الحيوان.

و ترى أنّه تعالى دلّ على أهمّيّة التفكّر، فهو تارة يدعو إلى التدبّر في بدء الإنسان و ما ينتهي أمره إليه، و أُخرى في حالات الموجودات و ما يعتريها من الأحوال، و أُخرى يدعو إلى التدبّر في الأرض و ما فيها و السماء و ما بها مفصّلاً

---

١ ـ نفس المصدر ٢٧٠ الخطبة ١٨٥. ٢ ـ نفس المصدر ٢٧١ ـ ٢٧٢ الخطبة ١٨٥.

٣ ـ التوحيد للصدوق ٢٨٣ . قال الدميري : و البعوض على خلقة الفيل إلّا أنّه أكثر أعضاء من الفيل، فإنّ للفيل أربع أرجل و خرطوماً و ذنباً، و له مع هذه الأعضاء رجلان زائدتان و أربعة أجنحة، و خرطوم الفيل مصمت و خرطومه مجوّف نافذ للجوف، فإذا طعن به جسد الإنسان استقى الدم و قذف به إلى جوفه، فهو له كالبلعوم و الحلقوم ... حياة الحيوان الكبرى ١ : ١٧٩ ـ ١٨٠ .

و مجملاً، و يقول كلّ ذلك آية و علامة لمن يعقل و يتدبّر، فلايستفيد منها إلّا أُولو الألباب.

و على ضوء هذه الآيات و الروايات الآمرة بالتدبّر و التأمّل و التفكّر في الآيات الآفاقيّة و الأنفسيّة، إذا تأمّلنا العالم بفكرنا و ميّزنا بعقولنا وجدناه كالبيت المبنيّ المُعدّ فيه جميع ما يحتاج إليه العباد؛ فالسماء مرفوعة كالسقف، و الأرض ممدودة كالبساط، و النجوم منضودة كالمصابيح، و الجواهر مخزونة كالذخائر، وكلّ شيء فيها لشأنه معدّ، و الإنسان كالمُملّك ذلك البيتَ و المخوّل جميعَ ما فيه، و ضروب النبات مهيّأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه و منافعه؛ ففي هذا دلالة واضحة على أنّ العالم مخلوق بتقدير و حكمة و نظام و انسجام، و أنّ الخالق له واحد و هو الّذي ألّفه و نظّمه بعضاً إلى بعض جلّ قدسه و تعالى جَدّه.

و إنّا إذا فكّرنا في خلق أنفسنا عَجِبنا ممّا يُدبّر به الجنين في الرحم و هو محجوب في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن، ظلمة الرحم، و ظلمة المشيمة، حيث لاحيلة له في طلب غذاء، و لادفع أذىً، و لااستجلاب منفعة، و لادفع مضرّة، فإنّه يجرى إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماءُ النبات، فلايزال ذلك غذاءه حتّى إذا كمُل خلقه و استحكم بدنه، و قوي أديمه على مباشرة الهواء، و بصره على ملاقاة الضياء، هاج الطَّلق بأُمّه فأزعجه أشدّ إزعاج و أعنَفَه حتّى يولد. و إذا ولد صُرف ذلك الدم الّذي كان يغذوه من دم أُمّه إلى ثديها، فانقلب الطعم و اللون إلى ضربٍ آخر من الغذاء و هو أشدّ موافقةً للمولود من الدم، فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمّظ و حرّك شفتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثديي أُمّه كالأداوتين المعلّقتين لحاجته إليه، فلايزال يغتذي باللبن مادام رطب البدن رقيق الأمعاء ليّن الأعضاء، حتّى إذا تحرّك و احتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتدّ و يقوى بدنه طلعت له الطواحن من الأسنان و الأضراس ليمضغ به الطعام فيلين له و يسهّل عليه إساغته. فلايزال كذلك حتّى يدرك، فإذا أدرك و كان ذَكَراً طلع الشَّعر في وجهه، و إن كان

أُنثى بقي وجهها نقيّاً من الشعر ليتّسم بالبهجة و النضارة الّتي تحرّك الرجال لما فيه دوام النسل و بقاؤه؛ و هذا كلّه يدلّ علىٰ أنّ الّذي أوجده على هذا المنوال المنظّم لم يكن مهملاً، فمن هذا الّذي يرصده حتّى يوافيه لكلّ شيء في هذه المآرب؟ إنّه هو الّذي أنشأه خلقاً بعد أن لم يكن، ثمّ له بمصلحته بعد أن كان، و هذا يرشدنا إلى أنّ صانعه الحكيم و خالقه العظيم أوجده و خلقه، فأحسن خلقه تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

و إنّا إذا تدبّرنا في أعضاء البدن أجمع و تدبيرِ كلّ منها للإرب؛ فاليدان للعلاج، و الرّجلان للسعي، و العينان للاهتداء، و الفم للاغتذاء، و المعدة للهضم، و الكبد للتخليص، و المنافذ لإخراج الفضول، و الأوعية لحملها، و الفرج لإقامة النسل، وكذلك جميع الأعضاء.. إذا تأمّلناها و أعملنا فكرنا فيها وجدنا كلّ شيء منها قد قُدّر لشيء على صواب و حكمة، فنعترف بوجود خالقها و منظّمها و مدبّرها.

و إذا نظرنا إلى النجوم الزاهرات و الشمس و القمر و الكواكب المزيّنة بها السماوات الهادية للناس في الظلمات، المؤثّرة بإذن خالقها في الأرضين و ما فيها، الدوّارة لمقاديرها الجارية في الفلك مع نظمها المختصّ بها، أقررنا بربّ كريم حكيم عليم، صنعها بقدرته و قدّرها بحكمته، و هو العليّ العظيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْ لا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[1]، سبحان ربّنا و إن كان وعد ربّنا لمفعولاً.

---

١ ـ الأعراف ٤٣/٧.

الفصل الرّابع
الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى

فطريّة الايمان بالله تعالى

﴿وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [1].

﴿وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ﴾ [2].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ﴾ [3].

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [4].

عن زرارة، قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : أصلحك الله، قول الله عزّ و جلّ في كتابه ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، قال: فَطَرهم على التوحيد عند الميثاق وعلى معرفته أنّه ربّهم. قلت : و خاطبوه ؟ قال : فطأطأ رأسه ثمّ قال : لولا ذلك

---

١ ـ العنكبوت ٢٩/٦١.
٢ ـ العنكبوت ٢٩/٦٣.
٣ ـ الروم ٣٠/٣٠.
٤ ـ البقرة ٢/١٣٨.

لم يعلموا مَن ربّهم و لا مَن رازقهم[١].

عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام : قال : سألته عن قول الله عزّ و جلّ ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾، قال: الحنيفيّة من الفطرة الّتي فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله، قال: فطرهم على المعرفة به، قال زرارة : و سألته عن قول الله عزّ و جلّ ﴿ وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلىٰ﴾، قال : أخرج مِن ظهر آدم ذرّيّته إلى يوم القيامة، فخرجوا كالذرّ فعرّفهم و أراهم نفسه و لولا ذلك لم يعرف أحد ربّه. و قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : كلّ مولود يولد على الفطرة، يعني المعرفة بأنّ الله عزّ و جلّ خالقه، كذلك قوله :﴿ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[٢].

قال النّبي صلى الله عليه وآله: كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه يُهوّدانه و يُنصّرانه[٣].

فتح بن يزيد الجرجانيّ، قال :كتبت إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام، أسأله عن شيء من التوحيد، فكتب إليّ بخطه ... بسم الله الرحمٰن الرحيم، المُلهم عبادَه الحمد، و فاطرهم على معرفة ربوبيّته ... الحديث [٤].

توجّه الإنسان عند الاضطرار إلى خالقه

﴿وَ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ﴾ [٥].

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ

---

١ ـ التوحيد للصدوق ٣٣٠، و الآية في سورة الروم ٣٠/٣٠.

٢ ـ الأصول من الكافي ٢ : ١٢ ـ ١٣، و الآية الأُولى في سورة الحجّ ٣١/٢٢، و الثانية في سورة الأعراف ١٧٢/٧، و الثالثة في سورة لقمان ٢٥/٣١.

٣ ـ غوالي اللآلي ١ : ٣٥.

٤ ـ التوحيد للصدوق ٥٦ .

٥ ـ النحل ٥٣/١٦ .

أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[١].

﴿وَ إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[٢].

﴿وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[٣].

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٤].

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٥].

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَيكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٦].

و لو لم يكن الإنسان مفطوراً على أنّ له خالقاً قادراً عالماً، فكيف يتوجّه إليه عند الحاجة و قطعِ الأمل عمّا سواه؟!

عن الحسن بن عليّ بن محمّد عليهم السلام : في قول الله عزّ و جلّ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ فقال : الله هو الّذي يتألّه إليه عند الحوائج و الشدائد كلُّ مخلوق، عند انقطاع الرجاء من كلّ مَن هو دونه، و تقطُّع الأسباب مِن جميع ما سواه[٧].

و في تفسير العسكريّ عليه السلام ، إنّه سئل مولانا الصادق عليه السلام عن الله، فقال [للسائل] يا عبدالله، هل ركبتَ سفينة قطّ ؟ فقال : بلى. قال : هل كُسرت بك حيث لاسفينة تنجيك و لاسباحة تغنيك ؟قال: بلى. قال : فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئاً من

---

١ ـ يونس ١٠/٢٢ ـ ٢٣.
٢ ـ لقمان ٣١/٣٢.
٣ ـ الزخرف ٤٣/٩.
٤ ـ العنكبوت ٢٩/٦٥.
٥ ـ الزمر ٣٩/٤٩.
٦ ـ الأنعام ٦/٤٠.
٧ ـ التوحيد للصدوق ٢٣٠ ـ ٢٣١.

الأشياء قادر على أن يخلّصك من وَرْطتك ؟ قال : بلى، قال الصادق عليه السلام : فـذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حين لامنجي، و على الإغاثة حين لامغيث[١].

و قد وردت روايات كثيرة بأنّ المؤمن يُبتلى بالبلاء و الآفات و الآهات حتّى يلتجئ و يتضرّع إليه تعالى و يتوجّه إلى ساحة قدسه، تنزيهاً له من الذنوب و تمحيصاً إيّاه من دَرَن المعاصي و العيوب[٢]، و الحمد لله كما هو أهله .

التدبّر في الخليقة يفضي إلى الإقرار بالله تعالى

﴿وَ فِى الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَ فِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[٣].

﴿وَ فِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَ غَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٤].

﴿وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَ أَنْهَاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَآفَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴾[٦].

﴿وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٧].

﴿اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٨].

---

١ ـ التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام ٢٢ .

٢ ـ بحار الأنوار ٦٧ : ١٩٦ ـ ٢٥٦ .

٣ ـ الذاريات ٥١ / ٢٠ ـ ٢١ .

٤ ـ الرعد ١٣ / ٤ .

٥ ـ الرعد ١٣ / ٣ .

٦ ـ الملك ٦٧ / ١٩ .

٧ ـ الأنعام ٦ / ٧٣ .

٨ ـ الرعد ١٣ / ٢ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيٰهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢].

و في الكافي، قال رجل لأبي الحسن الرضا عليه السلام : ... فما الدليل عليه ؟ فقال أبوالحسن عليه السلام : إنّي لمّا نظرتُ إلى جسدي و لم يمكنّي فيه زيادة و لانقصان في العرض و الطول، و دفع المكاره عنه، و جرّ المنفعة إليه، علمتُ أنّ لهذا البنيان بانياً، فأقررت به مع ما أرى من دَوَران الفلك بقدرته، و إنشاء السحاب، و تصريف الرياح، و مجرى الشمس و القمر و النجوم، و غير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات، علمت أنّ لها مقدّراً و منشئاً ... الحديث[٣].

التدبّر في خلقة الإنسان يوصل إلى الإذعان بوجوده تعالى

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤].

﴿ وَ مِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَ مِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

١ ـ الزمر ٣٩ / ٢١.
٢ ـ النحل ١٦ / ١٠ ـ ١٢.
٣ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١٣٢.
٤ ـ غافر ٤٠ / ٦٧.

يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١].

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٢].

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[٣].

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْ لَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾[٤].

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[٥].

﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَّرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾[٦].

وحدة العالم تحكي الاعتراف بوجوده تعالى

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَ النَّهَارَ * وَ ءَاتَيكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَاتُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[٧].

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ

---

١ ـ الروم ٣٠/٢٠ ـ ٢١.
٢ ـ السجدة ٣٢/٩.
٣ ـ الزمر ٣٩/٦.
٤ ـ الواقعة ٥٦/٥٧ ـ ٥٩.
٥ ـ الملك ٦٧/٢٣ ـ ٢٤.
٦ ـ المرسلات ٧٧/٢٠ ـ ٢٣.
٧ ـ إبراهيم ١٤/٣٢ ـ ٣٤.

لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ﴾ ١.

﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْهَاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَ غَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ٢.

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴾ ٣.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ ٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيٰهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ٥.

﴿وَ مِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَ مِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَ مِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتَ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ ٦.

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ

---

١ ـ النحل ١٦/١٠ ـ ١١.
٢ ـ الرعد ١٣/٢ ـ ٤.
٣ ـ الملك ٦٧/٣.
٤ ـ الملك ٦٧/١٥.
٥ ـ الزمر ٣٩/٢١.
٦ ـ الروم ٣٠/٢٠ ـ ٢٢.

يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[١].

﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّيٰهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[٢].

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَ فِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٣].

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[٤].

﴿ وَ إِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[٥].

﴿ وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[٦].

ففي هذه الآيات أُشير إلى النظم و الربط الخاصّ بين الأرض و الإنسان، و بين الماء و الشجر و الزرع، و بينهما و بين الإنسان كما لايخفى على المتدبّر.

في خطبة خطبها أميرالمؤمنين عليه السلام تُعرف بخطبة الأشباح : ... فأقام من الأشياء أَوَدَها، و نَهَج حدودها، و لاءَمَ بقدرته بين متضادّها، و وَصَلَ أسباب قرائنها، و فرَّقَها أجناساً مختلفات في الحدود و الأقدار و الغرائز و الهيئات، بدايا خلائق أحكم صُنعها و فَطَرَها على ما أَرَاد و ابتدعها[٧].

و قال الصادق عليه السلام : يا مفضّل، أوّل العبر و الأدلّة على الباري جلّ قدسه تهيئة هذا العالم، و تأليف أجزائه، و نَظْمها على ما هي عليه؛ فإنّك إذا تأمّلت العالم بفكرك، و ميّزته بعقلك، وجدته كالبيت المبنيّ المُعدّ فيه جميع ما يحتاج إليه عباده،

---

١ ـ الزمر ٦/٣٩.
٢ ـ السجدة ٣٢/٧ ـ ٩.
٣ ـ فصّلت ٤١/٥٣.
٤ ـ القمر ٥٤/٤٩.
٥ ـ الحجر ١٥/٢١.
٦ ـ الحجر ١٥/١٩.
٧ ـ نهج البلاغة ١٢٧ الخطبة ٩١.

فالسماء مرفوعة كالسقف، و الأرض ممدودة كالبساط، و النجوم منضودة كالمصابيح، و الجواهر مخزونة كالذخائر، و كلّ شيء فيها لشأنه معدّ، و الإنسان كالمُمَلَّك ذلك البيت، و المخوّل جميعَ ما فيه، و ضروب النبات مهيّأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه و منافعه، ففي هذا دلالة واضحة على أنّ العالم مخلوق بتقدير و حكمة، و نظام و ملاءمة، و أنّ الخالق له واحد و هو الّذي ألّفه و نظمه بعضاً إلى بعض، جلّ و عظم عمّا ينتحله الملحدون [1].

التدبّر في السماوات و الأرض يؤدّي إلى الإقرار بوجوده تعالى

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ الَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَ الْأَرْضِ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [2].

﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَ أَنْهَاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [3].

﴿ وَ مِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَ مِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [4].

﴿ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِى

---

١ ـ بحار الأنوار ٣: ٦١.
٢ ـ البقرة ٢/١٦٤.
٣ ـ الرعد ١٣/٢ ـ ٣.
٤ ـ الروم ٣٠/٢٠ ـ ٢١.

جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[١].

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾[٢].

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾[٣].

﴿ وَ كَذَٰلِكَ نُرِىَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَاأُحِبُّ الْأَفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مَمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٤].

﴿ وَ فِى الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَ فِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[٥].

﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَ يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَىَّ ءَايَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ ﴾[٦].

﴿ وَ مِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[٧].

﴿ أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَآءِ وَ الْأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٨].

هناك روايات كثيرة دالّة على إثبات الصانع نذكر جملة منها:

---

١ ـ الزخرف ٤٣/٩ ـ ١٠.
٢ ـ الواقعة ٥٦/٥٧ ـ ٥٩.
٣ ـ الملك ٦٧/٣.
٤ ـ الأنعام ٦/٧٥ ـ ٧٩.
٥ ـ الذاريات ٥١/٢٠ ـ ٢١.
٦ ـ غافر ٤٠/٧٩ ـ ٨١.
٧ ـ الشورىٰ ٤٢/٣٢ ـ ٣٣.
٨ ـ النمل ٢٧/٦٤.

أميرالمؤمنين صلوات الله عليه قال : و لو فكّروا في عظيم القدرة، و جسيم النعمة، لَرجعوا إلى الطريق، و خافوا عذاب الحريق، و لكن القلوب عليلة، و البصائر مدخولة. ألاينظرون إلى صغير ما خَلَق، كيف أحكم خَلْقَه، و أتقن تركيبه، و فَلَق له السمعَ و البصر، و سوَّى له العَظم و البَشر؟ أُنظروا إلى النملة في صِغَر جُثّتها، و لطافة هيأتها، لاتَكاد تُنَال بلَحْظِ البصر، و لابمستدرك الفِكَر، كيف دَبّتْ على أرضها، و صُبّتْ على رزقها، تَنقلُ الحبّة إلى جُحْرِها، و تُعِدُّها في مستقرّها، تجمع في حَرّها لبردها، و في وردها لصدرها، مكفولة برزقها، مرزوقة بوفقها، لايُغْفلها المنّان، و لايَحْرمها الديّان، و لو في الصفا اليابس و الحَجَر الجامس ... الخطبة[١].

روي عن هشام بن الحكم أنّه قال : فكان من سؤال الزنديق [الّذي أتى أباعبدالله عليه السلام] أن قال : ما الدليل على صانع العالم ؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام : وجود الأفاعيل الّتي دلّت على أنّ صانعاً صنعها، ألا ترى أنّك إذا نظرت إلى بناء مشيّد مبنيّ، علمت أنّ له بانياً و إن كنت لم تَرَ الباني و لم تشاهده؟ قال: فما هو ؟ قال: هو شيء بخلاف الأشياء...[٢].

دخل أبو شاكر الدَّيصانيّ و هو زنديق على أبي عبد الله عليه السلام فقال له : يا جعفر بن محمّد، دُلّني على معبودي و لاتسألني عن اسمي، فقال له أبو عبد الله عليه السلام : إجلس، و إذا غلام له صغير في كفّه بيضة يلعب بها، فقال له أبو عبد الله عليه السلام : ناوِلني يا غلامُ البيضةَ، فناوله إيّاها، فقال له أبوعبدالله عليه السلام : يا ديصانيّ، هذا حِصن مكنون له جلد غليظ، و تحت الجلد الغليظ جلد رقيق، و تحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضّة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضّة الذائبة و لا الفضّة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة فهي على حالها، لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن صلاحها و لادخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها، لايدرى للذكر خلقت أم للأُنثى، تنفلق عن

---

١ ـ نهج البلاغة ٢٧٠ الخطبة ١٨٥.
٢ ـ الأصول من الكافي ١ : ٨٠ ـ ٨١.

مثل ألوان الطواويس، أترى لها مدبّراً؟ قال: فأطرق مليّاً ثمّ قال: أشـهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له و أنّ محمّداً عبده و رسوله و أنّك إمام و حجّة من الله على خلقه، و أنا تائب ممّا كنت فيه [١].

عن أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه‌السلام، إنّه دخل عليه رجل، فقال له : يا ابن رسول الله، ما الدليل على حدوث العالم ؟ فقال : أنت لم تكن ثـمّ كـنت، قـد علمتَ أنّك لم تكوّن نفسك و لاكوّنك مَن هو مثلك [٢].

هشام بن سالم قال : حضرتُ محمّد بن النعمان الأحول، فقام إليه رجل، فقال له : بِمَ عرفت ربّك؟ قال: بتوفيقه و إرشاده و تعريفه و هدايته. قال: فخرجتُ مـن عنده، فلقيت هشام بن الحكم فقلت : له ما أقول لمن يسألني، فيقول لي : بِمَ عرفتَ ربّك ؟ فقال : إن سأل سائل فقال : بِمَ عرفتَ ربّك ؟ قلت : عرفتُ الله جلّ جلاله بنفسي؛ لأنّها أقرب الأشياء إليّ... الحديث [٣].

قال الصادق عليه‌السلام للمفضّل : فإن قال قائل : و لِمَ صار بعض النجوم راتباً و بعضها منتقلاً؟ قلنا: إنّها لو كانت كلّها راتبة لبطلت الدلالات الّتي يستدلّ بـها مـن تـنقّل المنتقلة و مسيرها في كلّ برج من البروج، ـ إلى أن قال ـ ففي اخـتلاف سـيرها و تصرّفها و ما في ذلك من المآرب و المصلحة أَبيَنُ دليل على العَمد و التدبير فيها ... الحديث [٤].

و فيه أيضاً قال عليه‌السلام : لو اعتلّ هذا الفلك كما تعتلّ الآلات الّتي تُتّخذ للصناعات و غيرها، أيّ شيء كان عند الناس من الحيلة في إصلاحه؟ [٥]

---

١ ـ نفس المصدر ١ : ٧٩ ـ ٨٠.

٢ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١٣٤.

٣ ـ التوحيد للصدوق ٢٨٩.

٤ ـ بحار الأنوار ٣ : ١١٥.

٥ ـ نفس المصدر ٣ : ١١٧.

التدبّر في معالم الحياة يقود إلى التوجّه إلى الله سبحانه

أحدهما: ما يشير إلى حياة الإنسان بخصوصه، كقوله تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١].

﴿وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[٢].

﴿أَوَ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِ هَـٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[٣].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[٤].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَىٰ﴾[٥].

﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَارَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦].

﴿خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * **ـ إلى قوله تعالى ـ** لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[٧]

زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: الحياة و الموت خلقان من خلق الله، فإذا جاء الموت فدخل في الإنسان لم يدخل في شيء إلّا و قد خرجت منه الحياة[٨].

---

١ ـ البقرة ٢/٢٨.

٢ ـ الحجّ ٢٢/٦٦.

٣ ـ البقرة ٢/٢٥٩.

٤ ـ يس ٣٦/٧٨ ـ ٧٩.

٥ ـ القيامة ٧٥/٣٧ ـ ٤٠.

٦ ـ الجاثية ٤٥/٢٦.

٧ ـ النحل ١٦/٣ ـ ٢٣.

٨ ـ الفروع من الكافي ٣: ٢٥٩.

محمّد بن عمر بن عبد العزيز عمّن سمع الحسن بن محمّد النوفليّ عن الرضا عليه السلام قال:... إنّ قوماً من بني إسرائيل خرجوا من بلادهم من الطاعون و هم ألوف حذرَ الموت، فأماتهم الله في ساعة واحدة، فعمد أهل تلك القرية فحظروا عليهم حظيرة، فلم يزالوا فيها حتّى نخرت عظامهم فصاروا رميماً، فمرّ بهم نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، فتعجّب منهم و من كثرة العظام البالية، فأوحى الله عزّ و جلّ إليه: أتحبّ أن أُحييهم لك فتنذرهم؟ قال: نعم يا ربّ، فأوحى الله عزّ و جلّ إليه: أن نادِهم، فقال: أيّتها العظام البالية، قُومي بإذن الله عزّ و جلّ، فقاموا أحياءً أجمعون ينفضون التراب عن رؤوسهم ... الحديث[1].

الحلبيّ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء أُبيّ بن خَلَف فأخذ عظماً بالياً من حائط ففتّه ثمّ قال: يا محمّد، إذا كنّا عظاماً و رفاتاً أإنّا لمبعوثون خلقاً؟ فأنزل الله ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[2].

قال الإمام العسكريّ أبو محمّد عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لِكفّار قريش و اليهود: ﴿كيف تكفرون بالله﴾ الّذي دلّكم على طريق الهدىٰ، و جنّبكم إن أطعتموه سُبل الردى، ﴿و كنتم أمواتاً﴾ في أصلاب آبائكم و أرحام أُمّهاتكم، ﴿فأحياكم﴾ أخرجكم أحياء، ﴿ثمّ يميتكم﴾ في هذه الدنيا و يقبركم، ﴿ثمّ يحييكم﴾ في القبور، و ينعّم فيها المؤمنين بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله و ولاية عليّ عليه السلام، و يعذّب الكافرين بهما، ﴿ثمّ إليه ترجعون﴾ في الآخرة بأن تموتوا في القبور بعد، ثمّ تُحيَوا للبعث يوم القيامة ... الحديث[3].

ثانيهما: ما يرمز إلى مطلق الحياة و الخلقة، كقوله تعالى:

١ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١٦٠.

٢ ـ تفسير الصافي ٢ : ٤١٧، و الآيتان في سورة يس ٣٦/٧٨ ـ ٧٩.

٣ ـ التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام ٢١٠، و الآية في سورة البقرة ٢/٢٨.

﴿يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَ يُحْىِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [1].

﴿وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [2].

﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِ وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [3].

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [4].

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِ وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [5].

﴿وَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [6].

﴿وَ ءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [7].

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَّايَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [8].

من وصيّة عليّ بن أبي طالب عليه السلام للحسن بن عليّ عليه السلام : ... و اعلمْ أنّ مالِك الموت هو مالك الحياة، و أنّ الخالق هو المُميت، و أنّ المُفني هو المعيد، و أنّ المُبتلي هو المُعافي... [9].

في خبرٍ مَن أتى أميرَالمؤمنين عليه السلام مدّعياً للتناقض في القرآن، قال عليه السلام : و إنّما يكفيك أن تعلم أنّ الله المحيي المميت، و أنّه يتوفّى الأنفس على يدَي من يشاء من خلقه من ملائكته و غيرهم... [10].

مروان بن مسلم قال : دخل ابن أبي العوجاء على أبي عبد الله عليه السلام ، فقال : أليس

---

١ ـ الروم ٣٠/١٩.
٢ ـ الروم ٣٠/٢٤.
٣ ـ الدخان ٤٤/٨.
٤ ـ الروم ٣٠/٥٠.
٥ ـ الحديد ٥٧/٢.
٦ ـ البقرة ٢/١٦٤.
٧ ـ يس ٣٦/٣٣ ـ ٣٥.
٨ ـ النحل ١٦/١٧.
٩ ـ نهج البلاغة ٣٩٥ الوصيّة ٣١.
١٠ ـ التوحيد للصدوق ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

تزعم أنّ الله خالق كلّ شيء ؟! فقال أبوعبدالله عليه السلام : بلى، فقال: أنا أخلق، فقال عليه السلام له: كيف تخلق؟ قال: أُحدِث في الموضع ثمّ ألبث عنه فيصير دوابّ، فأكون أنا الّذي خلقتها! فقال أبوعبدالله عليه السلام : أليس خالق الشيء يعرف كم خَلْقُه؟ قال: بلى، قال: فتعرف الذكر منها من الأُنثى، و تعرف كم عمرها؟ فسكت[1].

تنبيه في الفطرة و البراهين

لايخفى أنّ الاعتراف به تعالى و إن كان فطريّاً للانسان، لكنّه يمكن أن يوجد المانع فتصير العادة و الطبيعة الثانوية مانعة عن الإقرار به تعالى، فيحصل للإنسان ما يوجب الغفلة و نسيان خالقه.

و للغفلة و النسيان أسباب كثيرة، عُمدتها: التمادي في الذنوب و عصيان العقل، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوٓأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِأَيَاتِ اللهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[2].

و من أسباب ذلك: تقليد الآباء و الرؤساء، و متابعة أرباب الهوى، و التبعيّة لآمال النفس الأمّارة، و مشاهدة الخرافات من بعض المعتقدين بالله المغرورين بأنفسهم الغارّين لغيرهم، و ما يُرى من أرباب الكنيسة و أمثالهم من علماء السوء المنتحلين للدين و لا دين لهم.

و لكنّنا نرى أنّ المنكرين مع إنكارهم باللسان يتوجّهون بقلوبهم إلى المبدأ الأعلى الكامل الّذي هو فوق كلّ شيء، و يطلبون منه نجاة البشر من كيد الغافلين المغرورين الصادّين عن سبيل الحقّ.

و قد عرفت فيما تقدّم أنّ الآيات الّتي تكون مذكِّرة بما تدلّ عليه الفطرة الإنسانية، دلّت على أنّ الاعتراف به تعالى جِبِلّيّ للإنسان، و أنّ المخلوق لابدّ له

---

١ ـ نفس المصدر ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

٢ ـ الروم ٣٠/١٠.

من الارتباط بينه و بين خالقه بفطرته، و تكون الفطرة هي أساس الإقرار به تعالى و الاعتراف بوجوده و كماله.

و لابأس بالإشارة إلى براهين أُخرى تكون موجبة لإيقاظ الفطرة و باعثة على توجّه الإنسان إلى فطرته و مقوّية لأُنسه و علاقته بربّه.

من تلك البراهين: برهان العناية، و نعني به : وجود كلّ شيء في موضع مناسب له، و حركة كلّ موجود نحو الكمال و الهدف المعيّن له، فإنّا إذا نظرنا في الحيوان والنبات رأينا أنّ كلّ شيء منها ذو نظم خاصّ في التوليد و في الثمرات المترتبة عليه، فهُدِينا إلى أنّ هناك عالماً حكيماً قادراً يهدي كلّ شيء إلى ما هو الصالح له، مثل ما قال تعالى ﴿الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١].

و من تلك البراهين: برهان النظم، و نعني به : الربط المخصوص بين الأُمور المختلفة، الحاكي عن صانع قادر حكيم أوجد ذلك الربط؛ فإنّ مشاهدة النظم بين الموجودات بأسرها ـ منضمّاً إلى أنّ النظم بغير ناظم غير معقول ـ توصّلنا إلى أنّ هذا العالم له ناظم ذو قدرة و إرادة بلاانتهاء، كما قال تعالى ﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[٢].

و من تلك البراهين: برهان الحدوث، فإنّه من البديهي أنّ كلّ ما نجده حولنا وفي أنفسنا، كان مسبوقاً بالعدم، و أنّه حدث بعد ما لم يكن، و سيَفنى بعد ما وُجد. و ما هو هذا حاله و وصفه لايصلح إلّا أن يكون له صانع و خالق ليس مثله. و ما هو هذه صفته لا يصلح للإلهيّة و البقاء أزلاً و أبداً، فلابدّ أن يكون الذي يوجده و يفنيه ليس فيه هذه الأوصاف المحدثة و الفانية، و هو الله. و إلى هذا أشار إبراهيم خليل الله في ما استدلّ على أنّ الشمس و القمر و النجوم بما أنّها آفلات لاتصلح للإلهيّة،

---

١ ـ طه ٢٠/٥٠.

٢ ـ الفرقان ٢٥/٢.

فتبرّأ منها و قال: لا أُحبّ الآفلين ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ مَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

و قد أشار أميرالمؤمنين عليه السلام في كلامه إلى هذا البرهان و فصّله بأحسن بيان، قال عليه السلام: الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه، و بمُحدَث خلقه على أزليّته، وباشتباههم على أن لاشَبَهَ له، لا تَستَلِمُه المشاعر، و لا تَحجُبُه السَّواتر؛ لافتراق الصانع و المصنوع، و الحادّ والمحدود، و الربّ و المربوب، الأحد لابتأويل عدد... الخطبة[٢].

و من تلك البراهين: برهان الوجوب و الإمكان؛ فإنّ كلّ موجود بما أنّه ممكن لابدّ أن ينتهي إلى ما به يوجد. فلو لم يكن هناك من يقوم بذاته المعبّر عنه بالواجب الوجود لزم أن يكون الموجود موجوداً إمّا بغير علّة أو موجوداً بعلّة مثله، وكلاهما محال.

و لايخفى أنّ التوجّه إلى الفطرة و إيقاظها أمر ممكن لكلّ إنسان. و أمّا البراهين العقلية فهي تختصّ بقوم مخصوصين مع أنّها لاتفيد ما لم‌تكن موجبة للتنبيه على الفطرة، كما لا يخفى.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: ... فبَعَثَ فيهم رُسُلَه، و وَاتَر إليهم أنبياءَه؛ لِيَستَأدُوهم ميثاقَ فِطرته، و يُذَكِّرُوهم مَنسِيَّ نعمتِه، و يَحتَجّوا عليهم بالتبليغ، و يُثِيروا لهم دفائن العقول... الخطبة[٣].

إنّ الانسان إذا توجّه إلى نفسه و تفكّر في جسمه و حالاته، ثمّ تفكّر في العالم الّذي هو جزء منه و أنصف في نفسه، فهناك تستيقظ فطرته و يقول ﴿أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾[٤]، و هو يُجير و لايجار عليه.

١ ـ الأنعام ٦/٧٩.
٢ ـ نهج البلاغة ٢١١ ـ ٢١٢ الخطبة ١٥٢.
٣ ـ نفس المصدر ٤٣ الخطبة ١.
٤ ـ إبراهيم ١٤/١٠.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ [1].

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ ﴾ [2].

﴿وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَـٰذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى مَا ذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [3].

﴿وَ كَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَاأُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لَاأَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَآءَ رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً أَفَلَاتَتَذَكَّرُونَ ﴾ [4].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَ اللهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [5].

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَاتَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى

---

١ ـ الواقعة ٥٦/٥٨ ـ ٥٩.
٢ ـ الطور ٥٢/٣٥ ـ ٣٦.
٣ ـ لقمان ٣١/١٠ ـ ١١.
٤ ـ الأنعام ٦/٧٥ ـ ٨٠.
٥ ـ البقرة ٢/٢٥٨.

الْكَاذِبِينَ﴾[١].

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَايَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ * وَ لَايَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾[٢].

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَاتَتَّقُونَ﴾[٣].

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَايَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٤].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٥].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَايَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ﴾[٦].

﴿أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٧].

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَايَخْلُقُ أَفَلَاتَذَكَّرُونَ﴾[٨].

هذه الآيات و أمثالها ظاهرة في أنّ المُنكِر لابدّ له من الاعتراف به تعالى بعد وقوع المجادلة الحسنة معه، فإنّ في القرآن و الأخبار تقديراً لوجود الله تعالى بطرق مختلفة، و من بينها الفطرة و طريق النظر إلى المخلوقات و نظام الخلقة، و قد اعتُمد على هذين الطريقين كثيراً، لأنّهما أشمل و أسهل و أكثر قناعاً من سائر الطرق.

---

١ ـ آل عمران ٣/٥٩ ـ ٦١.
٢ ـ الأعراف ٧/١٩١ ـ ١٩٢.
٣ ـ يونس ١٠/٣١.
٤ ـ يونس ١٠/٣٤ ـ ٣٥.
٥ ـ يونس ١٠/٣٨.
٦ ـ الحجّ ٢٢/٧٣.
٧ ـ النحل ١٦/١٢٥.
٨ ـ النحل ١٦/١٧.

عن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أدعو الناس إلى حبّك بما في يدي؟ فقال لا، قلت إن استرشدني أحد أُرشده؟ قال: نعم، إن أسترشَدك فأرشده، فإن استزادك فزِدْه، فإن جاحَدَكَ فَجَاحِدْه[١].

قال أبومحمّد الحسن بن عليّ العسكريّ عليه السلام: ذُكر عند الصادق عليه السلام الجدال في الدين و أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله و الأئمّة المعصومين عليهم السلام قد نَهوا عنه، فقال الصادق عليه السلام: لم يَنْهَ عنه مطلقاً لكنّه نهى عن الجدال بغير الّتي هي أحسن، أمَا تسمعون الله يقول ﴿وَ لَاتُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢]، و قوله تعالى: ﴿أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٣]؛ فالجدال بالّتي هي أحسن قد قَرَنه العلماء بالدين، و الجدال بغير الّتي هي أحسن محرّم حرّمه الله تعالى على شيعتنا و كيف يحرّم الله الجدال جملة و هو يقول ﴿وَ قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤]. فجعل الله علم الصدق و الإيمان بالبرهان، و هل يؤتى ببرهان إلاّ بالجدال بالّتي هي أحسن؟!

قيل: يا ابن رسول الله، فما الجدال بالّتي هي أحسن و التي ليست بأحسن؟ قال: أمّا الجدال بغير التي هي أحسن فأن تجادل مُبطِلاً فيورد عليك باطلاً فلاتردّه بحجّة قد نصبها الله تعالى و لكن تجحد قوله أو تجحد حقّاً، يريد بذلك المبطل أن يعين به باطله فتجحد ذلك الحقّ مخافة أن يكون عليك فيه حجّة، لأنّك لاتدري كيف المَخلص منه، فذلك حرام على شيعتنا، أن يصيروا فتنة على ضعفاء إخوانهم وعلى المبطلين. أما المبطلون فيجعلون ضعف الضعيف منكم إذا تعاطى مجادلته وضعف في يده حجةً له على باطله، و أمّا الضعفاء منكم فتغَمّ قلوبهم لِما يَرَون من ضعف المحقّ في يد المبطل. و أمّا الجدال بالّتي هي أحسن فهو ما أمر الله تعالى به نبيّه أن يجادل مَن جَحدَ البعث بعد الموت و إحياءه له، فقال الله له حاكياً عنه:

---

١ ـ المحاسن ٢٣٢.
٢ ـ العنكبوت ٤٦/٢٩.
٣ ـ النحل ١٢٥/١٦.
٤ ـ البقرة ١١١/٢.

﴿وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ﴾[١]، إلى آخر الحديث بطوله[٢].

و لابأس بذكر ما تُذمّ فيه المجادلة بغير حسن و ينهى عن التماري :

قال النبيّ ﷺ : لا يستكمل عبدٌ حقيقةَ الايمان حتّى يَدَع المِراء و إن كان مُحِقّاً[٣].

قال الصادق عليه السلام : المِراء داء دَويّ و ليس في الإنسان خصلة شرّ منه و هو خُلق إبليس و نِسبته، فلايماری في أيّ حال كان إلّا من كان جاهلاً بنفسه و بغيره، محروماً من حقائق الدين[٤].

في وصيّة أميرالمؤمنين عند وفاته: دَعْ المُماراةَ و مجازاة من لا عقل له و لا علم [٥].

قال الرضا عليه السلام : لا تُمَارِيَنّ العلماء فيرفضوك، و لاتمارينّ السفهاء فيجهلوا عليك[٦].

قال الحسين بن عليّ عليه السلام لابن عباس: ...لاتَكَلّمن فيما لا يعنيك حتّى ترى للكلام موضعاً، فربَّ متكلّم قد تكلّم بالحق فعِيب، و لاتمارينّ حليماً و لا سفيهاً، فإنّ الحليم يَقليك، و السفيه يُرديك ... الحديث [٧].

و في نهج البلاغة : مَن ضنَّ بعِرضه فَلْيَدَعِ المِراء[٨].

١ ـ يس ٣٦/٧٨.

٢ ـ الاحتجاج ٢١.

٣ ـ منية المريد ٧١.

٤ ـ نفس المصدر و الموضع.

٥ ـ أمالي الشيخ الطوسيّ ١ : ٧.

٦ ـ الاختصاص ٢٤٥.

٧ ـ كنز الفوائد ٢ : ٣٢.

٨ ـ نهج البلاغة ٥٣٨ الحكمة ٣٦٢.

الأصل الأوّل
التوحيد

الباب الأوّل
توحيده تعالى

إنّ الآيات الدالة على توحيده تعالى تقرب من ألف آية. أو تزيد و هي تدلّ بالمطابقة و التضمّن و الالتزام على ذلك، و إن كانت الآيات الدالّة على أصل وجوده تقرب من مائتين.

و السرّ في ذلك واضح، بداهةَ أنّ منكري وجوده تعالى أصلاً قليل جدّاً، فإنّ أصل وجوده و ثبوته فطريّ لكلّ أحد، و يدلّ عليه نظام الخلق و الخلقة، و قد تعرض لهذين الطريقين في هذا المقام. و أمّا توحيده تعالى فليس بهذه المثابة من الوضوح، ذلك أنّ الأنبياء وظيفتهم إصلاح العقائد غالباً، و رفع اشتباه الناس في التطبيق و إثبات توحيده، و لذلك يكون همّهم مصروفاً إلى هذه الناحية.

الفصل الأوّل
مراحل التوحيد

اعلم أنّ للتوحيد مراحل أربعاً :

أحدها : نفي الشريك في الإلهيّة، أي استحقاق العبادة. و المخالف في ذلك هم المشركون و أضرابهم، فإنّهم بعد علمهم بأنّ صانع العالم واحد كانوا يشركون الأصنام في عبادته.

ثانيها : نفي الشريك في صانعيّة العالَم، و المخالف في ذلك الثّنويّة و أضرابهم.

ثالثها: ما يشتمل على المعنيَين و تنزيهه تعالى عمّا لا يليق بذاته و صفاته من النقص و العجز و الجهل و التركيب و الاحتياج .

رابعها: ما يشتمل على تلك المعاني و تنزيهه عمّا يوجب النقص في أفعاله من الظلم و ترك اللطف، و بالجملة كلّ ما يتعلّق به تعالى ذاتاً و فعلاً، نفياً و اثباتاً.

و إليك الآيات الدالّة على التوحيد بمراحله الأربع:

فممّا يدلّ على التوحيد بالمرحلة الأُولى (أي استحقاق العبادة له فقط) قوله تعالى :

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لَاأَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ

مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[١].

﴿وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[٢]

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَ لَاأُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَـَابِ﴾[٣].

﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَاأَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[٤].

﴿وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٥].

﴿وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[٦].

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَايَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَ لَانَفْعاً﴾[٧].

﴿وَ مَآ أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـٰهاً وَاحِداً لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٨].

﴿وَ لَاتَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[٩].

﴿وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ لَابُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾[١٠].

و ممّا يدلّ على التوحيد بالمرحلة الثانية قوله تبارك و تعالى:

﴿وَ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ﴾[١١].

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَاإِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١٢].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١٣].

---

١ ـ الأنعام ٥٦/٦.
٢ ـ الأحقاف ٥/٤٦.
٣ ـ الرعد ٣٦/١٣.
٤ ـ يونس ١٠٤/١٠.
٥ ـ البيّنة ٥/٩٨.
٦ ـ الإسراء ٢٣/١٧.
٧ ـ المائدة ٧٦/٥.
٨ ـ التوبة ٣١/٩.
٩ ـ القصص ٨٨/٢٨.
١٠ ـ المؤمنون ١١٧/٢٣.
١١ ـ البقرة ١٦٣/٢.
١٢ ـ آل عمران ١٨/٣.
١٣ ـ المائدة ٧٣/٥.

﴿بَدِيعُ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صَـاحِبَةٌ وَ خَـلَقَ كُـلَّ شَيْءٍ﴾[١].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ ﴾[٢].

﴿ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَاإِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[٣].

﴿وَ قَالَ اللهُ لَاتَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[٤].

و ممّا يدلّ على التوحيد بالمرحلة الثالثة و الرابعة قوله تبارك و تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُـخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَـيَقُولُونَ اللهُ فَـقُلْ أَفَـلَا تَتَّقُونَ﴾[٥].

﴿ وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[٦]

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[٧].

﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٨].

إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أنّه تعالى لايظلم العباد، و لا يَضيع عنده عمل عامل، و أنّ خالق العالم و صانع الموجودات واحد، و أنّ الرزق و الخير بيده دون غيره، و أنّه عالم الغيب لايعزب عن علمه مثقال ذرّة، و أنّ الأمـر و النـهي، والوعد و الوعيد، و الحشر و النشر له تعالى، لا مؤثّر في الوجود غيره .

أشار أميرالمؤمنين ﷺ في خطبة إلى توحيده تعالى بالمعاني المتقدمة، و أشار

---

١ ـ الأنعام ١٠١/٦.
٢ ـ النمل ٦٠/٢٧.
٣ ـ الأنعام ١٠٢/٦.
٤ ـ النحل ٥١/١٦.
٥ ـ يونس ٣١/١٠.
٦ ـ فصّلت ٤٦/٤١.
٧ ـ الأنبياء ٢٢/٢١.
٨ ـ المؤمنون ٩١/٢٣.

إلى التوحيد بالمعنى الثاني ـ أي نفي الشريك في صانعيّة العالم ـ فيما أوصى إلى ابنه الحسن عليهما السلام :... و اعلَم يا بُنيّ، أنّه لو كان لربّك شريك لأَتَتك رسله، و لرأيتَ آثار ملكه وسلطانه، و لَعرَفتَ أفعاله و صفاته، و لكنّه إله واحد كما وصف نفسه، لايضادّه في مُلكه أحد، و لايَزُول أبداً و لميَزَل، أوّل قبل الأشياء بلاأوّليّة، و آخر بعد الأشياء بلانهاية، عَظُم عن أن تَثْبُت ربوبيّة بإحاطة قلب أو بَصَر، فإذا عَرَفتَ ذلك فَافْعَل كما ينبغي لِمِثلك أن يَفعَله في صِغَرِ خَطَرِه، و قِلّة مَقْدِرته، و كَثْرة عجزه، و عظيم حاجته إلى ربّه، في طلب طاعته، و الخشية من عقوبته، و الشفقة من سُخْطه، فإنّه لميَأْمرك إلّا بحَسَن، و لميَنْهَكَ إلّا عن قبيح...[١].

إنّ أعرابيّاً قام يوم الجمل إلى أميرالمؤمنين عليه السلام، فقال : يا أميرالمؤمنين، أتقول أنّ الله واحد؟ قال : فحمل الناس عليه، و قالوا : يا أعرابيّ، أما ترى ما فيه أميرالمؤمنين من تقسّم القلب؟ فقال أميرالمؤمنين عليه السلام : دَعُوه، فإنّ الّذي يريده الأعرابيّ هو الّذي نريده من القوم، ثمّ قال : يا أعرابيّ، إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لايجوزان على الله عزّ و جلّ، و وجهان يثبتان فيه، فأمّا اللّذان لايجوزان عليه فقول القائل: واحد، يَقصُد به باب الأعداد فهذا ما لايجوز؛ لأنّ ما لاثاني له لايدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفّر من قال: ثالث ثلاثة. و قول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لايجوز عليه لأنّه تشبيه، و جلّ ربّنا عن ذلك و تعالى. و أمّا الوجهان اللّذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شِبه كذلك ربّنا، وقول القائل: إنّه عزّ و جلّ أحديّ المعنى، يعني به أنّه لاينقسم في وجود و لاعقل و لاوهم، كذلك ربّنا عزّوجلّ[٢].

عن جابر بن يزيد، قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من التوحيد، فقال : إنّ

---

١ ـ نهج البلاغة ٣٩٦ الوصيّة ٣١.

٢ ـ التوحيد للصدوق ٨٣ ـ ٨٤.

الله عزّوجلّ ـ تباركت أسماؤه الّتي يُدعى بها و تعالى في علوّ كنهه ـ واحد، توحَّد بالتوحيد في علوّ توحيده، ثمّ أجراه على خلقه فهو واحد، صمد، قدّوس، يعبده كلّ شيء و يصمد إليه كلّ شيء و وسع كلّ شيء علماً [١].

عن فضل بن شاذان، قال : سأل رجلٌ من الثنويّة أباالحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام و أنا حاضر، فقال له : إنّي أقول : إنّ صانع العالم اثنان، فما الدليل على أنّه واحد ؟ فقال عليه السلام : قولك : إنّه اثنان، دليل على أنّه واحد ؛ لأنّك لم تَدّع الثاني إلّابعد إثباتك الواحد، فالواحد مُجمَع عليه و أكثر من واحد مُختلَف فيه [٢].

هشام بن الحكم قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : ما الدليل على أنّ الله واحد؟ قال: اتّصال التدبير و تمام الصنع، كما قال عزّوجلّ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَآلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ ... الخبر [٣].

عن ابن عبّاس قال : جاء أعرابيّ إلى النبيّ صلى الله عليه و آله فقال : يا رسول الله، عَلّمني مِن غرائب العلم. قال: ما صنعت في رأس العلم حتّى تسأل عن غرائبه ؟ قال الرجل : ما رأس العلم يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه و آله : معرفة الله حقّ معرفته. قال الأعرابيّ : و ما معرفة الله حقّ معرفته؟ قال صلى الله عليه و آله : تعرفه بلامِثل و لاشِبه و لانِدّ، و أنّه واحد، أحد، ظاهر، باطن، أوّل، آخر، لاكفوَ له و لانظير، فذلك حقّ معرفته [٤].

الفصل الثاني
الآثار الاجتماعيّة و الفرديّة للاعتقاد بالتوحيد

لم تَزَل الدعوة الإلهيّة تخاصم الوثنيّة و تدعو إلى التوحيد، كما ذكر تعالى في كتابه من دعوة الأنبياء و الرسل. و قد أجمل القول في ذلك بقوله ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِىَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1].

و قد بدأ النبيّ ﷺ دعوته العامّة إلى التوحيد بالحكمة و الموعظة الحسنة و الجدال بالّتي هي أحسن، فلم يجيبوه إلّا بالاستهزاء و الأذى و تعذيب مَن آمن به. ثمّ مكروا لقتله فهاجر إلى المدينة، و لم يلبثوا حتّى واجهوه بالقتال، فقاتلوه في مواطن كثيرة، حتّى أظهره الله تعالى عليهم بفتح مكّة، فطهّر البيت و الحرم من الشرك. و الإسلام شديد العناية بالتوحيد و حسم مادّة الشرك، و ذلك مشهور فيما ندب إليه من المعارف الأصليّة و الأخلاق الكريمة، فترى أنّه يعدّ الاعتقاد الحقّ ﴿اللهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[2]. و هو سبحانه يملك كلّ شيء، و له الوجود الأصيل و يستقلّ بذاته، و هو الغنيّ يحتاج إليه كلّ شيء، و إليه يعود و منه يبتدئ، فمَن أسند إلى شيء شيئاً من الاستقلال فهو مشرك مائل عن التوحيد.

و تراه يأمر بالتوكل عليه و الثقة به، و الدخول تحت ولايته، و الحبّ في الله،

---

١ ـ الأنبياء ٢١/٢٥.   ٢ ـ طه ٢٠/٨.

و البغض في الله، و إخلاص العمل لله، و ينهى عن الاعتماد على غيرالله، و الركونِ إلى غيره، و الاطمئنان إلى الأسباب الظاهرة، و رجاءِ مَن دونَه، و العُجبِ و الكِبر... إلى غير ذلك ممّا يوجب اعطاء الاستقلال لغيره تعالى، و الشرك به.

و تراه ينهى عن السجود لغيرالله، و عن اتّخاذ التماثيل، و عن طاعة غيرالله والإصغاء إليه فيما يأمر و ينهى إلّا ما رجع إلى طاعته، كطاعة الأنبياء و الأئمّة.

و في الأخبار المأثورة عن النبيّ و الوصيّ أنّ الشرك ينقسم إلى جليّ و خفيّ، ولا يسلم من جميعها إلّا المخلَصون، و أنّه أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء.

و كذا في سيرة النبيّ ﷺ أنّه كان يسوّي بين الناس في إجراء الأحكام والحدود، ويساوي بين طبقات المجتمع كالخادم و المخدوم و الغنيّ و الفقير، فلاكرامة و لا فخر ولا تحكّم لأحد على أحد إلّا كرامة التقوى، والحساب إلى الله. و كان يقسم بالسويّة، وينهى عن تظاهر القويّ بقوّته لينكسر قلب الضعيف و كان يعيش كواحدٍ من الناس، لا يتعالى عليهم في مأكل أو مشرب أو ملبس أو مجلس. وكذا الأئمّة الهادون من بعده ساروا بسيرته؛ كلّ ذلك من جهة توغّلهم في التوحيد ورفض ماسواه تعالى في جنبه.

و من آثار التوحيد

الاتّحاد و الارتباط بين الشعوب؛ فإنّه إذا كان خالق الموجودات بأجمعها واحداً و رِزقُهم عليه و هو يوصل فيضه إليهم برمّتهم فيكون هو الهدف و المبدأ، ولابدّ أن يرجع إليه كلّ شيء، و حينئذ كان اللازم على جميع الناس أن يجعلوه ربّاً وهدفاً و مقصداً وملجأً و منجئً يتعبّدون إليه دون غيره، كما قال تعالى:

﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾[١].

﴿وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٢]

﴿وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[٣].

و منها: العدالة و المساواة، إذ إنّ القدرة و الصنع و المُلك و الرزق و الحياة والممات له تعالى فقط و العباد كلّهم عيال له، كقوله تعالى:

﴿اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَىْءٍ﴾[٤].

﴿مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[٥].

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٦].

﴿وَ مَا رَبُّكَ بِظَـلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[٧].

﴿اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَ السَّمَآءَ بِنَآءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٨]

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٩].

و منها: حرّية الفكر و الاجتماع، و عدم الخشية إلّا منه، و عدم الاعتماد إلّا عليه، وتفويض الأُمور إليه دون غيره كقوله تعالى:

﴿وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾[١٠].

---

١ ـ الحجّ ٢٢/٣٤.
٢ ـ البيّنة ٩٨/٥.
٣ ـ الإسراء ١٧/٢٣.
٤ ـ الروم ٣٠/٤٠.
٥ ـ الملك ٦٧/٣.
٦ ـ الزمر ٣٩/٤.
٧ ـ فصّلت ٤١/٤٦.
٨ ـ غافر ٤٠/٦٤.
٩ ـ المائدة ٥/١٢٠.
١٠ ـ الطلاق ٦٥/٢ ـ ٣.

﴿وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [١].

و منها : العمل بالتكليف و علوّ الهمّة، و إيثار الغير على النفس، و العفو عن الناس، وكثير من الأخلاق الجميلة، و التخلّي عن الرذائل، وفّقنا الله تعالى لتحصيل هذه الخصال الحميدة، كقوله تعالى :

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [٢].

﴿وَ أَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً﴾ [٣].

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [٤].

في النهج، قال عليه السلام : ... فلا شيء إلّا الله الواحد القهّار الّذي إليه مصير جميع الأُمور، بلا قدرة منها كان ابتداءُ خَلقِها، و بغير امتناع منها كان فناؤها، و لو قَدَرَتْ على الامتناع لَدَامَ بقاؤها لم يَتكأّده صُنع شيء منها إذ صَنَعَه، و لم‌يَؤُدْه منها خَلقُ ما خلقه و بَرَأَه... الخطبة [٥].

عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال في الربوبيّة العظمى و الإلهيّة الكبرى : لايكون الشيء لا من شيء إلّا الله، و لاينقل الشيء من جوهريّته إلى جوهر آخر إلّا الله، و لاينقل الشيء من الوجود إلى العدم إلّا الله [٦].

مروان بن مسلم، قال : دخل ابن أبي العوجاء على أبي عبدالله عليه السلام، فقال : أليس تزعم أنّ الله خالق كلّ شيء ؟! فقال أبو عبدالله عليه السلام : بلى، فقال : أنا أخلُق، فقال عليه السلام له : كيف تخلق؟ فقال : أُحدث في الموضع ثمّ ألبث عنه فيصير دوابّ، فأكون أنا

---

١ ـ التوبة ٩/٥٩.
٢ ـ المدثّر ٧٤/٣٨.
٣ ـ المزّمّل ٧٣/٢٠.
٤ ـ آل عمران ٣/١٣٤ ـ ١٣٥.
٥ ـ نهج البلاغة ٢٧٦ الخطبة ١٨٦.
٦ ـ التوحيد للصدوق ٦٨.

الّذي خلقتها! فقال أبو عبدالله عليه السلام: أليس خالق الشيء يعرف كم خلقُه؟ قال: بلى، قال: فتعرف الذكر منها من الأنثى، و تعرف كم عمرها؟ فسكت[١].

أبو هاشم الجعفريّ، قال: قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحد﴾، ما معنى الأحد؟ قال المُجْمع عليه بالوحدانيّة، أما سمعته يقول ﴿وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتَ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾؟! ثمّ يقولون بعد ذلك: له شريك و صاحبة![٢]

جعفر بن محمّد عن آبائه عن أميرالمؤمنين عليهم السلام، قال: علّمني رسول الله صلى الله عليه و آله، هذا الدعاء و ذكر له فضلاً كثيراً: الحمد لله الّذي لا إله إلّاهو الملك المبين المدبّر بلاوزير، و لا خَلقٍ من عباده يستشير، الأوّل غير مصروف، و الباقي بعد فناء الخلق، العظيم الربوبيّة، نور السماوات و الأرضين و فاطرهما و مبتدعهما بغير عمد، خَلَقهما و فَتَقهما فتقاً فقامت السماوات طائعات بأمره، و استقرّت الأرضون بأوتادها فوق الماء، ثمّ علا ربّنا في السماوات العلىٰ، الرحمٰن على العرش استوى، له ما في السماوات و ما في الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى... الدعاء[٣].

ابن أبي عُمَير، قال: قال موسى بن جعفر عليه السلام: ... هو الأوّل الّذي لاشيء قبله، والآخر الّذي لاشيء بعده، و هو القديم و ما سواه مخلوق مُحدَث، تعالى عن صفات المخلوقين علوّاً كبيراً[٤].

سئل أبوالحسن عليّ بن محمّد عليهما السلام عن التوحيد، فقيل له: لم يَزَل الله وحده لاشيء معه ثمّ خلق الأشياء بديعاً، و اختار لنفسه أحسن الأسماء، و لم تزل الأسماء و الحروف معه قديمة؟ فكتب: لم يزل الله موجوداً، ثمّ كوّن ما أراد[٥].

---

١ ـ نفس المصدر ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

٢ ـ الاحتجاج ٤٤١ ـ ٤٤٢، و الآية الأولى في سورة الإخلاص ١١٢/١ و الثانية في العنكبوت ٢٩/٦١.

٣ ـ مُهَج الدعوات و منهج العبادات ١٢٤.

٤ ـ التوحيد للصدوق ٧٦ ـ ٧٧.

٥ ـ الاحتجاج ٤٤٩.

من خطبة لأميرالمؤمنين عليه السلام: الحمد لله الّذي لاتُدركه الشـواهـد، و لاتَـحويه المشاهد، و لاتَرَاه النواظر، و لاتَحْجُبه السواتر، الدالّ على قِدَمه بـحدوث خـلقه، وبحدوث خلقه على وجوده، و باشتباههم على أن لاشَـبَهَ له. الّـذي صَـدَقَ فـي ميعاده، و ارتَفَعَ عن ظُلم عباده، و قام بالقسط في خلقه، و عَدَل عليهم في حُكْمه. مُستشهِد بحدوث الأشياء على أزليّته، و بما وَسَمَها به من العَجْز على قدرته، و بما اضْطَرَّها إليه من الفناء على دوامه. واحدٌ لابعَدَد، و دائم لابِأَمَد، و قـائم لابِـعَمَد، تتلقّاه الأذهان لابِمُشَاعَرَة، و تَشْهد له المَرائي لابمُحَاضَرَة، لم تُحِط به الأوهام، بل تَجَلَّى لها بها، و بها امتنع منها، و إليها حاكَمَها... الخطبة[١].

ثمّ لايخفى أنّ توحيده تعالى أصل وجوده فطريّ للإنسان، و لذلك يتوجّه عند الاضطرار و انقطاع جميع السبل إلى ذلك المـبدأ الوحـيد و لايـتوجّه إلى اثـنين، و لا يلتجئ إلى ذاتين، كما هو واضح لمن لم يكن أحوَل العينين، كما يـدلّ عـلى توحيد ذاته عدم الفساد في مخلوقاته، كقوله تعالى ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[٢].

تذكرة في خصائص توحيد الإمامية

لا يخفى أنّه يتميّز توحيد الإماميّة فيما تميّز بثلاثة أُمور أساسيّة لا تخرج فيها عن حدّ الاعتدال و الأمر بين الأمرين، و هي :

أوّلاً : عقيدة التنزيه، أي الاعتقاد بأنّه لا تعطيل في ذات الله، و لا تشبيه في صفاته لمخلوقاته، بل له صفاته من غير زيادة على ذاته.

ثانياً : عقيدة الاختيار، و هو الاعتقاد بتأثيره تعالى في أفعال العباد من حيث لا جبر و لا تفويض، بل هو إقدار من الله و اختيار من العبد.

---

١ ـ نهج البلاغة ٢٦٩ الخطبة ١٨٥.

٢ ـ الملك ٦٧/٣.

ثالثاً: عقيدة البَداء، و هو الاعتقاد بقدرة الله على إثبات ما يشاء و محو ما يريد، بحيث ينفي عنه العجز و لا ينسب إليه الجهل، بل يثبتهما لمخلوقاته.

تنبيه في نفي الوحدة العددية

اعلم أنّ قوله تعالى ﴿ لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[1]، و قوله تعالى ﴿ وَ مَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2]، يفيد أنّه تعالى قاهر غير مقهور، و غالب لايغلبه شيء، فلايُتصوّر في حقّه وحدة عدديّة و لاكثرة عدديّة. و الآيات تنفي كلّ وحدة مضافة إلى كثرة مقابلة لها، سواء، أكانت وحدة عدديّة (كالفرد الواحد من النوع الّذي لو فُرض بإزائه فردٌ آخر كانا اثنين)، أو كانت وحدة نوعيّة أو جنسيّة؛ فإنّ الوحدة بهذا المعنى محدودة بالحدّ الّذي يحدّه الفرد الآخر المسلوب عنه المفروض قباله، فإذا كانت محدودة لا تنطبق عليه تعالى؛ إنّه سبحانه حيث لا يقهره شيء في ذاته و لاصفته و لافعله و هو القاهر فوق كلّ شيء، ليس بمحدود في شيء يرجع إليه، بل يرجع إليه كلّ شيء، فله تعالى كلّ كمال محض و ليس لغيره شيء إلّا بتمليكه عزّوجلّ له من غير أن ينعزل عمّا يملكه.

و هذا المعنى هو الّذي ينفي عنه تعالى الوحدة العدديّة؛ إذ لو كان واحداً عدديّاً أي موجوداً محدوداً منزّل الذات عن الإحاطة بغيره من الوجودات صحّ للعقل عندئذٍ أن يفرض مثله ثانياً له سواء كان جائز التحقّق خارجاً أم لا، و صحّ عند العقل أن يتّصف بالكثرة بالنظر إلى نفسه و إن فرض امتناعه عن الواقع، فهو تعالى واحد بمعنى أنّه من الوجود بحيث لايُحدّ بحدّ حتّى يمكن فرض ثانٍ له من وراء ذلك الحدّ. و هذا معنى قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[3]، فاستعمال لفظ «أحد» في

---

١ ـ الزمر ٤/٣٩.
٢ ـ ص ٦٥/٣٨.
٣ ـ الإخلاص ١/١١٢.

قوله ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ في الإثبات من غير نفي و لاتقييد بإضافة أو وصف، يفيد أنّ هويّته تعالى بحيث تدفع افتراض من يماثله في هويّته بوجه، سواء أكان واحداً أو كثيراً، فهو محال بحسب الفرض الصحيح مع قطع النظر عن حاله بحسب الخارج.

و هذا المعنى من الوحدة يُدفع به تثليث النصارى؛ فإنّهم موحّدون في عين التثليث، لكن الّذي يذعنون به من الوحدة وحدة عدديّة لا تنفي الكثرة من جهة أُخرى، فهم يقولون إنّ الأقانيم ثلاثة، و هي واحدة كالإنسان الحيّ العالم فهو شيء واحد و هو ثلاثة. لكن التعليم القرآنيّ ينفي ذلك، إذ يُثبت من الوحدة ما لايستقيم معه فرض أيّ كثرة و تمايز لا في الذات و لا في الصفات، و كلّ ما فرض من شيء في هذا الباب كان عين الآخر لعدم الحدّ، فذاته تعالى عين صفاته وكلّ صفة مفروضة له عين الأُخرى .

روايات في تكميل البحث

و لابأس بالإشارة إلى بعض الكلام من أميرالمؤمنين صلوات عليه المبيّن للتوحيد الخالص، وفّقنا الله لفهم كلامه :

في الخصال و التوحيد في حديث لأميرالمؤمنين عليه السلام أنّ أعرابيّاً في يوم الجَمل، قال: يا أميرالمؤمنين، أتقول إنّ الله واحد ؟، ... ثمّ قال عليه السلام : يا أعرابيّ، إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لايجوزان على الله عزّ و جلّ، و وجهان يَثبُتان فيه؛ فأمّا اللّذان لايجوزان عليه فقول القائل: «واحد» يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لايجوز؛ لأنّ ما لا ثاني له لايدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كَفّر من قال : إنّه ثالث ثلاثة ؟ و قول القائل : هو واحد من الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لايجوز؛ لأنّه تشبيه، و جلّ ربّنا و تعالى عن ذلك. و أمّا الوجهان اللّذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شَبَه كذلك ربّنا، وقول القائل: إنّه واحد أحديّ المعنى، يعني به أنّه لاينقسم في وجود و لاعقل و لاوهم

كذلك ربّنا عزّوجلّ[١].

و في الاحتجاج عنه في خطبة : دليله آياته، و وجوده إثباته و معرفته توحيده، و توحيده تمييزه من خلقه، و حكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة، إنّه ربٌّ خالق غير مربوب مخلوق، كلّ ما تُصوّر فهو بخلافه. ثمّ قال عليه‌السلام : ليس بإله مَن عرف بنفسه هو الدالّ بالدليل عليه، و المؤدي بالمعرفة إليه[٢]. هذا بيان لجلالته تعالى عن أن تتعلّق به معرفة، فإنّه تعالى محيط بنا و بمعرفتنا فكيف تقع معرفتنا عليه؟!

و في النهج أيضاً في خطبة، قال عليه‌السلام : الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه، و بمُحدَث خلقه على أزليّته، و باشتباههم على أن لا شَبَه له، لا تَسْتَلمه المشاعر، و لا تَحجُبُه السواتر، لِافتراق الصانع و المصنوع، والحادّ و المحدود، و الربّ و المربوب، الأحد بلا تأويل عددٍ، و الخالق لابمعنى حركةٍ و نَصَبٍ، و السميع لا بأداةٍ، و البصير لابتفريق آلةٍ، و الشاهد لا بمُماسّةٍ، و البائن لابِتَراخي مَسافة، و الظاهر لا برؤيةٍ، و الباطن لا بِلَطافَةٍ، بانَ من الأشياء بالقهر لها، و القدرة عليها، و بَانَتِ الأشياء منه بالخضوع له، و الرجوع إليه، من وصفه فقد حَدَّهُ، و مَن حَدَّهُ فقد عَدَّهُ، و مَن عَدَّهُ فقد أبطل أزَلَه... الخطبة[٣].

و قال عليه‌السلام للمفضّل، يا مفضّل : أوّل العِبَر و الأدلّة على الباري جلّ قدسه تهيئة هذا العالم، و تأليف أجزائه، و نظمها على ما هي عليه ـ إلى أن قال ـ ففي هذا دلالة واضحة على أنّ العالم مخلوق بتقدير و حكمة، و نظام و ملاءمة، و أنّ الخالق له واحد، و هو الّذي ألّفه و نظمه بعضاً إلى بعض، جلّ قدسه[٤].

عن هشام بن الحكم، أنّه سأل الزنديق الصادقَ عليه‌السلام، فقال : فلَم يَزَل صانع العالم عالماً بالأحداث الّتي أحدثها قبل أن يحدثها ؟ قال عليه‌السلام : لم يزل يعلم فخلق ما علم. قال : أمختلف هو أم مؤتلف ؟ قال عليه‌السلام : لايليق به الاختلاف و لا الائتلاف، و إنّما

---

١ ـ الخصال ٢، التوحيد للصدوق ٨٣ ـ ٨٤.
٢ ـ الاحتجاج ٢٠١.
٣ ـ نهج البلاغة ٢١١ ـ ٢١٢ الخطبة ١٥٢.
٤ ـ بحار الأنوار ٣ : ٦١.

يختلف المتجزّئ، و يأتلف المتبعّض، فلا يقال له : مؤتلف و لامختلف. قال : فكيف هو الله الواحد؟ قال : واحد في ذاته، فلاواحد كواحد، لأنّ ما سواه من الواحد متجزّئ، وهو تبارك و تعالى واحد لايتجزّأ، و لايقع عليه العدّ[١].

من خطبة لأميرالمؤمنين عليه السلام : الحمد لله الّذي لاتدركه الشواهد، و لا تَحوِيه المشاهد، و لا تَراه النواظر، و لا تَحجُبُه السواتر، الدالّ على قِدَمِه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده، و باشتباههم على أن لاشَبَهَ له، الّذي صَدَقَ في ميعاده، وارتفع عن ظلم عباده، و قام بالقسط في خلقه، و عَدَلَ عليهم في حُكمِه. مستشهد بحدوث الأشياء على أزليّته، و بما وَسَمَها به من العَجز على قدرته، و بما اضطرّها إليه من الفناء على دوامه. واحد لابعدد، و دائم لا بِأمَد، و قائم لا بِعَمَد ... الخطبة[٢].

قال عليّ عليه السلام : تأويل الصمد : لا اسم و لا جسم و لا مِثل و لا شِبه، و لا صورة و لا تمثال، و لا حدّ و لا محدود، و لا موضع و لامكان، و لا كيف و لا أين، و لا هنا و لا ثَمّة، و لا علی و لا خلاء و لا ملاء، و لا قيام و لا قعود، و لا سكون و لا حركات، و لا ظلمانيّ و لا نورانيّ، و لا روحانيّ و لا نفسانيّ، و لا يخلو منه موضع و لا يسعه موضع، و لا على لون، و لا على خَطَرِ قلب، و لا على شَمّ رائحة، منفيّ من هذه الأشياء[٣].

ابن أبي نجران قال : سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام عن التوحيد، فقلت : أتوهّمَ شيئاً ؟ فقال : نعم، غير معقول و لامحدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه. لايشبهه شيء، و لاتدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام و هو خلاف ما يفعل وخلاف ما يتصوّر في الأوهام؟! إنّما يُتوهّم شيء غير معقول و لامحدود[٤].

سئل أميرالمؤمنين عليه السلام : بمَ عرفت ربّك ؟ فقال : بما عرّفني نفسه. قيل: وكيف

---

١ ـ الاحتجاج ٣٣٨.
٢ ـ نهج البلاغة ٢٦٩ الخطبة ١٨٥.
٣ ـ جامع الأخبار ٣٨.
٤ ـ التوحيد للصدوق ١٠٦.

عرّفك نفسه؟ فقال : لاتشبهه صورة، و لايُحسّ بالحواسّ، و لايقاس بالناس، قريب في بُعده، بعيد في قربه، فوق كلّ شيء، و لايقال : شيء فوقه، أمام كلّ شيء، و لا يقال : له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل، و خارج من الأشياء لا كشيء من شيء خارج، سبحان من هو هكذا و لا هكذا غيره و لكلّ شيء مبتدأ[١].

الفصل الثالث
الآثار السيّئة للشرك

منها : إنّ الشرك انحراف عن الحقّ، كما قال تعالى :

﴿وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾[1].

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2].

﴿وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً﴾[3].

﴿وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[4].

و منها : التغالب و الصراع بين الأقوياء؛ فإنّ الّذي يجعل شريكاً له تعالى يخضع له و يطيعه، فكذلك الإله المجعول يرىٰ نفسه أعلى من غيره فتقع المخاصمة بين المألوهين بسبب ذلك، ممّا يهدّد كيان الإنسانيّة كما يُرى في مألوهيّة زماننا. قال تعالى :

﴿إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[5].

﴿لَوْ كَانَ فِيْهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[6].

و منها : عبادة الهوى و الإضلال عن سبيل الحقّ، قال تعالى :

---

١ ـ النساء ٤/١١٦.

٢ ـ لقمان ٣١/١٣.

٣ ـ النساء ٤/٤٨.

٤ ـ فاطر ٣٥/١٤.

٥ ـ المؤمنون ٢٣/٩١.

٦ ـ الأنبياء ٢١/٢٢.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1].

﴿وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾[2].

---

١ ـ الجاثية ٢٣/٤٥. ٢ ـ النحل ٥٧/١٦.

الباب الثاني
في صفاته تعالى

صفات الله تعالى كما قسّمها العلماء علىٰ قسمين: الصفات الذاتيّة و الصفات السلبيّة، و عبّروا عن بعضها بالصفات الجلاليّة و عن بعضها بالصفات الجماليّة. و الذات الشريفة لا صفة لها زائدة عليها و إلّا لزم كونها محلّاً للحوادث و الغير إن قامت بها أو قيام صفة بغيره إن لم تَقُم بذاته أو عدم قيامها بشيء بل بنفسها في قبال الذات، و هذا مستلزم لتعدّد القدماء، و الكلّ بديهيّ البطلان.

و جميع الصفات راجع إلى كمال الذات و غنائها و خلوّها عن النقص؛ فالمقصود من الصفات الجماليّة المعبّر عنها بالثبوتيّة أيضاً إنّما هو نفي أضدادها عنه تعالى، فترجع كلّها إلى المسلوب في الحقيقة من هنا يكون معنىٰ كونه عالماً و قادراً أنّه ليس بعاجز و لا جاهل، كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام: ... و كمال توحيده الإخلاص له، و كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، و شهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة...[1].

و لايخفى أنّ الصفات الذاتيّة تكون عين الذات وجوداً و إن كانت مغايرة مفهوماً، إذ لو كانت غيرها وجوداً لكانت محتاجة إليها في كامليّتها فتصير ممكناً، مع أنّ الصفة متأخّرة عن الموصوف وجوداً أحياناً كالعلم، فيلزم خلوّ الذات عنها ثمّ حصولها مع أنّها لو كانت غير ذاته وجوداً فهي إمّا قديمة أو حادثة؛ فعلى الأوّل يلزم تعدّد القدماء و على الثاني يلزم كونها محلّاً للحوادث، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

و كيف كان إنّ صفاته الذاتيّة حصروها في العلم و القدرة و الحياة، و قد ذكروا الصفات الفعليّة له تعالى أي ما يطلق عليه تعالى باعتبار صدور فعل منه كالخالق

---

١. نهج البلاغة ٣٩ الخطبة ١.

و الرازق و الفاتح و ... .

و ذكروا تقسيماً آخر باعتبار ثبوت شيء له تعالى أو نفيه عنه، فعبّروا عن الأوّل بالصفات الثبوتيّة و الجماليّة و عن الثاني بالصفات السلبيّة و الجلاليّة. و لنذكر من الآيات ما يشير إلى الصفات الذاتيّة و غيرها في ضمن أُمور:

الفصل الأوّل
الصفات الجماليّة (الثبوتيّة الذاتيّة)

العلم

الآيات الّتي تشير إلى علمه تعالى، و هي على طوائف:

علمه تعالى على الإطلاق

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[1].

﴿وَ أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[2].

﴿وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ﴾[3].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[4].

﴿وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾[5].

﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَ كَفَىٰ بِاللهِ عَلِيماً﴾[6].

﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١].

﴿وَ كُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ﴾ [٢].

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٣].

﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٤].

﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً﴾ [٥].

﴿وَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٦].

﴿وَ مَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَ لَاتَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لَا فِى السَّمَآءِ وَ لَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٧].

حسين بن بشّار عن أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، قال : سألته: أيعلم الله الشيء الّذي لميكن أن لو كان كيف كان يكون، أو لايعلم إلّا ما يكون؟ فقال عليه السلام: إنّ الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء، قال عزّ و جلّ ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٨]**، و قال عن أهل النار**﴿وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [٩] **فقد علم الله عزّ و جلّ أنّه لو ردّوهم لعادوا لما نهوا عنه، و قال للملائكة لمّا قالوا** ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٠] **فلم يزل الله عزّ و جلّ علمه سابقاً للأشياء قديماً قبل أن يخلقها، فتبارك ربّنا تعالى علوّاً كبيراً، خلق الأشياء و علمه بها سابق لها كما شاء،**

---

١ ـ المائدة ٩٧/٥.
٢ ـ الأنبياء ٨١/٢١.
٣ ـ الشعراء ٢٢٠/٢٦.
٤ ـ العنكبوت ٦٢/٢٩.
٥ ـ الأحزاب ٥٤/٣٣.
٦ ـ النور ٦٤/٢٤.
٧ ـ يونس ٦١/١٠.
٨ ـ الجاثية ٢٩/٤٥.
٩ ـ الأنعام ٢٨/٦.
١٠ ـ البقرة ٣٠/٢.

كذلك لم يَزَل ربّنا عليماً سميعاً بصيراً[١].

قال المأمون للرضا عليه السلام عن قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ فقال عليه السلام: إنّه عزّوجلّ خلق خلقه ليبلوهم بتكليف طاعته و عبادته، لا على سبيل الامتحان و التجربة؛ لأنّه لم يَزَل عليماً بكلّ شيء[٢].

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَ مَا تَدْرِى نَفْسٌ مَا ذَا تَكْسِبُ غَداً وَ مَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، قال الصادق عليه السلام هذه الخمسة أشياء لم يطّلع عليها ملك مقرّب و لا نبيّ مرسل، و هي من صفات الله عزّوجلّ[٣].

ابن حازم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: أرأيت ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة، أليس كان في علم الله تعالى ؟ قال: فقال: بلىٰ قبل أن يخلق السماوات و الأرض[٤].

ابن مسكان قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الله تبارك و تعالى، أكان يعلم المكان قبل أن يخلق المكان، أم عَلِمَه عند ما خلقه و بعد ما خلقه ؟ فقال: تعالى الله، بل لم يزل عالماً بالمكان قبل تكوينه كعلمه به بعد ما كوّنه، و كذلك علمه بجميع الأشياء كعلمه بالمكان[٥].

محمّد بن سنان قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام هل كان الله عارفاً بنفسه قبل أن يخلق الخلق ؟ قال نعم، قلت: يراها و يسمعها ؟ قال: ما كان محتاجاً إلى ذلك؛ لأنّه لم يكن يسألها و لا يطلب منها، هو نفسه، و نفسه هو، قدرته نافذة، فليس يحتاج

---

١ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١١٨.

٢ ـ نفس المصدر ١ : ١٣٥، و الآية في سورة هود ١١/٧.

٣ ـ تفسير القمّيّ ٢ : ١٦٧، و الآية في سورة لقمان ٣١/٣٤.

٤ ـ التوحيد للصدوق ١٣٥.

٥ ـ نفس المصدر ١٣٧.

إلى أن يسمّي نفسه... الحديث [١].

محمّد بن مسلم عن أبي جعفر ﷺ قال: سمعته يقول: كان الله و لا شيء غيره ولم يزل الله عالماً بما كوّن، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد ما كوّنه [٢].

أبو عبدالله ﷺ قال: إنّ الله علم لاجهل فيه، حياة لاموت فيه، نور لاظلمة فيه [٣].

و في خطبة لأميرالمؤمنين ﷺ: قد علم السرائر، و خَبَر الضمائر، له الإحاطة بكلّ شيء، و الغلبة على كلّ شيء، و القوّة على كلّ شيء... الخطبة [٤].

و قال أيضاً: ... العالم بلا اكتساب و لا ازدياد، و لاعلم مستفاد... [٥].

و قال أيضاً: ... فما قَطَعَكم عنه حجاب، و لا أُغْلِق عنكم دونه باب، و إنّه لَبِكُلّ مكان، و في كلّ حين و أوان، و مع كلّ إنس و جانّ... [٦].

علمه تعالى بالغيب و الشهادة

﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [٧].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [٨].

﴿وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [٩].

﴿أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ﴾ [١٠].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [١١].

---

١ ـ عيون أخبار الرضا ١: ١٢٩.
٢ ـ التوحيد للصدوق ١٤٥.
٣ ـ نفس المصدر ١٣٧.
٤ ـ نهج البلاغة ١١٦ الخطبة ٨٦.
٥ ـ نفس المصدر ٣٣٠ الخطبة ٢١٣.
٦ ـ نفس المصدر ٣٠٩ الخطبة ١٩٥.
٧ ـ السجدة ٦/٣٢.
٨ ـ سبأ ٢/٣٤.
٩ ـ البقرة ٢٣٥/٢.
١٠ ـ البقرة ٧٧/٢.
١١ ـ البقرة ٢٥٥/٢.

﴿وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ﴾[١].

﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَ مَا تَزْدَادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۞ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ﴾[٢].

﴿وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ﴾[٣].

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مَا تُخْفِى الصُّدُورُ﴾[٤].

﴿وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾[٥].

﴿أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾[٦].

﴿وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[٧].

﴿قَالُوا لَاعِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٨].

﴿وَ هُوَ اللهُ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَ فِى الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[٩].

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَـٰوَاتَ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[١٠].

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١١].

قال عليه السلام في نهج البلاغة : يعلم عَجيجَ الوحوش في الفَلَوات، و معاصي العباد في الخَلَوات، و اختلاف النِّينَان في البحار الغَامِرات، و تلاطُمِ الماء بالرياح العاصفات ... الخطبة[١٢].

---

١ ـ الأنعام ٥٩/٦.
٢ ـ الرعد ١٣/٨ ـ ٩.
٣ ـ النمل ٧٤/٢٧.
٤ ـ غافر ١٩/٤٠.
٥ ـ البقرة ٢٧٠/٢.
٦ ـ العنكبوت ١٠/٢٩.
٧ ـ ق ١٦/٥٠.
٨ ـ المائدة ١٠٩/٥.
٩ ـ الأنعام ٣/٦.
١٠ ـ البقرة ٣٣/٢.
١١ ـ آل عمران ٢٩/٣.
١٢ ـ نهج البلاغة ٣١٢ الخطبة ١٩٨.

و فيه أيضاً : اللّهمّ إنّك آنَسُ الآنِسين لأوليائك، و أحْضَرُهُم بالكفاية للمتوكّلين عليك، تشاهدهم في سرائرهم، و تَطَّلِع عليهم في ضمائرهم، و تَعَلم مبلغ بصائرهم، فأسرارُهم لك مكشوفة ... الدعاء[١].

و فيه أيضاً : قد عَلِمَ السرائر، و خَبَرَ الضمائر، له الإحاطة بكلّ شيء، و الغَلَبة على كلّ شيء، و القوّة على كلّ شيء ... الخطبة[٢].

و فيه أيضاً: قالعليه‌السلام : ... و إنّما عِلمُ الغيب علم الساعة، و ما عَدَّدَه الله سبحانه بقوله ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ فيَعْلم الله سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أُنثى، و قبيح أو جميل، و سخيّ أو بخيل، و شقيّ أو سعيد، و من يكون في النار حَطَباً، أو في الجنان للنبيّين مُرافقاً، فهذا علم الغيب الّذي لايَعْلمه أحد إلّا الله، و ما سوى ذلك فعِلْم عَلَّمه الله نبيّهصلى‌الله‌عليه‌وآله فعَلَّمنيه، و دعا لي بأن يَعِيَه صدري، و تضطمّ عليه جوانحي[٣].

و فيه أيضاً: ... عالم السرّ من ضمائر المُضمِرين، و نجوى المُتَخافِتين، و خواطر رَجْم الظنون، و عُقَد عزيمات اليقين، و مسارق إيماض الجُفون، و ما ضَمِنَتْه أكنان القلوب، و غيابات الغيوب، و ما أصغَت لاستراقه مصائخُ الأسماع، و مصائف الذرّ، و مَشاتي الهوامّ، و رَجْع الحَنِين من المولهات، و هَمْس الأقدام، و مُنْفَسَح الثمرة من وَلائج غُلُف الأكمام، و مُنْقَمع الوحوش مِن غِيران الجبال و أَودِيتها ... الخطبة[٤].

علمه تعالى بما كان و ما يكون

﴿وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[٥].

﴿وَ يَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَ لَاحَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ

---

١ ـ نفس المصدر ٣٤٩ الدعاء ٢٢٧.
٢ ـ نفس المصدر ١١٦ الخطبة ٨٦.
٣ ـ نفس المصدر ١٨٦، الكلام ١٢٨، و الآية في سورة لقمان ٣١/٣٤.
٤ ـ نفس المصدر ١٣٤ الخطبة ٩١.
٥ ـ المدّثّر ٧٤/٣١.

الْأَرْضِ وَ لَارَطْبٍ وَ لَايَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [١].

﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَ مَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَ مَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [٢].

﴿وَ إِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [٣].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى﴾ [٤].

﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [٥].

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَ لَا فِى الْأَرْضِ وَ لَاأَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَ لَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٦].

في نهج البلاغة، قال عليه السلام:... عِلمُه بالأموات الماضِين كعلمه بالأحياء الباقين، وعلمه بما في السماوات العُلى كعلمه بما في الأرضين السفلى [٧].

و فيه أيضاً: لايَشغله شأن، و لايغيّره زمان، و لايَحْويه مكان، و لايَصِفه لسان، لايَعْزُب عنه عدد قطر الماء و لانجوم السماء، و لاسَوَافِي الريح في الهواء، و لادَبيب النمل على الصفا، و لامَقيل الذرّ في الليلة الظّلْماء، يَعْلم مساقط الأوراق، و خَفيّ طَرْف الأحداق... الخطبة [٨].

و فيه أيضاً: ... فسبحان مَن لايخفى عليه سواد غَسَقَ داجٍ، و لاليل ساجٍ، و في بِقاع الأرضين المُتَطَأْطِئات، و لا في يَفاع السُّفْع المتجاورات، و ما يَتَجَلْجَل به الرعد في أُفق السماء، و ما تَلاشَتْ عنه بُرُوق الغَمام، و ما تَسقُط من ورقة تُزِيلها عن مَسقطِها عواصف الأنواء و انهطال السماء، و يَعلَم مَسقط القطرة و مَقرّها، و مَسْحَب

---

١ ـ الأنعام ٦/٥٩.

٢ ـ لقمان ٣١/٣٤.

٣ ـ البقرة ٢/٢٨٤.

٤ ـ الأعراف ٧/١٨٧.

٥ ـ الأنعام ٦/١٢٤.

٦ ـ سبأ ٣٤/٣.

٧ ـ نهج البلاغة ٢٣٣ الخطبة ١٦٣.

٨ ـ نفس المصدر ٢٥٦ الخطبة ١٧٨.

الذرّة و مَجَرَّها، و ما يكفى البعوضة من قوتها و ما تحمل الأُنثى في بطنها[١].

و فيه أيضاً: يعلم عَجيج الوحوش في الفَلَوات، و معاصي العباد في الخَلَوات، و اختلاف النِّينان في البحار الغامرات، و تلاطم الماء بالرياح العاصفات... الخطبة[٢].

و فيه أيضاً : ... عالم السرّ من ضمائر المُضمِرين، و نجوى المُتَخافتين، و خواطر رَجم الظنون، و عُقَد عزيمات اليقين، و مسارق إيماض الجُفُون، و ما ضَمِنَتْه أكنان القلوب و غيابات الغيوب، و ما أصغَتْ لاستراقه مَصائخ الأسماع، و مَصائف الذرّ، و مَشاتي الهَوامّ، و رجع الحَنين من المولهات، و هَمْس الأقدام، و مُنْفَسَح الثمرة من ولائج غُلُف الأكمام، و مُنْقَمع الوحوش مِن غِيران الجبال و أوديتها، و مختبأ البعوض بين السوق الأشجار و أَلحِيَتها، و مَغْرِز الأوراق من الأفنان، و مَحَطّ الأمشاج من مَسارب الأصلاب، و ناشئة الغيوم و مُتَلاحمها، و دُرُور قُطْر السحاب في متراكمها ... الخطبة[٣].

و قال عليه السلام أيضاً:... مَن تكلّم سمعَ نُطْقَه، و من سكت علمَ سرَّه ـ إلى أن قال ـ كلّ سرّ عندك علانية، و كلّ غيب عندك شهادة... [٤].

علمه تعالى بالمهتدين و المعتدين

﴿وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٥].

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[٦].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾[٧].

---

١ ـ نفس المصدر ٢٦١؟ الخطبة ١٨٢.

٢ ـ نفس المصدر ٣١٢ الخطبة ١٩٨.

٣ ـ نفس المصدر ١٣٤ الخطبة ٩١.

٤ ـ نفس المصدر ١٥٨ الخطبة ١٠٩.

٥ ـ هود ٦/١١.

٦ ـ الرعد ٩/١٣.

٧ ـ الإسراء ٨٤/١٧.

﴿وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾[1].

﴿الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ❁ وَ تَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ ❁ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

﴿وَ مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[3].

﴿قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[4].

﴿وَ لَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[5].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[6].

﴿وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[7].

في نهج البلاغة، قال عليه السلام : ... قد سمّى آثاركم، و علم أعمالكم، و كتب آجالكم، و أنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلّ شيء و عَمَّرَ فيكم نبيّه أزماناً، حتّى أكمل له و لكم ـ فيما أنزل من كتابه ـ دينه الّذي رضي لنفسه، و أنهى إليكم ـ على لسانه ـ مَحابّه من الأعمال و مكارهه، و نواهيه و أوامره، و ألقى إليكم المعذرة، و اتّخذ عليكم الحجّة ... الخطبة[8].

و فيه أيضاً قال عليه السلام : يعلم عجيج الوحوش في الفَلوات و معاصي العباد في الخَلوات ... الخطبة[9].

و في توحيد الصدوق، قال عليه السلام في جواب ابن أبي العوجاء : ويلك ! كيف يكون غائباً مَن هو مع خلقه شاهد و إليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم و يرى أشخاصهم و يعلم أسرارهم[10].

قال المأمون للرضا عليه السلام في خبر طويل عن قوله تعالى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

---

١ ـ الأنبياء ٨١/٢١.

٢ ـ الشعراء ٢١٨/٢٦ ـ ٢٢٠.

٣ ـ النمل ٧٥/٢٧.

٤ ـ القصص ٨٥/٢٨.

٥ ـ العنكبوت ١١/٢٩.

٦ ـ النجم ٣٢/٥٣.

٧ ـ الزمر ٧٠/٣٩.

٨ ـ نفس المصدر ١١٧ الخطبة ٨٦.

٩ ـ نفس المصدر ٣١٢ الخطبة ١٩٨.

١٠ ـ التوحيد للصدوق ٢٥٣.

عَمَلاً﴾ فقال ﷺ : إنّه عزّ و جلّ خلقهم ليبلوهم بتكليف طاعته و عبادته، لا على سبيل الامتحان و التجربة، لأنّه لم يَزَل عليماً بكلّ شيء[١].

الحريريّ قال : سألت أباعبدالله ﷺ عن قوله عزّ و جلّ ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ فقال: ألم تَرَ إلى الرجل ينظر إلى الشيء و كأنّه لاينظر إليه، فذلك خائنة الأعين[٢].

القدرة

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾[٣].

﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[٤].

﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥].

﴿وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾[٦].

﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ إِنَّـهُ كَـانَ عَـلِيماً قَدِيراً﴾[٧].

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كَانَ اللهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيراً ﴾[٨].

﴿ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَاإِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[٩].

﴿وَ كَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾[١٠].

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾[١١].

---

١ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١٣٥، و الآية في سورة هود ٧/١١.

٢ ـ معاني الأخبار ١٤٧، و الآية في سورة غافر ١٩/٤٠.

٣ ـ الأنعام ٦٥/٦.

٤ ـ القيامة ٤/٧٥.

٥ ـ فاطر ١/٣٥، و بهذا التعبير توجد نحو خمسة و ثلاثين آية.

٦ ـ الفرقان ٥٤/٢٥.

٧ ـ فاطر ٤٤/٣٥.

٨ ـ النساء ١٣٣/٤.

٩ ـ غافر ٦٢/٤٠.

١٠ ـ الكهف ٤٥/١٨.

١١ ـ القيامة ٤٠/٧٥.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

محمّد بن عرفة قال : قلت للرضا عليه‌السلام : خلق الله الأشياء بالقدرة أم بغير القدرة؟ فقال عليه‌السلام : لايجوز أن يكون خلق الأشياء بالقدرة، لأنّك إذا قلت : خلق الأشياء بالقدرة، فكأنّك قد جعلت القدرة شيئاً غيره و جعلتها آلة له بها خلق الأشياء، و هذا شرك. و إذا قلت: خلق الأشياء بغير قدرة فإنّما تصفه أنّه جعلها باقتدار عليها وقدرة، و لكن ليس هو بضعيف و لاعاجز و لايحتاج إلى غيره، بل هو سبحانه قادر لذاته لابالقدرة[٢].

عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : مَن شبّه الله بخلقه فهو مشرك، و من أنكر قدرته فهو كافر[٣].

أبوعبدالله عليه‌السلام قال : قيل لأميرالمؤمنين عليه‌السلام: هل يقدر ربّك أن يُدخل الدنيا في بيضة من غير أن يصغّر الدنيا أو يكبّر البيضة ؟ قال : إنّ الله تبارك و تعالى لايُنسب إلى العجز، و الّذي سألتني لايكون[٤].

فُضَيل بن يَسار، قال : سمعت أباعبدالله عليه‌السلام يقول : إنّ الله عزّ و جلّ لايوصف، قال : و قال زرارة: قال أبوجعفر عليه‌السلام : إنّ الله عزّ و جلّ لايوصف، و كيف يوصف وقد قال في كتابه ﴿وَ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ فلايوصف بقدرة إلّا كان أعظم من ذلك[٥].

البزنطيّ قال : جاء قوم من وراء النهر إلى أبي الحسن عليه‌السلام فقالوا له : جئناك نسألك عن ثلاث مسائل، فإن أجبتنا فيها علمنا أنّك عالم، فقال : سلوا، فقالوا: أخبِرنا عن الله أين كان، و كيف كان، و على أيّ شيء كان اعتماده ؟ فقال : إنّ الله

---

١ ـ الأحقاف ٤٦/٣٣.
٢ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١١٧ ـ ١١٨.
٣ ـ التوحيد للصدوق ٧٦.
٤ ـ نفس المصدر ١٣٠.
٥ ـ نفس المصدر ١٢٧ ـ ١٢٨، و الآية في سورة الأنعام ٦/٩١.

عزّوجلّ كيّف الكيف فهو بلا كيف، و أيّن الأين فهو بلا أين، و كان اعتماده على قدرته، فقالوا : نشهد أنّك عالم[١].

ابن حُميد عن أبي عبدالله عليه‌السلام، قال : قلت له : لم يَزَل الله مريداً؟ فقال : إنّ المريد لايكون إلّا لمراد معه، بل لم‌يزل عالماً قادراً ثمّ أراد[٢].

بحث في قدرته تعالى

إنّما تشير إلى قدرته تعالى الآيات الواردة في إيجاد الكائنات و إفنائها و خلقة الإنسان و إماتته و بعثه بعد موته و إقباره. و مقتضى هذه الآيات شمول قدرته لجميع ماسواه صغيره و كبيره جيّده و رديئه.

و يُستدلّ على قدرته و شمولها لكلّ شيء أيضاً بالبراهين العقليّة، منها : استحالة الصانعيّة بدون القدرة الّتي تكون من صفة الكمال و أنّ العجز نقص لايليق بالكامل، وصدور الأفاعيل العجيبة منه تعالى يدلّ على كمال قدرته. و يكفي في الإذعان بكمال قدرته التفكّر في عجائب خِلقته في الإنسان فضلاً عن غيره، و بما أنّ قدرته تعالى عين ذاته و نسبة ذاته إلى جميع ماسواه متساوية ـ كما تقدم في العلم ـ فيكون قادراً على جميع ماسواه.

و قد خالف المعتزلة، فقالوا: إنّه تعالى لايقدر على القبيح و الشرّ[٣]؛ لاستلزامه الظلم. و فيه: أنّ القدرة على القبيح ليست بظلم بل فعل القبيح ظلم، و الله تعالى قادر على ذلك منزّه عن فعله، و إنّما يحتاج إلى الظلم الضعيفُ أو الجاهل، و تعالى ربّنا عن ذلك.

و ذهب الأشاعرة إلى أنّه يفعل الشرّ كالخير[٤]؛ لأنّ جميع ما يقع في العالم

---

١ ـ نفس المصدر ١٢٥.

٢ ـ نفس المصدر ١٤٦.

٣ ـ كشف المراد ٢٣٧.

٤ ـ نفس المصدر ٢٣٧.

بأجمعه إنّما هو منه، إذ لا مُلك إلّا ملكه و لا سلطان إلّا سلطانه. و أنت ترى أنّ هذا القول ظلم في حقّه تعالى، و قد فرّوا من الشرك و وقعوا في الكفر. و أولياء الله قادرون على الشرور لكنّهم لايفعلونها لقبحها فكيف بخالقهم؟ و إنّما يفعل الشرّ والقبيح من لاعلم له و لا حكمة.

و قد عرفت أنّه عزّوجلّ عالم حكيم، و عدم صدور القبيح منه لايلزم عجزه عنه كما لايلزم العجز أيضاً بعدم وجود الممتنع خارجاً كاجتماع الضدّين، و لاينافي ذلك عموم قدرته؛ لأنّ عدم وجود الممتنع يكون لامتناع ذاته عن قبول الوجود وعدم قابليته و استعداده لتعلّق قدرته به لا لأنّه تعالى ليس بقادر على ذلك.

و لايخفى أنّ القدرة تتعلق بالممكنات، فما هو محال ذاتاً ممتنع في قابليته لأن تقع تحت هذه القدرة، كما يشير إلى ذلك ما أجاب عليّ عليه السلام من سأل: هل يقدر ربّك أن يُدخل الدنيا في بَيضة؟ فأجاب: أنّ الله تعالى لا يوصَف بالعجز، و الّذي سألتَني لايكون[1].

الحياة

﴿وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾[2].

﴿اللهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَاتَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لَانَوْمٌ﴾[3].

﴿وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَايَمُوتُ﴾[4].

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[5].

﴿اللهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

---

١ ـ قد مرّ ذكره آنفاً.
٢ ـ طه ٢٠/١١١.
٣ ـ البقرة ٢/٢٥٥.
٤ ـ الفرقان ٢٥/٥٨.
٥ ـ غافر ٤٠/٦٥.

وَ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ﴾[١].

إلى غير ذلك من الآيات الّتي تشير إلى هذه الصفة، مع أنّ العلم و القدرة تستلزمان الحياة كما هو واضح، و هذه الثلاث هي صفات الذات.

ثمّ إنّ الفرق بين صفات الذات و صفات الأفعال الّتي يجيئ التنبيه عليها هو أنّ كلّ صفة لايمكن نفيُها عن الذات كالعلم و الحياة فهي صفة ذات، و ما يصحّ نفيها عنها فهي صفة فعل كالخالق و الرازق.

صفات جماليّة اُخرى

و قد مرّت الآيات المشار بها إلى العلم و القدرة و الحياة، و إليك ما ورد من الآيات المشار بها إلى غيرها من الصفات الجماليّة، كقوله تعالى:

﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَايُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٢].

﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣].

﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[٤].

﴿لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٥].

﴿وَ كَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾[٦].

﴿وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾[٧].

﴿وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾[٨].

﴿وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾[٩].

---

١ ـ آل عمران ٣/ ٢ ـ ٣.
٢ ـ البقرة ٢/ ١٨٥.
٣ ـ يس ٣٦/ ٨٢.
٤ ـ الحجّ ٢٢/ ١٤.
٥ ـ الأنعام ٦/ ١٠٣.
٦ ـ النساء ٤/ ١٦٤.
٧ ـ الأعراف ٧/ ١٤٣.
٨ ـ النساء ٤/ ١٢٢.
٩ ـ النساء ٤/ ٨٧.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ﴾[١].

و قد وصف تعالى نفسه بصفات كثيرة في القرآن الحكيم، و وصفه أولياؤه في كلماتهم و خطبهم و أدعيتهم، كالرحيم و الرحمان و الغفور و الودود و الشكور و المُفْضِل و المنعم و الغافر و الفاطر و المجزي و المحسن و الكبير و المتكبّر و الخالق و الرازق و المبدئ و المعيد و المحيي و المميت و إلى غير ذلك، فإنّ نعوته لاتحصى و نعمه لاتعدّ و صفاته الكاملة غير محصورة، و كلّها إلى ذات فارد، و وجود واحد.

عباراتُنا شتّى و حُسنك واحدٌ　　　و كلٌّ إلى ذاك الجمالِ يُشيرُ

صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبِرْني عن الإرادة: مِن الله عزّ وجلّ و من الخلق؟ فقال: الإرادة من المخلوق الضمير و ما يبدو له بعد ذلك من الفعل، و أمّا من الله عزّ و جلّ فإرادته إحداثه لاغير ذلك، لأنّه لا يروّي و لايهمّ و لا يتفكّر، وهذه الصفات منفيّة عنه و هي من صفات الخلق، فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك ... الحديث[٢].

عن الجعفريّ قال: قال الرضا عليه السلام: المشيّة و الإرادة من صفات الأفعال، فمَن زعم أنّ الله لم يَزَل مريداً شائياً فليس بموحّد[٣].

و في خبر عن أبي الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام: ... ثمّ كوّن ما أراد، لارادّ لقضائه، و لامعقّب لحُكمه، تاهَت أوهامُ المتوهّمين، و قَصُر طرف الطارفين... الحديث[٤].

أبوالحسن الأوّل عليه السلام قال: لايكون شيء في السماوات و الأرض إلّا بسبعة: بقضاء و قدر و إرادة و مشيئة و كتاب و أجل و إذن، فمن قال غير هذا فقد كذب

---

١ ـ الحديد ٣/٥٧.
٢ ـ عيون أخبار الرضا ١: ١١٩.
٣ ـ التوحيد للصدوق ٣٣٨.
٤ ـ الاحتجاج ٤٤٩.

على الله، أو ردّ على الله عزّوجلّ[١].

و في خبر يونس عن الرضا عليه السلام... فقال : يا يونس ليس هكذا، لايكون إلّا ما شاء الله و أراد و قدّر و قضى، يا يونس، تعلَم ما المشيئة؟ قلت : لا، قال : هي الذِّكر الأوّل، فتعلَم ما الإرادة؟ قلت : لا، قال : هي العزيمة على ما شاء ... الحديث[٢].

صفات جماليّة و فعليّة

في عدله و حكمته تعالى

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ﴾[٣].

﴿وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾[٤].

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾[٥].

﴿وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٦].

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَاظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٧].

﴿إِنَّ اللهَ لَايَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٨].

﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٩].

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[١٠].

في نهج البلاغة، قال عليه السلام : ... الّذي ابتدع الخلقَ على غير مثالٍ امتثَلَه، و لا مقدارٍ احتذى عليه من خالق معبود كان قبلَه، و أرانا مِن ملكوت قدرته، و عجائب

---

١ ـ الخصال ٣٥٩.
٢ ـ الأصول من الكافي ١ : ١٥٨.
٣ ـ النحل ١٦/٩٠.
٤ ـ الأنعام ٦/١١٥.
٥ ـ آل عمران ٣/١٨.
٦ ـ الأنبياء ٢١/٤٧.
٧ ـ غافر ٤٠/١٧.
٨ ـ النساء ٤/٤٠.
٩ ـ الجمعة ٦٢/١.
١٠ ـ البقرة ٢/٣٢.

ما نَطَقت به آثارُ حكمته... الخطبة[١].

و فيه أيضاً : ... بل نَفذَهم علمُه، و أحصاهم عددُه، و وسعهم عدلُه، و غمرهم فضلُه، مع تقصيرهم عن كُنه ما هو أهله[٢].

و قال أيضاً في خطبة : و أشهد أنّه عَدْلٌ عَدَلَ، و حكم فَصَل، ... الخطبة[٣].

و فيه أيضاً في خطبة:... الّذي صَدَق في ميعاده، و ارتفع عن ظلم عباده، و قام بالقسط في خلقه، و عَدَل عليهم في حكمه... الخطبة[٤].

و فيه أيضاً قال عليه السلام : ... أحمده على نِعَمِه التؤام، و آلائه العظام، الّذي عَظُم حلمه فعفا، و عدل، في كلّ ما قضى، و علم ما يمضي و ما مضى ... الخطبة[٥].

و في حديث، خطب رسول الله صلى الله عليه وآله : ـ إلى أن قال ـ حكم الله و عَدَلَ و حكم الله وعدل و حكم الله و عدل فريق في الجنّة و فريق في السعير[٦].

و في حديث طويل قال الصادق عليه السلام في جواب الزنديق الّذي سأله و قال: فلأيّ علّة خَلَقَ الخلقَ و هو غير محتاج إليهم، و لامضطرّ إلى خلقهم، و لايليق به التعبّث بنا قال عليه السلام : خلقهم لإظهار حكمته، و إنفاذ علمه، و إمضاء تدبيره[٧].

في توحيد الصدوق عن الصادق عليه السلام أنّه سأله رجل، فقال له : ... أمّا التوحيد فأن لاتجوّز على ربّك ما جاز عليك، و أمّا العدل فأن لاتنسب إلى خالقك ما لامَك عليه[٨].

و قال أميرالمؤمنين عليه السلام : التوحيد ألّا تتوهّمه، و العدل ألّاتتّهمه[٩].

و فيه أيضاً : ... فإنّه لميأمرك إلّابحَسَن، و لمينْهَك إلّا عن قبيح[١٠].

---

١ ـ نفس المصدر ١٢٦ الخطبة ٩١.

٢ ـ نفس المصدر ١٣٥ الخطبة ٩١.

٣ ـ نفس المصدر ٣٣٠ الخطبة ٢١٤.

٤ ـ نفس المصدر ٢٦٩ الخطبة ١٨٥.

٥ ـ نفس المصدر ٢٨٣ الخطبة ١٩١.

٦ ـ بصائر الدرجات ١٩٢ .

٧ ـ الاحتجاج ٣٣٨.

٨ ـ التوحيد للصدوق ٩٦ .

٩ ـ نهج البلاغة ٥٥٨ الحكمة ٤٧٠.

١٠ ـ نفس المصدر ٣٩٦ الوصيّة ٣١.

الفصل الثاني
الصفات الجلاليّة (السلبيّة)

الأدلّة العقليّة

اعلم أنّ إثبات الكمال لايتمّ إلّا بنفي النقص كما لايتمّ إثبات الحقّ إلّا بنفي الباطل، و لذلك نرى أنّ الله تعالى يثبت في كلامه أنّه واحد و أنّ غيره منفيٌّ، فقال ﴿هُوَ اللهُ الَّذِى لَاإِلَـهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ﴾[1]. و حيث إنّه تعالى منزّه عن كلّ نقص لكمال ذاته فلا حصر لصفات جلاله كصفات كماله، و نقتصر هنا على جملة من أصولها للإيضاح فنقول:

من تلك الصفات عدم الشريك له، كما تقدّم في بحث التوحيد.

و منها : أنّه ليس بمحتاج في ذاته و صفاته، بداهةَ تفوُّق المحتاج إليه على المحتاج، فيكون هو الأحقّ بالعبوديّة و الوجوب. و قد تقدّم بأنّه تعالى كان ولم يكن معه شيء، وهو غنيّ عمّا سواه و غير محتاج إليه.

و منها : أنّه ليس بمركّب من الأجزاء الخارجيّة و الذهنيّة و إلّايلزم احتياجه إليها، وقد فرضنا غناه عن كلّ شيء. و بعبارة أُخرى: لايكون مركّباً من الأجزاء الخارجيّة؛ لأنّ الجزء الخارجيّ يحتاج إلى مكان، و المركّب الخارجيّ جسم و أنّه

---

١ ـ الحشر ٢٢/٥٩.

تعالى ليس بجسم، و لايحويه مكان. و لايكون مركّباً من الأجزاء العقليّة؛ لأنّ الجزء العقليّ فرع وجود ما به الاشتراك و الامتياز كالجنس و الفصل، و لايكون له ذلك.

و منها : أنّه ليس محلّاً للحوادث، بداهةَ أنّ الحوادث من لوازم الجسم أو الجسمانيّ، و أنّه تعالى منزّه عنهما مع أنّه قديم و القديم يمتنع أن يكون محلّاً للحوادث، إذ يلزم خلاف الفرض .

و منها : أنّه تعالى لا يَحلّ و لايتّحد بغيره؛ لأنّ الحالّ محتاج إلى المَحَلّ، و قد فرضنا عدم حاجته إلى شيء مع أنّ الحلول في شيء يستلزم خلوّه من آخر، و الحال أنّه تعالى موجود في كلّ مكان لا بمُداخَلة و خارج عنه لا بمُزايَلة. و أمّا الاتّحاد فإن كان بصيرورة الشيئين شيئاً واحداً بلازيادة و لا نقصان فهو محال، و إن كان بدون ذلك و اتّحد مع واجب مثله لزم تعدّده. فالحاصل بعد الاتّحاد إمّا واجب أو ممكن، فانقلب أحدهما إلى الآخر و هو محال، و بدونه جمع بين النقيضَين.

و منها : أنّه تعالى لايُرى بحاسّة البصر في الدنيا و الآخرة، بداهةَ أنّ ما يُرى بالعين لابدّ أن يكون جسماً ذا صورة و مادّة، و أنّه تعالى منزّه عن ذلك .

و منها : أنّه تعالى لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته، بداهةَ مغايرة كلّ مصنوع لصانعه.

و منها : أنّه تعالى لايفعل القبيح؛ لأنّ فاعله إمّا جاهل بقبحه أو عالم به لكنّه عاجز عن تركه أو أنّه في نظره محتاج إلى فعله أو يفعله عبثاً، فيكون جاهلاً أو عاجزاً أو محتاجاً أو عابثاً سفيهاً، و أنّ الله تعالى بريء من ذلك كلّه.

هذه نماذج من الصفات السلبيّة الّتي تكون ذاته تعالى منزّهة عنها بريئة منها.

عدد من الصفات السلبية

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَ اللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١].

﴿وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

﴿اللهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَاتَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لَانَوْمٌ﴾[٣].

﴿وَ أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[٤].

﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[٥].

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٦].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٧].

﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾[٨].

﴿لَنْ تَرَانِي وَ لَـكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾[٩].

﴿وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[١٠].

﴿وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَـكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١١].

﴿وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَ لَـكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١٢].

﴿وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَاتُظْلَمُونَ﴾[١٣].

و من المناسب ذكر خطبة لإمام الموحّدين و قائد الغرّ المحجّلين هي أصل الأدلّة وعمدتها في باب المعارف الإلهيّة، في كتاب التوحيد **عن أميرالمؤمنين** عليه السلام **أنّه**

---

١ ـ فاطر ٣٥/١٥.

٢ ـ آل عمران ٣/٩٧.

٣ ـ البقرة ٢/٢٥٥.

٤ ـ الطلاق ٦٥/١٢.

٥ ـ فصّلت ٤١/٥٤.

٦ ـ الأنعام ٦/١٠٣.

٧ ـ الشورى ٤٢/١١.

٨ ـ النساء ٤/١٥٣.

٩ ـ الأعراف ٧/١٤٣.

١٠ ـ فصّلت ٤١/٤٦.

١١ ـ النحل ١٦/١١٨.

١٢ ـ النحل ١٦/٣٣.

١٣ ـ البقرة ٢/٢٧٢.

خطب في مسجد الكوفة، فقال :

الحمد لله الّذي لا مِن شيء كان، و لا من شيء كوّن ما قد كان، مستشهد بحدوث الأشياء على أزليّته، و بما وَسَمها به من العجز على قدرته، و بما اضطرّها إليه من الفناء على دوامه. لم يَخْلُ منه مكان فيُدرَك بأينيّة، و لا له شِبه مِثال فيوصف بكيفيّة، و لم يَغِب عن علمه شيء فيعلم بحيثيّة. مبائن لجميع ما أحدث في الصفات، و ممتنع عن الإدراك بما ابتدع من تصريف الذوات، و خارج بالكبرياء و العظمة من جميع تصرّف الحالات، محرّم على بوارع ثاقبات الفِطَن تحديدُه، و على عَوامق ثاقبات الفكر تكييفُه، و على غوائص سابحات الفِطَر تصويرُه. لا تحويه الأماكن لعظمته، و لا تذرعه المقادير لجلاله، و لا تقطعه المقاييس لكبريائه. ممتنع عن الأوهام أن تكتنهه، و عن الأفهام أن تستغرقه، وعن الأذهان أن تمثّله. و قد يئست من استنباط الإحاطة به طوامحُ العقول، و نَضَبت عن الإشارة إليه بالاكتناه بحارُ العلوم، و رجعت بالصغر عن السموّ إلى وصف قدرته لطائفُ الخصوم. واحد لا مِن عدد، و دائم لا بأمد، قائم لا بعَمَد، ليس بجنس فتعادله الأجناس و لا بشبح فتعارضه الأشباح، و لا كالأشياء فتقع عليه الصفات. قد ضلّت العقول في أمواج تيّار إدراكه، و تحيّرت الأوهام عن إحاطة ذكر أزليّته، و حصرت الأفهام عن استشعار وصف قدرته، و غرقت الأذهان في لجج أفلاك ملكوته. مقتدر بالآلاء و ممتنع بالكبرياء، و متملّك على الأشياء، فلا دهرَ يخلقه، و لا وصفَ يحيط به. و قد خضعت له ثَوابت الصِّعاب في محلّ تُخوم قرارها، و أذعنت له رَواصنُ الأسباب في منتهى شواهق أقطارها. مستشهد بكلّية الأجناس على ربوبيّته، و بعجزها على قدرته، و بفطورها على قدمته، و بزوالها على بقائه، فلا لها محيص عن إدراكه و لا خروج من إحاطته بها، و لا احتجاب عن إحصائه لها، و لا امتناع عن قدرته عليها. كفى بإتقان الصنع لها آية، و بمركّب الطبع عليها دلالة، و بحدوث الفطر عليها قِدمة، و بأحكام الصنعة لها عِبرة، فلا إليه حدّ منسوب، و لا له مثل مضروب، و لا شيء

عنه محجوب. تعالى عن ضرب الأمثال و الصفات المخلوقة علوّاً كبيراً[١].

و في النهج، قال عليه السلام : الحمد لله الّذي لايبلغ مِدحتَه القائلون و لايُحصِي نعماءه العادّون، و لايؤدّي حقّه المجتهدون، الّذي لا يُدركه بُعد الهمم ، و لا يناله غَوصُ الفِطَن، الّذي ليس لصفته حدّ محدود، و لانعت موجود، و لاوقت معدود، و لاأجل ممدود ... الخطبة[٢].

و فيه أيضاً قال عليه السلام : ... لم‌يُطلع العقول على تحديد صفته، و لم‌يحجبها عن واجب معرفته، فهو الّذي تشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذي الجحود ... الكلام[٣].

و فيه أيضاً : الحمد لله الّذي لم‌تسبق له حال حالاً، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، و يكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً. كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل، وكلّ عزيز غيره ذليل، و كلّ قويّ غيره ضعيف، و كلّ مالك غيره مملوك، و كلّ عالم غيره متعلّم، و كلّ قادر غيره يقدر و يعجز... الخطبة[٤].

و فيه أيضاً قال عليه السلام : و أشهد أن لا إله إلّاالله وحده لاشريك له، الأوّل لاشيء قبله، و الآخر لاغاية له، لاتقع الأوهام له على صفة، و لاتُعقَد القلوب منه على كيفيّته، و لا تناله التجزئة و التبعيض، و لاتحيط به الأبصار و القلوب[٥].

و فيه أيضاً : أوّل الدين معرفته، و كمال معرفته التصديق به، و كمال التصديق به توحيده، و كمال توحيده الإخلاص له، و كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ؛ لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، و شهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمَن وصف الله سبحانه فقد قَرنَه، و من قرنه فقد ثنّاه، و من ثناه فقد جَزّأه، و من جزّأه فقد جَهِله، و من جهله فقد أشار إليه، و من أشار إليه فقد حَدَّه ... الخطبة[٦].

---

١ ـ التوحيد للصدوق ٦٩ ـ ٧٢.

٢ ـ نهج البلاغة ٣٩ الخطبة ١.

٣ ـ نفس المصدر ٨٨ الكلام ٤٩.

٤ ـ نفس المصدر ٩٦ الخطبة ٦٥.

٥ ـ نفس المصدر ١١٥ الخطبة ٨٥.

٦ ـ نفس المصدر ٣٩ ـ ٤٠ الخطبة ١.

و فيه أيضاً : ... هو القادر الّذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، و حاول الفكر المبرّأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، و تولّهت القلوب إليه لتجري في كيفيّة صفاته، و غمضت مداخل العقول في حيث لاتبلغه الصفات لتنال علم ذاته ... الخطبة[١].

و في دعاء يوم الاثنين عن السجّاد عليه السلام : الحمد لله الّذي لم يُشهد أحداً حين فطر الأرض و السماوات، و لا اتّخذ مُعيناً حين بَرأ النَّسَمات، لم يُشارَك في الإلهيّة ولم يُظاهَر في الوحدانيّة، كَلَّت الألسنُ عن غاية صفته، و العقولُ عن كُنه معرفته... الدعاء[٢].

و قال أميرالمؤمنين : ... و لا يَجري عليه السكون و الحركة، و كيف يجري عليه ما هو أجراه، و يعود فيه ما هو أبداه، و يحدث فيه ما هو أحدثه ! إذاً لتَفاوتت ذاته، و لَتجزّأ كُنهه، و لامتنع من الأزل معناه، و لَكان له وراءُ إذ وجد له أمام، و لالتمسَ التمامَ إذ لزمه النقصان، و إذاً لقامت آية المصنوع فيه ... الخطبة[٣].

و أنت إذا تأمّلت في هذه الخطب ترى فيها مجموعة كاملة من المعارف الحقّة الإلهيّة كلّت الألسن عن الإتيان بمثلها، و مثل قائلها العظيم ينبغي أن يُتّخذ أميراً وإماماً ومقتدىً و سراجاً منيراً.

---

١ ـ نفس المصدر ١٢٥ الخطبة ٩١.

٢ ـ البلد الأمين ١١٦ .

٣ ـ نهج البلاغة ٢٧٣ الخطبة ١٨٦.

الفصل الثالث
امتناع معرفة الصفات الذاتيّة

كما لا سبيل للمخلوق إلى معرفة كنه الخالق و حقيقته و الإحاطة به ـ كما قال تعالى ﴿وَ لَايُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾[1] و قال أيضاً ﴿وَ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[2] ـ كذا يمتنع معرفة كنه صفاته الذاتيّة؛ لأنّ صفاته عين ذاته و كلّ ما وصفته به العقلاء فهو على قدر عقولهم، و أمّا هو سبحانه فقد قال تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

و ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من إمكان الاكتناه في الجملة فلايرجع إلى محصّل، و هل يدرك المخلوق خالقه و لو في الجملة؟!

و لا يخفى أنّ الإنسان كثيراً ما يقيس صفات الله عزّوجلّ بصفاته هو، فيجعل علمه مثلاً مرآة لعلمه تعالى فيقع في الأوهام و الأغلاط الّتي ربّما تخرجه عن الطريق المستقيم و تسلك به فى عذاب الجحيم.

و قد مرّ أنّ صفات ذاته تكون عين ذاته، و الذات لا يُعقل إدراكها، و لايصل طائر الفكر إلى أوجها، و «كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه، مخلوق، مصنوع مثلكم، مردود إليكم»[3]. فلا ينبغي أن يقاس علمه بعلم المخلوق و لا شيء من صفاته بصفات المخلوقين، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

١ ـ طه ٢٠/١١٠.
٢ ـ الأنعام ٦/٩١.
٣ ـ بحارالأنوار ٦٩: ٢٩٣.

ثمّ إنّ صفات الكمال لاتنحصر، لأنّ الخلوّ من الكمال نقص، و كلّ نقص منفيّ عنه، و كلّ كمال ثابت له تعالى و إلّا لاستحال أن يكون صانعاً ، بداهة أنّ الصانع لايمكن أن يكون صانعاً إلّا إذا كان كاملاً في صنعه، فلابدّ أن يكون صانع جميع العالم كاملاً بالذات من جميع الجهات، و المقصود من الصفات الثبوتيّة نفي أضدادها أو إبطال الحدَّين، أي أنّه تعالى ليس معطّلاً في القدرة و العلم، و ليس شبيهاً بالقادر منّا. و قد جمع الله بينهما في قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [١].

بَيد أنّ العلماء قد ذكروا أنّ صفات الجمال ثمانية، هي : القدرة و العلم و الحياة و الإرادة و الإدراك و الكلام و الصدق و السرمديّة، كما عن الطوسيّ في تجريده [٢]. و لعلّ وجه الاكتفاء بهذه الثمانية ـ مع أنّ صفاته كثيرة ـ أنّ الغرض بيان الصفات الذاتيّة الحقيقيّة، و ما عدا هذه المذكورات إمّا إضافيّة محضة كالخالق و الرازق، و إمّا ترجع إلى المذكورات. على أنّه يمكن إرجاع جميع الصفات إلى العلم و القدرة، بل يمكن ردّ الجميع إلى وجوب الوجود كما لايخفى . و لكنّه حيث أشير إليها في الآيات و الأخبار، و التفصيل أولى من الإجمال خصوصاً في مقام تعدّد صفات الكمال، فعدّها تفصيلاً أجمل لأنّ ذلك أقرب إلى معرفة الواحد الحكيم.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بالأشباح : ...و ما كلّفك الشيطان علمه ممّا ليس في الكتاب عليك فرضه، و لا في سنّة النّبي صلى الله عليه وآله و أئمّة الهدى أثره، فكِلْ علمه إلى الله سبحانه؛ فإنّ ذلك منتهى حقّ الله عليك. و اعلم أنّ الراسخين في العلم هم الّذين أغناهم عن اقتحام السُّدَد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدَحَ الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم‌يحيطوا به علماً ، وسمّى تركهم التعمّق فيما لم‌يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصِرْ على ذلك، و لا تُقدّرْ عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين.

---

١ ـ الشورىٰ ٤٢/١١ .

٢ ـ كشف المراد ٣٠٥ ـ ٣١٥.

هو القادر الّذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك مُنقطَع قدرته، و حاول الفكر المبرّأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، و تولّهت القلوب إليه لتجري في كيفيّة صفاته، و غَمَضَت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناولِ علم ذاته، رَدَعَها و هي تَجوب مهاوي سُدَف الغيوب، متخلّصة إليه سبحانه، فرجعت إذ جُبِهت معترفةً بأنّه لا يُنال بجور الاعتساف كُنهُ معرفته، و لا تخطر ببال أُولي الرَّويّات خاطرةٌ مِن تقدير جلال عزّته... الخطبة[١].

عن الصادق عليه السلام أنّه قال: سبحان من لايعلم أحد كيف هو إلّاهو، ليس كمثله شيء، و هو السميع البصير، لا يُحدّ و لا يُحسّ، و لا يُجسّ و لا يُمسّ، و لا تدركه الحواسّ، و لا يحيط به شيء، و لا هو جسم، و لا صورة، و لا تخطيط، و لا تحديد[٢].

و عنه أيضاً أنّه قال عليه السلام لهشام : أنّ الله تبارك تعالى لايشبه شيئاً و لايشبهه شيء، وكلّ ما وقع في الوهم فهو بخلافه[٣].

و عنه أيضاً قال عليه السلام : إنّ الله عظيم رفيع، لايقدر العباد على صفته، و لايبلغون كنه عظمته، لاتدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار و هو اللطيف الخبير، و لايوصف بكيف و لا أين و لاحيث... الحديث[٤].

في خبر طويل عن الحسين بن عليّ صلوات الله عليهما: و لاتنزل عليه الأحداث، و لا يقدر الواصفون كنه عظمته، و لا يخطر على القلوب مبلغُ جبروته، لأنّه ليس له في الأشياء عديل، و لاتدركه العلماء بألبابها، و لا أهل التفكير بتفكيرهم إلّابالتحقيق إيقاناً بالغيب؛ لأنّه لايوصف بشيء من صفات المخلوقين، و هو الواحد الصمد، و ما تُصُوّر في الأوهام فهو خلافه... الحديث[٥].

---

١ ـ نفس المصدر ١٢٥ ـ ١٢٦ الخطبة ٩١.

٢ ـ التوحيد للصدوق ٩٨.

٣ ـ نفس المصدر ٨٠.

٤ ـ نفس المصدر ١١٥.

٥ ـ تحف العقول ٢٤٤.

عن أبي بصير قال: قال أبوجعفر عليه السلام: تكلّموا في خلق الله و لاتكلّموا في الله؛ فإنّ الكلام في الله لايزداد صاحبه إلّا تحيّراً[1].

سليمان بن خالد قال: قال أبوعبدالله عليه السلام: إنّ الله عزّ و جلّ يقول ﴿وَ أَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ﴾، فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا[2].

محمّد بن مسلم قال: قال أبوعبدالله عليه السلام: يا محمّد، إنّ النّاس لايزال بهم المنطق حتّى يتكلّموا في الله، فإذا سمعتم ذلك فقولوا: لا إله إلّاالله الواحد الّذي ليس كمثله شيء[3].

و في المناجاة السجاديّة [مناجاة العارفين]: إلهي قَصُرَت الألسنُ عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك، و عجزت العقول عن إدراك كنه جمالك ... الدعاء[4].

محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: إيّاكم و التفكّرَ في الله، و لكنْ إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه[5].

عن عبد الرّحمان بن عُتيك القصير قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن شيء من الصفة، فرفع يده إلى السماء، ثمّ قال: تعالى الجبّار، تعالى الجبّار، مَن تعاطى ما ثَمَّ هلك[6].

ثمّ إنّ منتهى ما ذكر عدم إمكان الاكتناه و عدم إدراك حقيقة ذاته، فإنّه يدرك الأبصار و لاتدركه الأبصار و هو اللطيف الخبير، فإذا علمنا و اعتقدنا بأنّ هناك صانعاً، حكيماً، قادراً، عليماً، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، خرجناه عن حدّ التعطيل و التشبيه، وهو التوحيد الّذي لابدّ من الاعتراف به. رزقنا الله إيّاه و جميع الأناسيّ بحقّ محمّد و آله الطاهرين.

---

١ ـ الأصول من الكافي ١ : ٩٢.

٢ ـ نفس المصدر و الموضع، و الآية في سورة النجم ٤٢/٥٣.

٣ ـ نفس المصدر و الموضع.

٤ ـ بحار الأنوار ٩٤ : ١٥٠.

٥ ـ الأصول من الكافي ١ : ٩٣.

٦ ـ نفس المصدر ١ : ٩٤.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام : ... فلسنا نعلم كنه عظمتك إلّا أنّا نعلم أنّك حيٌّ قيّومٌ، لاتأخذك سِنة و لا نوم. لم يَنتهِ إليك نظر، و لم يدركك بصر، أدركتَ الأبصار، و أحصيت الأعمال... الخطبة[١].

و قال عليه السلام : ... لاتقع الأوهام على صفته، و لاتُعقد القلوب منه على كيفيّة، ولاتناله التجزئة و التبعيض، و لاتحيط به الأبصار و القلوب[٢].

نفي التشبيه

قد تقدّم في المباحث السابقة أنّه تعالى لايشبه شيئاً من مخلوقاته و ليس له أجزاء و أعضاء، و حيث ثبت ذلك بالبراهين العقليّة و الآيات الصريحة فما ورد في بعض الظواهر من إثبات عضو له تعالى كقوله ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[٣]، أو جواز رؤيته في الآخرة كقوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[٤]، أو جواز المجيء له كقوله تعالى ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾[٥] فلابدّ من رفع اليد عن تلك الظواهر؛ لأنّ في إبقاء تلك الظواهر على ظواهرها تقديماً للنقلي المحتمل على العقليّ و النقليّ القطعيّ، و إذا تعارض النقل و العقل تقدّم العقل؛ لأنّ في تقديم النقل إبطالاً لهما كما لا يخفى.

١ ـ نهج البلاغة ٢٢٥ الخطبة ١٦٠.

٢ ـ نفس المصدر ١١٥ الخطبة ٨٥.

٣ ـ الفتح ٤٨/١٠.

٤ ـ القيامة ٧٥/٢٢ ـ ٢٣.

٥ ـ الفجر ٨٩/٢٢.

الفصل الرابع
الأسماء الحسنى

﴿وَ لِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[1].

﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾[2].

﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾[3].

﴿اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾[4].

أبوعبدالله عليه السلام قال: الله غاية مَن غَيّاه، فالمُغَيّىٰ غير الغاية، توحّد بالربوبيّة و وصف نفسه بغير محدوديّة، فالذاكر الله غير الله، و الله غير أسمائه، و كلّ شيء وقع عليه اسم شيء سواه فهو مخلوق، ألا ترى إلى قوله ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾، العظمة لله، وقال ﴿وَ لِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، ... فالأسماء مضافة إليه، وهو التوحيد الخالص[5].

و سئل أبوالحسن عليّ بن محمّد عليهما السلام عن التوحيد فقيل له: لم يَزَل الله وحده لا شيء معه ثمّ خلق الأشياء بديعاً و اختار لنفسه أحسن الأسماء، و لم تَزَل الأسماء و الحروف له معه قديمة؟ فكتب: لم‌يزل الله موجوداً، ثمّ كوّن ما أراد،

---

١ ـ الأعراف ١٨٠/٧.
٢ ـ الإسراء ١١٠/١٧.
٣ ـ الحشر ٢٤/٥٩.
٤ ـ طه ٨/٢٠.
٥ ـ التوحيد للصدوق ٥٨ ـ ٥٩، و الآية الأولى في سورة النساء ١٣٩/٤ و الثانية في سورة الأعراف ١٨٠/٧.

لا رادّ لقضائه، و لامعقّب لحكمه، تاهَتْ أوهام المتوهّمين، و قَصُر طَرف الطارفين، و تلاشت أوصاف الواصفين... الحديث[١].

أبوعبدالله عليه السلام قال : إنّ الله عزّ و جلّ جعل اسمه الأعظم على ثلاثة و سبعين حرفاً، فأعطى آدم منها خمسة و عشرين حرفاً، و أعطى نوحاً منها خمسة عشر حرفاً، و أعطى منها إبراهيم ثمانية أحرف، و أعطى موسى منها أربعة أحرف، و أعطى عيسى منها حرفين، و كان يحيي بهما الموتى و يبرئ بهما الأكمه و الأبرص، و أعطى محمّداً اثنين و سبعين حرفاً، و احتجب حرفاً لئلّا يُعلم ما في نفسه، و يعلم ما في نفس العباد[٢].

و في حديث عن الحسن بن عليّ عليه السلام : ... خَلَق الخلقَ فكان بديئاً بديعاً، ابتدأ ما ابتدع، و ابتدع ما ابتدأ، و فعل ما أراد، و أراد ما استزاد، ذلكم الله ربّ العالمين[٣].

عن الصادق جعفر بن محمّد عن أبيه عن أجداده عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال : إنّ لله تبارك و تعالى تسعة و تسعين اسماً، مائة إلّا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنّة، و هي : الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأوّل، الآخِر، السميع، البصير، القدير، القاهر، العليّ، الأعلى، الباقي، البديع، البارئ، الأكرم، الظاهر، الباطن، الحيّ، الحكيم، العليم، الحليم، الحفيظ، الحقّ، الحسيب، الحميد، الحفيّ، الربّ، الرحمان، الرحيم، الذارئ ... الحديث[٤].

معنى الاسم

الاسم ما دلّ على الذات الموصوفة بصفة معيّنة، كلفظ «الرحمان» الدالّ على ذات متّصفة بالرحمة. و قد يطلق الاسم على نفس الذات باعتبار اتّصافها بالصفة،

---

١ ـ الاحتجاج ٤٤٩.
٢ ـ بصائر الدرجات ٢٠٨ ـ ٢٠٩.
٣ ـ التوحيد للصدوق ٤٦.
٤ ـ نفس المصدر ١٩٤ ـ ١٩٥.

وعلى هذا هو عين المسمّى باعتبار الهويّة و الوجود و إن كان غيره باعتبار المعنى والمفهوم. و هذا كما أنّ صفاته تعالى عين ذاته المقدّسة، و هي غيرها باعتبارَين، كما سئل مولانا الرضا عليه السلام عن الاسم ما هو ؟ قال عليه السلام : صفة لموصوف[١].

و عن هشام بن الحكم أنّه سأل أبا عبدالله عليه السلام عن أسماء الله و اشتقاقها : الله ممّا هو مشتق ؟ فقال : يا هشام، الله مشتقّ من «إله» و إله يقتضي مألوهاً، و الاسم غير المسمّى، فمَن عَبَد الاسم دون المعنى فقد كفر و لم يعبد شيئاً، و مَن عَبَد الاسم والمعنى فقد أشرك و عبد اثنَين، و مَن عبد المعنى دون الاسم فذلك التوحيد، أفهمتَ يا هشام؟! قال: قلت: زدني، قال : لله تسعة و تسعون اسماً، فلو كان الاسم هو المسمّى لكان كلّ اسم منها إلهاً، و لكنّ ﴿الله﴾ معنى يُدَلّ عليه بهذه الأسماء، وكلّها غيره. يا هشام، الخبز اسم للمأكول، و الماء اسم للمشروب، و الثوب اسم للملبوس، و النار اسم للمُحْرِق، أفهمتَ يا هشام فهماً تدفع به و تناضل به أعداءنا المتّخِذين مع الله عزّ و جلّ غيرَه ؟! قلت : نعم، فقال : نفعك الله به و ثبّتك يا هشام، قال : فو الله ما قهرني أحد في التوحيد حتّى قمتُ مقامي هذا[٢].

و عنه عليه السلام : مَن عبد الله بالتوهّم فقد كفر، و مَن عبد الاسم و لم يعبد المعنى فقد كفر، ومَن عبد الاسم و المعنى فقد أشرك، و من عبد المعنى بايقاع الأسماء عليه بصفاته الّتي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه و نطق به لسانه في سرائره و علانيته فأولئك هم المؤمنون حقّاً[٣].

المراد بالاسم في الخبرين ما يفهم من اللفظ، و المراد بالمعنى ما يَصدُق عليه اللفظ، فالاسم أمر ذهنيّ و المعنى أمر خارجيّ و هو المسمّى. و الاسم غير المسمّى؛ لأنّ الإنسان في الذهن مثلاً ليس بإنسان و لا له جسميّة و لاحياة ولاحسّ و لاحركة و لانطق و لاشيء من الخواصّ الإنسانيّة، فتدبّر جيّداً.

---

١ ـ الأصول من الكافي ١ : ١١٣.

٢ ـ نفس المصدر ١ : ١١٤.

٣ ـ التوحيد للصدوق ٢٢٠.

بيان : إنّ جُلّ أسمائه تعالى تندرج تحت الاسم «الله»؛ لاشتماله على جميع الصفات الإلهيّة، و الاسم الأعظم مستور فيها إلّا عن أهله، و له آثار غريبة و خواصّ عجيبة و مناسبات للنفوس و تأثيرات فيها ذِكراً و كتابةً و نطقاً و استصحاباً، بشرائط مخصوصة ذكرها أهلها في محلّها، قال الصدوق رضوان الله عليه ؛ إحصاء الأسماء هو الإحاطة بها و الوقوف على معانيها و ليس معنى الإحصاء عدّها[١].

ثمّ أنّ كلّ ما يوهم نقصاً لايجوز إطلاقه عليه تعالى، مثل: العارف و العاقل و الفَطِن و الذكيّ؛ لأنّ المعرفة تُشعر بسَبق فِكر، و العقل هو المنع عمّا لا يليق، و الفطنة و الذكاء تشعران بسرعة الإدراك لِما غاب عن الدرك. و المستهزئ و الماكر و إن وردا في القرآن لكن على نحو آخر غير مُوهم للنقص فلايجوز التعدّي عن مورده.

مظاهر الأسماء الإلهيّة

لكلّ اسم من الأسماء الإلهيّة مظهر في الموجودات، باعتبار غلَبة الصفة الّتي اشتمل عليها ذلك الاسم فيه، فإنّ الله تعالى يخلق و يدبّر كلّ نوع من أنواع المخلوقات باسمٍ من أسمائه، ففي الدعاء: و بالاسم الّذي استقرّت به الأرضون على قرارها، و الجبال على أماكنها، و البحار على حدودها[٢].

و في تعقيب صلاة أميرالمؤمنين عليه السلام : و أسألك باسمك الّذي خلقتَ به عرشك الّذي لايعلم ما هو إلّاأنت ـ إلى قوله ـ و أسألك يا الله باسمك الّذي تضعضع به سكّان سماواتك... الدعاء[٣].

و نعني بالاسم هنا، الإطلاق الثاني فيما سبق، و إلى هذا أُشير في كلام أهل

---

١ ـ نفس المصدر ١٩٥.
٢ ـ بحار الأنوار ٩٥ : ٣٧٠.
٣ ـ نفس المصدر ٥٨ : ٣٦.

البيت عليهم السلام في أدعيتهم، بقولهم : و بالاسم الّذي خلقتَ به العرش.

و قال الصادق عليه السلام: نحن و اللهِ الأسماءُ الحسنى الّتي لا يَقبل الله من العباد عملاً إلّابمعرفتنا[1]. و ذلك لأنّهم وسائل معرفته تعالى و وسائط ظهور صفاته، بل يمكن أن يقال: بأنّ جلّ الموجودات هي بعينها أسماء الله تعالى لأنّها تـدلّ عـلى الله دلالة الاسم على المسمّى، فإنّ الدلالة كما تكون باللفظ تكون بالذات من غير فرق بينهما فيما يؤول إلى المعنى، بل كلّ موجود بمنزلة كلام صادر عنه تعالى دالّ على توحيده و تسبيحه و تمجيده، و يكون لساناً ناطقاً بوحدانيّته يسبّح بحمده و يقدّسه عمّا لايليق به، قال تعالى ﴿وَ إِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[2]، بل كلّ موجودٍ ذِكرٌ و تسبيح له تعالى، إذ يُفهم منه وحدانيّته و علمه و اتّصافه بصفات الكمال و تقدّسه عن النقص و الزوال، فإنّ البراهين قائمة و العقول حاكمة بوجوب انتهاء كلّ فقر إلى غنى و كلّ نقصان إلى تمام، و أنّها قاضية بوجوب رجوع كلّ مخلوق إلى خالق، و كلّ مصنوع إلى صانع، و كلّ مربوب إلى ربّ، فتكون نواقص الخلائق دالّة على كمال خالقها وتمامه، كما أنّ كثراتها و اختلافاتها دالّة على وحدانيّته تعالى و نفي الشريك عنه ونفي الضدّ و النّدّ له.

قال أميرالمؤمنين : ... بتشعيره المشاعرَ عُرف أنْ لامشعر له، و بتجهيره الجواهرَ عُرف أن لاجوهر له، و بمضادّته بين الأشياء عُرف أن لاضدّ له، و بمقارنته بين الأشياء عرف أن لاقرين له ـ إلى أن قال ـ ففرّق بين قَبل و بَعد ليعلم أن لاقبل له و لابعد، شاهدة بغرائزها أن لاغريزة لمغرّزها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقّتها، حَجَب بعضها عن بعض لِيُعلم أن لاحجاب بينه و بين خلقه ... الخطبة[3].

---

١ ـ تفسير العيّاشيّ ٢:٤٢.
٢ ـ الإسراء ١٧/٤٤.
٣ ـ الأصول من الكافي ١ : ١٣٨ ـ ١٣٩.

الفصل الخامس
الجبر و التفويض

الجبر

قد مرّ في المباحث السابقة أنّ العقل و النقل يدلّان على أنّه تعالى حكيم ولا يفعل القبيح[1]، و مقتضى ذلك أنّه لا يُضيع أجر المحسن، و لايعذّب مَن صدر عنه الفعل بلاإرادة و لا اختيار.

و قد ذهب جمع إلى أنّ أفعال العباد مخلوقة له تعالى، حتّى الشرور، و مع ذلك يعذّبهم. و بدعوى أنّ مقتضى كونه تعالى هو الخالق الّذي لاشريك له في خالقيّته و صانعيّته، هو أن يكون الله خالق كلّ شيء منها أفعال العباد، فأنكروا الأسباب الطبيعيّة.

و ذهب آخرون ـ و هم المفوّضة ـ إلى أنّه تعالى فوّض الأفعال إلى المخلوقين، و رفع قدرته عنها، باعتبار أنّ نسبة الأفعال إليه تستلزم نسبة النقص إليه. و من يقول

---

١ ـ و توضيح ذلك زيادة على ما مرّ: أنّه لو كان يفعل القبيح و الظلم فإنّ الأمر في ذلك لايخلو عن أربع صور:

١ ـ أن يكون جاهلاً بأمر فلايدري أنّه قبيح فيفعله. ٢ ـ أن يكون عالماً به لكنّه مجبور على فعله و عاجز عن تركه. ٣ ـ أن يكون عالماً به و غير مجبور عليه لكنّه محتاج إلى فعله. ٤ ـ أن يكون عالماً و غير محتاج إليه و غير مجبور على فعله، لكنّه يفعله عبثاً و تشهّياً و لهواً، و كلّ هذه الصور محال عليه؛ لاستلزام النقص فيه، و قد فرضنا أنّه محض الكمال لايتصوّر فيه النقص. المؤلّف

بهذه المقالة قد أخرج الله تعالى من سلطانه و أشرك غيره معه في الخلق.

و أمّا النمط الأوسط الآخذون معالم دينهم من الله و رسوله و أوليائه فقالوا بأنّه : لا جبر و لا تفويض، بل أمرٌ بين الأمرَين.

و لسنا في مقام استقصاء القول في هذا المضمار، ذلك أنّ الغرض بيان ما يستفاد من الآيات و إيراد ما يشير منها إلى المقصود.

قد استدلّ القائل بالجبر بآيات تدلّ بزعمه على الجبر، كقوله تعالى:

﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

﴿وَ اللهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[3].

﴿وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[4].

و نحوها ما يسند الهداية و الضلالة و كلّ ما يقع في العالم إليه تبارك و تعالى.

و هذه الآيات لمّا قام البرهان العقليّ على بطلان الجبر لابدّ من تأويلها و رفع اليد عن ظهورها، مع أنّها معارَضة بمثلها، و هي أصناف من الآيات.

نفي الجبر

إضافة الفعل إلى العبد

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾[5].

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾[6].

---

١ ـ الزمر ٦٢/٣٩.

٢ ـ الصافّات ٩٦/٣٧.

٣ ـ البقرة ٧/٢.

٤ ـ الأنعام ١٢٥/٦.

٥ ـ يوسف ١٨/١٢.

٦ ـ المائدة ٣٠/٥.

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [١].

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [٢].

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [٣].

مدح المؤمنين على الإيمان و ذمّ الكافرين على الكفر

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٤].

﴿وَ لَاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [٥].

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [٦].

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [٧].

﴿وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [٨].

تنزيه أفعاله تعالى عن مماثلة أفعالنا في التفاوت و الظلم

﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [٩].

﴿إِنَّ اللهَ لَايَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [١٠].

﴿وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَـٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [١١].

﴿لَاظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [١٢].

---

١ ـ الطور ٥٢/٢١.
٢ ـ المدّثّر ٧٤/٣٨.
٣ ـ النساء ٤/١٢٣.
٤ ـ الجاثية ٤٥/٢٨.
٥ ـ الأنعام ٦/١٦٤.
٦ ـ طه ٢٠/١٥.
٧ ـ الأنعام ٦/١٦٠.
٨ ـ طه ٢٠/١٢٤.
٩ ـ الملك ٦٧/٣.
١٠ ـ النساء ٤/٤٠.
١١ ـ هود ١١/١٠١.
١٢ ـ غافر ٤٠/١٧.

﴿وَ لَاتُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[١].

ذمّ العباد و توبيخهم على الكفر و المعاصي

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾[٢].
﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾[٣].
﴿وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾[٤].
﴿وَ مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَآمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ﴾[٥].

التهديد و التخيير

﴿فَمَنْ شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٦].
﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾[٧].

الدعوة إلى المسارعة إلى الخيرات

﴿وَ سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٨].
﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٩].

---

١ ـ النساء ٧٧/٤.
٢ ـ البقرة ٢٨/٢.
٣ ـ المدّثّر ٤٩/٧٤.
٤ ـ الكهف ٥٥/١٨.
٥ ـ النساء ٣٩/٤.
٦ ـ الكهف ٢٩/١٨.
٧ ـ المزّمّل ١٩/٧٣.
٨ ـ آل عمران ١٣٣/٣.
٩ ـ الأنفال ٢٤/٨.

حثّ العباد على الاستعانة

﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾[١].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[٢].

استغفار الأنبياء و الأولياء

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى﴾[٤].

اعتراف الكفّار و العصاة بنسبة الكفر و العصيان إليهم

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[٥].

ندامة أهل الكفر و المعاصي في الآخرة

﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾[٦].

﴿رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً﴾[٧].

﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[٨].

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[٩].

---

١ ـ الأعراف ١٢٨/٧.

٢ ـ آل عمران ١٥٩/٣.

٣ ـ الأعراف ٢٣/٧.

٤ ـ القصص ١٦/٢٨.

٥ ـ المدّثّر ٤٢/٧٤ ـ ٤٤.

٦ ـ المؤمنون ١٠٦/٢٣ ـ ١٠٧.

٧ ـ المؤمنون ٩٩/٢٣ ـ ١٠٠.

٨ ـ الأنعام ٣١/٦.

٩ ـ فاطر ٣٧/٣٥.

و هذه الآيات صريحة في استناد الفعل إلى العبد، و لذلك تصحّ المؤاخذة عليها أو المثوبة لها، كما يصحّ التكليف و الوعد و الوعيد، و لولا ذلك لكان العقاب والثواب على غير المقدور و هو قبيح و ظلم، و نِعم ما قال الشاعر:

ألقاهُ في اليَمّ مكتوفاً، و قال لَهُ: إيّاكَ إيّاك أن تَبتلّ بالماءِ[١]!

و ما يستفاد من الآيات هو الّذي يحكم به الوجدان و العقل الحاكم في باب الإطاعة و العصيان؛ فإنّا نرى بالضرورة الفرق بين حركات اليد المرتعشة و اليد السالمة، فتصحّ مؤاخذة الثانية لو صدر منها القبيح دون الأُولى. كما نرى بالوجدان أنّ الفعل يصدر منّا بإرادتنا و مشيئتنا و يكون لنا الخيار في فعله و تركه، و كفى بالوجدان و العقل في هذا المضمار شاهداً و دليلاً، و لا يصغى معه إلى مقالة المشركين و المنكرين للحشر و النشر و إن صدرت عن جمع من المسلمين، قال الله تعالى :

﴿وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَ اللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[٢].

﴿وَ قَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[٣].

و لا ريب أنّ القائلين بالجبر ـ مع أنّهم أنكروا ما هو ضروريّ الوجدان و صريح القرآن ـ تبعوا الشيطان في هذا الاعتقاد أو هو تابَعَهم، حيث إنّه أشعريّ الأصول حنفيّ الفروع، كما نقل تعالى عنه ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى﴾[٤] فنسب الإغواء إليه تعالى، و هو مذهب الأشاعرة القائلين بأنّ الهداية و الإضلال و الخير و القبيح منه تعالى من غير دخل للعبد فيها[٥]، وقول الشيطان الذي حكاه قوله تعالى: ﴿ خَلَقْتَنِى

---

١ ـ كما تدلّ على ما ذكرنا أيضاً جميع الآيات الواردة في بيان التكاليف الواجبة و المستحبّة و الآيات الأخلاقية و الترغيبية و التحذيريّة، حيث تدلّ على أنّ المأمور له اختيار و إرادة و قدرة على الفعل و الترك، وإلّا كان الحثّ و الزجر ـ و الإنسان مضطرّ إلى الفعل و الترك ـ لغواً محضاً.

٢ ـ الأعراف ٢٨/٧.

٣ ـ النحل ٣٥/١٦.

٤ ـ الأعراف ١٦/٧.

٥ ـ كشف المراد ٢٣٨ و ٢٣٩.

مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1]، فعمل بالقياس كإخوانه الحنفيّة.

قضية تاريخيّة

و هي أنّ الحجّاج كتب إلى الحسن البصريّ و إلى عمرو بن عُبيد و إلى واصل بن عطاء و إلى عامر الشعبيّ أن يذكروا ما عندهم و ما وصل إليهم في القضاء و القدر، فكتب إليه الحسن البصريّ : أنّ من أحسن ما سمعت من أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: يا ابن آدم، أتظنّ أنّ الّذي نهاك دهاك، و إنّما دهاك أسفلك و أعلاك، و الله بريء من ذلك.

و كتب إليه عمرو بن عبيد : أحسن ما سمعت في القضاء و القدر قول أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام : لو كان الوِزر في الأصل محتوماً كان المَوزور في القصاص مظلوماً.

و كتب إليه واصل بن عطاء : أحسن ما سمعت في القضاء و القدر قول أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب أنّه قال : أيدلّك على الطريق و يأخذ عليك المَضيق؟!

و كتب إليه الشعبيّ : أحسن ما سمعت في القضاء و القدر قول أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال :كلّ ما استغفرتَ الله منه فهو منك، و كلّ ما حمدت الله تعالى فهو منه[2].

التفويض

و المفوّضة هم القائلون بأنّ الله تعالى خلق الإنسان و أقدره على العمل

١ ـ الأعراف ١٢/٧.
٢ ـ الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

و فوّض إليه الأمر، بحيث لا دخل له فيه بل لايقدر على دفعه عنه، زعماً منهم بأنّ العدل و الحكمة يقتضيان ذلك؛ لئلّا ينسب القبيح الصادر من العبد إليه.

و أنت ترى أنّ هذا الرأي يوجب سلب القدرة عنه تعالى، و كونَ العبد غالباً عليه سبحانه في عمله. و قد ذكرنا أنّ مذهب الحقّ استقرّ على أنّه لا جبر من الله تعالى على الفعل الصادر عن عبده، كما لاتفويض بحيث يكون الله تعالى غير قادر عن منعه، بل الله تعالى أوجد العبد و خلقه مختاراً، و له تعالى في كلّ آنٍ أن يتصرّف في عبده كيف شاء، و أنّ كلّ ما يفعله العبد يكون بالقدرة الّتي أعطاه إيّاها خالقه، فهو أولى بحسناته من العبد؛ لإعطائه الحياة و القدرة و الأسباب. و العبد أولى بسيئاته من ربّه؛ لأنّه فعلها بإرادته و اختياره و كان في وسعه تركها.

يزيد بن عُمَير قال : دخلتُ على عليّ بن موسى الرضا عليه‌السلام بمَرْو، فقلت له: يابن رسول‌الله، رُوي لنا عن الصادق جعفربن محمّد عليهما‌السلام أنّه قال : لاجبر ولاتفويض بل أمر بين أمرَين، فما معناه ؟ فقال : مَن زعم أنّ الله يفعل أفعالنا ثمّ يعذّبنا عليها فقد قال بالجبر، و من زعم أنّ الله عزّ و جلّ فوّض أمر الخلق و الرزق إلى حُجَجه عليهم‌السلام فقد قال بالتفويض، و القائل بالجبر كافر و القائل بالتفويض مشرك. فقلت له: يابن رسول الله، فما أمرٌ بين أمرين؟، فقال : وجود السبيل إلى إتيان ما أُمروا به و ترك ما نُهوا عنه. فقلت له: فهل لله عزّ و جلّ مشيّة و إرادة في ذلك ؟ فقال: أمّا الطاعات فإرادة الله و مشيّته فيها الأمر بها و الرضا لها و المعاونة عليها، و إرادته و مشيّته في المعاصي النهي عنها و السخط لها و الخذلان عليها. قلت: فهل لله فيها القضاء ؟ قال: نعم، ما مِن فعل يفعله العباد من خيرٍ أو شرّ إلّا و لله فيه قضاء. قلت: فما معنى هذا القضاء ؟ قال: الحكم عليهم بما يستحقّونه على أفعالهم من الثواب و العقاب في الدنيا و الآخرة[١].

---

١ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١٢٦ .

و في روايةٍ، سأل أبوحنيفة موسى بن جعفر عليه السلام و هو غلام ... ثمّ قال عليه السلام : يا غلام، ممّن المعصية ؟ قال: يا شيخ، لاتخلو من ثلاث ؛ إمّا أن تكون من الله و ليس من العبد شيء فليس للحكيم أن يأخذ عبده بما لم‌يفعله، و إمّا أن تكون من العبد ومن الله و الله أقوى الشريكين، فليس للشريك الأكبر أن يأخذ الشريك الأصغر بذنبه. و إمّا أن تكون من العبد و ليس من الله شيء فإن شاء عفا و إن شاء عاقب، قال : فأصابت أباحنيفة سكتة كأنّما اُلقم فُوه الحجر[١].

عليّ بن موسى الرضا عن آبائه عن الحسين بن عليّ عليهما السلام قال : سمعت أبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول : الأعمال على ثلاثة أحوال : فرائض و فضائل ومعاصي، فأمّا الفرائض فبأمر الله تعالى و برضى الله و بقضائه و تقديره و مشيّته وعلمه، و أمّا الفضائل فليست بأمر الله و لكن برضى الله و بقضاء الله و بقدر الله وبمشيّة الله و بعلم الله، و أمّا المعاصي فليست بأمر الله و لكن بقضاء الله و بقدر الله وبمشيّة الله و بعلمه ثمّ يعاقب عليها[٢].

أبو عبدالله عليه السلام قال : الناس في القدر على ثلاثة أوجه: رجل يزعم أنّ الله عزّ وجلّ أجبر الناس على المعاصي، فهذا قد ظلم الله عزّ و جلّ في حكمه و هو كافر، و رجل يزعم أنّ الأمر مفوَّض إليهم فهذا وَهّن الله في سلطانه فهو كافر، و رجل يقول إنّ الله عزّ و جلّ كلّف العباد ما يطيقون و لم يكلّفهم ما لايطيقون، فإذا أحسنَ حَمِد الله و إذا أساء استغفر الله، فهذا مسلم بالغ[٣].

عن الوشّاء قال : سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام فقلت له : الله فوّض الأمر إلى العباد؟ قال عليه السلام : الله أعزّ من ذلك، قلت : فأجبرهم على المعاصي؟ قال عليه السلام : الله أعدل و أحكم من ذلك، ثمّ قال عليه السلام : قال الله عزّ و جلّ : يابن آدم، أنا أولى

---

١ ـ الاحتجاج ٣٨٨.

٢ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١٤٢ ؛ التوحيد للصدوق ٣٧٠ ؛ الخصال ١٦٨.

٣ ـ التوحيد للصدوق ٣٦٠ ـ ٣٦١ ؛ الخصال ١٩٥.

بحسناتك منك، و أنت أولى بسيّاتك منّي، عملتَ المعاصي بقوّتي الّتي جعلتها فيك[١].

المفضّل عن أبي عبدالله عليه السلام قال : لاجبر و لاتفويض، و لكن أمر بين أمرين. قال: قلت : و ما أمر بين أمرين ؟ قال عليه السلام: مَثَل ذلك مَثَل رجل رأيتَه على معصية فنهيته فلم ينتهِ فتركته ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته أنت الّذي أمرته بالمعصية[٢].

و في خطبة لأميرالمؤمنين عليه السلام : إنّ الله سبحانه أمر عباده تخييراً، و نهاهم تحذيراً، و كلّف يسيراً، و لم‌يكلّف عسيراً، و أعطى على القليل كثيراً، و لم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطَعْ مكرهاً، ولم‌يرسل الأنبياء لعباً، و لم‌ينزل الكتاب للعباد عبثاً، و لاخلق السماوات و الأرض و ما بينهما باطلاً ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾[٣].

و تجد أمثال هذه الأحاديث في البحار[٤] كثيراً. و كيف يُنسَب القبيح إليه تعالى وقد قال ﴿ الَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[٥]؟! فأخبر تعالى أنّ كلّ شيء خلقه حَسَن غير قبيح، فلو كانت القبائح من خلقه لَما حكم بحسن جميع ما خَلق.

و قد نفى تعالى التفاوت في خلقه، فقال ﴿ مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[٦]. و من البديهي أنّ الكفر و المعصية و الكذب و سائر الشرور متفاوتة في نفسها، فاسدة في ذاتها، متضادّة في القول و العمل، فكيف يجوز أن يطلقوا بأنّ الله

---

١ ـ التوحيد للصدوق ٣٦٢ ـ ٣٦٣؛ عيون أخبار الرضا ١ : ١٤٣.

٢ ـ التوحيد للصدوق ٣٦٢.

٣ ـ نهج البلاغة ٤٨١ الحكمة ٧٨، و الآية في سورة ص ٢٧/٣٨.

٤ ـ بحار الأنوار ج ٥ كتاب العدل و المعاد.

٥ ـ السجدة ٧/٣٢.

٦ ـ الملك ٣/٦٧.

تعالى قد خلقها و أجراها على أيدي عباده ؟!

الأمر بين الأمرين

ردٌّ على الأشاعرة في خلق الأفعال

مرّ أنّ الأشاعرة و جماعة من الحكماء ذهبوا إلى الجبر و أنّ الأفعال الصادرة من العبد مخلوقة له تعالى، و استدلوا عليه بقوله تعالى ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[١]، وبقوله ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢]، و غير ذلك من الآيات المُسندة إليه تعالى كلّ شيء، فيكون العباد في نظر هؤلاء بمنزلة الآلة، و الاختيار الموجود فيهم لايؤثّر في الفعل بل هو ممّا يقارن الأفعال، و العبد كاسب للفعل لافاعله و موجده. و زعموا أنّ هذا القول يقتضي نفي الشريك عنه تعالى و إثبات السلطنة التامّة له، إذ لو كان العبد فاعلاً لشيء لزم كونه خالقاً في مقابله تعالى، فيستلزم تعدّد الآلهة بعدد الخلائق[٣]. ويظهر الميل إلى هذه الدعوى من بعض الفلاسفة و ظاهر «الكفاية»[٤].

و استدلّ عليه بتقريب آخر، و هو أنّ أفعال العباد صادرة منهم بالإرادة والاختيار و هذان يؤثّران في الفعل، إلّا أنّ إرادة العبد معلولة لإرادته تعالى، فصدور الفعل ظاهراً من العبد و حقيقةً منه تعالى.

و قد اعتُرض على الأشاعرة بأنّه لو كان كذلك لزم عدم الفرق بين الفعل الاختياريّ و الاضطراريّ، مع أنّ المباينة بينهما بديهيّة. فأجابوا بأنّ الفرق بينهما يكون بمقارنة الفعل الاختياريّ للقدرة و الإرادة دون الاضطراريّ .

و فيه أنّ صرف المقارنة مع عدم تأثير القدرة و الإرادة لامعنى له، و يكون من قبيل سائر المقارنات الزمانيّة و المكانيّة و غيرها مع الفعل، مضافاً إلى أنّ القدرة

---

١ ـ الرعد ١٦/١٣.

٢ ـ الصافّات ٩٦/٣٧.

٣ ـ شرح تجريد العقائد ٣٤٦.

٤ ـ كفاية الأصول ٦٨.

عبارة عن استواء طرفَي الفعل، و لامعنى لأن يقال: هذا قادر، و مع ذلك لايمكنه تركه، فلو كانت القدرة موجودة في العبد فلابدّ من تأثيرها و الّا لزم إنكار الضرورة.

و اعترض عليهم أيضاً بأنّ الله يعذّب الطاغين و يُثيب المطيعين، فلو كانت المعصية مخلوقة له تعالى كان العقاب منه ظلماً، تعالى عن ذلك.

و أجابوا عنه بوجهَين، الأوّل: أنّ العذاب يكون على كسب العبد للمعصية لاعلى فعله. و قد فُسّر الكسب بمعنيَين، أحدهما: ما هو المنقول عن رئيسهم، و هو أنّ الكسب عبارة عن مقارنة الفعل للقدرة و الإرادة، و هذا المقدار كافٍ في صحّة العذاب. وثانيهما: ما هو منقول عن الباقلانيّ، و هو أنّ الفعل له جهتان: جهة وجود و هو منه تعالى، و جهة صدق الإطاعة و المعصية عليه و هو من ناحية العبد، والعذاب أو الثواب يكون على الجهة الثانية[١].

و يُردّ على التفسير الأوّل بأنّ الكسب بهذا المعنى خلاف ما هو ظاهر منه لغةً وعرفاً، و ثانياً: أنّ مجرد المقارنة مع عدم تأثير القدرة فيه يكون كمقارنته لسائر الأمور الخارجة عن الاختيار في عدم صحّة العذاب عليه. فهل يصحّ عقاب العبد على عمله بمجردّ وقوعه مقارناً لطول قامته أو حرارة الهواء المجاور له، فإنّ المقارنات في غالبها خارجة عن الاختيار، و العقوبة عليها عقوبة على أمر غير اختياريّ.

و يُردّ على التفسير الثاني بأنّ الإطاعة و المعصية عنوان انتزاعيّ من مطابقة المأمور به مع المأتيّ به أو المنهيّ عنه، فهل يُعقل العقاب على الأمر الانتزاعيّ؟ كلّا و لو قيل بأنّ عنوان الإطاعة من الأمور المتأصّلة، فنقول: أنّ الإطاعة أو المعصية ـ أي عنوانهما ـ يكون من الأفعال و الأمور الواقعيّة، فهل يكون موجده حينئذٍ الله أو العبد؟ على الأوّل يكون العقاب عليه عقاباً على أمر غير اختياريّ، و على الثانيّ

---

١ ـ كشف المراد ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

ثبت إمكان صدور الفعل من العبد.

الوجه الثاني أنّ العقاب على المعصية لايكون قبيحاً و لاظلماً مع كونها فعله تعالى؛ لأنّ القبح و الحسن العقليّين لامعنى لهما، إذ لو فرض حكم العقل بحسن العدل و قبح الظلم لزم أن يكون الله تعالى محكوماً عليه، كيف و هو تعالى يقول ﴿لَايُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[1]، مع أنّ الظلم لا يُتصوّر في حقّه؛ لأنّه عبارة عن التصرّف في ملك الغير، و الله تعالى مالك الملوك.

و فيه ما لايخفى؛ لأنّ قولنا «يدرك العقل القبح و الحسن» معناه أنّه يدرك شيئاً غير مناسب له تعالى أو مناسباً له، لا أنّه يحكم عليه بشيء ليصير محكوماً عليه. ودعوى أنّ العقل لايدرك الحسن و القبح بهذا المعنى مكابرة للوجدان . و الظلم عبارة عن التفريط و الإفراط اللّذين هما خلاف الاستقامة، أي وقوع الفعل في غير محلّه، و ما فسّروا به الظلم يكون تفسيراً للغصب، و هو غير متصوَّر في حقّه. و قد ذكروا أنّ عادة الله جرت على عدم صدور الكذب منه تعالى، و عدم خلف الوعد منه، و عدم صدور القبائح عنه و إلّا لا مانع لصدورها منه.

و فيه: أنّا متى عاشرنا ساحة قدسه، حتّى نعلم عادته؟ و أيّ مخبر أخبرنا بذلك لنعلم أنّه في عادته مجبور أو مختار؟ و أمّا الآية الّتي استدلّوا بها، فيُعارَض ظهورها بظهور الآيات الكثيرة الّتي تسند الفعل إلى العبد، كما تقدّمت الإشارة إليها في أصناف عشرة، مع أنّ نسبة الخلق إلى العباد ممّا نطق به القرآن في أكثر من موضع، كقوله تعالى ﴿تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾[2] و ﴿تَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾[3]. فهذا القسم من الآيات قرينة على أنّ المراد من قوله تعالى ﴿هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4] هو الأُمور التكوينيّة لا أفعال العباد، كما أنّ المراد من قوله تعالى ﴿وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ﴾[5]

---

١ ـ الأنبياء ٢١/٢٣.
٢ ـ المائدة ٥/١١٠.
٣ ـ العنكبوت ٢٩/١٧.
٤ ـ الأنعام ٦/١٠٢.
٥ ـ الصافّات ٣٧/٩٦.

هو الأصنام بموادّها من الخشب و غيرها، كما يظهر من الرجوع إلى صدر الآية.

استدلال و جواب

و قد استدلّ على مذهبهم بوجهَين آخرَين، أحدهما: أنّ الله تعالى علم فعل العبد أو تركه، فلو لم‌يفعل ما يعلم الله وجوده لزم جهله تعالى . و قد زعم الفخر الرازيّ أنّ هذا الإشكال غير مندفع و لو اجتمعت الإنس و الجنّ[1]!

و فيه: أنّ العلم عبارة عن الانكشاف التامّ، و الله تعالى تكون الأفعال و الأشياء في ظرف وجودها مكشوفة عنده و لايكون علمه علّة لوجودها، فلو فعل العبد عملاً يعلم أنّه تعالى قد علم وجوده من قبل و إن لم‌يفعل ينكشف أنّه تعالى علم عدمَه مِن قبل، فيكون علمه بهذه الأمور على نحو علم التابع.

الثاني : أنّ كلّ فعل يصدر من العبد لا يصدر ما لم يصل إلى حدّ الوجوب ؛ لأنّه ممكن محتاج إلى علّة، و الشيء ما لم‌يجب لم‌يوجد، و لو كان صادراً بمجرّد تعلّق الإرادة به بما أنّ الإرادة أيضاً ممكنة محتاجة إلى علّة فيتسلسل .

و فيه: أنّا نجد بالوجدان صدور الفعل من العبد بعد العلم به و إعمال القدرة فيه. و المراد بالفعل الاختياريّ هو ماكان مسبوقاً بالعلم و القدرة. و ما ذكره من المعنى للإرادة بأنّها «عبارة عن الشوق المؤكّد المحرّك للعضلات» لم‌يذكر في لغة العرب أو غيرها، بل الشوق من صفات النفس غير مربوط بالفعل الخارجيّ. و الإرادة لغةً هي المشيّة أي «خواستن»، و يكون بمعنى التهيّؤ للفعل أيضاً. و بالمعنى الثاني ينسب إلى الجمادات، قال تعالى ﴿فَوَجَدَ فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾[2]. و قد ذكر في أخبار كثيرة أنّ إرادته تعالى عبارة عن فعله[3]، و بعد الرجوع إلى وجداننا نجد أيضاً

---

١ ـ المحصّل ۲۸۳ .

۲ ـ الكهف ۱۸/۷۷ .

۳ ـ التوحيد للصدوق ۱٤۷.

أنّها عبارة عن إعمال القدرة، فإذا علم الإنسان شيئاً و علم نفعه فإنّه يُعمِل قدرته. وهذا الإعمال يسمّى بالإرادة، و لاشيء في النفس سوى العلم و القدرة و الأفعال تحصل و تصدر من العبد بإعمال قدرته فيها .

و أمّا إعمال القدرة فلامعنى له بأن يحصل بإعمال قدرة آخر فيه، و هذا معنى أنّ الله خلق الأشياء بالإرادة و الإرادة بنفسها. و الاختيار عبارة عن طلب الخير، و الإنسان عند علمه بشيء فإنّما يبتغي منه الخير و يفعل ما كان خيراً له إذا كان للفعل طرفان، أو كانا ضدّين أو نقيضين، كما أنّ ملاءمة الفعل للنفس تقتضي اختيار الراجح. و بالجملة: الإرادة بالمعنى المصطلح عندهم لاأصل لها لغةً و وجداناً لكي يُبحث في حقيقتها.

ثمّ إنّ الفعل الصادر من العبد إمّا موضوعيّ و إمّا طريقيّ، و الأوّل ما صدر منه مقصوداً لذاته، و الثاني ما صدر منه طريقاً إلى غيره كالقصد و العزم . و الإنسان كثيراً ما يغفل عن قصده و عزمه حيث يصدر منه شرب الماء، فهو يعلم قبل ذلك و يتصوّر و يقصد و يُعمِل قدرته ثمّ يشرب، و إن كان كثيراً ما يغفل عن المقدّمات الوجوديّة.

قضية تعلّق الإرادة الإلهيّة بشيء

بقيت هناك شبهة، هي أنّ إرادته الأزليّة إذا تعلّقت بوجود شيء فإنّه يقع لا محالة، وإذا تعلّقت بعدمه فإنّه لا يقع لا محالة. و الفعل الصادر من العبد بما أنّ ارادته تعالىٰ قد تعلّقت بوجوده فلابدّ من وقوعه ؛ لاستحالة انفكاك الإرادة عن المراد .

و فيه: أنّ إرادته تعالى، كما تقدّم، عبارة عن فعله. و قد مرّ أنّ الإرادة عبارة عن التهيّؤ لوجود الفعل خارجاً بإعمال القدرة فيه. و لو كان الفعل المراد فعلاً له تعالى لتعلّقت إرادته به. و أمّا لو كان الفعل للعبد فإنّ إرادة العبد تتعلّق به لا إرادته تعالى؛

لأنّه لامعنى لأن يقال تعلّق إرادة عمرو بالفعل الصادر عن زيد نعم، تعلّقت إرادتـه تعالى بأنّ العبد كان قادراً مختاراً عالماً حيّاً فكان فاعلاً لِما يريد فيكون كما أراد، فإرادة العبد تعلّقت بفعل نفسه، أمّا إرادته فلم‌تتعلّق بفعل عبده حتّى يستحيل انفكاك المراد عن الإرادة .

فلاسفة في خطّ الأشاعرة

ثمّ إنّ الفلاسفة بعضهم ذهب إلى ما قالته الأشاعرة من أنّ أفعال العباد مخلوقة له تعالى و هي فعله حقيقةً إلّا أنّها تصدر منهم بالإرادة و القدرة و هما تؤثّران فيها، إلّا أنّ اعتبار الإرادة منهم لكونها حادثة منتهية إلى إرادته تعالى. و الفعل الإراديّ في اصطلاحهم عبارة عمّا هو مسبوق بالإرادة، و بالجملة حيث إنّ إرادة العبد مـنتهية إلى إرادته تعالى و هي تعلّقت بأن يريد العبد صدور الفـعل الفـلانيّ فـيصدر مـنه لامحالة. و بنَوا على ذلك قِدَم العالم، حيث زعموا أنّ إرادته تعالى عبارة عن العلم بالأصلح و العلم عين ذاته و هو تعالى تامّ في علّيّته و يستحيل انفكاك المعلول عن علّته التامّة، فلا يُعقل تأخّر العالم الّذي يكون معلولاً له عن علّته، و هي إرادته الّتي عين ذاته .

و الجواب عن هذه الشبهة: أنّ العلّة و المعلول في أفعالنا غير معقولة فضلاً عنه تعالى؛ فإنّه خالق و العالم مخلوق و هو مختار في فعله. و يلزم ممّا ذكروه كـونه مجبوراً فيه، و عاجزاً عن تركه أو فعله، مع أنّ الإرادة حقيقتها عبارة عـن التـهيّؤ و التباني للعمل، حيث إنّ الإنسان بعد العلم بملاءمة شيء لنفسه و تصوّره يشتاق إليه فيبني على إيجاده و يتهيّأ له؛ فالشوق صفة نفسانيّة، و الإرادة هي التهيّؤ و البناء على العمل و إيجاده و إعمال القدرة فيه. و من الواضح أنّه بعد التباني و التهيّؤ تارة يُصدر العمل و يتركه أُخرى. أمّا الله تعالى فَبِما أنّ الشوق لامعنى له في حقّه تعالى و أنّ إرادته فعله ـ كما تقدّم ـ فإذا علم مصلحة شيء للعباد يُعمل قدرته فيه فيصير

موجوداً، فتكون إرادته إعمال قدرته في وجود الشيء. و مقتضى ذلك صدور المراد من المريد اختياراً حيث إنّه بعد الإرادة أمكنه تركه أو فعله.

نعم، ربّما يريد الإنسان مرّة فعل نفسه، و أُخرى الفعل الصادر من غيره، فيأمره بذلك فيكون متعلّق الإرادة على الأوّل فعل نفسه، و على الثاني فعل الآخر بسبب أمره. وبالجملة: الإرادة تكون فعل النفس و لانجد لها معنى محصّلاً سواه، و القوم إن أرادوا بها هذه فهو، و إلّا فهذا مجرد لفظ بغير محصّل.

قول صاحب الكفاية و جوابه

الأوّل: أنّ صاحب الكفاية ذكر أنّ الإرادة على قسمين، تكوينيّة: و هي العلم بالنظام الأصلح العامّ، و تشريعيّة و هي العلم بمصلحة شخص خاصّ[1] و قد ظهر ممّا تقدّم أنّها قسم واحد، هو إعمال القدرة ـ و هذا أمر تكوينيّ ـ و أنّ متعلّقها تارة يكون من قبيل القيام و الشرب و إيجاد سائر الأفعال، و أُخرى من قبيل جعل الحرمة و الوجوب ليَمتثل غيره، فإنّ المولى تارة يُعمل قدرته في إيجاد العمل عن نفسه و أُخرى في إنشاء حكم ليمتثل عبده، و هكذا أنّ الله تعالى ربّما يُعمل قدرته في وجود زيد، و أُخرى في إخباره وإنشائه الحكمَ ليمتثل عبيده، فتقسيم الإرادة إلى قسمين ممّا لاأصل له.

الأمر الثاني: قد ذكر صاحب الكفاية أنّ الفعل الصادر من العباد يكون بالاختيار، و الاختيار ذاتيّ له، و السؤال عن الذاتيّ غلط محض[2]. و قد تقدّم أنّ الاختيار حقيقته هو التباني و فعل من أفعال النفس و قد يوجد الفعل بعده و قد لايوجد، فكيف يمكن أن يكون هذا الفعل النفسانيّ من ذاتيّات الإنسان مع تخلّفه عنه، مع أنّ مجرّد القول بأنّ الاختيار ذاتيّ لايردّ شبهة الجبر بل هو التزام به، و في

---

١ ـ كفاية الأصول ٦٧.
٢ ـ نفس المصدر ٦٨.

الواقع هو جبر يسمّونه اختياراً.

و قد تصدّى بعض تلاميذه لتصحيح قوله بأنّ الاختيار ذاتيّ للإنسان، و ذكر مقدّمة حاصلها أنّ العارض قد يكون مفارقاً، و قد يكون عارضاً للماهيّة، و قد يكون عارضاً للوجود، و الأوّل أنّ جعل العارض يحتاج إلى جعل غير جعل معروضه كالعلم و القدرة بالنسبة إلى الإنسان، و الثاني و الثالث حيث إنّ العارض لاينفكّ عن معروضه و هو لازم لذاته فيوجد العارض بجعل معروضه و لايحتاج إلى جعل على حدة بل بجعله. و الاختيار في الإنسان يكون من عوارض وجوده، و بجعل الإنسان ينجعل هذا العارض فيكون ذاتيّاً له يستحيل انفكاكه عنه، إلّا إذا انعدم معروضه فينعدم، و حينئذ نقول: إنّ العلم و القدرة في الإنسان يكونان من الأعراض المفارقة، و الفعل الصادر منه مسبوق بالاختيار الّذي هو ذاتيّ له، فينسب الفعل إليه و يقال إنّه فعله، و هذا معنى الأمر بين الأمرين[١].

و لا يخفى ما فيه؛ لمنع الكبرى و الصغرى، بل تطبيق الصغرى على ما نحن فيه أيضاً. أمّا الكبرى: فلأنّ العرض ـ كما حُقّق في محلّه ـ له وجود غير وجود معروضه. و إذا كان للعارض و المعروض وجودان فلامحالة يحتاجان إلى جعلَين، و لامعنى لأنْ يقال إنّهما وجودان حصلا بإيجاد واحد؛ لأنّ الوجود و الإيجاد شيء واحد، غير أنّه إذا نسب إلى الماهيّة يقال له الوجود، و إذا نسب إلى الفاعل يعبّر عنه بالإيجاد، فوجود العارض حيث يكون مستقلّاً في حدّ ذاته و غير وجود معروضه يحتاج إلى جعل غير جعله، غاية الأمر أنّ كلا الجعلَين حصلا معاً لا أنّه حصل المعروض ثمّ العارض . و أمّا عارض الماهيّة فلامعنى محصّلاً له؛ فالقول بأنّ عارض الوجود جعله عين جعل معروضه خلاف الواقع[٢].

و أمّا الصغرى: فلو كان المراد من الاختيار الّذي زعم أنّه ذاتيّ للإنسان هو قوّة

---

١ ـ المحقّق الإصفهانيّ في نهاية الدراية ١ : ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

٢ ـ لإزاحة الشبهة و تصوير الحقّ راجع : شرح منظومة الحكمة، غُرر في الجعل.

الخيار بأن كان الإنسان بذاته له هذه القوّة كقوّة الكتابة و القراءة فيكون من العوارض المفارقة كالعلم، و دعوى الفرق بينهما لاوجه لها. و إن كان المراد منه فعليّة الاختيار و اصطفاء الفعل خارجاً، فهذا يكون كفعليّة العلم: قد يختار و قد لايختار، و هو أيضاً من العوارض المفارقة؛ فدعوى أنّ الاختيار من العوارض الذاتيّة لامحصّل له بل هو كالعلم و القدرة.

ثمّ إنّ هناك شيئاً دقيقاً، و هو أنّه بناء على أن يكون العلم و القدرة مجعولتين لله تعالى فهما من العوارض المفارقة، بخلاف الاختيار فإنّه عرض ذاتيّ. و ذات الإنسان مجعولة له تعالى، فيكون جعل الاختيار بجعل الذات، و الأفعال تصدر عن اختيار ذاتيّ مجعول بجعل معروضه لله تعالى و عن علم و قدرة مجعولتين له، فلامحالة يكون الفعل في الحقيقة فعل الله و إن قلنا بكونه فعل العبد بالكناية والمجاز فثبت الجبر الّذي كان يفرّ منه[١].

و أمّا قول المفوّضة فمبنيّ على أنّ الممكن في بقائه غير محتاج إلى مؤثّر، وهذا باطل جدّاً؛ بداهةَ أنّ الحاجة إلى المؤثّر لاتكون لمجرّد حدوث الممكن، بل احتياجه إليه لإمكانه و بقائه كحدوثه ممكن يحتاج إلى العلّة.

لا جبر و لا تفويض

انقدح بما ذكرنا أنّ الجبر و التفويض خلاف الحقيقة و الوجدان و البرهان، فلاجبر في الأفعال التكليفيّة الصادرة عن العباد؛ لأنّهم باختيارهم و إرادتهم وعلمهم و إعمال القدرة منهم يفعلونها أو يتركونها؛ و لاتفويض فيها، لأنّه في كل آنٍ يؤتيهم الله القدرة و الفيض حتّى حين المعصية و لو لم‌يشأ لما قدروا، فالفعل حقيقة فعل

١ ـ لزيادة الاطّلاع في موضوع الجبر و التفويض راجع رسالة الإمام العسكريّ عليه السلام المرويّة في تحف العقول ٤٥٨ ـ ٤٧٥.

العبد فيصحّ الثواب و العقاب عليه. و بالقدرة الّتي أعطاه تعالى يفعل ما يشاء، فالعبد أولى بمعصيته من الله حيث اختار لنفسه ذلك، و الله تعالى أولى بحسناته منه لأنّه أقدره على ذلك. فالمقدّمات من العلم و القدرة و الوجود منه تعالى، و إتيان الفعل أو عدمه من العبد و باختياره . و قد نأتي بمثال لكلّ من الأمور الثلاثة توضيحاً للمرام، و نقول:

إذا كانت يدٌ مرتعشة متحرّكة دائماً بحيث لايقدر على إسكانها أصلاً فشُدّ بها سيف و جُعل شخص تحت يده فقتل بوقوع السيف عليه، فالفعل قد صدر من ذي اليد اضطراراً، و يقال إنّه مجبور في فعله، و إن كان مائلاً إليه أو معرضاً عنه فهذا جبر محض.

و إذا فرضنا أنّ في يد الإنسان سَبُعاً مشدوداً بالحبل و أرخى عنانه، فـذهب و افترس رجلاً فيكون موت الرجل مفوّضاً إلى السَّبُع منسوباً إليه و غـير مـربوط بالمُرخي؛ لأنّ السَبُع قتل الرجل، أراد ذلك المُرخي أم لا، و هذا تفويض محض.

و إذا فرضنا أنّ رجلاً صحيحاً سالماً يكون في بدنه دم غير متحرّك و الطبيب بيده سلك الكهرباء إذا اتّصل ببدنه يجري الدم و يمكنه الحركة و الإتيان بما يريد، فالطبيب إذا وصل القوّة الكهربائيّة بذلك الشخص فتحرّك و قتل رجلاً فإنّ الفـعل يُسند إلى هذا الشخص دون الطبيب؛ لأنّه قتله بإرادته و قدرته، و الطبيب يقال له إنّه شاء أن يفعل ذلك العمل باختياره، و لايسند فعل إليه مع أنّ تلك القوّة بيده و بحيث لو انقطعت عن بدنه يصير بغير حركة.

و قد علم ممّا ذكرنا أنّ القول بقِدم العوالم المتفرّع على كونه تعالى علّة لها مبنيّ على أن يكون الله تعالى فاعلاً موجباً. و قد مـرّ فـي مـحلّه أنّ مـقتضى الآيـات و الروايات أنّه تعالى فاعل بالمشيّة مختار قادر على ما يريد، فمتى تعلّقت إرادته بشيء يوجد، ومتى لم‌تتعلّق فلا. و على ما ذكرنا ينفتح باب الدعـاء و التـصدّق و الإنابة و الخوف و الخشية و التضرّع و التوبة و أنّ إرسال الرسل و إنزال الكتب في

محلّه، و إبلاغ المبلّغين و إنذار المنذرين بمكانه. و يمكن أن يكون وجه القول في صلواتهم الخمس عند القيام بكلّ ركعة «بحول الله و قوّته» إيقاظ العباد إلى أنّ قدرته تعالى و فيضه يوجب تمكينهم من الفعل و عدمه، فيقوم العبد و يقعد و يصدر منه الفعل حقيقة، لكن بحوله و قوّته و إعطائه تعالى فيضه، لا أنّه مستقلّ في فعله بجميع مقدّماته.

تفسير روايتين

ذكر صاحب الكفاية في أثناء كلامه[١] في هذا المقام حديثين، أحدهما: الناس معادن كمعادن الذهب و الفضّة[٢]، و ثانيهما: السعيد سعيد في بطن أمّه و الشقيّ شقيّ في بطن أمّه[٣]؛ فنقول: على تقدير حجيّة الخبرين فالمراد من الأوّل أنّ أفراد الإنسان متفاوتة بحسب بعض الأمور كالذكاء و الشجاعة و سائر الكمالات، فإنّ التفاوت بينهم بهذه الأُمور غير خفيّ، و لا ينافي الأمر بين الأمرين و لا الاختيار بالمعنى المتقدّم .

و المراد من الثاني قد مرّ في جميع المباحث المتقدّمة فلانعيد، مع أنّ السعادة أو الشقاوة من الأوصاف المكتسبة يحصلهما العبد باختياره الحسن و القبح، و ليستا من الذاتيّات كمامرّ .

و قد ورد تفسير هذا الخبر فيما رواه ابن أبي عُمَير، قال: سألتُ موسى بن جعفر عليه السلام عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : الشقيّ مَن شقي في بطن أمّه، و السعيد مَن سعد بطن أمّه، فقال عليه السلام : الشقيّ مَن علم الله و هو في بطن أمّه أنّه سيعمل عمل الأشقياء، و السعيد من علم الله و هو في بطن أمّه أنّه سيعمل عمل السعداء ...

---

١ ـ كفاية الأصول ٦٨.

٢ ـ الروضة من الكافي ٨: ١٧٧.

٣ ـ التوحيد للصدوق ٣٥٦.

الخبر[١].

و قد تحصّل من جميع ما تقدّم أنّ الموافق للوجدان و البرهان و الآيات والأخبار المبيّنة للمشكلات أنّا غير مجبورين في أفعالنا التكليفيّة، و لا الأمر مفوّض إلينا، بل أعطانا الله تعالى القدرة و العقل و القوّة المميّزة بين الخير و الشرّ، فنختار الفعل أو الترك، فيصدر منّا حقيقة. و مع أنّ العلم و القدرة و الحياة والوجود منه تعالى من غير أن يقطع الفيض منها، فالله أولى بالحسنات منّا، و نحن أولى بالسيّئات منه، و هذا هو الأمر بين الأمرين المبيّن في كلماتهم صلوات الله عليهم. وبهذا الواقع الّذي بيّنوه و أمثاله يمكن إثبات إمامتهم؛ لأنّهم لو كانوا كغيرهم فإمّا أفرطوا و إمّا فرّطوا مائلاً إلى الجانبين، كما هو شأن غير المعصوم من الحكماء والمنتحلين العلم، و لله الحمد أوّلاً و آخراً و ظاهراً وباطناً.

و في خبر عن أبي الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام : ... ثمّ كوّن ما أراد، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه، تاهَتْ أوهام المتوهّمين، و قَصُر طرف الطارفين... الحديث[٢].

أبوالحسن الأوّل عليه السلام قال : لايكون شيء في السماوات و الأرض إلّا بسبعة: بقضاء و قدر و إرادة و مشيئة و كتاب و أجل و إذن، فمن قال غير هذا فقد كذب على الله، أو ردّ على الله عزّوجلّ[٣].

في خبر يونس عن الرضا عليه السلام فقال : ... ليس هكذا يا يونس، و لكن لايكون إلّا ما شاء الله و أراد و قدّر و قضى، أتدري ما المشيّة يا يونس ؟ قلت : لا، قال: هو الذّكر الأوّل، أتدري ما الإرادة ؟ قلت : لا، قال : العزيمة على ما شاء الله... الحديث[٤].

---

١ ـ نفس المصدر و الموضع.

٢ ـ الاحتجاج ٤٤٩.

٣ ـ الخصال ٣٥٩.

٤ ـ تفسير القمّيّ ١ : ٢٤.

تنبيه في أنّه تعالى فاعل بالمشيّة

قد ذكر للفاعل أقسام كالفاعل بالعليّة و الطبع و الشرف و الموجب . و مقتضى الآيات و الروايات أنّ الله تعالى فاعل بالمشيّة و الإرادة، كما قال تعالى:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِاٰخَرِينَ وَ كَانَ اللهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ قَدِيراً﴾[١].

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٢].

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣].

﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[٤].

﴿وَ أَنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ﴾[٥].

﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[٦].

صفوان بن يحيى قال : قلت لأبي الحسن عليه السلام : أخبرني عن الإرادة: من الله عزّوجلّ و من الخلق؟ فقال: الإرادة من المخلوق الضمير و ما يبدو له بعد ذلك من الفعل، و أمّا من الله عزّ و جلّ فإرادته إحداثه لا غير ذلك ... الحديث[٧].

عن الجعفريّ قال : قال الرضا عليه السلام: المشيّة من صفات الأفعال، فمَن زعم أنّ الله تعالى لم‌يزل مريداً شائياً فليس بموحّد[٨] .

و في نهج البلاغة قال عليه السلام : ... يقول لمن أراد كونَه ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، لابصوت يقرع، و لابنداء يسمع، و إنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه و مثّله، لم‌يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً[٩] .

---

١ ـ النساء ١٣٣/٤ .
٢ ـ إبراهيم ١٩/١٤ .
٣ ـ النحل ٤٠/١٦ .
٤ ـ الحجّ ١٤/٢٢ .
٥ ـ الحجّ ١٦/٢٢ .
٦ ـ الأحزاب ١٧/٣٣ .
٧ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١١٩ ؛ التوحيد للصدوق ١٤٧ .
٨ ـ التوحيد للصدوق ٣٣٨ .
٩ ـ نهج البلاغة ٢٧٤ الخطبة : ١٨٦ و الآية في سورة يس ٨٢/٣٦ .

و مقتضى هذه الروايات و غيرها: أنّ إرادة الله تعالى فعله، أي إعمال قدرته في الشيء و إحداثه. قال المفيد رحمه الله : إنّ الإرادة من الله جلّ اسمه نفس الفعل، و من الخلق الضمير و أشباهه ممّا لايجوز إلّا على ذوي الحاجة و النقص، و ذاك أنّ العقول شاهدة بأنّ القصد لايكون إلّا بقلب، كما لاتكون الشهوة و المحبّة إلّا لِذي قلب، و لا تصحّ النيّة و الضمير و العزم إلّا على ذي خاطر يضطرّ معها في الفعل الّذي يغلب عليه إلى الإرادة له و النيّة فيه و العزم . و لمّا كان الله تعالى يجلّ عن الحاجات، و يستحيل عليه الوصف بالجوارح و الآلات، و لايجوز عليه الدواعي و الخطرات، بطل أن يكون محتاجاً في الأفعال إلى القصود و العزمات، و ثبت أنّ وصفه بالإرادة مخالف في معناه لوصف العباد، و أنّها نفس فعله الأشياء. و إطلاق الوصف بها عليه مأخوذ من جهة الإتّباع دون القياس، و بذلك جاء الخبر عن أئمّة الهدى عليهم السلام[1]، كما تقدّم في رواية صفوان[2].

فإرادة الله هي فعله لاغير ذلك يقول للشيء: كن، فيكون بلالفظ و لانطق لسان و لاهمّة و لاتفكّر و لاكيف، كما أنّه تعالى بلاكيف.

---

١ ـ مصنّفات الشيخ المفيد ج ١٠، مسألة في الإرادة ١١.

٢ ـ مرّ ذكره آنفاً.

الفصل السادس
القضاء و القدر

ممّا جاءت به الأديان و ليس خاصّاً بالمسلمين: مسألة القضاء و القدر. و لكثرة استعمال هاتين اللفظتين ظنّ بعض الناس أنّ فيهما معنى الإكراه و الإجبار، وليس كما ظنّ. و ستوافيك الأخبار و كلمات الأعلام في ذلك لتعلم أنّهما لاينافيان الاختيار.

آيات و روايات

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ [1].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [2].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ❊ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [3].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [4].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [5].

---

١ ـ الأنفال ٤٢/٨.

٢ ـ القمر ٤٩/٥٤.

٣ ـ القمر ٥٢/٥٤ ـ ٥٣.

٤ ـ يونس ١٩/١٠.

٥ ـ الأحزاب ٣٧/٣٣.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١].
﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢].
﴿وَ لَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[٣].

عن عليّ عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه و آله: لايؤمن عبد حتّى يؤمن بأربعة : يشهد أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له، و أنّي رسول الله بعثني بالحقّ، و حتّى يؤمن بالبعث بعد الموت، و حتّى يؤمن بالقدر[٤].

و عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: أربعة لاينظر الله إليهم يوم القيامة: عاقٌّ، ومنّانٌ، و مكذّبٌ بالقدر، و مُدمن الخمر[٥].

و عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال : لايكون شيء في السماوات و الأرض إلّا بسبعة : بقضاء و قدر و إرادة و مشيّة و كتاب و أجل و إذن، فمَن قال غير هذا فقد كذب على الله، أو ردّ على الله عزّوجلّ[٦].

و في بعض الروايات إنّ النبيّ لعن المكذّب بالقدر[٧]، و في بعضها قال رسول الله صلى الله عليه و آله : إنّ الله عزّ و جلّ قدّر المقادير و دبّر التدابير قبل أن يخلق آدم بألفَي عام[٨].

و سئل أميرالمؤمنين عن القضاء و القدر فقال : لا تقولوا : وَكَلَهم الله إلى أنفسهم، فتُوهِنوه. و لاتقولوا أجبرهم على المعاصي، فتظلموه. و لكن قولوا : الخير بتوفيق الله و الشرّ بخذلان الله، و كلّ سابق في علم الله[٩].

و روي عنه أنّه سأله رجل بعد انصرافه من الشام فقال: يا أميرالمؤمنين، أخبِرنا

---

١ ـ التغابن ٦٤/١١.
٢ ـ الحشر ٥٩/٥.
٣ ـ الشورى ٤٢/٢١.
٤ ـ الخصال ١٩٨ ـ ١٩٩.
٥ ـ نفس المصدر ٢٠٣.
٦ ـ نفس المصدر ٣٥٩.
٧ ـ نفس المصدر ٣٥٠.
٨ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١٤١ ـ ١٤٢.
٩ ـ الاحتجاج ٢٠٩.

عن خروجنا إلى الشام: أبقضاء و قدر؟ فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام : نعم يا شيخ، ما علوتم تَلعة و لا هبطتم بَطن وادٍ إلّا بقضاء من عند الله و قدر. فقال الرجل : عند الله أحتسب عنائي، و اللهِ ما أرى لي من الأجر شيئاً! فقال علي عليه السلام: بلى، فقد عظّم الله لكم الأجر في مسيركم و أنتم ذاهبون و على مُنصَرَفِكم و أنتم منقلبون، و لم تكونوا في شيء من حالاتكم مُكرَهين، و لا إليه مضطرّين، فقال الرجل: و كيف لا نكون مضطرّين و القضاء و القدر ساقانا، و عنهما كان مسيرنا ؟! فقال أميرالمؤمنين : لعلّك أردت قضاء لازماً، و قدراً حتماً؟! لو كان كذلك لبطل الثواب و العقاب... الخبر[١].

و روي أنّ رجلاً قال : فما القضاء و القدر الّذي ذكرتَه يا أميرالمؤمنين؟ قال : الأمر بالطاعة، و النهي عن المعصية، و التمكين من فعل الحسنة و ترك المعصية، و المعونة على القربة إليه، و الخذلان لمن عصاه، و الوعد و الوعيد و الترغيب و الترهيب، كلّ ذلك قضاء الله في أفعالنا و قدره لأعمالنا، و أمّا غير ذلك فلاتظنّه؛ فإنّ الظنّ له مُحبِط للأعمال[٢].

و قد سئل أميرالمؤمنين عن القدر فقال عليه السلام: بحر عميق لاتَلِجْه، طريق مظلم فلاتَسْلُكه، سرّ الله فلاتَتكلّفْه[٣].

و في خبر آخر عنه عليه السلام : إنّ القدر سرّ من سرّ الله و ستر من ستر الله، و حرز من حرز الله، مرفوع في حجاب الله، مطويّ عن خلق الله[٤]. إلى غير ذلك من الأخبار الواردة في هذا المضمار.

معاني القضاء و القدر

إذا عرفت ما تلوناه عليك من الآيات و الأخبار فاعلم أنّ القضاء و القدر

١ ـ نفس المصدر ٢٠٨.
٢ ـ نفس المصدر ٢٠٩.
٣ ـ التوحيد للصدوق ٣٦٥.
٤ ـ نفس المصدر ٣٨٣.

يطلقان في الكتاب و السنة و اللغة على معان:

فقد ورد القضاء بمعنى *الخلق و الإتمام*، كقوله تعالى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[١].

و بمعنى *الحكم و الإيجاب*، كقوله تعالى ﴿ وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[٢].

و بمعنى *الإعلام و الإخبار*، كقوله تعالى ﴿ وَ قَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾[٣].

و أمّا القدر فقد جاء بمعنى *الخلق*، كقوله تعالى ﴿ وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[٤].

و بمعنى *الكتابة و الإخبار*، كقوله تعالى ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[٥].

و بمعنى *وضع الشيء في موضعه من غير زيادة و نقصان*، كقوله تعالى ﴿وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[٦].

و قد جاء بمعنى *التبيين لمقادير الأشياء و تفاصيلها*، كقوله تعالى ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٧].

إذا عرفت هذا فنقول: إذا قال قائل: إنّ أفعال العباد و غيرها من الممكنات والموجودات و ما يوجد في العوالم إنّما هي بقضاء الله و قدره، فإن أراد أنّه تعالى قضى على العباد بها أي حكم عليهم بها، و ألزمها عباده و أوجبها، أو بيّن مقاديرها من حسنها و قبحها و مباحها، فهو صحيح دلّ عليه الكتاب و السنّة و لايخالفه العقل الصحيح. و كذا إن أراد أنّه تعالى بيّن الأمور و كتبها، و علم أنّ العباد باختيارهم يمشون على هذا النحو. و أمّا إذا أراد بقوله ذلك أنّه تعالى خلقها و أوجدها من غير اختيار و إرادة للعبد. فإنّه باطل كما نبّه عليه أميرالمؤمنين عليه السلام في الكلام المتقدّم.

---

١ ـ فصّلت ١٢/٤١.

٢ ـ الإسراء ٢٣/١٧.

٣ ـ الإسراء ٤/١٧.

٤ ـ فصّلت ١٠/٤١.

٥ ـ النمل ٥٧/٢٧.

٦ ـ فصّلت ١٠/٤١.

٧ ـ القمر ٤٩/٥٤.

هذا حال أفعال العباد و ما يكون مورداً للتكليف و اللوم و المدح. و أمّا أفعاله تعالى من التكوينات، فكلّها بقدر منه تعالى، أي بسابقة في علمه؛ قد علم في الأزل كلّ شيء في موضعه و محلّه و مقداره و هندسته و ما يصير إليه و منتهاه، و إلى ذلك أشار في قوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

من هنا تعرف أنّ الاعتقاد بالقضاء و القدر و الرضا بهما و التسليم إلى ما خلقه محفوظاً جميع خصوصيّاته عنده، لاينافي السعي و العمل؛ فإنّه لو لم تكن المقادير منظّمة و التدابير مرتّبة لما أفاد الجِدُّ و الكدح، و لما وصل الإنسان إلى كماله بسعيه. و ما ذهب إليه بعض من أنّ الاعتقاد بالقضاء و القدر يوجب الكسل و التأخّر إنّما هو عناد محض، أو جهل بمعنى القضاء و القدر، كما لايخفى.

---

١ ـ القمر ٥٤/٤٩.

الفصل السابع
البَداء

اتّفقت كلمة الإماميّة على ثبوت البداء، و المسألة مختصّة بهم حتّى أنّ المخالفين و من لم‌يعرف حقيقة البداء أنكروا عليهم هذا الاعتقاد.

آيات و روايات

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1].

﴿وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[2].

﴿مَا نَنْسَخْ مِن ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

قال الرضا عليه السلام لسليمان المروزيّ : ما أنكرتَ من البداء يا سليمان و الله عزّ وجلّ يقول ﴿أَوَ لَايَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً﴾[4]، ويقول عزّوجلّ

---

١ ـ الرعد ٣٩/١٣.

٢ ـ المائدة ٦٤/٥.

٣ ـ البقرة ١٠٦/٢.

٤ ـ مريم ٦٧/١٩.

﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[١]، و يقول ﴿بَدِيعُ السَّمَـوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾[٢]، و يقول عزّ و جلّ ﴿يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[٣] و يقول ﴿وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[٤]، و يقول عزّوجلّ ﴿وَ ءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[٥]، و يقول عزّوجلّ ﴿ وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لَايُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ ﴾[٦]. قال سليمان: هل رويت فيه عن آبائك شيئاً ؟

قال عليه‌السلام : نعم، رويتُ عن أبي عن أبي عبدالله عليه‌السلام أنّه قال: إنّ لِلَّهِ عزّ و جلّ عِلمَين: علماً مخزوناً مكنوناً لايعلمه إلّا هو، من ذلك يكون البداء، و علماً علّمه ملائكته و رسله، فالعلماء من أهل بيت نبيّنا يعلمونه. قال سليمان: أحبّ أن تنزعه لي من كتاب الله عزّوجلّ.

قال: قول الله عزّ و جلّ لنبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾[٧] أراد هلاكهم ثمّ بدا لله فقال ﴿وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٨]. قال سليمان : زدني جُعلت فداك.

قال الرضا عليه‌السلام : لقد أخبرني أبي عن آبائه عليهم‌السلام عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قال : إنّ الله عزّوجلّ أوحى إلى نبيّ من أنبيائه أن أخبِر فلان الملك : أنّي متوفّيه إلى كذا وكذا، فأتاه ذلك النبيّ فأخبره، فدعا اللهَ الملكُ و هو على سريره حتّى سقط من السرير، وقال: يا ربّ، أجِّلْني حتّى يَشبّ طفلي و أقضي أمري. فأوحى الله عزّ و جلّ إلى ذلك النبيّ : أن ائتِ فلان الملك فأعلم أنّي قد أنسأتُ في أجله و زِدتُ في عمره خمس عشرة سنة. فقال ذلك النبيّ عليه‌السلام : يا ربّ، إنّك لَتعلم أني لم أكذِب قطّ. فأوحى الله عزّ و جلّ إليه : إنّما أنت عبد مأمور فأبلِغْه ذلك، و الله لايُسأل عمّا يفعل.

ثمّ التفت إلى سليمان فقال : أحسبُكَ ضاهَيتَ اليهود في هذا الباب. قال: أعوذ

---

١ ـ الروم ١١/٣٠.
٢ ـ البقرة ١١٧/٢.
٣ ـ فاطر ١/٣٥.
٤ ـ السجدة ٧/٣٢.
٥ ـ التوبة ١٠٦/٩.
٦ ـ فاطر ١١/٣٥.
٧ ـ الذاريات ٥٤/٥١.
٨ ـ الذاريات ٥٥/٥١.

بالله من ذلك، و ما قالت اليهود؟ قال: قالت اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [١]، يعْنون : أنّ الله قد فرغ من الأمر، فليس يُحدِث شيئاً، فقال الله عزّوجلّ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [٢]. ولقد سمعتُ قوماً سألوا أبي موسى بن جعفر عليهما السلام عن البداء، فقال : و ما يُنكر الناس من البداء و إن يقف الله قوماً يُرجيهم لأمره؟!

قال سليمان : ألا تخبرني عن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [٣]: في أيّ شيء أنزلت؟ قال: يا سليمان، ليلة القدر يقدّر الله عزّ و جلّ فيها ما يكون من السنة إلى السنة من حياة أو موت أو خير أو شرّ أو رزق، فما قدّره في تلك الليلة فهو من المحتوم. قال سليمان: الآن قد فهمت جُعِلت فداك، فزِدْني.

قال: يا سليمان، إنّ من الأمور أموراً موقوفة عند الله عزّوجلّ يقدّم منها ما يشاء ويؤخّر ما يشاء و يمحو ما يشاء. يا سليمان، إنّ عليّاً عليه السلام كان يقول: العلم علمان؛ فعلم علّمه الله ملائكته و رسله، فما علّمه ملائكتَه و رسله فإنّه يكون ولايكذب نفسه و لاملائكته و لارسله، و علم عنده مخزون لم يُطلِع عليه أحداً من خلقه، يقدّم منه ما يشاء و يؤخّر منه ما يشاء و يمحو ما يشاء و يُثبِت ما يشاء.

قال سليمان للمأمون : يا أميرالمؤمنين، لا أُنكر بعد يومي هذا البداء و لا أُكذب به إن شاء الله [٤].

أمير المؤمنين عليه السلام قال : لو لا آية في كتاب الله لأخبرنّكم بما كان و بما يكون وبما هو كائن إلى يوم القيامة، و هي هذه الآية ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [٥].

زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال: ما عُبِد الله عزّ و جلّ بشيء مثل البداء [٦].

---

١ ـ المائدة ٥/٦٤.
٢ ـ المائدة ٥/٦٤.
٣ ـ القدر ٩٧/١.
٤ ـ عيون أخبار الرضا ١ : ١٨٠ ـ ١٨٢.
٥ ـ التوحيد للصدوق ٣٠٥؛ أمالي الصدوق ٢٨٠؛ الاحتجاج ٢٥٨، و الآية في سورة الرعد ١٣/٣٩.
٦ ـ التوحيد للصدوق ٣٣٢.

عن سليمان الطلحيّ قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أخبِرني عمّا أخبَرَت به الرسلُ عن ربّها و أنهَت ذلك إلى قومها: أيكون لله البداء فيه؟ قال: أما إنّي لاأقول لك: إنّه يفعل، ولكن إن شاء فعل[١].

أبو عبدالله عليه السلام قال: ما بعث الله عزّ و جلّ نبيّاً حتّى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار بالعبوديّة، و خلع الأنداد، و أنّ الله يقدّم ما يشاء و يؤخّر ما يشاء[٢].

في حديث طويل سأل المعلّى العالِمَ عليه السلام: كيف علمَ الله؟ قال: علم و شاء و أراد وقدّر ـ إلى أن قال عليه السلام ـ فلله تبارك و تعالى البداء فيما علم متى شاء، وفيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلابداء، فالعلم بالمعلوم قبل كونه، والمشيّة في المُنشَأ قبل عينه، و الإرادة في المراد قبل قيامه ... الحديث[٣].

معنى البداء

و معنى البداء أنّه عبارة عن التغيير و التبديل في الموجودات التكوينيّة، في قبال النَّسخ الّذي هو عبارة عن التبديل في الأحكام الشرعيّة. و البداء بهذا المعنى يكون أمراً ممكناً تقتضيه القدرة الكاملة و الحرّيّة في الإيجاد و التبديل لله تعالى، ولا يكون البداء بمعنى الندم و الظهور بعد الخفاء المستلزم للجهل و النقصان كما تُوهّم. و قد ورد في الأخبار الكثيرة أنّه ما عُبِد الله بمثل البداء و لعن المنكر له و أُوعِد النار. و يمكن أن تكون تسمية البداء بوجهين:

أحدهما: المشاكلة، بمعنى أنّه لو كان يصدر هذا المعنى من غيره لكان عن ندامة و جهل، فإنّه يشبه تغيير الإنسان ما قَدَّر ثمّ ندم عليه، فسمّي بالبداء. و التعبير عن هذه المشاكلة قد وقع كثيراً في الكتاب، قال تعالى ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَ لَاأَعْلَمُ مَا فِى

---

١ ـ بحار الأنوار ٤: ١٢٢.
٢ ـ تفسير العيّاشيّ ٢: ٢١٥؛ التوحيد للصدوق ٣٣٣.
٣ ـ التوحيد للصدوق ٣٣٤.

نَفْسَكَ﴾[1] و ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾[2] و ﴿ وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ﴾[3].

ثانيهما : أنّ البداء يكون بمعنى الظهور كما تقدّم، فحيث إنّه قد ظهر خلاف ما كان المقتضي لثبوته سمّي بالبداء. و توضيح ذلك يبتني على مقدّمة، و هي أنّ الله تعالى عِلمين:

الأوّل : علم مكنون، و هو علمه بذاته المقدّسة الّذي يكون عينها، و هناك يكون العلم و العالم و المعلوم شيئاً واحداً حقيقة، و لامعنى بأن يُطلع عليه أحداً.

الثاني : و علم علّمه ملائكته و أنبياءه، و هو العلم بما سواه من الموجودات و الواقعيّات. و حيث إنّ الموجودات و الواقعيّات كلّها مخلوقة له تعالى فهي بواقعها حاضرة عنده، فإذا كانت هناك ملازمة مثلاً بين شيء و آخر و علّم نبيّه تلك الملازمة معلّقاً على مشيّة، ثمّ أراد خلافه أي عدم وجوده مثلاً، فيظهر عدم وجود ذلك الشيء بعد ما كان وجوده عند مقتضيه ظاهراً. فالله تعالى كان عالماً بعلمه المكنون بالملازمة، وهو عالم بأنّه لميُرِد وجوده خارجاً قبل خلقه، فلميقع تغيير في علمه الذاتيّ و لميكن فيه جهل أصلاً، و إنّما حصل التغيّر و التبديل في متعلّق العلم الثاني المخبر به أولياءه حيث أراد عدم وجود ما أخبر بمقتضى وجوده أو العكس.

إذا ظهر ذلك نقول: إنّ ظهور عدم وجود الشيء بعد ظهور إمكان وقوعه لايستلزم جهلاً و تغييراً بالنسبة إليه تعالى، و يسمّى هذا الظهور بالبداء.

الفرق بين النَّسخ و البَداء

قد عرفت دلالة الآيات و الأخبار على أنّ الله مختار في فعله و أنّه كلّ يوم في

---

١ ـ المائدة ١١٦/٥.
٢ ـ الكهف ١٢/١٨.
٣ ـ آل عمران ٥٤/٣.

شأن يقدّم ما يشاء و يؤخّر ما يريد، و له تعالى تبديل ما كان له مقتضياً لثبوته وحدوثه المعبّر عنه بالبداء. و لا بأس بتوضيح المقال في المقام، و بيان الفرق بين النسخ و البداء ليُدفع ما يُتوهّم فيهما من الإشكال، فنقول :

اعلم أنّ النَّسخ في اللغة: عبارة عن الإزالة و الارتفاع، يقال : نَسَخَت الشمسُ الظلَّ أي رفعته. و في الاصطلاح: عبارة عن رفع الحكم الثابت في الشريعة و جعله كأن لميكن بعد تحقّقه و فعليّته. و بهذا المعنى الاصطلاحيّ تارة يكون في مقام فعليّة الحكم برفع موضوعه، حيث إنّه كثيراً ما يرتفع الحكم برفع موضوعه، كما إذا صار المستطيع فقيراً فإنّه يرتفع عنه وجوب الحجّ بارتفاع موضوعه، و المتطهّر إذا أحدث يرتفع الحكم بطهارته برفع موضوعها و هو من لم يكن محدثاً. و بالجملة: ارتفاع الحكم بارتفاع موضوعه التكليفيّ و الوضعيّ غير قليل، و لاإشكال فيه و هو غير داخل في محل النزاع .

و أُخرى يكون في مقام الجعل و الإنشاء، و حيث إنّ الأحكام الشرعيّة مجعولة على نحو القضايا الحقيقيّة فإذا صار موضوعها فعليّاً تصير الأحكام فعليّة . و قد وقع النزاع في إمكان النسخ فيها و عدمه .

و المشهور أنّ اليهود ذهبوا إلى بطلان النسخ بهذا المعنى، بدعوى أنّه لو كان الحكم الأوّل ذا مصلحة فأين يكون الثاني؟ و إن كان العكس فبالعكس. و على ذلك أنكروا نسخ الشرائع، و قالوا بأنّ شريعة موسى أوّل شريعة شرعها الله إلى يوم القيامة.

و هذه الدعوى ناشئة عن عدم إدراك معنى النسخ، و توهّم أنّه عبارة عن رفع الحكم الثابت واقعاً. و التحقيق خلافه؛ بداهةَ أنّ النسخ عبارة عن رفع الحكم إثباتاً، الكاشف عن انقضاء أمده واقعاً، و أنّه لو فرض عدم جعل حكم مخالف للأوّل لبقي الموضوع بلاحكم في ما بعد ذلك الزمان، فالنسخ عبارة عن التخصيص في الأزمان، كما أنّ التخصيص الاصطلاحيّ عبارة عن إخراج الأفراد حكماً. و قد قرّر في محلّه

أنّ التخصيص يكشف عن عدم شمول العامّ للفرد المخصّص من الأوّل، لاأنّه كان داخلاً فخرج منه بالتخصيص[1] و كذا إذا نسخ الحكم بعد مدّة فانّه يكشف أنّ الحكم الّذي ورد مطلقاً غير مقيّد بزمان كان امتداده ـ منذ البدء ـ إلى زمان معيّن في الواقع، و النسخ كاشف عن ذلك فلايكون الحكم ثبوتاً ذا امتداد باقٍ إلى ما بعد ذلك الزمان، و عليه كان الحكم الأوّل ذا مصلحة إلى الزمان الّذي كان استمراره فيه ثابتاً واقعاً، و أمّا فيما بعد ذلك الزمان فلا تكون فيه له مصلحة، بل المصلحة في الحكم الثاني الّذي يقوم مقام الأوّل.

و أمّا البداء فقد عرفت إشارة التنزيل و تصريح الأخبار به، و أنّه لابدّ من الإقرار به لكلّ موحّد. و حيث إنّ القوم لم‌يدركوا معناه المراد به في الأخبار أنكروا علينا أشدّ الإنكار. و لابأس بتوضيح المرام ليرتفع الظلام و الغشاوة عن الأحلام.

و توضيح ذلك أنّ متعلق العلم تارة يكون أمراً خارجياً و أُخرى أمراً واقعيّاً. و المراد بالأوّل هو: الوجودات المتأصّلة الخارجيّة، و المراد بالثاني هو: ما يكون ظرفه نفس واقعه و حقيقته لاالموجود الخارجيّ و لاالموجود الذهنيّ الفرضيّ، كاستحالة اجتماع النقيضين و الضدّين و الإمكان و اللوازم، فإنّها أُمور واقعيّة مع أنّها غير موجودة خارجاً و لاوجودات فرضيّة فقط. فإنّا نعلم بالضرورة استحالة اجتماع الضدّين، و من البديهيّ أنّ اجتماعهما مستحيل غير موجود و إلّا لزم الخلف. فالمعلوم هنا لنا أمر واقعيّ غير موجود خارجاً و لا يكون مجرد الفرض قطعاً، و كذلك نعلم بالملازمات، فإنّ قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَآلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2] قضيّة صادقة لثبوت الملازمة بين المقدّم و التالي، و الملازمة ثابتة واقعاً وحقيقة. و ليس معنى الصدق إلّا الإخبار المطابق للواقع، كما أنّ الكذب عبارة عن الإخبار المخالف له؛ فالقضيّة الشرطيّة مع ثبوت الملازمة بين طرفَيها صادقة و إن

---

١ ـ كفاية الأصول ٢٤٠.

٢ ـ الأنبياء ٢١/٢٢.

لم يتحقّق الطرفان خارجاً أبداً.

إذا عرفت ما ذكرنا فاعلم أنّ الله تبارك و تعالى كما يكون عالماً بالأمور الخارجيّة كذلك يكون عالماً بالأُمور الواقعيّة، و على ما يظهر من الأخبار و الأدعية أنّ له تعالى علوماً ثلاثة :

١ ـ العلم المكنون الّذي عنده لم يُطْلع عليه أحداً، و هو علمه بذاته المقدّسة الّذي يكون عين ذاته كالقدرة و الحياة .

٢ ـ العلم بوقوع بعض الأشياء و صدورها منه تعالى جزماً و قد أخبر به بعض أوليائه، كقضيّة أبي لهب و هلاكه و هلاك امرأته[١].

٣ ـ العلم بوقوع بعض الأشياء و بإيجادها منه معلّقاً .

و يعبّر عن الثاني بالقضاء الحتميّ و عن الثالث بالقضاء غير الحتميّ. و البداء لايكون في القسم الثاني، و إلّا لزم تكذيب نفسه و رسله و أوليائه. و لايكون منه أيضاً لأنّه علّمه أولياءه بل يكون من القسم الأوّل. و في الثالث بمعنى أنّه علّم أولياءه الملازمات بين اللازم و الملزوم معلّقاً على عدم إرادته خلافه، و بعلمه المكنون علم إرادته، فصار العلم الأوّل منشأ البداء في القسم الثالث.

و الإخبار من النبيّ ﷺ أو الوصيّ ـ لو كان من القسم الثاني ـ لابداء فيه، و إذا كان من القسم الثالث فتارة تكون القرينة على أنّه معلّق على عدم إرادته تعالى خلافه متصلاً به كما وقع في إخباره عليه السلام عن سلطنة بني العبّاس[٢] متصلاً بقوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٣]، و أُخرى منفصلاً عنه كما قال عليه السلام: لولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما يكون، و هي قوله تعالى ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[٤].

١ ـ مجمع البيان ٥ : ٥٥٩ .

٢ ـ تفسير القمّيّ ١ : ٣١٠؛ الروضة من الكافي ٨: ٢١٠ ـ ٢١١ .

٣ ـ الرعد ٣٩/١٣.

٤ ـ مرّ ذكره آنفاً .

إذا عرفت ما تلوناه عليك اتّضح أنّ البداء ـ و هو إظهار ما زعم الناس خلافه وتبديل ما تخيّل الناس ثبوته ـ أمر ممكن، و لايلزم منه تكذيب الرسل و الأولياء، بل يكون ممّا يدلّ على حريّته تعالى و قدرته التامّة و كونه فعّالاً لما يشاء غير مغلولة يداه، و الاعتقاد به من الإيمان المحض و من الإقرار بحريّته و كمال قدرته، فيوجب التوسّل و التضرّع إليه و الانقطاع إلى ساحة قدسه.

ثمّ إنّ الأخبار من طرق العامّة في ثبوت البداء أكثر من طرق الخاصّة، و قد رووا عنه صلّى الله عليه وآله : لايردّ القضاء إلّا الدعاء[1]، و كان عُمَر يدعو بأن يُمحىٰ من ديوان الأشقياء ويُثبَت في ديوان السعداء[2]، و روي عن كعب الأحبار أنّه قال: لو لا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة[3]. و مع هذا كلّه أنكروا علينا الاعتقاد بالبداء، زعماً منهم أنّه يوجب استناد الجهل إليه تعالى، حيث توهّموا أنّ البداء منه تعالى يكون بمعنى الندامة، و قد غفلوا عن معناه الحقيقيّ اللائق بشأنه عزّوجلّ.

و لابأس هنا بذكر كلام المجلسيّ، العالم المتربّي في بيت المعصومين، و ما ذكره هو صريح الأخبار و الجمع بين متفرّقاتها، قال قدّس الله سرّه :

إنّهم عليهم السلام إنّما بالغوا فى البداء ردّاً على اليهود الّذين يقولون : إنّ الله فرغ من الأمر، و على النظّام و بعض المعتزلة الّذين يقولون : إنّ الله خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن ...، و لميتقدّم خلق آدم على أولاده، و التقدّم إنّما يقع في ظهورها لا في حدوثها و وجودها، ... و على بعض الفلاسفة القائلين بالعقول والنفوس الفلَكية و بأنّ الله تعالى لم يؤثّر حقيقة إلّا في العقل الأوّل، فهم يعزلونه تعالى عن ملكه و ينسبون الحوادث إلى هؤلاء، فنفَوا عليهم السلام ذلك و أثبتوا أنّه تعالى كلّ يوم في شأن من إعدام شيء و إحداث آخر و إماتة شخص و إحياء آخر إلى غير ذلك، لئلّا يترك العبادُ التضرّعَ إلى الله و مسألته و طاعته و التقرّب إليه بما يُصلح اُمور

---

١ ـ سنن الترمذيّ ٤ : ٤٤٨.
٢ ـ الدر المنثور ٤ : ٦٦.
٣ ـ نفس المصدر ٤ : ٦٧.

دنياهم و عقباهم، و ليرجوا عند التصدّق على الفقراء و صلة الأرحام و برّ الوالدين و المعروف و الإحسان ما وُعِدوا عليها من طول العمر و زيادة الرزق و غير ذلك[١]. انتهى كلامه رفع مقامه.

مصاديق للبداء

كثيراً ما يُسأل: ما معنى البداء في حقّ الكاظم و العسكريّ عليهما السلام، كما وقع التعبير عنه في بعض الألفاظ الواردة في زيارتهما[٢]، رزقنا الله إيّاها؟

و نقول : أمّا إمامتهما فقد كانت من الأمور الحتميّة و قد أخبر تعالى بها قبل خلقه الناس، كما في الصحاح من الأخبار. و قد نصّ النبيّ و الأوصياء من بعده السابقون على الصادق عليه السلام على إمامة الأئمّة بأسمائهم و أعيانهم، كما في حديث لوح الزهراء[٣] و غيره[٤]. وقد أخبر الصادق عليه السلام أيضاً بعدم إمامة إسماعيل[٥]، و الإمام الهادي عليه السلام أخبر بعدم إمامة ولده السيّد محمّد[٦] إلّا أنّه كان بحسب ما زعمه الشيعة ـ بواسطة إخبار النبيّ صلى الله عليه وآله و الأئمّة عليهم السلام ـ أنّ الإمامة لاتكون في أخوين إلّا الحسنَين[٧]، و أنّ الولد الأكبر الصالح للإمامة إمام بعد أبيه[٨]. و على طبق هذه الكبرى زعمت الشيعة أنّ إسماعيل ـ حيث كان أكبر ولد الصادق عليه السلام و صالحاً للإمامة بزعمهم ـ يكون إماماً بعد أبيه . و لمّا مات إسماعيل في حياة أبيه ظهر خلاف ما زعمت الشيعة، فوقع البداء فيما كانوا يزعمون. وهكذا بالنسبة إلى السيّد محمّد إذ زعمت الشيعة أنّه إمام بعد أبيه لكونه أكبر من العسكريّ عليه السلام و كان صالحاً بزعمهم

---

١ ـ بحار الأنوار ٤ : ١٢٩ ـ ١٣٠.
٢ ـ كامل الزيارات ٣٠١ و ٣١٤.
٣ ـ الأصول من الكافي ١ : ٥٢٧ ـ ٥٢٨ ؛ عيون أخبار الرضا ١ : ٤٠ ـ ٤١.
٤ ـ الخصال ٤٧٩.
٥ ـ التوحيد للصدوق ٣٣٦.
٦ ـ الأصول من الكافي ١ : ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
٧ ـ نفس المصدر ١ : ٢٨٥.
٨ ـ نفس المصدر ١ : ٢٨٧.

للإمامة، مع أنّ التقيّة كانت باعثة على عدم تصريح الإمام باسم مَن بعده إلّا للأوحديّ من الخواصّ، فقد جعل الصادقﷺ أوصياءه خمسة، منهم المنصور[1]، فلمّا مات السيّد محمّد في حياة أبيه فقد وقع البداء فيما كان الشيعة يزعمون خلافه.

و لأجل ذلك يصحّ أن يقال في حقّهما «يا مَن بدا لله في شأنكما»، كما في عبارات الزيارات[2]. و أمّا ما ورد من البداء في حقّ الجواد و الهاديﷺ، فإنّما عُبّر بذلك لوقوع البداء في حقّ آبائهما.

ثمّ لايخفى أنّ أحداً من الأئمّة لميخبر بإمامة إسماعيل و السيّد محمّد حتّى يكون البداء في إخباره، فالبداء وقع فيما توهّم الشيعة من الكبرى الّتي كانوا يعتقدونها لافي أخبار الأئمّة. و قد مرّ أنّ إخبار النبيّ ﷺ و أوصيائه عن الأئمّة ناصّين على أسمائهم كان إخباراً جزميّاً غير واقع فيه البداء، فتأمّل جيدّاً.

---

١ ـ نفس المصدر ١ : ٣١٠.

٢ ـ كامل الزيارات ٣١٤.

الفصل الثامن
الهداية و الضلالة

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1].

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

﴿وَ اللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3].

﴿وَ اللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[4].

﴿وَ لَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾[5].

﴿وَ اللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[6].

﴿وَ لَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[7].

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[8].

---

١ ـ الفاتحة ١/٦.
٢ ـ البقرة ٢/٢١٣.
٣ ـ البقرة ٢/٢٥٨.
٤ ـ البقرة ٢/٢٦٤.
٥ ـ النساء ٤/٦٨.
٦ ـ المائدة ٥/١٠٨.
٧ ـ الأنعام ٦/٣٥.
٨ ـ الأنعام ٦/١٢٥.

﴿إِنَّ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِىَ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[1].
﴿وَ لَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[2].
﴿إِنَّكَ لَاتَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَآءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[3].
﴿الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ﴾[4].
﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً﴾[5]. إلى غير ذلك من الآيات الّتي تسند الهداية و الضلالة إليه تعالى.

معاني الإضلال و الهداية

الواقع أنّ للإضلال معاني كثيرة:

منها: *الإفساد*، فيقال: ضلّ هذا أو أضلّ، أي فسد أو أفسد.

و منها: *التخلية*، على وجه العقوبة .

و منها: *التسمية بالضلال و الحكم* به .

و منها: *الإهلاك و التدمير*، كقوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَ سُعُرٍ﴾[6]، وقوله ﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾[7]، أي فلن يبطل أعمالهم .

و منها: *التلبيس و التشبيه و التشكيك و الإيقاع في الفساد و الضلال* . و الإضلال بالمعنى الأخير إذ كان يؤدّي إلى التظليم و تجويز ما لاينبغي إسناده إليه تعالى، فلايمكن حمل الإضلال في كلامه تعالى على هذا المعنى .

و أمّا الهداية فتكون بمعانٍ كثيرة :

منها : *الدلالة و الإرشاد* المعبَّر عنه بالهداية العامّة، و هذا يعمّ جميع المكلّفين،

---

١ ـ الرعد ٢٧/١٣.
٢ ـ النحل ٩٣/١٦.
٣ ـ القصص ٥٦/٢٨.
٤ ـ طه ٥٠/٢٠.
٥ ـ الإنسان ٣/٧٦.
٦ ـ القمر ٤٧/٥٤.
٧ ـ محمّد ٤/٤٧.

بل يشمل كلّ موجود، حيث إنّه تعالى خلقه و أرشده لما خلقه له، قال الله تعالى ﴿وَ لَقَدْ جَآءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾[١]، و ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[٢]، و ﴿وَ الَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[٣]، و ما أشبه ذلك من الآيات.

و منها: أن تكون بمعنى *زيادة الإلطاف*، كقوله تعالى ﴿وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً﴾[٤].

و منها: أن تكون بمعنى *الإثابة*، كقوله تعالى ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[٥]، و ﴿وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[٦].

و منها: *الحكم بالهداية*، كقوله تعالى ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى﴾[٧].

و منها: بمعنى *جعل الإنسان مهتدياً*، فيقال: هَداه، أي جعله مهتدياً.

ثمّ أنّ الهداية بالمعنى الّذي نعرفه، تكون من العناوين الّتي تُعَنْوَن بها الأفعال وتتّصف بها، تقول: هديت فلاناً إلى الطريق أو أخذت بيده و صاحبته في الطريق لتوصله إلى الغاية المطلوبة، و هي الهداية بمعنى الإيصال. فما يقع في الخارج في جميع الموارد هو أقسام الفعل، من ذكر الطريق أو إراءته أو المشي فيه مع مَن تراد هدايته. و أمّا الهداية فهي عنوان للفعل، كما أنّ ما يأتيه المهتدي في أثر الفعل المتّصف بالهداية مُعنوَن بعنوان الاهتداء، فما ينسب إليه تعالى من الهداية و يسمّى لأجله هادياً هو أحد أسمائه الحسنى من صفات فعله المنتزعة من فعله، كسائر صفاته الفعليّة مثل الرزاقيّة و الخالقيّة.

---

١ ـ النجم ٢٣/٥٣.
٢ ـ الإنسان ٣/٧٦.
٣ ـ الأعلى ٣/٨٧.
٤ ـ محمّد ١٧/٤٧.
٥ ـ يونس ٩/١٠.
٦ ـ محمّد ٤/٤٧ ـ ٥.
٧ ـ الأعراف ١٧٨/٧.

نوعا الهداية

ثمّ أنّ هدايته تعالى على نوعين، الأوّل : *الهداية التكوينيّة*، و هي الّتي تتعلّق بالأُمور التكوينيّة، كهدايته كلّ نوع من أنواع المصنوعات إلى كماله الّذي خُلق لأجله، وهدايته كلّ شخص من أشخاص الخليقة إلى الأمر المقدّر له، قال الله تعالى ﴿وَ الَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [1].

الثاني : *الهداية التشريعيّة*، و هي ما يتعلّق بالأُمور التشريعيّة من الاعتقادات الحقّة و الأعمال الصالحة الّتي وضعها الله تعالى للأمر و النهي.

و من هذه الهداية إراءة الطريق، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً﴾ [2].

و منها : ما هو بمعنى الإيصال إلى المطلوب، كما في قوله تعالى ﴿وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [3].

و قد عرّف هذه الهداية تعريفاً بقوله ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [4].

و هي انبساط خاصّ في القلب يعي به المرء القولَ و العمل الصالح، من غير أن يضيق به. و قد أُشير إلى هذا المعنى بقوله تعالى ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِن رَّبِّهِ ـ إلى أن قال ـ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَآءُ ﴾ [5]. و قد خصّ الله تعالى بها أنبياءه، فقال ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهُ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَآءُ﴾ [6].

---

١ ـ الأعلى ٨٧/٣.
٢ ـ الإنسان ٧٦/٣.
٣ ـ الأعراف ١٧٦/٧.
٤ ـ الأنعام ١٢٥/٦.
٥ ـ الزمر ٣٩/٢٢ ـ ٢٣.
٦ ـ الأنعام ٨٧/٦ ـ ٨٨.

خلاصة و تذكرة

إذا عرفت ما تلوناه عليك من الآيات و معاني الهداية و الضلالة و أقسامها فقد ظهرت معاني الآيات الّتي تُسند الهداية و الإضلال إلى الله عزّوجلّ، فإنّ الهداية تكوينيّة أو تشريعيّة له تعالى. و قد عمّ فضل هدايته جميع مخلوقاته بالهداية العامّة، و بالهداية التشريعيّة العامّة يتمّ التكليف و يصحّ العقاب و الثواب. و لله تبارك و تعالى هداية خاصّة هي الإيصال إلى المطلوب يخصّ بها أولياءه. و بهذه الهداية لو شاء لهدى الكلّ إلى الطريق المستقيم، لكن المصلحة اقتضت أن يختار العبد لنفسه ما يريد. نعم، مَن قَبِل الهداية العامّة تشمله الهداية الخاصّة و العناية المخصوصة.

و لايخفى أنّ القرآن و الأنبياء بوجودهم و أحكامهم من الهداية العامّة التشريعيّة، فيصل إليهم كلّ من أراد متابعة الحقّ. و أمّا الهداية الموصلة فهي فعل الله تعالى و عنايته الخاصّة بأوليائه، فلا تشمل الكافر و لا الفاسق و لا الظالم و لا من يريد الله فتنتَه ﴿إِنَّكَ لَاتَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَـٰكِنَّ اللَّـهَ يَـهْدِى مَـنْ يَشَآءُ وَ هُـوَ أَعْـلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

قال الله تعالى ﴿وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] تكون هذه الآية حاكمة على الآيات الدالّة على أنّه تعالى يهدي من يشاء و يضلّ من يشاء، و هي تبيّن محلّ الإضلال و مورده كما لا يخفى.

---

١ ـ القصص ٥٦/٢٨.
٢ ـ التوبة ١١٥/٩.

الفصل التاسع
السعادة و الشقاوة

هل السعادة و الشقاوة ذاتيّة للإنسان؟ قال الله تبارك و تعالى ﴿وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[1]، و ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ﴾[2].

و الحقّ أنّ السعادة هي نتيجة الأعمال و أثرها، فمن أمن و أصلح باله و مات كذلك فهو سعيد، و من لم‌يكن كذلك فهو الشقيّ. فتكون السعادة و الشقاوة أثراً لما يختار الإنسان من الخير و الشرّ.

و أمّا المشهور من قول الرسول صلى الله عليه و آله : الشقيّ مَن شَقِي في بطن أُمّه، و السعيد مَن سعد في بطن أُمّه[3]، فقد فسّر في الخبر كما عن التوحيد عن ابن أبي عُمَير قال: سألتُ أباالحسن موسى بن جعفر عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه و آله : الشقيّ مَن شقي في بطن أُمّه، و السعيد مَن سعد في بطن أُمّه، فقال عليه السلام : الشقيّ مَن علم الله و هو في بطن أُمّه أنّه سيعمل أعمال الأشقياء، و السعيد مَن علم الله و هو في بطن أُمّه أنّه سيعمل أعمال السعداء... الخبر[4].

و الحاصل أنّ السعادة أو الشقاوة ليست بذاتيّة أو أزليّة حتّى لايقدر الشقيّ

---

١ ـ هود ١١/١٠٨.
٢ ـ هود ١١/١٠٦.
٣ ـ التوحيد للصدوق ٣٥٦.
٤ ـ نفس المصدر و الموضع.

على إصلاح حاله؛ فإنّ ذلك يخالف العدل و الحكمة و يؤول إلى الجبر و الاضطرار، كما لايخفى.

و مقتضى ما تقدّم من الآيات الدالّة: أنّه تعالى حكيم، و عالم، و قادر، و لا يفعل القبيح و العبث، فلابدّ أن تكون خلقة الإنسان و الكائنات لحكمة اقتضت هذه الخلقة و الإيجاد لئلّا يكون الفعل عبثاً و لعباً، كما أخبر تعالى بقوله:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ﴾[١].

﴿وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[٢].

و قد أُشير في الآيات المباركات إلى بعض حِكَمه، فقال تعالى:

﴿وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣].

﴿وَ لَايَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[٤].

﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً﴾[٥].

في هذه الآيات جُعلت الحكمة فيخلق الإنسان: العبادة بمعناها الوسيع، و الجود الواصل إليهم، و المعرفة و العلم، كما لايخفى على من أمعن فيها النظر.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: ... و لميَؤده منها خَلقُ ما خلقه و بَرأه، و لميكوّنها لتشديد سلطان، و لا لخوفٍ من زوالٍ و نقصان، و لالاستعانة بها على نِدّ مُكاثِر، و لا للاحتراز بها مِن ضِدّ مُثاوِر، و لالازدياد بها في مُلكه، و لالمكاثرة شريك في شِركه، و لا لوحشة كانت منه فأراد أن يستأنس إليها... الخطبة[٦].

و قال عليه السلام: ... لم تَخلق الخلقَ لوحشة، و لا استعملتهم لمنفعة... الخطبة[٧].

١ـ المؤمنون ٢٣/١١٥.
٢ـ الأنبياء ٢١/١٦.
٣ـ الذاريات ٥١/٥٦.
٤ـ هود ١١/١١٨ـ ١١٩.
٥ـ الطلاق ٦٥/١٢.
٦ـ نهج البلاغة ٢٧٦ الخطبة ١٨٦.
٧ـ نفس المصدر ١٥٨ الخطبة ١٠٩.

و قال ﷺ : ... و لم‌يرسل الأنبياء لعباً، و لم‌ينزل الكتاب للعباد عبثاً، و لاخلق السماوات و الأرض و ما بينهما باطلاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[1].

---

١ ـ نفس المصدر ٤٨١ الحكمة ٧٨، و الآية في سورة ص ٢٧/٣٨.

الأصل الثاني
النبوّة

الباب الأوّل
النبوّة العامّة

تمهيد

النبوّة حالة غيبيّة إلهيّة بها يدرك الإنسان المعارف الّتي بها يـرتفع الاخـتلاف والتناقض في حياة الإنسان، و هذه الحالة الّتي يكون عليها الإنسان تسمّى بالنبوّة.

و السبب للنبوّة و الوحي هو أنّ الإنسانيّة بطبيعتها مؤدّية إلى الاختلاف العائق للإنسان عن الوصول إلى مرحلة الكمال الحَرِيّ به، و هي قاصرة عن إدراكها ما يصلحها، فالإصلاح لابدّ أن يكون من جهة غير الجهة الطبيعيّة، و هي الجهة الإلهيّة الّـتي هـي النبوّة بالوحي، و عليه تكون تأدية الفطرة الإنسانيّة إلى الاجتماع المدنيّ من جـهة، و الاختلاف من جهة اُخرى، و عنايته تعالى بالهداية إلى تمام الخلقة دليل على النبوّة العامّة و لزوم بعث الرسل.

توضيح ذلك : أنّ نوع الإنسان مستخدم بالطبع، و هذا الاستخدام الفطريّ مؤدٍّ إلى الاجتماع المدنيّ، و إلى الاختلاف و الفساد في جميع شؤون حياته ممّا يقتضي التكوين رفعه، و لايرتفع إلّا بقوانين تُصلح الحياة الاجتماعيّة برفع الاختلاف عنها.

و هداية الإنسان إلى كماله و سعادته تكون إمّا بفطرته و إمّا بأمرٍ وراءها، و الأوّل غير كافٍ لأنّه هو نفسه الموجب للاختلاف، فكيف يرفعه؟! فوجب أن تكون الهداية بغير طريق الفطرة و الطبيعة، و هو التفهيم الإلهيّ بالنبوّة و الوحي. و هذه الحجّة مؤلّفة من مقدمات مصرّح بها في كتاب الله، قال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَـبَعَثَ اللَّـهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِـيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١].

إنّ الإنسان لم يتصرّف في حين من أحيان حياته عن حكم الاستخدام، و لم يكن استخدامه غير منجرّ إلى الاختلاف و الفساد، و لا اجتماعه خالياً من الاختلاف، و لا الاختلاف ارتفع بغير قوانين اجتماعه، و لا أنّ الفطرة و العقل قدرت على وضع قوانين تقطع منابت الفساد، كما هو المشاهَد في عصر النور و العلم فضلاً عن العصور الجاهليّة، فلابدّ من بعث الرسل لهداية الناس ليرتفع الاختلاف و الفساد، ليبقى العالم و أهله.

١ ـ البقرة ٢/٢١٣.

الفصل الأوّل
الحاجة إلى بعثة الأنبياء و الرسل

﴿هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّیِّینَ رَسُولاً مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ ءَایَاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتَابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ إِنْ کَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلَالٍ مُبِینٍ﴾[1].

﴿وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَیْكَ الْکِتَابَ إِلَّا لِتُبَیِّنَ لَهُمُ الَّذِی اخْتَلَفُوا فِیهِ وَ هُدیً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ﴾[2].

﴿کَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ﴾[3].

المستفاد من هذه الآيات أنّ الحكمة الداعية إلى بعثة الأنبياء و الرسل و إنزال الكتب، هو تعليم الإنسان ما ليس له طريق إلى فهمه بدونهم، كالمعارف الحقّة والأحكام الشرعيّة و تزكية الناس و تأديبهم و الإصلاح الاجتماعي بينهم بجعل القوانين و إظهارها لهم. و من البديهيّ أنّ الإنسان مهما وصل إلى الترقّي و الكمال المادّيّ لاتحصل له هذه الأمور إلّا بهداية من كان مرسلاً من عند ربّه، كما يشاهد ذلك بالعيان و الرجوع إلى الأنظمة و القوانين المستوردة و المجعولة البشريّة، مع أنّ الله الّذي هيّأ لكلّ موجود ما يمكن أن يكون سبباً لكماله ـ كما هو واضح لمن تأمّل

---

١ ـ الجمعة ٦٢/٢.	٢ ـ النحل ١٦/٦٤.

٣ ـ البقرة ٢/٢١٣.

و تدبّر في الآفاق ـ كيف غفل عمّا يكون أساساً لكمال الإنسان الروحي و مفتاحاً لحلّ مشكلاته و هو بعثة الأنبياء؟!

قال ابن سينا في الشفاء ما حاصله: الحاجة إلى بعث الرسل في أن يبقى نوع الإنسان و يتحصّل وجوده أشدّ من الحاجة إلى إنبات الشَّعر على الأشفار، و على الحاجبين، و تقعير الإخمص من القدمين، و أشياء أُخر من المنافع الّتي لاضرورة فيها في البقاء، فلايجوز أن يكون العناية الأزليّة تقتضي تلك المنافع و لاتقتضي هذه[1].

و قال الحكيم الطوسيّ رحمه الله: إنّ البعثة حسنة لاشتمالها على فوائد، كمعاضدة العقل فيما يدلّ عليه، و استفادة الحكم فيما لايدلّ و إزالة الخوف، و استفادة الحسن و القبح و المنافع و المضارّ، و حفظ النوع الإنسانيّ، و تكميل أشخاصه بحسب استعداداتهم المختلفة، و تعليمهم الصنائع الخفيّة و الأخلاق و السياسات، و الإخبار بالثواب و العقاب[2].

قال أميرالمؤمنين عليه السلام : ... فبعث فيهم رُسلَه، و واتَرَ إليهم أنبياءه، ليَسْتَأْدُوهم ميثاق فطرته، و يذكّروهم مَنسيّ نعمته، و يحتجّوا عليهم بالتبليغ، و يُثِيروا لهم دفائن العقول، و يُرُوهم آيات المَقْدِرة من سقفٍ فوقهم مرفوع ... الخطبة[3].

هشام بن الحكم عن أبي عبدالله عليه السلام إنّه قال للزنديق الّذي سأله : من أين أثبَتَّ الأنبياء و الرسل؟ قال : إنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا و عن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكمياً متعالياً لميَجُز أن يشاهده خلقه، و لايلامسوه، فيباشرهم و يباشروه، و يحاجّهم و يحاجّوه، ثَبَت أنّ له سفراء في خلقه يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده، و يدلّونهم على مصالحهم و منافعهم و ما به بقاؤهم و في تركه فناؤهم، فثبت الآمرون و الناهون عن الحكيم العليم في خلقه و المعبّرون عنه

١ ـ الإلهيات من الشفاء ٤٤١ ـ ٤٤٢.
٢ ـ كشف المراد ٢٧١.
٣ ـ نهج البلاغة ٤٣ الخطبة ١.

جلّ وعزّ، و هم الأنبياء عليهم السلام و صفوته من خلقه، حكماء مؤدّبين بالحكمة ، مبعوثين بها غير مشاركين للناس ـ على مشاركتهم لهم في الخَلق و التركيب ـ في شيء من أحوالهم، مؤيَّدين من عند الحكيم العليم بالحكمة ، ثمّ ثبت ذلك في كلّ دهر و زمان ممّا أتت به الرسل و الأنبياء من الدلائل و البراهين، لكيلا تخلو أرض الله من حجّة يكون معه علم يدلّ على صدق مقالته و جواز عدالته[١] .

قال أميرالمؤمنين عليه السلام : ... أرسله بحجّة كافية، و موعظة شافية، و دعوة متلافية. أظهر به الشرائع المجهولة، و قمع به البِدع المدخولة، و بيّن به الأحكام المفصولة، ... الخطبة[٢].

و قال عليه السلام : فانظروا إلى مواقع نِعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاً، فعقد بملّته طاعتهم، و جمع على دعوته ألفتهم، كيف نَشَرت النعمةُ عليهم جناح كرامتها، و أسالت لهم جداول نعيمها ... الخطبة[٣].

شبهة البراهمة

قد أنكر البراهمة[٤] و نفر من الفلاسفة لزوم البعثة، بدعوى أنّ الأنبياء إمّا أن يأتوا بما يوافق العقول أو بما يخالفها؛ فعلى الأوّل لاحاجة إلى وجودهم و لافائدة فيه، و على الثاني وجب ردّ قولهم .

و الاشتباه إنّما نشأ من عدم الفرق بين المجهول و غير المعقول، و لاشبهة في أنّ كثيراً من المعنويّات و المادّيّات مجهول لنا، فالنبيّ يأتي بما هو مجهول للبشر لابما هو غير معقول، و ما يأتي به موافقاً للعقل فهو تأكيد له و إيقاظ للعقل الّذي كُسِفت بطاعة الهوى إنارته، و أظلمت بوساوس الشيطان هدايته .

---

١ ـ الأصول من الكافي ١ : ١٦٨ .

٢ ـ نهج البلاغة ٢٣٠ الخطبة ١٦١ .

٣ ـ نفس المصدر ٢٩٨ الخطبة ١٩١ .

٤ ـ كشف المراد ٢٧٣ .

الفصل الثاني
أهداف الأنبياء في القرآن

﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾[1].

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾[2].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[4].

﴿وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[5].

﴿وَ مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾[6].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[7].

﴿وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[8].

---

١ ـ إبراهيم ١٤/٤ ـ ٥.

٢ ـ المؤمنون ٢٣/٣٢.

٣ ـ الحديد ٥٧/٢٥.

٤ ـ الأنفال ٨/٢٤.

٥ ـ النور ٢٤/٥٤.

٦ ـ الحديد ٥٧/٨.

٧ ـ المائدة ٥/١٥

٨ ـ النساء ٤/١٣.

﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[1].

---

١ ـ النساء ٤/١٦٥.

الفصل الثالث
اصطفاء الأنبياء و عصمتهم

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَ نُوحاً وَ ءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [1].

﴿اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [2].

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [3].

﴿وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَ يَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَ نُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَـٰنَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَىٰ وَ عِيسَىٰ وَ إِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَ اسْمَـٰعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَ مِنْ ءَابَائِهِم وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَـٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَّا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [4].

﴿وَ اذْكُرْ عِبَادَنَآ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَـٰاقَ وَ يَعْقُوبَ أُوْلِى الْأَيْدِى وَ الْأَبْصَارِ * إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ

---

١ ـ آل عمران ٣/٣٣.
٢ ـ الحجّ ٧٥/٢٢.
٣ ـ النحل ١٦/٢.
٤ ـ الأنعام ٦/٨٤ ـ ٩٠.

بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾[١].

﴿وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢].

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي﴾[٣].

تقتضي هذه الآيات أنّ الأنبياء مُصطفَون لله، مختارون له تعالى خيّرون. و من الضرورة أن ذلك ينافي صدور العصيان عنهم و لو سهواً، مع أنّ هذه الآيات تصرّح بلزوم متابعتهم و الاقتداء بهم و الاقتباس من أنوارهم و وجوب التأسّي بهم، كما قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[٤].

و لو صدرت المعصية عنهم و لو سهواً لَما جاز الاقتداء و التأسّي بهم، مع أنّ صدورها عنهم و لو في بعض الأحيان يوجب سقوطهم من الأعين و تنفّر الناس منهم، فلا يُطمأنُّ إلى قولهم و فعلهم، و هذا ينافي الغرض الأقصى من بعثتهم. هذا وقد ذكر الأعلام قريباً من الأربعين دليلاً عقلاً و نقلاً على عصمة الأنبياء عليهم السلام.

معنى العصمة و أقسامها

أمّا معنى العصمة ـ و هي: وجود أمر في المعصوم يصونه من الوقوع فيما لايجوز من الخطأ أو المعصية ـ فقد مرّ أنّها تكون على ثلاثة أقسام : العصمة من الخطأ في تلقّي الوحي، و العصمة من الخطأ في تبليغ الرسالة، و العصمة من المعصية. و يدلّ على الأوّلين قوله تعالى ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. فإنّه ظاهر في أنّه تعالى بعثهم للإنذار و التبشير و إنزال الكتب وهذا يكون بالوحي، ليبيّنوا للناس الحق في

---

١ ـ ص ٣٨/ ٤٥ ـ ٤٧.
٢ ـ البقرة ٢/ ١٣٠.
٣ ـ الأعراف ٧/ ١٤٤.
٤ ـ الأحزاب ٣٣/ ٢١.

الاعتقاد و العمل.

و لمّا كان تعالى لا يَضلّ و لاينسى فإذا أراد شيئاً فإنّما يريدُ من طريقه الموصل إليه من غير خطأ، و حيث بعث الأنبياء بالوحي إليهم و تفهيم معارف الدين فلابدّ أن يكون بالرسالة لتبليغ الناس، و لابدّ أن يكون ﴿إِنّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[١]، و ﴿وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾[٢]، فكيف يُعقل خطأ النبيّ في التبليغ أو تلقّي الوحي؟! و يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَايُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾[٣]، فإنّ ظاهره أنّ الله تعالى يختصّ رسله بالغيب و الوحي و يؤيّدهم بمراقبة ما بين أيديهم و ما خلفهم و الإحاطة بما لديهم لحفظ الوحي، ليتحقّق إبلاغهم رسالات ربّهم.

و العصمة من المعصية يدلّ عليها قوله تعالى ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[٤]، فإنّ جميع الأنبياء كُتب عليهم الهداية، و قال تعالى ﴿ وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾[٥]، و ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾[٦]، فنفى عن المهتدين بهدايته كلَّ مضلّ يؤثّر فيهم بالضلال فلايوجد فيهم ضلال، و كلّ معصية ضلال كما يشير إليه قوله تعالى ﴿ وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ﴾[٧]، فإنّ كلّ معصية عُدّت مضلّة فإنّما حصلت بإضلال الشيطان. و إثبات هدايته تعالى في حقّ الأنبياء ثمّ نفي الضلال عمّن اهتدى بهدايته، ثمّ عدّ كلّ معصية ضلالاً؛ تبرئةٌ منه تعالى لساحة أنبيائه عن صدور المعصية منهم و كذا عن وقوع الخطأ في تلقّي الوحي و إبلاغهم إيّاه، فإنّ الشيطان مُبعَد عنهم ﴿وَ مَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾[٨].

---

١ ـ الطلاق ٦٥/٣.
٢ ـ يوسف ١٢/٢١.
٣ ـ الجنّ ٧٢/٢٦ ـ ٢٨.
٤ ـ الأنعام ٦/٩٠.
٥ ـ الزمر ٣٩/٣٧.
٦ ـ الكهف ١٨/١٧.
٧ ـ يس ٣٦/٦٢.
٨ ـ الكهف ١٨/٦٣.

و يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى ﴿ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً ﴾ [١] وقوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَاالضَّالِّينَ﴾ [٢]، فوصفهم تعالى بأنّهم المُنعَم عليهم و ليسوا بضالّين، و لو صدرت عنهم المعصية لكانوا بذلك ضالّين.

و يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [٣]، حيث تدلّ على أنّ الله تعالى يريد قطع عذر العباد فيما فيه المخالفة و المعصية، و أن لاقاطع للعذر إلّا الرسل. و من المعلوم أنّ قطع الرسل لعذر الناس إنّما يصحّ إذا لم يتحقّق فيهم ما لا يوافق إرادة الله و رضاه من قول أو فعل و خطأ أو معصية، و إلّا كان للناس عذر يتمسّكون به و يحتجّون بهم على ربّهم، و هو نقض لغرضه تعالى.

وجوهٌ عقليّة للزوم العصمة

استدلّ أيضاً للزوم عصمة الأنبياء في القول و الفعل مطلقاً بوجوه عقليّة، نذكر طائفة منها:

الأوّل: إنّه لو جاز عليهم شيء من المعصية الكبيرة أو الصغيرة حال البعثة وقبلها و بعدها في التبليغ و العمل لزم تنفّر الناس منهم و عدم قبول أقوالهم وأفعالهم، و هو نقض للغرض.

الثاني: إنّا مأمورون باتّباعهم و ترك الاعتراض عليهم، فلو جاز الخطأ والنسيان لوجب متابعتهم فيها للأمر بها، و الأمر باتّباع الخطأ قبيح.

---

١ ـ النساء ٤/٦٩.   ٢ ـ الفاتحة ١/٧.
٣ ـ النساء ٤/١٦٥.

الثالث : إنّ وجه الحاجة إلى النبيّ و الإمام هو جواز الخطأ و صدور المعصية عن الأمّة، فلو جاز ذلك عليهم لاحتاجوا إلى مرشد آخر، لاشتراك العلّة و لزوم الترجيح بلامرجّح، فيدور أو يتسلسل .

الرابع : لو جاز على النبيّ السهو أو النسيان في التبليغ لجاز عليه الكذب في غير التبليغ و لو سهواً فلايوثق بشيء من أقواله و أفعاله في غيره، و بطلانه قطعيّ.

الخامس : إنّ الله نهى رسوله عن إطاعة الآثمين و الكافرين، فلو جاز على النبيّ أو الإمام المعصية لكان من الآثمين و لزم اجتنابه نفسه لقوله تعالى ﴿وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً﴾[١]. إلى غير ذلك من الأدلّة.

ثبوت عصمة الأنبياء

قد عرفت معنى العصمة و لزومها في النبيّ صلى الله عليه وآله و الوصيّ، و قد ذهب جمع إلى أنّ العصمة غير معتبَرة فيهم، و استدلّوا بأقاصيص الأنبياء و ما شهد به كتاب الله من نسبة المعصية و الذنب و الظلم و الغواية إلى الأنبياء و توبتهم و استغفارهم، و نحو ذلك ممّا يظهر منه أنّه صدرت المعصية منهم.

و الجواب عنها : إمّا إجمالاً؛ فبأنّه بعد ثبوت العصمة لهم كتاباً و سنّةً و عقلاً بالبراهين القطعيّة فإنّ تلك الأخبار الآحاد أو ظواهر الآيات لا تعارض تلك البراهين المسلّمة، فلابدّ من حمل هذه الألفاظ «الظلم، و الذنب، و المعصية» على ترك الأولى و إتيان ما كان عدمه أصلح أو فعل المكروه مجازاً، حيث إنّ مخالفة الأولى و الأمر الندبيّ و ارتكاب النهي التنزيهيّ منهم ـ لعِظَم مقامهم و علوّ درجتهم و كمال معرفتهم ـ ممّا يَعْظُم موقعه، و لذلك عبّر عنه بالمعصية و الذنب، و إلّا لم يكن إلّا ترك الأولى و عدم الإتيان بالمستحبّ أو ما هو أحرى.

---

١ ـ الإنسان ٧٦/ ٢٤.

و إمّا تفصيلاً؛ فنقول: الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير محلّه، سواء كان شيئاً محذوراً أو مكروهاً، فهو تارةً يتعلّق بما يرجع إلى نفس الفاعل و تارةً أخرىٰ يتعلّق بما يرجع إلى غيره؛ ففي قصّة آدم و زوجته أنّهما ارتكبا ما أوجب المشقّة لهما فظلما أنفسهما، و لذلك بدّل الله تعالى لفظ الظالمين في هذه القصّة في سورة طهٰ بقوله ﴿فَتَشْقَىٰ﴾[1] و الشقاء هو التعب، ثمّ فسّر التعب بأنّه نقيض ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَاتَعْرَىٰ ۞ وَ أَنَّكَ لَاتَظْمَؤُا فِيهَا وَ لَاتَضْحَىٰ﴾[2]. و إذاً لم يكن ذلك ظلم منهما لغيرهما و لاارتكاب عمل كان قبيحاً ذاتاً و ممنوعاً منعاً تحريميّاً.

أمّا العصيان لغة فهو عبارة عن عدم الانفعال، أو الانفعال بصعوبة. و عدم الانفعال كما يكون في الأمر و النهي المَولويَّين، يتحقّق كذلك في مورد الخطابات الإرشادية. و أمّا تعيّن المعصية في هذه الأزمنة عندنا معاشر المسلمين في مخالفة الأوامر و النواهي المولويّة الحتميّة فهو تعيّن بنحو الحقيقة الشرعيّة أو المتشرّعة، لايضرّ بعموم المعنى بحسب اللغة و العرف العامّ الّذي نزل به الكتاب العزيز.

أمّا الغواية فهي عدم اقتدار الإنسان على حفظ المقصد و تدبير نفسه في معيشته بحيث يناسب مقصده و مرامه، و من الواضح أنّه يختلف باختلاف الموارد من إرشاديّ و مولويّ.

و أمّا التوبة فهي عبارة عن الرجوع، و هذا الرجوع يختلف بحسب اختلاف موارده؛ فكما يرجع العبد العاصي المتمرّد على أمر سيّده فيتوب و يرجع إليه، و يردّ إليه مقامه الزائل عنه بتمرّده، يرجع المريض الّذي تمرّد على أمر الطبيب إلى ما أمره و ما أصدر له من تعليمات، من أجل أن يُرجع سلامته إليه و يعيده إلى سابق حاله، فيذكر له أنّ ذلك محتاج إلى تحمّل المشقّة حتّى يعود إلى سلامة المزاج السابق أو إلى أحسن منها.

١ـ طهٰ ٢٠/١١٧.

٢ـ طهٰ ٢٠/١١٨ـ١١٩.

و أمّا المغفرة[١] و الرحمة و الخسران فالكلام فيها نظير الكلام في نظائرها في اختلافها بحسب اختلاف مواردها.

ثمّ لابأس بذكر القضايا الواردة في القرآن الموهمة بصدور المعصية منهم إجمالا، فنورد هنا رواية متضمّنة للإشكال و الجواب.

أبو الصلت الهرويّ قال: لمّا جمع المأمون لعليّ بن موسى الرضا عليه السلام أهل المقالات من أهل الإسلام و الديانات من اليهود و النصارى و المجوس و الصابئين و سائر أهل المقالات، فلم يَقُم أحد إلّا و قد ألزمه حجّتَه كأنّه قد أُلقم حَجَراً، فقام إليه عليّ بن محمّد بن الجهم، فقال له: يا بن رسول الله، أتقول بعصمة الأنبياء؟ قال: بلى. قال: فما تعمل في قول الله عزّوجلّ ﴿وَ عَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[٢]، و قوله عزّوجلّ ﴿وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[٣]، و قوله في يوسف ﴿وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا﴾[٤]، و قوله عزّوجلّ في داود ﴿وَ ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾[٥]، و قوله في نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله ﴿وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[٦]؟

فقال مولانا الرضا عليه السلام: ويحك يا عليّ، إتّق الله و لا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش و لا تتأوّل كتاب الله برأيك، فإنّ الله عزّوجلّ يقول ﴿وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٧].

و أمّا قوله عزّوجلّ في آدم عليه السلام ﴿وَ عَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ فإنّ الله عزّوجلّ خلق

---

١ ـ الغفران و المغفرة في الأصل هو السّتر على الشيء، لاالمعنى المعروف منها و هو ترك العقاب على مخالفة التكليف المولويّ؛ فإنّ هذا المعنى يكون بحسب عرف المتشرّعة و لايكون كلامه تعالى منزلاً عليه، و الذنب في الأصل كما تقدّم هو العمل الّذي له تبعة سيّئة كيفما كان لامخالفة التكليف المولويّ.

٢ ـ طه ٢٠/١٢١.
٣ ـ الأنبياء ٢١/٨٧.
٤ ـ يوسف ١٢/٢٤.
٥ ـ ص ٣٨/٢٤.
٦ ـ الأحزاب ٣٣/٣٧.
٧ ـ آل عمران ٣/٧.

آدم حجّة في أرضه و خليفة في بلاده لم يخلقه للجنّة، و كانت المعصية من آدم في الجنّة لا في الأرض لتتمّ مقادير أمر الله عزّوجلّ، فلما أُهبط إلى الأرض و جُعل حجّة و خليفة عُصم بقوله عزّوجلّ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَ نُوحاً وَ ءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1].

و أمّا قوله عزّوجلّ ﴿وَ ذَا النُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ إنّما ظنّ أنّ الله عزّوجلّ لا يضيّق عليه رزقه، ألا تسمع قول الله عزّوجلّ ﴿وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾[2] أي ضيّق عليه، و لو ظنّ أن الله لا يقدر عليه لكان قد كفر.

و أمّا قوله عزّوجلّ في يوسف ﴿وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا﴾ فإنّها همّت بالمعصية وهمّ يوسف بقتلها إن أجبرته، لِعِظَم ما داخله، فصرف الله عنه قتلها و الفاحشة، و هو قوله ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ﴾[3] يعني القتل ﴿وَ الْفَحْشَآءَ﴾[4] يعني الزنا.

و أمّا داود فما يقول مَن قِبَلَكُم فيه؟ فقال عليّ بن الجهم: يقولون إنّ داود كان في محرابه يصلّي إذ تَصوّر له إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطيور، فقطع صلاته و قام ليأخذ الطير، فخرج الطير إلى الدار فخرج في أثره، فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه، فسقط الطير في دار أُوريا بن حنان، فاطّلع داود في أثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل، فلمّا نظر إليها هَوِيَها، و كان قد أخرج أُوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدّمه أمام الحرب فقُدِّم، فظفر أوريا بالمشركين، فصعب ذلك على داود، فكتب ثانيةً أن قدّمه أمام التابوت فقُدِّم، فقتل أوريا فتزوّج داود بامرأته!

فضرب الرضا عليه السلام بيده على جبهته و قال ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[5]! لقد نسبتم نبيّاً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتّى خرج في أثر الطير ثمّ بالفاحشة ثمّ

---

١ ـ آل عمران ٣٣/٣.
٢ ـ الفجر ١٦/٨٩.
٣ ـ يوسف ٢٤/١٢.
٤ ـ يوسف ٢٤/١٢.
٥ ـ البقرة ١٥٦/٢.

بالقتل! فقال: يابن رسول الله، فما كانت خطيئته؟ فقال: ويحك، إنّ داود إنّما ظنّ أن ما خلق الله عزّوجلّ خلقاً هو أعلم منه، فبعث الله عزّ و جلّ إليه الملكَين فتسوّرا المحراب، فقالا ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تُشْطِطْ وَ اهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ الصِّرَاطِ ۞ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[1]، فعجّل داود عليه السلام على المدّعى عليه فقال ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾[2] فلم يسأل المدّعي البيّنة على ذلك، و لم يُقبل على المدّعى عليه فيقول: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة حكمه لا ما ذهبتم إليه، ألا تسمع قول الله عزّوجلّ يقول ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[3] إلى آخر الآية. فقال [ابن الجهم]: يابن رسول الله، فما قصّته مع أوريا؟ فقال الرضا عليه السلام: إنّ المرأة في أيّام داود كانت إذا مات بعلها أو قُتل لا تتزوّج بعده أبداً، و أوّل من أباح الله عزّوجلّ له أن يتزوّج بامرأة قُتل بعلها داود، فذلك الذّي شقّ على الناس من قِبل أُوريا.

و أمّا محمّد نبيّه صلى الله عليه وآله و قول الله عزّ و جلّ له ﴿وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ فإنّ الله عزّوجلّ عرّف نبيّه أسماء أزواجه في دار الدنيا، و أسماء أزواجه في الآخرة و أنّهنّ أمّهات المؤمنين، و أحد من سمّى له زينب بنت جحش و هي يومئذ تحت زيد بن حارثة، فأخفى صلى الله عليه وآله اسمها في نفسه ولم يُبدِه لكيلا يقول أحد من المنافقين: إنّه قال في امرأةٍ في بيت رجل: إنّها أحد أزواجه من أمّهات المؤمنين، و خشي قول المنافقين، فقال الله عزّوجلّ ﴿وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ يعني: في نفسك، و إنّ الله عزّ وجلّ ما تولّى تزويج أحد من خلقه إلّا تزويج حوّاء من آدم و زينب من رسول الله صلى الله عليه وآله و فاطمة من عليّ عليه السلام. قال: فبكى عليّ بن الجهم و قال: يابن رسول الله، أنا تائب إلى الله عزّوجلّ أن أنطق في أنبياء

١ ـ ص ٣٨/٢٢ ـ ٢٣.
٢ ـ ص ٣٨/٢٤.
٣ ـ ص ٣٨/٢٦.

الله عزّوجلّ بعد يومي هذا إلّا بما ذكرتَه [1].

و اعلم أنّ النبيّ أفضل أهل زمانه و اُمّته لكونه معلّماً و مربّياً و هادياً للناس، قال الله تعالى ﴿أَفَمَن يَّهْدِیَ إِلَی الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَايَهِدِّی إِلَّا أَنْ يُهْدَیٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [2]. و لو كان غيره أعلم لكان هو المقدّم عليه، قال تعالى ﴿ هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [3]. و لو كان غيره أزهد و أفضل لكان أحقّ بالتقدّم منه، قال تعالى ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [4]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [5]؛ فإنّ تقديم المفضول على الفاضل من أقبح القبائح.

---

١ ـ أمالي الصدوق ٨٢ ـ ٨٤؛ عيون أخبار الرضا ١ : ١٩٣ ـ ١٩٥.

٢ ـ يونس ٣٥/١٠.

٣ ـ الزمر ٩/٣٩.

٤ ـ القلم ٣٥/٦٨.

٥ ـ ص ٢٨/٣٨.

الفصل الرابع
وظائف الأنبياء في القرآن

تتلخّص هذه الوظائف في ثلاثة أُمور، هي : الدعوة إلى الإيمان بالله و عبادته، و إلى الإيمان باليوم الآخر و ما يتعلّق به، و تبيان الشرائع الّتي فيها صلاح الإنسان وسعادته في الدنيا و الآخرة.

و يشير إلى الأوّل قوله تعالى:

﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1].

﴿وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2].

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[3].

﴿وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[4].

و يشير إلى الثاني قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ـ إلى قوله ـ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وِ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾[5].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ

---

١ ـ الأنبياء ٢١/٢٥.
٢ ـ النحل ١٦/٣٦.
٣ ـ المؤمنون ٢٣/٣٢.
٤ ـ النمل ٢٧/٤٥.
٥ ـ النساء ٤/١٣٦.

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١].

﴿وَ إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٢].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[٣].

و أشير إلى الأخير بقوله تعالى :

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[٤].

﴿يَا بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَ أَصْلَحَ فَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَاهُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٥].

﴿وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِأَيَاتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾[٦].

﴿رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ﴾[٧].

---

١ ـ الأعراف ٧/٥٩.
٢ ـ العنكبوت ٢٩/٣٦.
٣ ـ الممتحنة ٦٠/٦.
٤ ـ البقرة ٢/٢١٣.
٥ ـ الأعراف ٧/٣٥.
٦ ـ إبراهيم ١٤/٥.
٧ ـ البقرة ٢/١٢٩.

الفصل الخامس
الإيمان بجميع الأنبياء

قال تعالى ﴿قُولُوا ءَآمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَ مَآ أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِـيمَ وَ إِسْـمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَ مَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1].

و قال تعالى في بيان عقيدة المؤمنين ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْـزِلَ إِلَـيْهِ مِـن رَّبِّـهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُّسُلِهِ﴾[2].

و مَن لم يؤمن بنبيّ نصّ عليه القرآن، أو سبّ واحداً من الأنبياء عليهم السلام، فهو غير مؤمن بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُـلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُـرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ۞ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً ﴾[3].

عدد الأنبياء في القرآن

المذكور منهم في القرآن خمسة و عشرون، يجب الإيمان بهم جميعاً، و هم :

---

١ ـ البقرة ٢/١٣٦.
٢ ـ البقرة ٢/٢٨٥.
٣ ـ النساء ٤/١٥٠ ـ ١٥١.

١ ـ آدم ٢ ـ إدريس ٣ ـ نوح ٤ ـ هود ٥ ـ صالح ٦ ـ إبراهيم ٧ ـ لوط ٨ ـ إسماعيل ٩ ـ إسحاق ١٠ ـ يعقوب ١١ ـ يوسف ١٢ ـ شعيب ١٣ ـ أيّوب ١٤ ـ ذوالكفل ١٥ ـ موسى ١٦ ـ هارون ١٧ ـ داود ١٨ ـ سليمان ١٩ ـ إلياس ٢٠ ـ إليَسَع ٢١ ـ يونس ٢٢ ـ زكريّا ٢٣ ـ يحيى ٢٤ ـ عيسى ٢٥ ـ محمّد، عليهم السلام.

قال الله تعالى:

﴿وَ تِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ نُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَىٰ وَ عِيسَىٰ وَ إِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَ نُوحاً وَ ءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢].

﴿وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٣].

﴿وَ يَا قَوْمِ لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾[٤].

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[٥].

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لَـٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٦].

و هناك رسل آخرون لم تُرد أسماؤهم في القرآن، و قد أشار إليهم إجمالا بقوله تعالى ﴿وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[٧]. **و في الأخبار أنّ عددهم يبلغ مائة و أربعة و عشرين ألفاً**[٨].

---

١ ـ الأنعام ٦/ ٨٣ ـ ٨٦.
٢ ـ آل عمران ٣/ ٣٣.
٣ ـ الأنبياء ٢١/ ٨٥.
٤ ـ هود ١١/ ٨٩.
٥ ـ الأعراف ٧/ ٩٢.
٦ ـ الأحزاب ٣٣/ ٤٠.
٧ ـ النساء ٤/ ١٦٤.
٨ ـ معاني الأخبار ٣٣٣؛ الخصال ٥٢٤.

تفاضل الأنبياء

الأنبياء ليسوا بدرجة واحدة من الفضل، بل فضّل الله بعض النّبيّين على بعض، كما قال في كتابه ﴿وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[١]. و سيأتي إن شاء الله تعالى أنّ الله عزّوجلّ قد رفع درجة محمّدﷺ فوق درجة النّبيّين و أرسله إلى العالمين في حين كان إرسال عامّة الأنبياء السابقين إلى أُممهم خاصّة.

و منهم مَن وصفهم الله تعالى بأُولي العزم، قال تعالى ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾[٢]. و إنّما سُمّوا أُولي العزم؛ لأنّ عزائمهم كانت قويّة، و ابتلاءهم شديداً، وجهادهم شاقّاً، و كانوا مبعوثين إلى شرق الأرض و غربها، و هم: نوح، و إبراهيم، و موسىٰ، و عيسىٰ، و محمّد ﷺ المأمور بالاقتداء بصبرهم كما في أخبارنا؛ ففي الكافي عن سماعة عن الصادقؑ في قوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ فقالؑ: نوح و إبراهيم و عيسى و موسى و محمّد ... الخبر[٣]. و أمثاله أخبار أُخر.

---

١ ـ الإسراء ١٧/ ٥٥.
٢ ـ الأحقاف ٤٦/ ٣٥.
٣ ـ الأصول من الكافي ٢ : ١٧.

الفصل السادس
الحقائق التي بها يُعرف النبيّ

اعلم أنّ الطرق الّتي يُعرف بها النبيّ و الرسول كثيرة، عمدتها: الإعجاز[1] المقارن للدعوى، قال تعالى ﴿وَ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

و في قصّة موسى و فرعون قال تعالى ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾[3]، و قال أيضاً ﴿وَ رَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَيَةٍ مِن رَّبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[4].

و مقتضى هذه الآيات أنّ المعجزة إنّما تصدر عن النبيّ مع دعواه النبوّة، و أنّها فعل الله يصدر عن رسوله و عبده إتماماً للحجّة، لقوله تعالى ﴿وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[5]، و قوله تعالى ﴿وَ مَا كَانَ لَنَآ أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[6].

---

١ ـ و قد عرّفت المعجزة بأنّها عبارة عن ثبوت ما ليس بمعتاد أو نفي ما هو معتاد مع خرق العادة و مطابقة الدعوى. و لكن الظاهر من الآيات أنّها فعل الله الصادر على يد عبده عند دعواه الرسالة من ربّه و لا يأتي بها إلّا بإذنه، بل يظهر العجز لولا إرادة الله تعالى. المؤلف

٢ ـ البقرة ٢/٢٣.

٣ ـ الشعراء ٢٦/٣٠ ـ ٣٢.

٤ ـ آل عمران ٣/٤٩.

٥ ـ الانفال ٨/١٧.

٦ ـ إبراهيم ١٤/١١.

و عليه فما لم‌يكن النبيّ ﷺ مأموراً بإظهارها فإنّه يُظهر عجز نفسه مع وفور علمه و كمال قدرته، قال الله تعالى ﴿وَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُم فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[۱].

و قال تعالى ﴿قُلْ لَاأَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَاأَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ أَفَلَاتَتَفَكَّرُونَ﴾[۲].

و قال أيضاً ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَايَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآيءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[۳].

و قال أيضاً ﴿ وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِأَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[٤].

و بهذا يظهر، الفرق بين المعجزة و السحر و الكرامات؛ فإنّ السحر يكون فعل البشر المستند إلى أسباب طبيعيّة و إن لم‌يدركها نوع الإنسان، و الكرامة تكون من فعل الله الصادر على يد عبده المطيع غير مقرون بالدعوى.

و حيث إنّ المعجزة تكون فعل الله الصادر على يد عبده من غير أن يكون لإرادة الرسل دخل فيها، فإنّما تصدر فيما كانت المصلحة في إظهارها كسائر أفعاله تعالى، و ما لم يترتّب عليها الغرض و المقصود فلا وجه للإتيان بها.

و لأجل ذلك كثيراً ما كان العُتاة يطلبون المعجزات من الأنبياء و ما يستجاب لدعوتهم، كما في قوله تعالى ﴿وَ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ـ الى قوله تعالى ـ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾[٥]. ذلك أنّ الكفّار لم يكونوا بصدد الصلاح، و لم تكن تنفعهم المعجزة، بل تزيد في كفرهم، كما يتّضح ذلك بالرجوع إلى التواريخ؛ فإنّهم ما سألوا المعجزة إلّا تعنّتاً و تكبّراً و عناداً

---

۱ ـ الأنعام ٣٥/٦.
٢ ـ الأنعام ٥٠/٦.
٣ ـ يونس ١٥/١٠.
٤ ـ الرعد ٣٨/١٣.
٥ ـ الإسراء ٩٠/١٧ ـ ٩٣.

ومكابرة، قال الله تعالى ﴿وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾[1]. إلىٰ جوار هذا، أنّ قسماً من طلباتهم لم يكن مناسباً أو ممكناً، كطلبهم إنزال ملك رسولاً لهم، أو إتيان الله تعالى إليهم، أو إجراء المياه و الجنّات وإيجاد الكنوز و غير ذلك ممّا طلبوا من النبيّ الأكرمﷺ، مع أنّ عدم إجابتهم كان لبيان ما هو الواقع من أفعال النبيّﷺ و أقواله، بأنّه لايقول و لايفعل إلّا ما أمره الله بتبليغه و إظهاره و بيانه، و ليس له رأي و نظر، كما قال تعالى ﴿وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[2]، و لذلك ينصره تعالى ويُقدِره على ما يريد، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾[3]، ﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[4].

و يمكن أيضاً إثبات النبوّة و حقّانيّة مدّعيها من طريق آخر، هو دراسة حالات المدّعي و صفاته و أهدافه و ما يأتي به من الأحكام و المعارف. كما تثبت النبوّة بالأخبار والنصّ الوارد عن النبيّ السابق، قال الله تعالى ﴿قُلْ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَاتَعْقِلُونَ﴾[5]، و قال أيضاً ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَ الْإِنْجِيلِ﴾[6]، وقال تعالى ﴿وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[7].

---

١ ـ الإسراء ٩٤/١٧.
٢ ـ النجم ٣/٥٣ ـ ٤.
٣ ـ غافر ٥١/٤٠.
٤ ـ الحاقّة ٤٤/٦٩ ـ ٤٦.
٥ ـ يونس ١٦/١٠.
٦ ـ الأعراف ١٥٧/٧.
٧ ـ الصفّ ٦/٦١.

الفصل السابع
مِن طرق تلقّي الأنبياء عن الله تعالى

الوحي الإلهيّ

الوحي هو تكليم إلهيّ تتوقّف عليه النبوّة، قال تعالى ﴿إِنَّا أُوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1]، و قال ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2].

إنّ تكليمه تعالى أحداً من عباده إمّا أن يكون بالوحي بغير واسطة، أو مع واسطة من غير أن يكون ذلك الواسطة موحياً، أو مع كونه موحياً كالوحي الّذي كان جبرئيل واسطة له. و على جميع التقادير يكون الوحي كلاماً منه تعالى يوصله إلى عبده، و ما لم يكن نبيّاً لايوحي إليه ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

هذا و قد ذهب بعض الفلاسفة إلى أن الوحي عبارة عن اتّصال القوى و النفس بالعقل الفعّال، فتأخذ الروح منه المطالب العالية[3]، فتدركها القوّة الخياليّة، فيصوّرها الحسّ المشترك.

---

١ ـ النساء ٤/١٦٣.
٢ ـ الشورى ٤٢/٥١.
٣ ـ النجاة ٣٤١.

و عليه يعبّر عن العقل الفعّال بجبرئيل، و عن الفكر الصالح المترشّح من قواه الفكريّة بعد اتّصال روحه بالعقل الفعّال بالوحي، و عن القوانين الّتي يجعلها للصلاح بالدين، و عن الكتاب الّذي يتضمّن أفكاره العالية الطاهرة بالكتاب السماويّ، و عن القوى الطبيعيّة أو الجهات الداعية إلى الخير بالملائكة، و عن النفس الأمّارة بالسوء بالشيطان، و على هذا فقس.

أمّا الوحي عند الفلاسفة المتأخّرين، فهو عبارة عن نحوِ شعورٍ باطنيّ[١] (وجدان ناخودآگاه) يتجلّى للإنسان الكامل[٢].

و لا يخفى ـ مع أنّه لم يَقُم دليل على كون الوحي من أحد القسمين ـ أنّ هذا مخالف لما أخبر به الأنبياء و المدَّعون للنبوّة، و مناقض للآيات الشريفة، قال تعالى ﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَ مَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾[٣]، و قال ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾[٤]، و قال أيضاً ﴿ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[٥]، ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾[٦]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[٧].

و الظاهر من الآيات و غيرها أنّ الوحي شيء يوصَل إلى الأنبياء من عنده تعالى، لامجرّد اتّصال أرواحهم بالعقل الفعّال، أو شعور باطنيّ، مع أنّ الأنبياء كثيراً ما كانوا ينتظرون الوحي عند ما يُسألون، إضافةً إلى أنّ وجود العقل الفعّال لم يَقُم

---

١ ـ الميزان في تفسير القرآن ٢:١٥٧.

٢ ـ لا يخفى أنّ المراد بالإنسان الكامل هو وليّ كلّ زمان من الأنبياء و الأولياء لا كلّ إنسان كما استفاده المؤلف من كلام الفلاسفة، مع أن تطبيق الشعور الباطنيّ على (وجدان ناخود آگاه) بعيدٌ جدّاً.

٣ ـ الأنعام ٦/٩٣.

٤ ـ البقرة ٢/٨٧.

٥ ـ النجم ٥٣/٣ ـ ٥.

٦ ـ يوسف ١٢/١٠٩.

٧ ـ الكهف ١٨/١١٠.

دليل عليه كما قرّر في محلّه، مع أنّ الشعور الباطنيّ غير مختصّ بالإنسان، بل يكون في الحيوانات على وجه ربّما يكون أتمّ ممّا في الإنسان.

التكليم في القرآن

قال الله تعالى ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[١] و ﴿وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾[٢].

هاتان الآيتان و غيرهما تدلّ على أنّه تعالى كلّم بعض الناس في الجملة، أي وقع أمر حقيقيّ سمّاه «كلاماً» بغير مجاز و تمثيل، سواء كان إطلاق الكلام عليه حقيقيّاً أو مجازيّاً. وقد خصّ الله تعالى أنبياءه بالوحي و الكلام كما خصّهم ببعض النعم الّتي يخفى إدراكها على غيرهم من الناس، كنزول الوحي، و مشاهدة المَلَك، و الآيات الكبرى و غيرها؛ فإنّ الآيات و ما نقل إلينا من بيانات الأنبياء ظاهرة في كونهم لم‌يريدوا بالكلام والوحي و غيرها مَجازاتٍ و تمثيلات. و لو جاز تأويل الوحي و الكلام و الملَك لجاز تأويل جُلّ ما جاءوا به من الحقائق.

و التكلّم الإلهي الّذي أخبر به الله و الرسول أمر متحقّق حقيقيّ يترتّب عليه من الآثار ما يترتّب على التكلّمات الموجودة فيما بيننا، أعني الإفادة و التفهيم، و ذلك أنّ الله تعالى قد عبّر عن بعض أفعاله بالكلام و التكلّم، فقال ﴿وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾. و قد فسّر تعالى هذا التكليم بقوله ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾[٣]. و الاستثناء في قوله ﴿إِلَّا وَحْياً﴾ لا يتمّ إلّا إذا كان التكليم المدلول عليه بقوله ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ تكليماً حقيقة. فتكليم الله البشر تكليم لكن بنحو خاصّ، لامثل تكليمنا المحتاج إلى السمع في

---

١ ـ البقرة ٢/٢٥٣.
٢ ـ النساء ٤/١٦٤.
٣ ـ الشورىٰ ٤٢/٥١.

المخاطب و إلى الفم و نحوه في المتكلّم و غير ذلك من الأسباب المادّيّة، فإنّ الكلام لايصدر منه تعالى على حدّ ما يصدر منّا، بل هو كسائر أفعاله مثل الرزق و الخلق ثابت له، و تترتّب عليه آثار و إن لم نعرف حقيقته و كيفيّته و لم يبيّن الله و لارسوله كيفيّته و حقيقته، و لا سبيل لنا إلى ذلك إلّا بإخباره و بيانه.

و الحاصل أنّه تعالى متكلّم و قد تكلّم مع أنبيائه، و معناه أنّه تكلّم بكلام حقيقة و صدر عنه هذا الفعل و ترتّب عليه التفهيم للمعاني المقصودة و إلقاؤها في ذهن السامع. و أمّا حقيقة هذا الفعل و كيفيّة صدوره فهي كباقي أفعاله غير معلومة لنا بعد. و هذا الكلام تارة يقع بصورة الوحي من غير أن يكون هناك واسطة و أُخرى مع وسيط، و هذا الوسيط إمّا مُوحٍ إلى النبيّ بإذنه تعالى و أُخرى غير مُوحٍ.

القول الإلهي

اعلم أن «الكلام» أو «التكليم» لميستعمله تعالى في غير مورد الإنسان. بَيْد أنّ «الكلمة» أو «الكلمات» قد استعملت في غير مورد، قال تعالى ﴿وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾[١]، و ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[٢]، و ﴿وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً﴾[٣].

أمّا لفظ «القول» فقد شمل في كلامه تعالى الإنسان وغيره، فقال تعالى في مورد الإنسان ﴿فَقُلْنَا يَا ءَادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ﴾[٤]، و قال في مورد الملائكة ﴿وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾[٥]، و قال في مورد إبليس ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾[٦]، وقال في مورد غير أُولي العقل ﴿وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ﴾[٧]، و ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلَاماً﴾[٨]، و قال تعالى في مورد جميع المخلوقات على اختلافها

---

١ ـ التوبة ٩/٤٠.
٢ ـ لقمان ٣١/٢٧.
٣ ـ الأنعام ٦/١١٥.
٤ ـ طه ٢٠/١١٧.
٥ ـ البقرة ٢/٣٤.
٦ ـ ص ٣٨/٧٥.
٧ ـ هود ١١/٤٤.
٨ ـ الأنبياء ٢١/٦٩.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١].

و يستفاد من استعمال القول في هذه الموارد ـ أي فيما له سمع و إدراك، و ما ليس له سمع و إدراك بالمعنى المعهود عندنا كالأرض و السماء ـ أنّ القول منه تعالى إيجاد أمر يدلّ على المعنى المقصود. أمّا في التكوينيّات فهو نفس الشيء الّذي أوجده تعالى و خلقه، و هو بعينه قولٌ له تعالى ؛ لدلالته بوجوده على أنّه تعالى أراده. و من البديهيّ أنّه إذا أراد شيئاً فقال له كن فإنّه يكون. و الواقع أنّه ليس ثَمّة لفظ يتوسّط بينه تعالى و بين الشيء، و ليس هناك إلّا وجود الشيء، فهو بعينه مخلوق له و قول له. و امّا غير التكوينيّات مثل الإنسان فبإيجاده تعالى أمراً يوجب علماً باطنياً في الإنسان بأن كذا وكذا، إمّا بإيجاد صوت عند جسم من الأجسام، أو بنحو آخر لاندركه، أو لاندرك كيفيّة تأثيره في نفس النبيّ بحيث يحصل في نفسه علمٌ بشيء، كما مرّ في معنى الكلام.

أمّا القول في مورد الشيطان و الملائكة فهو كما في مورد الإنسان، إلّا أنّ الملك و الشيطان ذلك أنّ وجودهما ليس من سنخ وجودنا الحيوانيّ الاجتماعيّ القابل للتكامل التدريجيّ. لكن حقيقة القول ـ أي ما يوجب فهم المعنى المقصود و إدراكه ـ موجود في موردنا و موردهما و إن لم تكن كيفيّة القول في موردهما مثل كيفيّة القول فينا. و كذلك القول في ما نُسب إلى أنواع الحيوانات، كالنملة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[٢]، و الهدهد ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾[٣].

و مثل «القول» لفظ «الوحي» و «الإلهام» و «النبأ» و «القصّة» الواردة في غير الإنسان ؛ فإنّ الكلام في جميع هذه الألفاظ من حيث حقيقة المعنى هو ما مرّ في معنى الكلام من استلزامه تحقّق أمراً حقيقيّاً يترتّب عليه أثر القول و الإلهام و الإنباء الوارد في الإنسان، سواء علمنا بحقيقة هذه الأمور أو لم نعلم.

---

١ ـ آل عمران ٤٧/٣.

٢ ـ النمل ١٨/٢٧.

٣ ـ النمل ٢٢/٢٧.

ثمّ إنّ الكلام و القول و الوحي و إن كانت مشتركة في المعنى ـ و هو شيء يدرك به المقصود ـ لكنّه يسمّى كلاماً نظراً إلى السبب الّذي يفيد وقوع المعنى في الذهن، و لذلك سمّي هذا الفعل الإلهيّ ـ في مورد تشريف الأنبياء ـ كلاماً؛ لأنّ العناية هناك إنّما هي بالمخاطبة و التكليم، و يسمّى قولاً بالنظر إلى المعنى المقصود تفهيمه و إلقاؤه، و لذلك سمّي هذا الأمر الإلهيّ في مورد القضاء و القدر و الحكم و التشريع «قولاً»، و يسمّى «وحياً» بعناية كونه خفيّاً عن غير الأنبياء، قال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ﴾[1].

الكتاب الإلهي

قال الله تعالى ﴿وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[2]، و ﴿وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[3].

الكتاب بحسب ما يتبادر منه اليوم هو الصحيفة أو الصحائف الّتي تُضبَط فيها طائفة من المعاني على طريق التخطيط بقلم أو طابعٍ أو غيرهما، و لكن لمّا كان الاعتبار في استعمال الأسماء إنّما هو بالأغراض الّتي وقعت التسمية لأجلها، أباح ذلك التوسّع في إطلاق الأسماء على غير مسمّياتها المعهودة عند الوضع.

و الغرض من الكتاب هو ضبط طائفة من المعاني بحيث يستحضرها الإنسان كلّما راجعه. و هذا المعنى غير ملازم لتخطيط المعنى و الألفاظ باليد و نحوه بالقلم على القرطاس، فالكتاب إذا حفظه الإنسان في ذاكرته فهو كتاب، و إذا أملاه عن حفظه فهو أيضاً كتاب، و إن لم يكن هناك صحيفة أو لوح محفوظ بالقلم على القرطاس المعهودَين.

---

١ ـ النساء ٤/١٦٣.

٢ ـ البقرة ٢/٢١٣.

٣ ـ المائدة ٥/٤٨.

و على هذا المعنى أُطلق الكتاب في كلامه تعالى على طائفة من الوحي الإلهيّ إلى النبيّ صلى الله عليه و آله، و خاصّة إذا كان مشتملاً على العزيمة و الشريعة. و كذا يُطلق على ما يَضبط الحوادث و الوقائع نوعاً من الضبط عند الله كما في قوله تعالى ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[١] و قوله ﴿وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾[٢].

و الحاصل أنّ ما يَضبط الشرائع و الحوادث و الوحي المعبّر عنه بالكتاب يكون على أقسام ثلاثة:

الأوّل: الكتب المنزلة على الأنبياء، و هي المشتملة على شرائع الدين. و قد ذكر الله سبحانه و تعالى كتاب نوح ﴿وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[٣] و كتاب إبراهيم وموسى ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ﴾[٤]، و كتاب عيسى و هو الإنجيل ﴿وَ ءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ﴾[٥]، و كتاب محمّد ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾[٦] و ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[٧].

الثاني: الكتب الّتي تَضبط أعمال العباد من الحسنات و السيّئات، فمنها ما يختصّ بكلّ نفس، كالّذي يشير إليه قوله تعالى ﴿وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾[٨].

و منها ما يضبط أعمال الأمّة، كالّذي يدلّ عليه قوله ﴿وَ تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾[٩].

و منها ما يختصّ بالفجّار أو الأبرار، قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِى

---

١ ـ الحديد ٢٢/٥٧.
٢ ـ الإسراء ١٣/١٧ ـ ١٤.
٣ ـ البقرة ٢١٣/٢.
٤ ـ الأعلى ١٩/٨٧.
٥ ـ المائدة ٤٦/٥.
٦ ـ الحجر ١/١٥.
٧ ـ البيّنة ٢/٩٨ ـ ٣.
٨ ـ الإسراء ١٣/١٧.
٩ ـ الجاثية ٢٨/٤٥.

سِجِّينٍ﴾ [١]، و قال ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [٢].

الثالث : الكتب الّتي تَضبط نظام الوجود و الحوادث الكائنة فيه، فمنها: الكتاب المَصون من التغيير المكتوب فيه كلّ شيء، قال تعالى ﴿وَ مَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لَا فِى السَّمَاءِ وَ لَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [٣]، و ﴿ كُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِىٓ إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [٤]، و ﴿وَ كُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾ [٥]، و ﴿عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [٦]، و ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [٧]. و لعل هذا النوع من الكتاب ينقسم إلى كتاب واحد عامّ حافظ لجميع الحوادث و الموجودات، و كتاب خاصّ بكلّ موجود يحفظ به حاله في الوجود.

و منها الكتب الّتي يتطرّق إليها التغيير و يداخلها المحو و الإثبات، قال تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [٨].

الحُكم الإلهي

قال الله تعالى ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [٩]، و ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [١٠]، و ﴿وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [١١]، و ﴿وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً﴾ [١٢]، و ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ﴾ [١٣].

---

١ ـ المطفّفين ٧/٨٣.
٢ ـ المطفّفين ١٨/٨٣.
٣ ـ يونس ٦١/١٠.
٤ ـ يس ١٢/٣٦.
٥ ـ النبأ ٢٩/٧٨.
٦ ـ ق ٤/٥٠.
٧ ـ الرعد ٣٨/١٣.
٨ ـ الرعد ٣٩/١٣.
٩ ـ غافر ٤٨/٤٠.
١٠ ـ يوسف ٤٠/١٢.
١١ ـ المائدة ٤٣/٥.
١٢ ـ المائدة ٥٠/٥.
١٣ ـ الأنعام ٨٩/٦.

الأصل في مادّة الحكم بحسب موارد استعمالاته هو المنع، و بذلك سمّي الحكم المولويّ حكماً حيث إنّ الأمر يمنع المأمور من الانطلاق في إرادته و عمله كيف يشاء ويلجمه عن المشي وراء كلّ ما تهوى نفسه. كما أنّ الحكم في مورد القضاء يمنع موارد النزاع من التزلزل بالمنازعة و المخاصمة، أو يقيّد عن التعدّي والجور. كما أنّ الحكم بمعنى التصديق يمنع القضيّة من طروء الشّك فيها، والإحكام و الاستحكام في الشيء يمنعه من دخول ما يفسد في أجزائه أو يصونه من استيلاء الأمر الخارجيّ في داخله. و الإحكام في مقابل التفصيل الّذي هو جعل الشيء فصلاً فصلاً يوجب عدم إلتئام الأجزاء، و توحّدها عبارة عمّا يمنع الفساد، قال الله تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[١]، و إلى هذا يرجع معنى المحكم في مقابل المتشابه.

إذا عرفت هذا نقول: إنّ الحكم إذا نُسب إليه تعالى فإن كان في التشريع أفاد معنى التقنين و الحكم المولويّ ﴿وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾، و ﴿وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً﴾. و إن كان في التكوين أفاد معنى القضاء الوجوديّ، أي الإيجاد الّذي يساوق الوجود الحقيقيّ الخارجيّ، قال تعالى ﴿وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَامُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾[٢]، و﴿وَ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣]. و إذا نُسب إلى الأنبياء أفاد معنى القضاء، و هو من المناصب الإلهيّة الّتي أكرمهم بها، قال تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[٤]، و ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَاتَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[٥]. و ربّما يُشعر إيتاؤهم الحكم بمعنى التشريع، كقوله تعالى ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَ أَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ﴾[٦]. و أمّا غير الأنبياء من الناس فنسب إليهم الحكم بمعنى القضاء، كقوله تعالى ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

---

١ ـ هود ١/١١.
٢ ـ الرعد ٤١/١٣.
٣ ـ البقرة ١١٧/٢.
٤ ـ ص ٢٦/٣٨.
٥ ـ المائدة ٤٨/٥.
٦ ـ الشعراء ٨٣/٢٦.

فِيهِ﴾[١]، و الحكم بمعنى التشريع، و قد ذمّهم في تشريعهم قال الله ﴿وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ـ إلى قوله تعالى ـ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٢].

---

١ ـ المائدة ٥/٤٧.

٢ ـ الأنعام ٦/١٣٦.

الباب الثاني
النبوّة الخاصّة

تمهيد

عرفت في المباحث السابقة معنى النبوّة و الرسالة و لزوم بعث الرسل عقلاً، و نزيد زيادة على ذلك فنقول:

ينبغي في الرسالة أن تكون مقتضية لتصديق المدعوّين بها، و مقتضية لإيمانهم بصدق مدّعيها بحسب حالهم و وقتهم، و كافية في الاحتجاج عليهم، قاطعة لمعاذيرهم. و ينبغي كذلك أن تكون معلومة واضحة عند الدعوة و طلب التصديق؛ إمّا بأن تكون سابقة في الزمان لكنّها معلومة أو يمكن تحصيل العلم بها للمدعوّين كما لو نصّ الرسول السابق المعلومة رسالتُه عند المدعوّين بالنصّ الصريح المشخّص المعيّن على رسالة المدّعي، و كان ذلك النصّ معلوماً عند المدعوّين أو يمكن لهم تحصيل العلم بشرط أن لا يكون محتملاً للاشتباه و الاشتراك و إلّا لم يكن حجّة، و إمّا أن تكون الرسالة سابقة في الزمان على الدعوة مستمرّة إلى حينها، كما لو كانت أحوال مدّعي الرسالة و أخلاقه الحميدة كافية في الدلالة على صدقه في دعواه، في نظر المشاهد و غيره ممّن يمكنه تحصيل العلم بها. و إما أن تصدر الرسالة عند الدعوة و طلب التصديق حسب ما تقتضيه الحكمة، بشرط أن تكون معلومة للمدعوّين أو يمكنهم تحصيل العلم بها.

و لا يخفى أنّ الحجّة على الرسالة لايلزم أن تكون علّة تامّة لتصديق كافّة المدعوّين و إيمانهم فعلاً؛ لأنّ في الناس مِن المتعصّبين مَن أوقعوا أنفسهم في أسر العصبيّة و اللجاج و نبذوا عقولهم وراء ظهورهم، و فيهم من المقلّدين من أماتوا بداء التقليد عقولهم، فهؤلاء لايستضيؤون بنور العلم و لايوجّهون نظرهم إلى الحقّ ليهتدوا

إليه، كما قال الله تعالى ﴿وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَايُؤْمِنُوا بِهَا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾[1].

و متىٰ اطّلعنا علىٰ أحوال الناس من أوّل الدهر إلى زماننا هذا رأينا كثيراً غير منتفعين بالرسل و إنذارهم مع إتيانهم بالمعجزات و الآيات المتكرّرة من ربّهم، إلّا أن يصرف الله قلوبهم بقدرته القاهرة إلى الإيمان كما يطبع الحجر الأبيض على البياض، و هذا خلاف ما جرت عليه حكمة الله في خلقه لعباده. كما أنّه لايلزم أن تكون الحجّة على الرسالة دائماً من فعل المعجز الخارق للعادة، فإنّ ذلك غير لازم، بل يكفي نصّ الرسول المصدَّقة رسالته عند المدعوّين على رسالة الرسول الجديد الّذي يدعوهم إلى الإيمان بالنصّ الواضح الغير المشتبه و المجمل، و ذلك الحكم العقل بعصمة الرسول في التبليغ، فعصمة الرسول الناصّ حجّة كافية في تصديق الرسول المنصوص عليه و صدقه في دعواه.

و يكفي أيضاً أن يكون مدّعي الرسالة على نحو يمتاز به عن سائر البشر في تهذيب جمع أخلاقه و استجماعه لصفات الكمال و طهارته عن جميع الرذائل و النقائص منزّهاً عن الميل إلى الهوى مبرّءاً عن الإثم و التخلّف و التزوير، فإنّ هذا أيضاً دليل على صدق دعواه في رسالته و مقتضٍ لأن يؤمن به من لم‌تَعمِ المعصيةُ عينيه و لم يصمّ التقليد أُذنيه.

و لايلزم أن تكون الحجّة على الرسالة مُشاهَدة لكلّ المدعوّين أو المطلوب منهم الإيمان بذلك الرسول و إن كانوا أجيالاً عديدة؛ فإنّ المدار على حصول العلم بها إنّما يكون على النحو الّذي تكون فيه حجّة كافية للرسالة، فإنّ العقل لا يجد فرقاً في كونها حجّة بين كونها معلومة بالحسّ أو بالنقل المتواتر، و على ذلك جرت حجج الأنبياء و الرسل من لدن آدم إلى الخاتم: فإنّ معجزات موسى شاهدها جيلُه من بني إسرائيل مع أنّ الايمان به كان مطلوباً من أجيالهم جميعاً، و إنّ معجزات عيسى ـ مثل إشباعه خمسةَ آلاف بقليل من الخبز و السَّمك[2] ـ إنّما كانت مُشاهَدة لبعض الناس في فلسطين مع أنّ الإيمان به كان مطلوباً من جميع الناس شرقاً و غرباً. و من البعيد عادة أن يكون جميع

---

١ ـ الأعراف ١٤٦/٧.

٢ ـ التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ ١٩٥.

الناس رجالاً و نساء قد شاهدوا معجزة النبيّ صلى الله عليه وآله في حين كان الإيمان مطلوباً منهم جميعاً.

و لا يلزم عقلاً و نقلاً أن تكون الحجّة من نحو خاصّ؛ لأنّ الغرض كونها دالّة على صدق الرسول و حجّة على الناس و على أيّ نحو كانت صحّ في الحكمة أن تكون حجّة على الرسالة؛ و لذلك نرى اختلاف المعجزات بين الأنبياء، بل ربّما توجب الحكمة الإلهيّة اختلافها مراعاةً لمصلحة الوقت و حال المدعوّين بحسب أزمانهم و أحوالهم و معرفتهم، و لذلك اختلفت المعجزات الصادرة على يد موسى مع ما صدر على يد عيسى، و قد أُشير إلى ذلك في الروايات التي سئل فيها عن وجه اختلاف المعجزات.

في الاحتجاج مثلاً أنّ ابن السِّكِّيت قال لأبي الحسن الرضا عليه السلام: لماذا بعث الله موسى بن عمران بيده البيضاء و بآية السِّحر، و بعث عيسى بآية الطبّ، وبعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالكلام و الخُطب؟ فقال له أبوالحسن عليه السلام: إنّ الله لمّا بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره «السِّحر»، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسع القوم مثله، و بما أبطل به سحرهم و أثبت به الحجّة عليهم. و إنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه «الزّمانات» و احتاج الناس إلى الطبّ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثلُه و بما أحيا لهم الموتى و أبرأ الأكمه و الأبرص بإذن الله، و أثبت به الحجّة عليهم. و إنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الأغلب على أهل عصره «الخُطَب و الكلام» ـ و أظنّه قال: و الشِّعر ـ فأتاهم من عند الله من مواعظه و أحكامه ما أبطل به قولهم و أثبت به الحجّة عليهم[1].

---

١ ـ الاحتجاج ٤٣٢. كانت بلاد الشام في عصر المسيح تحت سيطرة اليونان، و قد نزل فيها منهم كثيرون. وكان الطب صناعة رائجة بينهم، فكان الأطبّاء يعالجون العديد من الأمراض بالأدوية. و من هنا جاءت معجزة المسيح (ع) الدالّة علىٰ صدق نبوّته شفاء المرضىٰ و إبراء العمىٰ و البَرَص و الشلل و سواها تحدّياً لمعارفهم في الطبّ و معالجاتهم بالأدوية، و دلالة علىٰ أنّ معجزة المسيح (ع) في هذا الميدان فوق حدود المعارف الطبيّة آنذاك و خارج نطاق قدرة البشر.

أمّا العرب الذين ابتدأت بهم دعوة الإسلام فقد كان الشعر و الخُطَب من أبرز معارفهم المتداولة، و لم يكن لهم نصيب مشهور في ممارسة العلوم الأخرىٰ. فاذا ما واجهوا معجزاً في ميدان من ميادين العلم و اسرار الطبيعة و قوانينها نسبوه إلى السحر أو إلىٰ حذف علماء البلدان الأخرىٰ المتقدّمة في هذا المجال، و لا يذعنون

ثمّ قد ذكرنا معنى المعجزة، و قلنا أنّها عبارة عمّا يظهره الله على يد رسوله من الفعل الخارق للعادة بحيث يعجز عنه سائر البشر بما عندهم من دقائق الفلسفة و الحذاقة في الصناعة و المهارة في الفنون، و بذلك يعرف أنّ الله هو الّذي أظهره بقدرته الباهرة على يد الرسول تصديقاً لرسالته.

و أمّا شهادته بصدق الرسول في دعواه الرسالة فهو من المرتكزات في الأذهان و مقتضى الفطرة السليمة من دنس الرذائل و العصبية، و عليه كافة أهل المِلل القائلين بالنبوّات. و قد ثبت في محلّه أنّ الله لا يُظهر المعجزة على يد الكاذب بدعوى الرسالة؛ لامتناع ذلك في عادة الله بحسب حكمته و غناه و قدسه، لأنّ إظهار المعجزة على يد الكاذب قبيح، و يمتنع صدور القبيح من الله الحكيم، قال تعالى ﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[1].

لإعجازه، فكان من المناسب أن تكون المعجزة التي يأتي بها النبيّ (ص) من جنس ما هم قادرون عليه و بارعون فيه ليصحّ التحدّي، و هو البيان الأدبيّ الذي كانوا في درجة عالية من الاقتدار عليه و التمرّس به، و لهذا جاء القرآن الكريم ـ بوصفه كتاباً معجزاً في بيانه و أسلوبه و فنّه التعبيريّ ـ حجّةً لرسالة الرسول (ص) و برهاناً علىٰ صدق دعواه، بما تضمّن من الإعجاز و من تحدّيهم أن يأتوا بمثله أو بمثل بعضه. و ستأتي الإشارة إن‌شاءالله إلىٰ الوجه البلاغي من وجوه إعجاز القرآن في مباحث النبوّة.

١ ـ الحاقّة ٦٩/٤٤ ـ ٤٦.

الفصل الأوّل

إثبات نبوّة النبيّ ﷺ

إذا ظهر ما ذكرناه فاعلم أنّ النبيّ الأكرم ﷺ ادّعى النبوّة بلاخلاف من المعاند والموافق، و أظهر المعجزة شاهداً على صدق دعواه، و قد أخبر الأنبياء الماضون بمجيئه و رسالته، قال الله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْاَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

و قال تعالى ﴿وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّـهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٢].

و قال أيضاً ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ﴾[٣].

و مثله في سورة البقرة ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

---

١ ـ الأعراف ١٥٧/٧.
٢ ـ الصفّ ٦/٦١.
٣ ـ الأنعام ٢٠/٦.
٤ ـ البقرة ١٤٦/٢.

و من الثابت في التاريخ أنّ أحداً من أهل الكتاب لم‌ينكر دعوى النبوّة من النبيّ صلى الله عليه وآله و لم‌ينكر ما بشّر موسى و عيسى من نبوّة نبيّ العرب و الإسلام، و إنّما ادّعوا المغالطة في المصداق و سلكوا سبيل العصبيّة و اللجاج، مع أنّ كتبهم المحرّفة أيضاً مشحونة بما ينطبق على رسول‌الله صلى الله عليه وآله.

ثمّ إنّه تعالى بنفسه المقدّسة يشهد برسالته و نبوّته، قال الله تعالى ﴿وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾[١] و قال أيضاً ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾[٢]، و قال سبحانه ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾[٣].

و الملائكة يشهدون برسالته قال تعالى ﴿لَـٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾[٤].

و الجنّ يشهدون برسالته، قال الله تعالى ﴿وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَ إِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللَّهِ وَ ءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٥]، و قال تعالى ﴿وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَ لَا رَهَقاً﴾[٦].

و مَن عنده علم الكتاب يشهد برسالته، قال الله تعالى ﴿وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[٧]. و المراد بـ(مَن عنده علم الكتاب): الأئمّة عليهم السلام، كما في الكافي عن الباقر عليه السلام: إيّانا عنى، و عليّ أوّلنا

---

١ ـ النساء ٤/٧٩.
٢ ـ الإسراء ١٧/٩٦.
٣ ـ الفتح ٤٨/٢٨.
٤ ـ النساء ٤/١٦٦.
٥ ـ الأحقاف ٤٦/٢٩ ـ ٣١.
٦ ـ الجنّ ٧٢/١٣.
٧ ـ الرعد ١٣/٤٣.

و أفضلنا بعد النبيّ ﷺ[١]. و في تفسير القمّيّ عن الصادق عليه السلام: هو أميرالمؤمنين[٢]. و في الاحتجاج سئل عليّ عليه السلام عن أفضل منقبة له؟ فقرأ الآية و قال: إيّاي عنى ب(مَن عنده علم الكتاب)[٣].

و المعجزات الصادرة على يده ﷺ مستشهداً بها برسالته تشهد بـنبوّته، هـذه المعجزات على أنواع مختلفة، عمدتها القرآن الكريم المعجزة الخالدة الخاضعة له كلّ البشر، بما فيه من الألفاظ و المعاني. و نتعرّض إلى وجه إعجاز القرآن و امتيازه عن سائر المعجزات في ضمن أُمور:

---

١ ـ الأصول من الكافي ١: ٢٢٩.
٢ ـ تفسير القمّيّ ١: ٣٧٦.
٣ ـ الاحتجاج ١٥٩.

الفصل الثاني
شهادة القرآن برسالة النبيّ ﷺ و تصديقه دعوته

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً﴾[2].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً﴾[3].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[4].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّـهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[5].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّی رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِی لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِ وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِی يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[6].

﴿وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[7].

---

١ ـ الفتح ٤٨/٨ ـ ٩.
٢ ـ الأحزاب ٣٣/٤٥.
٣ ـ البقرة ٢/١١٩.
٤ ـ النساء ٤/١٠٥.
٥ ـ المائدة ٥/٦٧.
٦ ـ الأعراف ٧/١٥٨.
٧ ـ النحل ١٦/٨٩.

﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً * قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [١].

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَ لَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٢].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٣].

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لَـٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً﴾ [٤].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [٥].

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٦].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٧].

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [٨].

﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [٩].

إلى غير ذلك من الآيات الناظرة إلى أنّه نبيّ و رسول و مذكّر و مبلّغ و معلّم ونذير وبشير و سراج و داعٍ و منادٍ من قِبَله تعالى إلى العباد، و قد أنذر الكاذب والمفتري بعذاب أليم و قطعِ الوَتين فقال ﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [١٠]، **و** ﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ

١ـ الفرقان ٢٥/٥٦ـ٥٧.
٢ـ النمل ٢٧/٩١.
٣ـ الحجّ ٢٢/٤٩.
٤ـ الأحزاب ٣٣/٤٠.
٥ـ فاطر ٣٥/٢٤.
٦ـ الشورىٰ ٤٢/٣.
٧ـ المائدة ٥/١٩.
٨ـ الطلاق ٦٥/١٠ـ١١.
٩ـ الأنبياء ٢١/١٠٧ـ١٠٨.
١٠ـ الحاقّة ٦٩/٤٤ـ٤٦.

أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَ مَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْـزَلَ اللَّـهُ﴾[١]، و ﴿إِنَّ الَّـذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَايُفْلِحُونَ﴾[٢].

---

١ ـ الأنعام ٦/٩٣.

٢ ـ النحل ١٦/١١٦.

الفصل الثالث
إعجاز القرآن

ذهب جمع إلى أنّ وجه إعجازه إنّما هو بلاغته و فصاحته البالغة حدّاً يعجز البشر عن الإتيان بمثله. و ذهب السيّد المرتضى رضوان الله تعالى عليه إلى أنّ جهة إعجازه هو صَرْف الله قلوبَ الخلائق عن الإتيان بمثله و إن كان ممكناً في نفسه[1].

و لنا أن نرجع إلى القرآن نفسه لنرى ما قال عن وجه الإعجاز. لا ريب أنّ القرآن كان في أعلى درجات الفصاحة و البلاغة بحيث تحدّى بلغاء العرب و فصحاءهم الذين كانوا يومئذ في الجزيرة العربيّة، و كانت الفصاحة دأبهم و صنعتهم و بها مباهاتهم و منافستهم، و كانوا يأتون بقصائد معروفة بالبلاغة و الفصاحة يعلّقونها في الكعبة و يفتخرون بها، فلمّا جاء القرآن بهتوا و عجزوا، و كان ينادي بين أظهُرهم مراراً أن يأتوا بعَشر سُوَر مثله مُفتَريات أو بسورة مثله، فعجزوا و اعترفوا بالعجز و القصور عن هذه المرتبة العالية، و قال لهم معلنا ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[2]. و قد قال ذلك تعجيزاً لهم فعجزوا و اعترفوا حتّى عرّضوا أنفسهم للقتل، و ما استطاعوا أن يعارضوه فاختاروا المحاربة بالسيوف بدلاً من المعارضة

---

١ ـ الذخيرة في علم الكلام ٣٧٨.

٢ ـ الإسراء ١٧/٨٨.

بالحروف و آثروا المبارزة بالسّنان على المقاومة باللسان، و ما تمكّنوا أن يقدحوا في جزالته و حسنه، و كان ذلك عندهم من أهمّ الأشياء.

ثمّ إنّه لم‌يزل يقرعهم أشدّ التقريع و يُسفّه أحلامهم و يشتّت نظامهم و يحطّ أعلامهم و يذمّ آلهتهم و آباءهم و يفتح أرضهم و بلادهم و يصول عليهم بالقرآن الكريم، و هم في كلّ هذا ناكصون عن معارضته مُقِرّون بالعجز عن معارضته، يخادعون أنفسهم بالتكذيب و الافتراء و الاستهزاء، و كانوا يقولون ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[1] و ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[2] و ﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾[3] و ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾[4]، أو ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ﴾[5] و ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[6] و ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[7]. و كانوا يمنعون شبّانهم عن استماعه فقالوا ﴿لَاتَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَ الْغَوْا فِيهِ﴾[8]. و ربما كانوا يدّعون أنّه ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَا﴾[9]، و لكنه تعالى قال لهم ﴿وَ لَنْ تَفْعَلُوا﴾[10]. و لهذا لمّا سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ﴾ قال: و الله إنّ له لَحلاوة، و إنّ عليه لَطلاوة و إنّ أصله لمورق، و أعلاه لمثمر، و ما هو بقول بشر[11].

و التأمّل في الآيات ـ لا سيّما ما تبرز فيه هذه الصناعة ـ يشير إلى هذه الصفة الإعجازيّة، كقوله تعالى ﴿وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لَاتَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِيَ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[12]. و في الآية جمع بين أمرين و نهيين و خبرَين و بشارتَين، و قوله ﴿وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَافَوْتَ وَ أُخِذُوا

---

١ ـ المدّثّر ٢٤/٧٤.
٢ ـ القمر ٢/٥٤.
٣ ـ الفرقان ٤/٢٥.
٤ ـ الفرقان ٥/٢٥.
٥ ـ نوح ٧/٧١.
٦ ـ البقرة ٨٨/٢.
٧ ـ فصّلت ٥/٤١.
٨ ـ فصّلت ٢٦/٤١.
٩ ـ الأنفال ٣١/٨.
١٠ ـ البقرة ٢٤/٢.
١١ ـ الجامع لأحكام القرآن ١٠ : ١٦٥ ؛ إعلام الورای ٥٢، و الآية في سورة النحل ٩٠/١٦.
١٢ ـ القصص ٧/٢٨.

مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[١] و ﴿وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْمَاءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢] **فإنّ هذه الآية تتّسم بإيجاز ألفاظها و ديباجة عباراتها و كثرة معانيها و بأنّ تحت كلّ لفظة منها جملاً كثيرة وفصولاً جمّةً و علوماً زاخرة، و لكن مع ذلك لاينحصر وجه الإعجاز بذلك بل إنّ الرجوع إلى القرآن و عِدله يرشدنا إلى أنّ وجه الإعجاز هو في غير ذلك أيضاً.**

و إليك آيات يظهر منها وجه التحدّي:

قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَ قَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣]**، و قال أيضاً** ﴿وَ مَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[٤]**، و قوله تعالى** ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[٥] **ففي صريح هذه الآيات أنّ التحدّي وقع من ناحية كون القرآن علماً و هداية و حكمة و هم لا يقدرون على الإتيان بهذه العلوم و الحِكَم و الهدايات.**

و في كثير من الآيات أنّ القرآن علم و هداية و حكمة و نور و بصيرة و بيان و رُوح و برهان و موعظة و ذكر و رحمة و شفاء، قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾[٦]، و ﴿هَـٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ﴾[٧]، و ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا﴾[٨]، و ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللَّهُ

---

١ ـ سبأ ٥١/٣٤.
٢ ـ هود ٤٤/١١.
٣ ـ القصص ٤٨/٢٨ ـ ٤٩.
٤ ـ يونس ٣٧/١٠ ـ ٣٩.
٥ ـ العنكبوت ٤٩/٢٩.
٦ ـ النساء ١٧٤/٤.
٧ ـ الأعراف ٢٠٣/٧.
٨ ـ التغابن ٨/٦٤.

مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١]، و ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾[٢]، و ﴿كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَاالْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

في هذه الآيات عُرِّف القرآن بالنور في مقابل ظلمات الجهل، و بالهداية قبالاً للضلالة و الغواية، و بالحكمة قبالاً لوساوس الناس و تخيّلاتهم، و بالشفاء الّذي يشفي صدور المرضى، و بالروح الّذي به حياة القلب، فهذا الكتاب الّذي هذا شأنه قد تحدّى به بأوصافه و نعوته، فقال ﴿قلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾[٤].

و الواقع أنّه تعالى قد تحدّى بالقرآن المشتمل على الحكم و المعارف و المزايا المنحصرة به، و لم يكن التحدّي بمجرّد ألفاظه، نعم هذه الحقائق قد أُلبست أحسن اللباس و جيء بها في أحسن أُسلوب أدبيّ، كما هو شأن كلّ حكيم يأتي بمراده بأحسن كلام، فلايكون وجه التحدّي منحصراً بالبلاغة و الفصاحة المضافة إلى اللفظ و العبارة بل بتلك الحقائق المؤمى إليها إجمالاً أيضاً. و لأجل ذلك ترى أعدال القرآن مُبيّني حقائقه و مفسّري دقائقه الّذين نزل القرآن في بيوتهم و خوطبوا به، وهم أعرف به من غيرهم أنّهم في مقام تعريف القرآن و توصيفه لم يصفوه بالبلاغة والفصاحة بل جُلّ نظرهم وأفكارهم و منطقهم مُتّجِه إلى ما ذكرنا من اشتمال القرآن على العلم و الحكمة و النور والشفاء و الهداية و البصيرة و التذكرة والسعادة قال النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله : القرآن هدىً من الضلالة، و تبيان من العمىٰ، و استقالة من العثرة، و نور من الظلمة، و ضياء من الأحزان، وعصمة من الهلَكة، و رشد من

---

١ ـ المائدة ٥/١٥ ـ ١٦.
٢ ـ يونس ١٠/٥٧.
٣ ـ الشورىٰ ٤٢/٥٢.
٤ ـ الإسراء ١٧/٨٨.

الغواية، و بيان من الفتن، و بلاغ من الدنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم، و ما عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النّار[١].

قال أميرالمؤمنين عليه السلام في خطبة:... ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لاتُطفأ مصابيحه، وسِراجاً لا يَخبُو تَوقُّده، و بحراً لايُدرك قَعرُه، و منهاجاً لايُضلّ نَهجُه، و شُعاعاً لايُظلم ضَوؤه، و فرقاناً لايُخمَد برهانه، و تبياناً لاتُهدم أركانه، و شفاء لاتُخشى أسقامه، و عِزّاً لاتُهزم أنصاره، و حقّاً لاتُخذَل أعوانه، فهو مَعدِن الإيمان، وبُحبُوحَتُه، و ينابيع العلم وبُحُوره، و رياض العدل و غُدْرانه، و أثافِيّ الإسلام وبُنيانه، و أودية الحقّ و غِيطانه، وبحر لايَنزِفه المُستنزِفون، و عُيُون لا يُنضِبها الماتِحون، و مناهل لايَغيِضها الواردون، ومنازل لايَضلّ نَهْجَها المسافرون، و أعلام لايَعمى عنها السائرون ... الخطبة[٢].

وفي خطبة الإنسيّة الحوراء : ... كتاب الله الناطق، و القرآن الصادق، و النور الساطع، و الضياء اللّامع، بيّنة بصائرُه، منكشفة سرائرُه، منجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعُه، قائداً إلى الرضوان أتباعَه، مُؤدٍّ إلى النجاة استماعُه، به تُنال حججُ الله المنوَّرة وعزائمُه المفسَّرة، ومحارمُه المحذِّرة وبيّناتُه الجالية، وبراهينُه الكافية، وفضائلُه المندوبة، ورُخَصُه الموهوبة، وشرائِعُهُ المكتوبة... إلى آخر خطبتها العظيمة[٣].

ثمّ إنّ القرآن أُنزل لهداية البشر بأجمعهم منذ نزوله إلى آخر الزمان، فإنّه وافٍ بسعادة الكلّ وشفاء الأمراض المعنويّة و الروحيّة و الجسميّة. ومن البديهيّ أنّ الإنسان يحتاج في سعادته إلى العلم والحكمة والنور والمعرفة والبرهان، فلابدّ أن يكون القرآن مشتملاً علىٰ ذلك، حيث إنّ هذا هو الغرض الأقصى من بعثة الأنبياء لا سيّما الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله. و لمّا كان القرآن كتاباً خالداً لجميع الناس على مختلف

---

١ ـ تفسير العيّاشيّ ١ : ٥ ؛ الأصول من الكافي ٢ : ٦٠٠ ـ ٦٠١.

٢ ـ نهج البلاغة ٣١٥ ـ ٣١٦ الخطبة ١٩٨.

٣ ـ الاحتجاج ٩٩.

طبقاتهم و أجيالهم، وقد تصدّى للتحدّي فلابدّ أن يكون متحدّياً للكلّ. و من البديهيّ أنّ مايعجز عنه الكلّ إنّما هو تلك المعارف و العلوم لا مجرّد الألفاظ و العبارات؛ فإنّ المعاني المأتيّ بها في تلك الألفاظ تقشعرّ منها جلود الّذين يسمعون ثمّ تَلينُ قلوبهم لذكر الله و ما نزل من الحقّ، فإنّ التحدّي باللفظ المجرّد قبالاً لامرئ القيس[١] مثلاً و ممّا لا يليق بمثل النبيّ الكريم، بل أعلن الصادع الحكيم تحدّيه بكتاب قبالاً لما عليه البشر من الفلاسفة و الحكماء، وجاء لمعارضة القوم في معارفهم الخياليّة، وما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم. أضف إلى ذلك كلّه أنّ الأثر الواقع على تابعي النبيّ ﷺ من القرآن الشريف هو الإيمان والهداية و الاتّعاظ و التفاني في الدين و الخروج عن حضيض الجاهلية إلى أعلى مراتب العلم و الكمال ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢] فاستجابوا و وصلوا إلى تلك المرتبة ففازوا بالدرجات العالية، فتركوا الأهل و المال، وجادوا بأنفسهم في سبيل الدين وإحياء الشريعة.

ففي غزوة بدر قال المقداد لرسول الله بعد كلام له ﷺ ومشاورة المسلمين : ... فوالله الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً لو سِرتَ بنا إلى برك الغِماد [يعني مدينة الحبشة] لَجالَدْنا معك من دونه حتّى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً و دعا له بخير[٣]، فهذا الصحابيّ يُعرب عن عقيدته وعزّته وتفانيه في إحياء الحقّ وإماتة الشرك ببركة القرآن وهَدْيه، وكذا نظراؤه من المسلمين الحقيقيّين؛ فإنّ القرآن بحقائقه قد نوّر قلوبهم

---

١ ـ «امرؤالقيس بن‌حجر بن‌الحارث الكِنديّ [نحو ٨٠ـ١٣٠ق.هـ] من بني آكل المِرار: أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يمانيّ الأصل، مولده بنجد،... اشتهر بلقبه و اختلف المؤرخون في اسمه...» الأعلام للزركليّ ٢: ١١.

٢ ـ الأنفال ٨/ ٢٤.

٣ ـ حلية الأولياء ١ : ١٧٣ ، و المقداد «هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة مولى الأسود بن عبد يغوث السابق إلى الإسلام، و الفارس يوم الحرب و الإقدام، ظهر له الدلائل و الأعلام حين عزم على إسقاء الرسول ﷺ و الإطعام، أعرض عن العمالات، و آثر الجهاد و العبادات معتصماً بالله تعالى من الفتن و البليات». نفس المصدر ١ : ١٧٢.

و أخرجهم من الشرك و ظلمة العصبيّة الجاهليّة فإذا هم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[١] يُؤثِر أحدُهم حياةَ صاحبه على نفسه. و علّمهم المعارف الحقّة، و أرشدهم إلى الكمالات و الفضائل بإشراقه على قلوبهم و إيقاظه فطرتَهم الّتي خُلقوا عليها ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢]. و لم يكن ذلك منه بمجرّد الألفاظ المنسجمة بلا دخل لمعناها في ذلك؛ فإنّ الأثر كلّه للمعنى المزيّن بهذه الألفاظ المعبّر عنه بهذه الكلمات. وحيث عرفت أنّ القرآن و إن كان ببلاغته وفصاحته أيضاً خارجاً عن عهدة البشر الإتيانُ بمثله، لكنّ وجه الإعجاز لا ينحصر بذلك. و بما أنّه معجزة ربّانيّة و برهانُ صدق على نبوّة من أُنزل إليه من جهات شتّى قد مرّت الإشارة إليها إجمالاً فلا بأس بأن نتعرّض إلى جملة منها تفصيلاً على نحو الاختصار.

وجوه إعجاز القرآن

الإعجاز المعرفي

صرّح القرآن في كثير من الآيات بأنّ محمّداً أُمّيّ، وقد جهر النبيّ ﷺ بهذه الدعوى بين الملأ من قومه الّذين نشأ بين أظهُرهم و تربّى في أوساطهم، فلم يُنكر عليه أحد منهم هذه الدعوى، وفي ذلك دلالة قطعيّة على صدق دعواه. و مع أُمّيّته فقد أُوتي في كتابه من المعارف بما بهر عقول الفلاسفة و المفكّرين شرقاً و غرباً من ظهور الإسلام إلى اليوم، كما سيبقى موضعاً لدهشتهم وحيرتهم إلى يوم القيامة، وهذا من أعظم نواحي الإعجاز. وعلى تقدير التنازل: لو فرضنا أنّه ﷺ ليس أُمّيّا، ولنتصوّر أنّه تلقّن المعارف و الفنون و التاريخ بالتعليم، أليس لازم هذا أن يكون قد

---

١ ـ الفتح ٢٩/٤٨.
٢ ـ الروم ٣٠/٣٠.

اكتسب من علماء عصره الّذين نشأ بينهم؟ ونحن نرى هؤلاء الّذين نشأ محمّد ﷺ بينهم، منهم وثنيّون يعتقدون بالأوهام ويؤمنون بالخرافات، ومنهم كتابيّون يأخذون معارفهم من كتب العهدَين. وإذا فرضنا أنّ محمّداً ﷺ أخذ تعاليمه من أهل عصره، فلازم ذلك أن ينعكس على أقواله ومعارفه ظلالُ هذه العقائد الّتي اكتسبها من أولئك ومن كتبهم الّتي كانت مصدر معارفهم واعتقادهم، ونحن نرى مخالفة القرآن لكتب العهدَين في جميع النواحي وتنزيهه لحقائق المعارف عن الانحرافات الّتي ملأت كتب العهدَين وغيرها من مصادر المعرفة في ذلك العصر.

تعرّض القرآن للإلهيّات، فوصف اللهَ بما يليق بشأنه من صفات الكمال، ونزّهه عن لوازم النقص والحدوث، كما مرّ عليك في باب التوحيد مفصّلاً. قال تعالى ﴿وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [1]، و﴿وَ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [2] و﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [3]، و﴿قُلِ اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [4]، و﴿هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْـجَبَّارُ الْـمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [5]. هكذا يصف القرآن إله العالمين، ويأتي بالمعارف الّتي تتمشّى مع البرهان الصريح والعقل الصحيح، وهل يمكن لبشر أُمّي نشأ في محيط الجهل أن يأتي بمثل هذه المعارف العالية؟!

وتعرّض القرآن لذكر الأنبياء وأوصافهم، فوصفهم بأجمل الثناء وأحسن ما ينبغي أن يُنسَب إليهم وأجلّ مأثرة كريمة تلازم قداسة النبوّة ونزاهة السفارة الإلهيّة، فقال ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَ نُوحاً وَ ءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [6]،

---

١ ـ البقرة ٢/١١٦ ـ ١١٧.
٢ ـ البقرة ٢/١٦٣.
٣ ـ الأنعام ٦/١٠٣.
٤ ـ يونس ١٠/٣٤.
٥ ـ الحشر ٥٩/٢٣ ـ ٢٤.
٦ ـ آل عمران ٣/٣٣.

و ﴿وَ كَذٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [١]، و ﴿وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ نُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [٢].

و يذكر بعد عَدّ جملة من الأنبياء ﴿وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٣]، و ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَاءِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيّاً﴾ [٤]. إلى غير ذلك من الآيات الواردة في القرآن المبيّنة لأوصاف الأنبياء و المرسلين.

و أمّا كتب العهدين فقد تعرّضت أيضاً لذكر الأنبياء و أوصافهم، و لكنّها وصفتهم بما لا ينبغي أن يوصف به أراذل الناس، فكيف بأولياء الله و سفرائه ؟! فهل يمكن أن يقال بأنّ محمّداً ﷺ أخذ أقواله و اعتقاداته من تلك المصادر الخرافيّة، و قرآنه على ما هو عليه من سموّ المعارف و رصانة التعليم، كما لا يخفى على من أنعم النظر ؟!

الإعجاز البياني

قد علم كلّ عاقل جرّب الأمور و عرف مجاريها أنّ الّذي يبني أمره على الكذب و الافتراء في تشريعه و إخباره لابدّ أن يقع منه التناقض و الاختلاف، لا سيّما إذا تعرّض للكثير من الأمور المهمّة من التشريع و الاجتماع و العقائد و النُّظُم الأخلاقيّة المبتنية على أدقّ القواعد و أحكم الأسس، خاصّةً إذا طالت المدّة على ذلك المفتري. نعم، لابدّ أن يقع في التناقض و التضادّ أراد أو لم يُرِد؛ لأنّ ذلك مقتضى الطبع البشريّ الناقص إذا كان خالياً من السداد، فإنّ الكذوب لا حافظة له.

وقد تعرّض القرآن لمختلف الشؤون، و توسّع فيها أحسن التوسّع، فتكلّم في الإلهيّات و النبوّات، و وضع الأُصول في الأحكام و السياسات المدنيّة و الاجتماعيّة، وقواعد الأخلاق، و تعرّض لأمور كثيرة غيرها تتعلّق بالفلكيّات و التاريخ، وقوانين

---

١ ـ الأنعام ٦/٧٥.

٢ ـ الأنعام ٦/٨٤.

٣ ـ الأنعام ٦/٨٧.

٤ ـ مريم ١٩/٥٨.

السلم والحرب، ووصف الموجودات الأرضيّة والسماويّة، ووصف أحوال القيامة ومشاهدها، ولم يوجد فيه أيّ اختلاف وتناقض، ولم يتباعد فيه عن أصل مسلَّم عند العقل والعقلاء. وهو ربّما يتعرّض لقضيّة واحدة مرّتين أو مرّات، لكنّك لا تجد فيه تناقضاً أو أقلّ تهافت؛ كما في قضيّة موسى وقومه إذ تعرّض لها مرّات، وفي كلّ مرّة تجد فيها مزيّة تمتاز بها من غير اختلاف في جوهر المعنى.

و من الواضح أنّ الآيات نزلت نجوماً متفرّقة على الحوادث، فلو كان القرآن من كلام البشر العاديّ، فمقتضى طبع التفرّق عدم الملاءمة والتناسب، مع أنّا نرى بالوجدان أنّه حين تفرّق بعين ما اجتمع نزل متفرّقاً وكان معجزاً، فلمّا اجتمع حصل له إعجاز آخر ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾[1]، فإنّ الآية تشير إلى حُكم الفطرة، وهو أنّ من يعتمد على الكذب في دعواه لابدّ من التهافت في قوله، كما تحكم الفطرة السليمة بذلك، وهذا شيء غير واقع في الكتاب العزيز.

وقد أحسّت العرب بهذه الاستقامة في أساليب القرآن واستيقن بذلك بلغاؤهم، فإنّ كلمة الوليد بن المُغيرة في صفة القرآن تفسّر لنا ذلك، حيث قال ـ حينما سأله أبوجهل أنْ يقول في القرآن قولاً ـ: فما أقول فيه؟! فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منّي، ولا أعلم برَجَزه منّي، ولا بقصيدِه ولا بأشعار الجنّ، والله ما يُشبه الّذي يقول شيئاً من هذا. واللهِ إنّ لقوله لَحلاوة، وإنّه ليحتطّم ما تحته، وإنّه ليعلو ولا يُعلى، قال [أبوجهل]: والله لا يرضى قومك حتّى تقول فيه! قال [الوليد]: فدَعْني حتّى أفكّر فيه، فلمّا فكّر قال: هذا سِحر يأثره عن غيره[2]!

وفي بعض الرّوايات قال الوليد: واللهِ لقد سمعتُ منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لَحلاوة، وإنّ عليه لَطَلاوة، وإنّ أعلاه لَمُثمِر، وإنّ

١ ـ النساء ٤/٨٢.

٢ ـ تفسير الطبريّ ١٩: ١٥٩؛ إعلام الورى ٥١ ـ ٥٢ باختلاف يسير.

أسفله لَمُغدِق، و إنّه ليعلو و لا يُعلىٰ عليه، و ما يقول هذا بشر[١].

الإعجاز التشريعي

مَن تتبّع التاريخ يظهر له ما عليه الأمم قبل الإسلام من الجهل و الانحطاط في معارفهم و أخلاقهم، لا سيّما العرب الّذين كانت الحروب و النهب و الغارات شغلهم، و الخرافات عقيدتهم، فلا دين يجمعهم، و لا نظام يربطهم. و حين بزغ نور محمّد ﷺ و أشرقت شمس الإسلام تنوّروا بالمعارف، و تخلّقوا بالمكارم، فاستبدلوا التوحيد بالوثنيّة، و العلم بالجهل، و الفضائل بالرذائل، و التالف بالتخالف، كلّ ذلك كان بفضل تعاليم القرآن؛ فإنّ للقرآن في تعاليمه و أنظمته مسلكاً يتمشّى مع البراهين العقليّة الواضحة، فقد سلك سبيل العدل، و تجنّب طرفَي الإفراط و التفريط ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيتَآئِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ يَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢]، و ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[٣]، و ﴿وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[٤].

و القرآن في سبيل العدل ينهى عن الشُّحّ، فيقول ﴿وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٥].

و هو ينهى عن الإسراف و التبذير، و يَدُلّ الناس على مفاسدهما، فيقول ﴿وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٦]، و ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[٧]، و ﴿وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾[٨].

و أمر بالصبر و وعد الثواب عليه، فقال ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن ١٩ : ٧٤.
٢ ـ النحل ٩٠/١٦.
٣ ـ النساء ٥٨/٤.
٤ ـ الأنعام ١٥٢/٦.
٥ ـ آل عمران ١٨٠/٣.
٦ ـ الأنعام ١٤١/٦.
٧ ـ الإسراء ٢٧/١٧.
٨ ـ الإسراء ٢٩/١٧.

حِسَابٍ﴾[١]، و ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[٢]. وإلى جانب هذا لم يجعل المظلوم مغلول اليد أمام الظالم بل أباح له الانتقام بمثل ما اعتدى عليه؛ حسماً لمادة الفساد، وتحقيقاً للعدل، فقال ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٣].

و القرآن الكريم بسلوكه طريقَ الاعتدال قد جمع بين نظام الدنيا و نظام الآخرة، وتكفّل بما يُصلح الأولى وبما يضمن السعادة في الأُخرى. وليس تشريعه دنيويّاً محضاً لا نظر فيه إلى الآخرة، كما تجده في التوراة الرائجة؛ فإنّها مع كِبَر حجمها لا تجد فيها مورداً تعرّضت فيه لوجود القيامة، ولم تُخبر عن عالمٍ آخر للجزاء على الأعمال الحسنة والقبيحة. نعم، صرّحت التوراة بأنّ أثر الطاعة هو الغنى في الدنيا، والتسلّط على الناس باستعبادهم، وأنّ أثر المعصية والسقوط من عين الربّ هو الموت وسلب الأموال والسلطة. كما أنّ القرآن لا يكون تشريعه أخرويّاً محضاً لا تعرُّض فيه لتنظيم أُمور الدنيا كما في تشريع الإنجيل، بل ينظر إلى صلاح الدنيا تارة، وإلى الآخرة أُخرى، فيقول ﴿مَنْ يُطِعِ اللهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَ مَنْ يَعْصِ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَ لَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٤]، و ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[٥]، و ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٦].

و أحلّ للناس المعاملات والمناكحات وجميع الملابسات، غير ما يكون فاسداً ومفسداً لنظام الدنيا وصلاح الآخرة.

وقد أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع أفراد الأُمّة، ولم يخصّه بطائفة معيّنة ولا بأفراد مخصوصين. وهو بهذا التشريع قد فتح لتعاليمه

---

١ ـ الزمر ٣٩/ ١٠.
٢ ـ آل عمران ٣/ ١٤٦.
٣ ـ البقرة ٢/ ١٩٤.
٤ ـ النساء ٤/ ١٣ ـ ١٤.
٥ ـ القصص ٢٨/ ٧٧.
٦ ـ الأعراف ٧/ ٣٢.

أبواب الانتشار، و نفخ فيها روح الحياة و الاستمرار، فقد جعل كلّ واحد من أفراد العائلة مرشداً لهم و رقيباً عليهم، بل جعل كلّ مسلم دليلاً و عيناً على سائر المسلمين يهديهم إلى الرشاد، و يزجرهم عن البغي و الفساد، فالمسلمون بأجمعهم مكلّفون بتبليغ الإسلام و تنفيذ الأحكام، فلا يوجد جند أقوى و أعظم من هذا الجند ﴿أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١].

و من أعظم تعاليم القرآن الّتي تجمع كلمة المسلمين و توحّد بين صفوفهم: المؤاخاة بينهم و نبذ التمايز إلّا مِن حيث العلم و التقوى، فقال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [٢]، و ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَاللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [٣]، فهل يشكّ عاقل بعد هذا في نبوّة من جاء بهذا النظام الخارج عن قدرة البشر، لا سيّما إذا كان الذي جاء به قد نشأ في أُمّة وحشيّة لا معرفة لها بشيء من هذه التعليمات ؟!

الإعجاز في إتقان المعاني

قد تعرّض القرآن لمواضيع كثيرة العدد متباعدة الأغراض، من الإلهيّات و المعارف و بدء الخلق و منتهاه، و ماوراء الطبيعة من الروح و الملَك و الجنّ، و الفلَكيّات و الأرض، و التاريخ و شؤون فريق من الأنبياء، و ما جرى بينهم و بين أُممهم، و الأمثال و الاحتجاجات و الأخلاقيّات، و حقوق الأسرة و السياسات و النظم الاجتماعيّة و الحربيّة، و القضاء و القدر و الجبر و الاختيار، و العبادات و المعاملات، و قد أتى في جميع ذلك بالحقائق الساطعة الّتي لا يتطرّق إليها الفساد و لا يأتيها الباطل مِن بين يدَيها و لا مِن خلفها تنزيل من حكيم حميد، و هذا شيء يمتنع عادةً من البشر، لا سيّما ممّن نشأ في ذلك المكان و القوم و الزمان، فإنّا نجد أنّ كلّ مؤلّف في علم من العلوم النظريّة لا تمضى عليه مدّة إلّا و يظهر له و لغيره

---

١ ـ المجادلة ٥٨/٢٢.
٢ ـ الحجرات ٤٩/١٠.
٣ ـ الحجرات ٤٩/١٣.

بطلان كثير من آرائه؛ فإنّ البحث كلّما ازداد ازدادت الحقائق وضوحاً، و الحقيقة بنت البحث و (كم تَرَك الأوّلُ للآخر ؟!).

و لكنّ القرآن مع تطاول الزمان عليه وكثرة أغراضه وسموّ معانيه لم يوجد فيه ما يكون مَعرِضاً للنقد و الاعتراض إلّا الأوهام من بعض المكابرين، وقد تعرّض العلماء لها و لدفعها، جزاهم الله خيراً.

الإعجاز في الإخبارات الغيبيّة

أخبر القرآن الكريم في عدّة من آياته عن أُمور مهمّة تتعلّق بما يأتي من الأنباء والحوادث، وقد كان في جميع ما أخبر به صادقاً لم يخالف الواقع في شيء منها. و لا شكّ في أنّ هذا من الإخبار بالغيب و لا سبيل إليه غير طريق الوحي و النبوّة.

و من الآيات الّتي أنبأت عن الغيب قوله تعالى ﴿وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[١]. و هذه الآية نزلت في وقعة بدر و وعد الله فيها المؤمنين بالنصر مع قلّتهم وكثرة المشركين، وقد وقع كما أخبر[٢].

ومنها قوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[٣]، و هذه الآية نزلت بمكة في بدء الدعوة الإسلامية، فأخبرت عن ظهور دعوة النبيّ ﷺ ونصرة الله له وخذلانه المشركين المستهزئين[٤]. وكان هذا الإخبار في زمان لم يخطر فيه ببال أحد انحطاط المشركين وظهور النبيّ عليهم.

و نظيرها قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٥]. ومنها قوله تعالى ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِىَ أَدْنَى الْاَرْضِ

---

١ ـ الأنفال ٨/٧.

٢ ـ مجمع البيان ٢ : ٥٢٠ ـ ٥٢١.

٣ ـ الحجر ١٥/٩٤ ـ ٩٥.

٤ ـ مجمع البيان ٣ : ٣٤٦.

٥ ـ التوبة ٩ / ٣٣.

﴿وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾[١]، وقد وقع ما أخبر به الله في أقلّ من عشر سنين، فَغَلب ملكُ الروم و دخل جيشُه مُلك الفرس، إلى غير ذلك من الآيات، وقد جمعها الفاضل النمائيّ في كتاب سمّاه أخبار غيبي قرآن[٢].

الإعجاز في ذكر أسرار الخلقة

أخبر القرآن في كثير من آياته بما يتعلّق بِسُنن الكون و نواميس الطبيعة و الأفلاك و غيرها، ممّا لا سبيل إلى معرفته في بدء الإسلام إلّا من مصدر الوحي الإلهيّ. و بعض هذه القوانين و إن عَلم به اليونان في ذلك الزمان لكن جزيرة العرب كانت بعيدة عن العلم بذلك، مع أنّ كثيراً من تلك القوانين الّتي أخبر بها القرآن لم يتّضح إلّا بعد توفّر العلوم وكثرة الاكتشافات في العصر الحديث. و هذه الأنباء كثيرة، منها قوله تعالى ﴿وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيءٍ مَوْزُونٍ﴾[٣] و لا ريب أنّ هذه الآية تدلّ على أنّ كلّ ما ينبت في الأرض له وزن خاصّ و قد ثبت أخيراً أنّ كلّ نوع من أنواع النبات مركّب من أجزاء خاصّة على وزن مخصوص، بحيث لو زِيد عليه أو نقص منه لَأنتج مركّباً آخر، و أنّ نسبة بعض الأجزاء إلى بعض من الدّقّة بحيث لا يمكن ضبطها بأدقّ الموازين المعروفة للبشر.

ومنها إخبار القرآن عن حاجة إنتاج قسم من الأشجار و النبات إلى اللِّقاح بالرياح، قال تعالى ﴿وَ أَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[٤]، فإنّ الرّياح تحمل من النبات الفحل لقاحاً تلقّح النبتة المثمرة، فتشير الآية إلى أنّ سُنّة الزواج لا تختصّ بالحيوان بل تشمل النبات أيضاً، و الرياح هي الّتي بسببها يقع التلقيح بين النباتين. وقد اكتُشف هذا الناموس بعد مرور قرون من نزول القرآن، إلى غير ذلك من مِثل الآيات الدالّة على كرويّة الأرض وحركتها، و وجود العالم في طرف آخر من الأرض، و أنّ

---

١ ـ الروم ٣٠/٢ ـ ٣.
٢ ـ أي الأخبار الغيبيّة للقرآن.
٣ ـ الحجر ١٥/١٩.
٤ ـ الحجر ١٥/٢٢.

السماء تتّسع و تمتدّ باستمرار، كما لا يخفى على مَن يرجع إلى المصادر العلمية الحديثة.

الإعجاز العلمي

تحدّى القرآن بالعلم و المعرفة خاصّة بقوله ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَىءٍ﴾[١]، و ﴿وَ لَا رَطْبٍ وَ لَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢]. و الإسلام كما يعلمه كلّ من طالع متنَ تعليماته ـ من كليّاته الّتي قدّمها القرآن، و جزئيّاته الّتي أرجعها إلى النبيّ ﷺ بقوله ﴿مَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٣]، و ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾[٤] ـ إنّما هو متعرّض للجليل و الدقيق من المعارف و الأخلاق و النظم الاجتماعيّة وكلّ ما يتّصل بفعل الإنسان وعمله، وكلّ ذلك على أساس الفطرة و أصل التوحيد. وقد بيّن بقاءها جميعاً و انطباقها على صلاح الإنسان بمرور الدهور بقوله تعالى ﴿وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٥]. من هنا فالقرآن كتاب حاكم لا يَحكم عليه و لا يقضي عليه قانون التحوّل و التكامل؛ لأنّ التشريع يجب أن يتولّد من بذر التكوين و الوجود، و التكامل و التحوّل إنّما يكون في المادّيّ وما يرجع إليه، في حين يقصر الباحث المادّيّ نظره على تحوّلات الاجتماع المادّيّ الذي يفتقد فضيلة الروح و الحياة.

الإعجاز في نزوله على نبيّ أمّيّ

تحدّى القرآن بالنبيّ الأُمّيّ الّذي جاء بالقرآن المعجز في لفظه و معناه ولم يتعلّم عند معلّم بقوله ﴿قُلْ لَّوْ شَآءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَيٰكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ

---

١ ـ النحل ٨٩/١٦.
٢ ـ الأنعام ٥٩/٦.
٣ ـ الحشر ٧/٥٩.
٤ ـ النساء ١٠٥/٤.
٥ ـ فصّلت ٤١/٤١ ـ ٤٢.

عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ اَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [١].

لقد كان النبيّ بينهم، وهو كأحدهم؛ لا يتسامى في فضل، ولا ينطق بعلم، ولا يأتي بشيء من شِعر أو نثر نحواً من أربعين سنة، ثمّ أتى بالقرآن دفعة، فأتى بما عجزت عقولهم وكلّت دونه ألسنتهم، ثمّ بثّه في الأقطار فلم يجترئ على معارضته أحدٌ من ذوي العلم و اللبّ و الذكاء.

الإعجاز في الاحتجاج

نهض رسول‌الله ﷺ لتعليم البشر وتنوير أفكارهم في عصر الظلمات والجهل والعمى، ولإرشادهم إلى المعارف والحقائق التي حجبتها ظلمات الضلال المتراكمة في تلك العصور. و قد جاء من ساطع الحجج و البراهين على أهمّ المعارف وأشرفها. و هي حجج و براهين جارية على أحسن نهج وأعمّه نفعاً في الاحتجاج والتعليم، ممّا يستلفت نظرَ العاميّ إلى نور الغريزة، وإلى سناء البديهيّات فيجلوه لإدراكه. وهو يجري بمؤدّى تلك الحجج مع الفلاسفة في قوانين المنطق وتنظيم قياساته على أساسيّات المعقول، فاحتجّ على وجود الإله وعلمه وقدرته وتوحيده، وعلى المعاد الجسمانيّ، وعلى أنّ القرآن وحي إلهيّ، وعلى صدق الرسول في دعوته، فلا يوجد في تلك الحجج خلل عرفانيّ، أو وهن أدبيّ أو شائبة من تناقض، أو شائبة اختلاف، فإذا فرضت أيّ بشر يكون في ذلك العصر المظلم، و قد نشأ في أوساط أهله ـ مع أنّه لم يتعلّم من أحد ـ علمتَ أنّه يمتنع عليه في العادة، بما هو بشر وبلا وحي إلهيّ إليه ـ أن يأتي ببيان المعارف الصحيحة، والمناقِضة للجهل العامّ، ويحتجّ عليها بتلك الحجج الساطعة على ذلك المنهج الممتاز بأفضليّته. وقد ذكرنا كثيراً من الآيات الّتي احتجّت على المبدأ وحالاته وصفاته في محلّه،

---

١ ـ يونس ١٠/١٦.

فراجعها.

الإعجاز الأخلاقي

إذا نظرت إلى ظلمات العصر والقطر والتربية وشيوع الجهل وسوء الأعمال وعدم الدراسة بينهم علمتَ أنّ هذه الأمور لها أثر كبير في الجهل بالأخلاق الفاضلة والانحراف عن جادّتها. وإنْ حاول الرجل المصلح حينئذ شيئاً من تهذيب الأخلاق فإنّه لا يهتدي إلّا إلى شيء يسير. وإن تكلّف الفيلسوف شيئاً من التعليم بالأخلاق خَبَط فيها خبطاً غلب عليه الجهل والزلل، وتتابعت فيه العثرات. ومن بين تلك الظلمات بزغ القرآن الكريم بنوره، وأتى بما لا تسمح به العادة بأن يأتي به في تلك الظلمات بشرٌ من عند نفسه وتقوّلاً على الوحي، فجاء القرآن في إجماله وتفصيله مستقصياً للأخلاق الفاضلة على حدودها، بالحثّ على التزيّن بها بما توجبه الحكمة من البعث والترغيب فقال ﴿لَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1]، ومحصياً للأخلاق الذميمة بالزجر عن التلوّث بها بما يوجبه الإصلاح من التخويف والتنفير فقال ﴿وَ يَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ﴾[2]، وأقام لذلك في العالم أشرف مدرسة زاهرة وأعلى فلسفة مرشدة، وأبلغ خطابة واعظة، وإليك بعضاً من جوانبه:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيتَائِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَ يَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

﴿وَ عِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً * وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً * وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَ مُقَاماً * وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا

---

١ ـ فصّلت ٣٤/٤١.
٢ ـ النحل ٩٠/١٦.
٣ ـ النحل ٩٠/١٦.

وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً * وَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ وَ لَا يَـقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلَّا مَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ وَ عَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً * وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً * وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * وَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَ عُمْيَاناً * وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً * أُولَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَ سَلَاماً﴾ [١].

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَ الَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ * وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَـٰئِكَ فِى جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [٢].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [٣].

---

١ ـ الفرقان ٦٣/٢٥ ـ ٧٥.

٢ ـ المعارج ١٩/٧٠ ـ ٣٥.

٣ ـ الحجرات ١٠/٤٩ ـ ١٢.

هذا شيء قليل من البيان في النواحي المذكورة، إذ لا يسع المجال لأكثر من ذلك. وهب أنّ الوساوس تغالط بعض الأذهان بِواهِيات الشكوك في الإعجاز في بعض مصاديقها، ولكن هل يمكن ذلك بالنظر إلى مجموعها؟! وهل يسوغ لذي شعور أن يختلج في ذهنه الشكّ في إعجاز الكتاب الجامع بفضيلته لهذه الكرامات الباهرة، وخروجه عن طوق البشر مطلقاً وخصوصاً في ذلك العصر وتلك الأحوال؟! وهل يسمح عقله إلّا بأن يقول ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[١] ؟!

تتمّة في إعجاز القرآن

قد مرّ بعض وجوه التحدّي بالقرآن ومناط إعجازه، فاعلمْ أيضاً أنّ الآيات المشتملة على التحدّي مختلفة في العموم والخصوص، ومن أعمّها تحدّياً قوله تعالى ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[٢]. والآية مكّيّة، وفيها من عموم التحدّي ما لا يخفى على أحد، فلو كان التحدّي ببلاغة القرآن وجزالة أُسلوبه فقط لم يتعدّ التحدّي قوماً مخصوصين وهم العرب، وقد قرعت الآية أسماع الإنس والجنّ. وكذا غير البلاغة من كلّ صفة خاصّة اشتمل عليها القرآن، كالمعارف الحقيقيّة والأحكام والأخبار، كلّ واحد منها ممّا يعرفه بعض الثقلين دون جميعهم؛ فإطلاق التحدّي على الثقلين ليس إلّا جميع ما يمكن فيه التفاضل في الصفات؛ فالقرآن آية للبليغ في بلاغته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللاجتماعيّ في اجتماعه، وللمقنّنين في تقنينهم، وللسياسيّين في سياساتهم، وللحكّام في حكومتهم، ولجميع العالمين فيما ينالونه جميعاً، كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم والبيان، فظهر أنّ القرآن يدّعي

١ ـ النجم ٥٣/ ٤ ـ ٥.
٢ ـ الإسراء ١٧/ ٨٨.

عموم إعجازه من جميع الجهات من حيث كونه إعجازاً لكلّ فرد من الجنّ و الإنس في كلّ زمان و مكان، كما تحدّى بالعلم و البلاغة و الهداية و غيرها اختصاصاً، وقد مرّ الكلام في بعض وجوه الإعجاز اختصاراً.

و امتاز القرآن عن غيره من المعجزات و تفوّق عليها بأكبر الأُمور الجوهريّة في شؤون النبوّة و الرسالة و دعوتها؛ فمن ذلك إنّه باقٍ مدى السنين، فمَثُل بصورته ومادّته لكلّ من يريد أن يطّلع ويمارس أمره وينظر في أمره ويعرف كنهه وحقيقته، فهو منادٍ في كلّ مكان و زمان لكلّ من يطلب الحجّة على النبوّة و الرسالة ويريد النظر في حقيقة معجزها الشاهد لصدقها، ولا تحتاج معرفة حقيقته ووجه إعجازه إلى أساطير النقل ومماراة قال أو قيل، بل ينادي هو بنفسه في كلّ آن ومكان.

هذا جنايَ وخياره فيهِ إذ كلُّ جانٍ يَدهُ الىٰ فيهِ[1]

ومن ذلك أنّه بنفسه ولسانه وصريح بيانه تكفّل بإثبات جميع المقدّمات الّتي تنتظم منها الحجّة على الرسالة الخاصّة والشهادة لها بالإعجاز، ولم يُوكِل أمر ذلك إلى غيره ممّا يختلج فيه الريب و تعرض فيه الشبهات و تطول فيه مسافة الاحتجاج، فتكفّل ببيان دعوى النبيّ ﷺ للنبوّة و الرسالة، وتكفّل في صراحة بيانه بالشهادة للنبوّة و الرسالة، وتكفّل في صراحة ببيان كمالات مدّعي الرسالة، وإليك الآيات المشيرة إلى ذلك، قال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً ۞ وَ دَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجاً مُنِيراً﴾[3].

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَىٰ ۞ وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُ

١ ـ مجمع الأمثال للميداني ٢: ٤٧٠.
٢ ـ الأعراف ١٥٨/٧.
٣ ـ الأحزاب ٣٣/٤٥ ـ ٤٦.

شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[١].

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

﴿وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٣].

إلى غير ذلك من الآيات المتكفّلة ببيان صفات النبيّ ﷺ. هذا، وقد دفع المانعَ لنبوّته و رسالته، حيث بيّن موادّ الدعوة وقوانينها الجارية بأجمعها على المعقول، من عرفانيّها و أخلاقيّها و اجتماعيّها و سياسيّها، فلا يوجد فيها ما يخالف العقول ليكون مانعاً عن رسالته ونبوّته، فقال ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ﴾[٤]. ومع كونه معجزاً بنفسه كرّر النداء والمقارعة في الاحتجاج بإعجازه وتحدّي الناس، وأعلن بالحجّة أن يعارضوه لو أمكن ويأتوا بمثله أو بعَشْر سُوَر مُفترَيات، أو بسورة واحدة من مثله إن كان ممّا تناله القدرة البشريّة المحدودة، فقال ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٥]، و﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٦]، و﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[٧].

وقد مضت لهم عدّة أعوام، ودعوة الرسالة والإعذار والإنذار والاحتجاج بإعجاز القرآن دائمة عليهم، وهم في أشدّ الضجر من ذلك والخوف من عاقبته، وفي أشدّ الأذىٰ من آثار الدعوة ونشرها وتقدّمها وظهورها وتفوّقها، وفي أشدّ الرغبة في رئاستهم وعاداتهم، والعكوف على أصنامهم وأهوائهم، فلم يستطيعوا أن يعارضوه، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُها النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٨].

---

١ ـ النجم ٥٣/٢ ـ ٥.
٢ ـ القلم ٦٨/٤.
٣ ـ الشورى ٤٢/٥٢.
٤ ـ الإسراء ١٧/٩.
٥ ـ هود ١١/١٣.
٦ ـ يونس ١٠/٣٨.
٧ ـ الإسراء ١٧/٨٨.
٨ ـ البقرة ٢/٢٤.

الفصل الرابع

معجزات النبيّ ﷺ من غير القرآن

لا يشكّ الباحث المطّلع أنّ القرآن أعظم معجزة جاء بها رسول‌الله ﷺ، ومعنى هذا أنّه أعظم المعجزات الّتي جاء بها الأنبياء جميعاً. وقد تقدّم تفوّق كتاب الله على سائر المعجزات، وهنا نقول بأنّ معجزة النبيّ ﷺ لم تكن منحصرة بالقرآن، بل شارك جميعَ الأنبياء في معجزاتهم، واختصّ من بينهم بمعجزة الكتاب العزيز، والدليل على معجزاته الأخرىٰ أمران:

الأوّل: أخبار المسلمين المتواترة الدالّة على صدور المعجزات منه، وقد ألّف المسلمون على اختلاف مِللهم ونِحلهم في هذه المعجزات مؤلّفات كثيرة أنهتها إلى ألف معجزة أو أكثر. وتمتاز هذه الأخبار الدالّة على صدور المعجزة من النبيّ ﷺ عن أخبار أهل الكتاب بصدور المعجزات عن أنبيائهم بقرب زمان وقوعها، حيث إنّ العهد إذا كان قريباً كان تحصيل الجزم بوقوع الشيء فيه أسهل، وتمتاز أيضاً بكثرة الرواة؛ فإنّ أصحاب النبيّ ﷺ كانوا أكثر بألوف من أصحاب أنبياء بني إسرائيل الّذين أخبروا بصدور المعجزة من نبيّهم، فإذا صحّت دعوى التواتر في معجزات موسى وعيسى كانت دعواهم في معجزات النبيّ ﷺ بطريق أولى أصحّ وأتقن.

الثاني: أنّ النبيّ ﷺ قد أثبت في كتابه و أقواله معجزات للأنبياء الماضين، ثمّ

ادّعى أنّه أفضل منهم و أنّه خاتمهم، وهذا يقتضي صدور تلك المعجزات منه على نحو أتمّ؛ فإنّه من غير المعقول أن يدّعي أحد أنّه أفضل من غيره وهو يعترف بنقصانه عنه في بعض صفات الكمال، فإنّ العقل لا يجوّز ذلك. ونرى أنّ الّذين تنبّأوا قد أنكروا المعجزة رأساً وصرفوا اهتمامهم إلى تأويل كلّ آية دلّت على وقوع الإعجاز، حَذَراً من مطالبة الناس إيّاهم بالمعجزة فيستبين عجزهم وافتراؤهم[١].

والحاصل: أنّ معجزات النبيّ ﷺ الواصلة إلينا بالتواتر كثيرة، بل جميع أفعاله كانت خارقة للعادة ودليلاً على صدقه في دعواه الرسالة، فإنّ مَن سَبَر التاريخ وأجال النظر في نشأة رسول‌الله ﷺ إلى حين دعوته، ثمّ من ذلك الحين إلى أوان ارتحاله، يرى عجباً، إذ يستحيل أن يصدر ما كان عليه من الأخلاق والعلم والأدب والعمل من غير مَن اتّصل بالمبدأ الأعلى وأخذ الوحي منه، فراجع الكتب المفصّلة الّتي تعرضت لبيان معجزاته. ولا بأس بالإشارة إلى بعض أفعاله وأخلاقه لتكون نوراً لمن استنار، وضياء لمن استضاء.

ذكر في كتاب مكارم الأخلاق وغيره أنّه كان ﷺ كثير الضراعة والابتهال، دائم السؤال من الله أن يزيّنه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، فكان أدبه وخلقه كما أدّبه الله بقوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وكان أحلم الناس وأشجعهم، وأعدل الناس وأعفّهم، وأسخى الناس وأجودهم، ولا يُبقي في بيته درهماً ولا ديناراً. وكان يَخصِف نعله بيده، ويركب الحمار العاري، ويُردِف خلفه. وكان أشدّ الناس حياء، يقبل الهديّة ولو قليلةً، ويكافئ عليها، ولا يستنكف من إجابة المسكين. يغضب لربّه لا لنفسه، ينفذ الحقّ وإن عاد ذلك بالضرر عليه، وعلى أصحابه. يعصب الحجر على بطنه مرّة من جوع، ومرّة يأكل ما حضر، ولا يردّ ما وجد، لا يأكل متّكئاً ولا على خِوان. يجيب إذا دُعي إلى وليمة، ويعود

١ ـ ما أورده المؤلّف رحمه الله الىٰ هنا من الكلام على وجوه إعجاز القرآن يُلاحظ في البيان في تفسير القرآن ٤١ ـ ١١٨ باختلاف يسير.

المرضى، ويشيّع الجنائز، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس. أشدّ الناس تواضعاً وأسكنهم من غير كِبر، أبلغُهم نُطقاً من غير تطويل، أحسنُهم بِشراً، يضحك من غير قَهقَهة، يصبر على الأذى من الناس.

فاقَ النبيّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ولم يُدانوهُ في عِزٍّ ولا شَرَفِ

إلى غير ذلك من الكمالات المذكورة في محلّها[1].

تبصرة فيها أمران

الأمر الأوّل: من أعظم معجزات النبيّ الأكرم الدالّة على صدقه في رسالته بعد القرآن تصديق عليّ عليه السلام له؛ فإنّ هذا الرجل الإنسانيّ الّذي يقصده كلّ باحث في العمل والعلم، قد بادر إلى الإيمان به و تصديقه وأفنى نفسه الشريفة في سبيل كلمته، و هذا أقوى شاهد على صدقه في دعواه. وقد حكي عن رئيس العقلاء بأنّا آمنّا بالرسول حيث رأينا أنّ عليّاً آمن به[2].

ولقد أجاد بعض العلماء حيث قال: من معجزاته الظاهرة، المتكرّرة. أوصياؤه المعصومون وعترته الطاهرون، وظهورهم واحداً بعد واحد من ذريّته في كلّ حين إلى يوم الدين، كما أخبر به النبيّ ﷺ نفسه؛ فإنّ كلّاً منهم صلوات‌الله عليهم حجّة قائمة على صدقه، وآية بيّنة على حقيقته ﷺ، كما يظهر بالتتبّع لأحوالهم و ملاحظة آثارهم والاطّلاع على فضائلهم ومناقبهم، والآيات الصادرة عنهم، و الكرامات الظاهرة منهم... أحياءً وأمواتاً، فكما أنّ القرآن معجزة خالدة يظهر منه صدقه شيئاً فشيئاً ويوماً فيوماً لمن تأمّله من أُولي النُّهى فكذلك كلٌّ مِن عترته المعصومين معجزة له باقية النوع إلى يوم الدين، دالّة على حقيقته لمن عرفهم بالولاية و الحجّيّة،

---

١ ـ علم اليقين ١: ٤٣٨ ـ ٤٤١. باختلاف يسير، والآية في سورة الأعراف ١٩٩/٧؛ و لمزيد الاطّلاع على تلك الأوصاف أنظر مكارم الأخلاق ١١ ـ ٣٢ و المناقب للخوارزميّ ١: ١٤٥ ـ ١٤٩.

٢ ـ لم نعثر عليه.

ولهذا قال ﷺ : إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، لن يفترقا حتّى يَرِدا علَيّ الحوض[١].

الأمر الثاني: قد ذكرنا في المباحث المتقدّمة أنّ من الطرق الّتي تثبت الرسالة مجموعة قرائن تُستعمل لتشخيص هذا الموضوع، وإن لم تكن كلّ واحدة منها مفيدة للقطع بالرسالة، وهي:

١ ـ وضع محيط الدعوة.

٢ ـ زمانها.

٣ ـ الأخلاق والأعمال الصادرة عن مدّعي الدعوة.

٤ ـ ما يحتوي شرعه من المعارف والأحكام والأخلاق.

٥ ـ ما توسّل به لنشر دعوته وإبلاغ شريعته.

٦ ـ مَن آمن به من أصدقائه وأقربائه.

٧ ـ إيمانه بما يقوله وما يدّعيه.

٨ ـ جهاده للتُّرَّهات والخُرافات والأفكار الدينيّة الموجودة في محيط دعوته.

٩ ـ نَظْم دعوته وكونها على منوال واحد طول حياته ودعوته.

١٠ ـ عدم مناقضة أفعاله لأقواله.

إنّ هذه الأُمور بمجموعها تفيد القطع بصدق مدّعي النبوة، وقد كان النبيّ الأكرم ﷺ في محيط مظلم، وأحوال الناس وأفكارهم وعقائدهم معلومة لا تحتاج إلى بيان، وفي زمان استولى فيه الجهل والرذائل ومات العلم والفضائل، وكانت البشريّة بحاجة ماسّة إلى الهداية والصلاح. وقد أرسل الله رسوله الصادع الصادق الأمين فصدع بما أُمر وشمّر للدعوة إلى التوحيد وشريعة العدل والصلاح وتركِ الأوثان والفجور، ودعا إلى سبيله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة بشيراً ونذيراً

---

١ ـ علم اليقين ١ : ٤٨٨.

صابراً محتسباً مواظباً علىٰ أن يدعو الشريفَ والوضيع والكبير والصغير والعبد والحرّ، لا يستصغر صغيراً ولا يكبّر جبّاراً ولا يتربّص فرصة ولا يُيئسه من تأثير دعوته إصرار الغيّ.

وقد استمرّ على تحمّل الأذى في إرشاده سنين عديدة، وبثّ دعوته ودعاته في البلاد. ولمّا لبّاه أهل المدينة آثر بأمر الله أن يهاجر إليها لُيحكِم أمر الدعوة وينشر لواءها بدون ثورة شغب، ولتكون مأوى المؤمنين. ولمّا تمادى مشركو مكّة بالغيّ واضطهاد مَن كان عندهم من المسلمين والتعرّض لإطفاء نور الإيمان ـ ويأبى الله إلّا أن يتمّه ـ أمره الله تعالى أن يتعرّض لإرهابهم ليخافوا جانبه فيكفّوا عن غيّهم وغرورهم، فتعرّض لأموالهم وطريق تجارتهم لكي يضطرّوا ـ حفظاً لاقتصادهم وثروتهم ـ إلى الإقلاع عن عدوانهم على المسلمين، فخرج المشركون لإنقاذ أموالهم، وغرّتهم كثرتهم وعدّتهم فقصدوا حرب رسول الله ﷺ اغتراراً بقلّة أصحابه وكثرة عدوّهم، وأصرّوا على حربه، ولم ينجع بهم نصح شيوخهم ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراًكَانَ مَفْعُولاً﴾[1]، إذ كان جلّت عظمته قد وعد رسوله والمؤمنين بإحدى الطائفتين من العِير أو النَّفير، فقضى الله بالفتح لرسوله على نحو لم يكن متصوّراً في العادة ثمّ تتابعت حروب رسول الله وغزواته وكلّها كانت من نحو الدفاع والانتصار للمسلمين وكسر عادية المشركين.

وكان ﷺ في جميع حروبه يبتدئ بالدّعوة إلى الإسلام والصلاح، ويرغّب فيها، ويحثّ على السلم، ويقيل العثرة، ويجيب الهدنة، ويركن إلى الصلح مع كونه المظفّر المنصور؛ كلّ ذلك لحبّه الصلاح وليكون الإمهال وحسن السيرة ولين الجانب والوفاء بالعهد داعيةً للناس إلى الإسلام من دون تحريش بالحروب القاسية، فإذا اعترف الرجل بالتوحيد ولو ظاهراً عصم ماله ودمه وصار أخاً

---

١ ـ الأنفال ٤٢/٨.

للمسلمين، وإن كان قد قَتل في الشرك أبناءهم وآباءهم وجنى ما جنى عليهم. وكان من أهمّ وصاياه في الحروب: النهي عن المُثلة بالقتلى، وسوء الولاية، وقتل الأطفال والمشايخ والنساء والرهبان المعتزلين عن الناس.

وكان يحثّ على الرأفة بالمماليك والأسرىٰ وحسن معاملتهم، ويَعِدُهم بنعمة الله عليهم، ويشدّد في الترغيب في عتقهم. وكان يقبل الجزية من أهل الكتاب على شروط يؤول إلى الإسلام إجراؤها.

وقد أعطى كلّ مقام صالح حقّه من حيث سياسة الإيمان وشريعة العدل وكسر شوكة الشرك والجور، بصدق النهضة والتشمير والصبر في الدعوة، وحسن الدفاع عنها، والشدّة في ذات الله من غير قسوة، واللين والرحمة من غير ضعف. وقد بلغ في ذلك أعلى مراتب الحسن والكمال.

وقد ساس العرب العُتاة الأشدّاء إخوان السيف وأبناء الحروب فقلبهم من الوثنيّة إلى التوحيد، ومن عادات الضلال إلى شريعة العدل، ومن تفرّق الأهواء والتوحّش والتكالب إلى حسن الاجتماع والإخوّة والخضوع لنظام المدنيّة، وهم الّذين تمادَوا في حرب البَسوس عمراً من السنين، فقطعوا الأرحام ونياط القرابة من أجل ضرع ناقة، واستمرّوا في حرب داحس والغبراء فقتلوا الرجال والأطفال من أجل حماية امرأة، فهذا العنصر وهؤلاء القوم قد غلب رسول‌الله ﷺ على معبوداتهم وعاداتهم وجبروتهم وعقائدهم، فجمعهم على التوحيد ونواميس الحقّ ومدنيّة العدل وأدب الشريعة، وهذا أكبر شاهد على كونه منصوراً من عند ربّه منزلاً بالوحي إلى البشر، فإنّ كثيراً من العرب انقادوا إلى الإسلام وفي صدورهم ضغائن، فلمّا تشرّفوا بنعمة الإسلام صار رسول‌الله ﷺ أحبّ إليهم من أنفسهم، وذلك لمّا وجدوه صادقاً في دعوته وحسن سيرته في إجرائها، ووجدوا أنّ حربه معهم كانت لأجل أحسن الغايات وأشرفها وأنفعها للبشر في دينهم ودنياهم.

هذا ولم تَدُم حرب بمقدار ما دامت حرب البسوس، ولم يزد عدد القتلى مع

كثرة حروبه على قتلى ربيعة فيها بكثير يذكر، كما أثبته التاريخ.

هذه خلاصة سيرة الرسول في دعوته وانتشارها والدفاع عنها، كما نطقت بذلك التواريخ المسلّمة بين الناس. ومن كان تشريعه وزمانه ومكانه وأصحابه على هذا المنوال، وكان عمله و فعله على السيرة المرضيّة من غير تناقض في عمله وقوله، فهل يبقى شكّ في كونه مرسلاً من الخالق الحكيم ونبيّاً إلى الناس أجمعين؟!

الحمد لله ربّ العالمين.

الفصل الخامس
خصائص النبيّ و أوصافه في القرآن

العصمة

النبيّ الكريم ﷺ كان معصوماً بما قدّمناه من معنى العصمة، قال تعالى ﴿أَنْزَلَ اللهُ عَلَيكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكَ عَظِيماً﴾[1]، و المراد بالكتاب هو الوحي النازل عليه لرفع الاختلاف بين الناس على حدّ قوله تعالى ﴿وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[2]. و المراد بالحكمة: سائر المعارف الإلهيّة، و المراد بقوله ﴿عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[3]: غير المعارف و الكتاب.

و من الواضح أنّ من أوتي هذا العلم و الفضل يكون ذلك عاصماً له من الخطايا و الزلل مطلقاً، وقد أمر الله تعالى بإطاعته و ألزم بالتأسّي به فقال ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[4]، و ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[5]، و ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[6]، و ﴿مَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ

---

١ ـ النساء ٤/١١٣.
٢ ـ البقرة ٢/٢١٣.
٣ ـ النساء ٤/١١٣.
٤ ـ النساء ٤/٥٩.
٥ ـ الأحزاب ٣٣/٢١.
٦ ـ آل عمران ٣/٣١.

عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[١]. ومن البديهيّ أنّ العاصي والساهي والغافل والناسي لا يصلح للاقتداء والإطاعة على نحو الإطلاق.

صاحب الشريعة الجامعة

إنّ شريعته جامعة لتمام ما يحتاج إليه البشر، قال تعالى ﴿وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ﴾[٢]، و ﴿وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[٣]، يعني أنّه لا تناقض في بياناته، ولا كذب في أخباره، ولا بطلان يتطرّق إلى معارفه وحكمه وشرائعه، ولا تعارض ولا تغيّر بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف آية من وجه إلى وجه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٤]، وكيف لا يكون كذلك وهو مُنزَل من حكيم حميد، والكتاب الّذي هذه صفاته يكون هو المرجع فيما يحتاج إليه البشر في المعارف والأحكام.

خاتم الأنبياء و المرسلين

إنّه خاتم الأنبياء والمرسلين وإنّه مبعوث إلى الناس أجمعين، قال تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لَكِن رَسُولَ اللهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٥].

وحيث إنّ الرسول هو الّذي يحمل رسالة من الله إلى الناس، والنبيّ هو الّذي يحمل نبأ الغيب الّذي هو الدين وحقائقه ـ ولازم ذلك أن ترتفع الرسالة بارتفاع النبوّة ـ فإنّ الرسالة من أنباء الغيب فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة. من هنا يظهر أنّ كونه صلى الله عليه وآله خاتم النبيّين يستلزم كونه خاتم المرسلين أيضاً، والخاتَم ما يُختم

---

١ ـ الحشر ٧/٥٩.
٢ ـ النحل ٨٩/١٦.
٣ ـ فصّلت ٤١/٤١ ـ ٤٢.
٤ ـ الحجر ٩/١٥.
٥ ـ الأحزاب ٤٠/٣٣.

به كالطابَع و القالَب بمعنى ما يُطبع به. و المراد بكونه خاتم النبيّين أنّ النبوّة اختُتمت به، فلا نبيّ بعده ﷺ، قال تعالى ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوْحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ﴾[1]. فإنّ ظاهر الخطاب في قوله تعالى ﴿لِأُنْذِرَكُمْ﴾ خطاب لمشركي العرب، إلّا أنّ التقابل بين ضمير الخطاب و بين «مَـن بَلَغ»، [و المراد بمن بلغ هو من لم يُشافهه النبيّ ﷺ بالدعوة في زمن حياته أو بعده] يدلّ على أنّ المراد بالمخاطَبين هم الّذين شافَهَهم النبيّ ﷺ بالدعوة ممّن تقدّم دعواه على نزول الآية أو قارنه أو تأخّر عنه، فقوله تعالى هذا ﴿وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ﴾ يدلّ على عموم رسالته بالقرآن لكلّ مَن سمعه منه أو سمعه من غيره إلى يوم القيامة. وبتعبير آخر: تدلّ الآية على أنّ عموم رسالته بالقرآن حجّة من الله وكتاب له ينطق بالحقّ على أهل الدنيا من لدن نزوله إلى يوم القيامة. ويدلّ على المطلوب أيضاً قوله تعالى ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2]، وقوله ﴿وَ مَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾[3]، وقوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[4].

وهناك أخبار كثيرة تدلّ على الخاتميّة، كحديث المنزلة المشهور بين الفريقين[5]، وتصريحه ﷺ مراراً بأنّي خاتم النبيّين كما في الأثر الّذي أخرجه الدارميّ عن جابر بن عبدالله أنّ النبيّ ﷺ قال: أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيّين ولا فخر، وأنا أوّل شافع ومشفّع ولا فخر[6].

وقد نصّ أميرالمؤمنين عليه السلام والأئمّة من بعده واحد بعد واحد على كون النبيّ ﷺ خاتم النبيّين ولا نبيّ بعده إلى يوم القيامة كما لا شريعة ولا كتاب بعد

---

١ ـ الأنعام ١٩/٦.
٢ ـ الأنبياء ١٠٧/٢١.
٣ ـ سبأ ٢٨/٣٤.
٤ ـ الفرقان ١/٢٥.
٥ ـ «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي» الروضة من الكافي ١٠٧؛ سنن ابن ماجة ١: ٤٥.
٦ ـ سنن الدارميّ ١: ٢٧.

شريعته و كتابه[١].

و ممّا يدلّ على تعميم رسالته وعالميّة نبوّته وعدم اختصاصها بقوم أو طائفة بَعثُ الرسول ﷺ سفراءه وفي أيدي كلّ منهم كتاب إلى رؤساء العرب، و قيصر الروم، وكسرى فارس، وعظيم القبط، وملك الحبشة، وملك تخوم الشام وملك اليمامة و الأساقفة و العمّال، يدعوهم إلى دين الإسلام الّذي هو دين السلام و رسالة من الله ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾[٢]. و هذه المكاتيب أوّل دليل على أنّ رسالته شديدة الصراحة بأنّه رسول الله إلى العرب و العجم، و إلى الناس كلّهم، من غير فرق بين اللّون و الجنس و العنصر و الوطن، ويمتدّ شعاع رسالته بامتداد الحضارة و وجود الإنسان و أنّه يكافح كلّ مبدأ يضادّ دينه وكلّ رسالة تغاير رسالته.

و هذه الكتب تدلّ دلالة أكثر وضوحاً و أشدّ صراحة على ما تردّد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام، فقد قال تعالى :

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[٣].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْءَانٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾[٤].

﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[٥].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[٦].

﴿وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٧].

﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٨].

و ممّا يدلّ على أنّ تلك الكتب لم تصدر عن حماسة جوفاء أنّه قد كان لها أثر

---

١ ـ نهج البلاغة ٤٤ الخطبة ١.
٢ ـ البقرة ٢/٢٨٥.
٣ ـ صٓ ٣٨/٨٧ ـ ٨٨.
٤ ـ يسٓ ٣٦/٦٩ ـ ٧٠.
٥ ـ الفرقان ٢٥/١.
٦ ـ الأعراف ٧/١٥٨.
٧ ـ آل‌عمران ٣/٨٥.
٨ ـ التوبة ٩/٣٣.

بليغ في أكثر هذه الأوساط، إذ تجاوبت مع شعور كثير منهم فأيقظتهم من رقدتهم، وأنهضتهم من كبوتهم، فأصبحوا متفكّرين، بين مُلبٍّ لدعوته، وخاضعٍ لرسالته، ومُكبِرٍ إيّاه بإرسال الهدايا إليه. ولأجل مزيد الاطّلاع على ما ذكرنا راجع كتاب مكاتيب الرسول[١].

عالميّة رسالة النبيّ في القرآن

وإليك آيات مصرّحة بعموم رسالته وأنّها لا تختصّ بإقليم خاصّ أو أمّة معيّنة، وأنّ هدفه إصلاح المجتمع البشريّ على وجه الإطلاق، وهذه الآيات يمكن تقسيمها الى أقسام:

القسم الأوّل: ما صرّح بأنّ رسالته عالَميّة، وأنّه رسول‌الله إلى العالَمين ورحمة لهم وبشير ونذير للناس كافّة، وأنّه ينذر بقرآنه كلَّ من بلغه كتابه وهتافه، ودونك بعض النصوص من هذا القسم:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[٢].

﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣].

﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[٤].

﴿وَ مَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً﴾[٥].

﴿وَ أُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ﴾[٦].

﴿وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً﴾[٧].

---

١ ـ تأليف، علي بن حسين علي الأحمدي، انتشارات يس، الطبعة الثالثة.

٢ ـ الأعراف ١٥٨/٧.

٣ ـ الأنبياء ١٠٧/٢١.

٤ ـ الفرقان ١/٢٥.

٥ ـ سبأ ٢٨/٣٤.

٦ ـ الأنعام ١٩/٦.

٧ ـ النساء ٧٩/٤.

﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

و هذه الآيات و أمثالها صريحة في أنّ هتاف النبيّ ﷺ لا يختصّ بقوم دون قوم بل إنّه بُعث إلى الناس كافّة.

القسم الثاني: ما تتوجّه خطاباته الى الناس جميعاً غير مقيّدة بشيء، و إليك بعض النصوص من هذا القسم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾[٣].

و أنت ترى أنّه يخاطب الناس جميعاً، تصريحاً منه بأنّ رسالته السماويّة لا تختصّ بصنف خاصّ منهم، فلو كان الإسلام دينا إقليميّاً و رسالةً طائفيّة فلماذا تأتي هتافاته بلفظ «يا أيّها الناس»، و قد تكرّر هذا النداء في الكتاب ستّ عشرة مرّة بل لماذا يخاطب أهل الكتاب و يناديهم بقوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ؟! فقد ورد هذا الخطاب في القرآن اثنتي عشرة مرّة.

القسم الثالث: ما هو صريح في أنّ هدايته لا تختصّ بمجتمع خاصّ، بل تعمّ كلّ من تظلّه السماء و تقلّه الأرض و دونك بعض النصوص من هذا القسم، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً﴾[٤].

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَ الْفُرْقَانِ﴾[٥].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٦].

﴿وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾[٧].

---

١ ـ آل‌عمران ٣/١٣٨.
٢ ـ البقرة ٢/٢١.
٣ ـ البقرة ٢/١٦٨.
٤ ـ النساء ٤/١٧٤.
٥ ـ البقرة ٢/١٨٥.
٦ ـ إبراهيم ١٤/١.
٧ ـ الزمر ٣٩/٢٧.

و هذه الآيات مصرّحة بأنّ القرآن نور وهدى للناس كافّة، لا لطائفة أو مجتمع خاصّ، فكيف يمكن دعوى أنّ رسالته تختصّ بأُمّة دون أمّة ؟!

القسم الرابع : أنّ القرآن ربّما يأخذ العنوان العامّ موضوعاً للكثير من الأحكام من دون تعبير بلون أو عنصر أو أرض خاصّة، فهذا يكشف عن أنّه أُنزل لإصلاح المجتمع البشريّ في مشارق الأرض ومغاربها. و إليك نماذج من هذا القبيل، قال الله تعالى :

﴿وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [١].

﴿وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ﴾ [٢].

﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [٣].

فهذه الجوانب تهدف إلى أمر واحد، هو أنّ رسالته عامّة غير مختصّة بقوم أو أمّة خاصّة أو زمان أو مكان محدّد.

هذا و لا يخفى أنّ القول باختصاص الإسلام بطائفة خاصّة أو إقليم مخصوص وأنّه لا يصلح لعامّة المجتمعات وجميع القارّات، ولا تسعد به الإنسانيّة على اختلاف شعوبها وطبقاتها مع تلك التصريحات، إنّما هو افتراء محض وكذب واضح صدر عن صدر عليل وضِغن عميل.

تشكيك و رَدّ

و قد حاول بعض الجهلة التشكيك في عموميّة الرسالة مستدلاًّ بقوله تعالى ﴿وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [٤]، وقوله تعالى ﴿وَ كَذَٰلِكَ

١ ـ آل عمران ٣/٩٧.
٢ ـ الحجّ ٢٢/٢٥.
٣ ـ لقمان ٣١/٦.
٤ ـ الأنعام ٦/٩٢.

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَ مَنْ حَوْلَهَا﴾[١]، حيث إنّه تعالى حدّد نطاق رسالته و جعلها في إطار ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ وَ مَنْ حَوْلَهَا﴾. و أُمّ القرىٰ إمّا عَلَم من أعلام مكّة أو كلّيّ أطلق عليها في هذه الآية. و على التقديرَين فرسالته مختصّة بمن يعيش في «أمّ القرى» و ما حولها من الجزيرة العربيّة.

و أنت بعد ما أحطت خُبراً بما قدّمنا من الأدلّة الصريحة الدالّة على عموميّة رسالته لا تُصغي إلى ما يُتمسّك به من اختصاص الدعوة، فإنّ غاية ما يقال : أنّ الآية مشعرة بذلك لا صريحة، فلا تكافئ تلك الأدلّة، مع أنّ الآية في صدر سورة الأنعام، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ...﴾[٢] صريحة الدلالة على التعميم كما مرّ، فكيف يؤخذ بما هو مُشعر بالاختصاص مع ذلك التصريح بالتعميم ؟! مع أنّ كونه ﷺ مبعوثاً لإنذار الأمّة العربيّة القاطنة في مكّة و حوالَيها، لا ينافي كونه مبعوثاً إلى غيرها من أقطار الأرض؛ فإنّ عيسى عليه السلام كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل خاصّة، و إلى سائر الناس عامّة، و لذلك أرسل رسله إلى جميع البلدان، و النبيّ الكريم ابتدأ بدعوته قومِه ثمّ غيرِهم من العرب ثمّ دعا الناس أجمعين.

قال ﷺ في خطاب ألقاه في داره، حينما وفد إليه أعمامه و أخواله و مَن كانت له به صلة :... والله الّذي لا إله إلّا هو إنّي رسول‌الله إليكم خاصّة و إلى الناس عامّة. و الله لَتموتُنّ كما تنامون، و لَتبعثُنّ كما تستيقظون، و لَتحاسبُنّ بما تعملون، و أنّها الجنّة أبداً و النار أبداً[٣].

على أنّ الآية في سورة الأنعام، و السورة مكيّة و لم تكن الظروف في مكّة تبيح له الجهر بنفس رسالته فضلاً عن الجهر بتعاليمها، فلا مؤاخذة عليه لو خصّ خطابه بجمع دون جمع مع سعة نطاقها في نفس الأمر إذا اقتضت المصلحة ذلك، و لمّا رأى

---

١ ـ الشورى ٤٢/٧.

٢ ـ الأنعام ٦/١٩.

٣ ـ الكامل في التاريخ ٢ : ٦١.

الظرف صالحاً للجهر بالتعميم صرّح به كما في تلك النصوص المتقدّمة، و تأمّل تعرف.

رؤية النبيّ أعمال العباد

لا ريب أنّ النبيّ يرى أعمال العباد، كما قال تعالى ﴿وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]، وقال أيضاً ﴿وَ سَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢]. من الواضح أنّ الآيتين تدلّان على أنّ الله تعالى يشاهد حقيقة الأعمال ويشاهدها أيضاً رسوله والمؤمنون الشهداء، ويردّون الناس يوم القيامة إلى الله عالم الغيب والشهادة فيريهم حقيقة أعمالهم. وبتعبير آخر: أنّ ما عمل الناس من خير أو شرّ إنّما هو حقيقة مرئيّة لله ثمّ لرسوله ولشهداء الأعمال من المؤمنين في الدنيا ثمّ للعالمين بأنفسهم يوم القيامة، فالعبد مع هؤلاء الرقباء لابدّ أن يكون شديد المراقبة لأعماله و ما يصدر منه.

أبو بصير عن أبي عبدالله، قال: تُعرض الأعمال على رسول‌الله ﷺ أعمال العباد كلّ صباح أبرارها وفجّارها فاحذروها، وهو قول الله تعالى ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ﴾ وسكت[٣].

عبدالله بن أبان الزيّات وكان مَكيناً عند الرضا عليه السلام قال: قلت للرّضا عليه السلام: أدعُ الله لي ولأهل بيتي، فقال: أوَ لستُ أفعل؟! والله إنّ أعمالكم لَتُعرَض عليّ في كلّ يوم وليلة. قال: فاستعظمتُ ذلك، فقال لي: أما تقرأ كتاب الله عزّوجلّ ﴿وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؟ قال: هو والله عليّ بن

١ ـ التوبة ٩/١٠٥. ٢ ـ التوبة ٩/٩٤.

٣ ـ الأصول من الكافي ١: ٢١٩؛ من لا يحضره الفقيه ١: ١٩١ ـ ١٩٢، و الآية في سورة التوبة ٩/١٠٥.

أبي طالب عليه السلام[١].

سماعة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: ما لكم تسوؤون رسول‌الله؟! فقال رجل: كيف نَسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أنّ أعمالكم تُعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك، فلاتسوؤا رسول‌الله و سُرُّوه[٢].

قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم - إلى أن قال: - و أمّا مفارقتي إيّاكم فإنّ أعمالكم تُعرض عليّ كلّ يوم، فما كان من حَسَن استزدتُ الله لكم، و ما كان من قبيح استغفرت الله لكم... الحديث[٣].

محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام، قال: إنّ أعمال العباد تُعرض على نبيّكم كلّ عشيّة خميس، فليستحي أحدكم أن يعرض على نبيّه العمل القبيح[٤].

صفات أُخرىٰ للنبيّ صلى الله عليه وآله

من الآيات ما يذكر فيها جملة من صفاته صلى الله عليه وآله، قال الله تعالى:

﴿وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَىٰ * وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[٥].

﴿وَ مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَ لَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[٦].

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَ لَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[٧].

﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[٨].

---

١ ـ الأصول من الكافي ١: ٢١٩ ـ ٢٢٠.
٢ ـ نفس المصدر ١: ٢١٩.
٣ ـ معاني الأخبار ٤١٠ ـ ٤١١.
٤ ـ بصائر الدرجات ٤٤٦.
٥ ـ النجم ٥٣/١ ـ ٥.
٦ ـ التكوير ٨١/٢٢ ـ ٢٤.
٧ ـ الحاقّة ٦٩/٤٠ ـ ٤٢.
٨ ـ الفتح ٤٨/٢٦.

﴿وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢].

﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً * وَ دَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجاً مُنِيراً * وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾[٤].

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَ وَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٥].

﴿وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٦].

وفي كثير من الآيات يسلّيه ويأمره بالصبر في سبيل الدعوة والإرشاد فيقول:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[٧].

﴿وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٨].

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾[٩].

﴿وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[١٠].

﴿وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ﴾[١١].

---

١ ـ القلم ٦٨/٤.
٢ ـ آل‌عمران ٣/١٥٩.
٣ ـ الأنبياء ٢١/١٠٧.
٤ ـ الأحزاب ٣٣/٤٥ ـ ٤٧.
٥ ـ الشرح ٩٤/١ ـ ٤.
٦ ـ الشورىٰ ٤٢/٥٢.
٧ ـ آل‌عمران ٣/١٨٤.
٨ ـ العنكبوت ٢٩/١٨.
٩ ـ الأحقاف ٤٦/٣٥.
١٠ ـ الطور ٥٢/٤٨.
١١ ـ الكهف ١٨/٢٨.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[1].

و النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم كقوله تعالى ﴿النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[2].

و يحرّض اللهُ الناسَ و يرغّبهم في إطاعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[3]. و في الآيات نظيرها كقوله تعالى:

﴿وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[5].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَ الرَّسُولِ﴾[6].

﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[7].

﴿وَ مَنْ يُطِعِ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[8].

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[9].

﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ ءَاتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[10]

﴿وَ أَطِعْنَ اللهَ وَ رَسُولَهُ﴾[11].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[12].

﴿وَ مَنْ يُطِعِ اللهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ

---

١ ـ غافر ٧٧/٤٠.
٢ ـ الأحزاب ٦/٣٣.
٣ ـ النساء ٨٠/٤.
٤ ـ آل‌عمران ١٣٢/٣.
٥ ـ الأنفال ٢٠/٨.
٦ ـ النساء ٥٩/٤.
٧ ـ التوبة ٦٢/٩.
٨ ـ النور ٥٢/٢٤.
٩ ـ النور ٥٤/٢٤.
١٠ ـ النور ٥٦/٢٤.
١١ ـ الأحزاب ٣٣/٣٣.
١٢ ـ محمّد ٣٣/٤٧.

عَذَاباً أَلِيماً﴾[١].

﴿وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٢].

و القرآن يجعل إيذاءه ﷺ إيذاء الله، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ﴾[٣] و ﴿وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤].

القرآن ينطق بمعراج النبيّ ﷺ ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾[٥].

القرآن يُثبت المعجزة للنبيّ ﷺ، قال تعالى ﴿اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ * وَ إِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[٦]. وقد تقدّم أنّ القرآن يثبت المعجزة لسائر الأنبياء و المرسلين.

خاتمة في مختصّات النبيّ ﷺ

للنبيّ الكريم خصائص يختصّ بها عن أُمّته، و هي كثيرة اختلف مشهور الفقهاء فيها، نذكر ما هو المُجمع عليه عندهم :

١ ـ التهجّد و الوتر و الأضحية واجبة عليه.

٢ ـ إنكار كلّ منكر كان واجباً عليه.

٣ ـ تَحرُم عليه الصدقة الواجبة.

٤ ـ يجب عليه أداء دَين كلّ من يموت فقيراً.

٥ ـ جاز له صوم الوصال.

٦ ـ حلّ له تزويج أكثر من أربع بالزواج الدائم.

---

١ ـ الفتح ١٧/٤٨.

٢ ـ التغابن ١٢/٦٤.

٣ ـ الأحزاب ٥٧/٣٣.

٤ ـ التوبة ٦١/٩.

٥ ـ الإسراء ١/١٧.

٦ ـ القمر ١/٥٤ ـ ٢.

٧ ـ حلّت له المرأة الّتي وهبت نفسها له.

٨ ـ يَحرُم على الناس تزوّج نسائه حال حياته وبعد مماته.

٩ ـ لا ينبغي نداؤه باسمه، وقد ناداه تعالى بكُناه و ألقابه بقوله يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ[١]، يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ[٢]، يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ[٣]، يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ[٤].

١٠ ـ كان يحرم على الناس أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته و أن ينادوه من وراء الحُجُرات.

١١ ـ جعل أمّته خير الأمم و أسباطه خير الأسباط، كيف لا و هو سيّد ولد آدم.

حفظ قرآنه من التحريف

و من الخصائص الظاهرة الّتي اختصّ بها النبيّ الكريم هو حفظ قرآنه الشريف من التحريف و الدسّ، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٥]، فإنّ هذا القرآن قد أنزله الله إنزالاً تدريجيّاً و لم يأتِ به الرسول من عند نفسه حتّى يُعجزه الناس ويبطلوه بعنادهم، وليس نازلاً من عند الملائكة حتّى يفتقر إلى نزولهم وتصديقهم إيّاه، فالله مُنزله و هو حافظه بما له من صفة الذّكر، فهو ذكر حيّ خالد، مَصون من الموت و النسيان من أصله، مصون من الزيادة عليه بما يبطل به كونه ذِكراً، مصون من النقص كذلك، مصون من التغيّر في صورته و سياقه بحيث تتغيّر به صفة كونه ذِكر الله المبيّن لحقائق معارفه. و على هذا فالآية دالّة على كون كتاب الله محفوظاً من التحريف بجميع أقسامه من جهة كونه ذِكر الله سبحانه فهو ذكر حيّ خالد، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٦]، و ذَكرَ تعالى أنّ الكتاب من حيث

---

١ ـ الأنفال ٦٤/٨.
٢ ـ المائدة ٤١/٥.
٣ ـ المدّثّر ١/٧٤.
٤ ـ المزّمّل ١/٧٣.
٥ ـ الحجر ٩/١٥.
٦ ـ فصّلت ٤١/٤١ ـ ٤٢.

إنّه ذِكر لا يغلبه باطل ولا يدخل فيه شيء حالاً ولا في مستقبل الزمان، لا بإبطال ولا بنسخ ولا تغيير أو تحريف يوجب زوال ذِكريّته عنه، فإنّه محفوظ بحفظ الله تعالى عن كلّ ما يوجب زوال ذِكريّته.

هذا، وإنّا نجد ما تحدّى القرآن به في عصر النبيّ ﷺ من حيث البلاغة والمعارف والهداية والتاريخ والإنباء بالغيب والموعظة والذكر والنور والبرهان وغير ذلك ممّا مرّ من وجوه التحدّي، موجوداً في هذا القرآن المحفوظ بين الدفّتين من أوّله إلى آخره، و هو المُنزل على النبيّ الكريم. ولو فُرض وقوع التحريف فيه لَما وُجدت فيه هذه الخصائص الجليلة التي ذكرناها آنفاً. و علىٰ فَرض سقوط شيء منه أو تغيّر في الإعراب أو الحرف فإنّما يكون في أمر لا يؤثّر في شيء من أوصافه كالإعجاز وارتفاع الاختلاف والهداية والنوريّة والذِّكريّة والهيمنة على سائر الكتب، وذلك مثل آية مكرّرة ساقطة أو اختلاف في نقطة أو إعراب ونحوها من القضايا الجزئيّة.

ثمّ إنّ عدم التحريف ـ مع أنّه معروف بين المسلمين ورؤساء المذاهب والأساطين ـ تدلّ عليه الأخبار الكثيرة المرويّة عن النبيّ ﷺ من طرق الفريقين، الآمرة بالرجوع إلى القرآن عند الفتن وحلّ المشكلات[1]، وكذا حديث الثقلين المتواتر عند المسلمين[2].

ويدلّ عليه أيضاً ما ورد عن النبيّ ﷺ والأوصياء من عرض الأخبار المعارضة على الكتاب والأخذ بما يوافقه[3].

وما ورد من تمسّك أهل البيت عليهم السلام بالكتاب في كلّ باب، إنّما هو خير شاهد على صيانة الكتاب من التحريف.

---

١ ـ الأصول من الكافي ٢ : ٥٩٨ ـ ٦٠١ ؛ تفسير العيّاشيّ ١ : ٢ ـ ٥.

٢ ـ الأصول من الكافي ١ : ٢٩٤ ؛ صحيح مسلم ٧ : ١٢٣.

٣ ـ الأصول من الكافي ١ : ٦٩ ؛ الاحتجاج ٣٥٦ ؛ تفسير العيّاشيّ ١ : ٨ ـ ٩.

ويدلّ عليه كذلك ما ورد عن الأوصياء في أنّ هذا الكتاب الذي في أيدينا هو قرآن نازل منه تعالى[١]، وإن كان غير المصحف الذي جمعه أمير المؤمنين ولم يشركه أحد في جمعه. و الخلاصة أن مجموع هذه الأخبار الكثيرة دليل قطعيّ على أنّ الكتاب العزيز لم يُحرّف، وقد بقي مصوناً من التحريف[٢] كما يبقى إلى الأبد كذلك، و ما ورد من الأخبار والتواريخ الدالّة على وقوع التحريف في الكتاب بالنقيصة ـ مع ضعف سندها و القطع بوضع بعضها من الجاحدين ـ فإنّها يُعرَض عنها، وقد أُجيب عنها في محلّها مفصّلاً. و أمّا التحريف بالزيادة فلم يذهب إليه أحد فيما نعلم[٣].

كثرة الذريّة

وممّا اختصّ الله تعالى به نبيَّه الكريم: كثرة ذراريه و أولاده من بنت واحدة، قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[٤]، فإنّ الدهر قد أبادهم و الأعداء قد شتّتهم والسيوف أهلكتهم والسموم أفنتهم، و علىٰ رغم هذا و ذاك امتلأت الدنيا منهم، فلا ترى موضعاً من مواضع الأرض إلّا وفيه منهم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٥].

---

١ ـ وسائل الشيعة ٤: ٨٢١.

٢ ـ الميزان في تفسير القرآن ١٢: ١٠٧ ـ ١٠٨ باختلاف يسير.

٣ ـ لمزيد الاطلاع على صيانة القرآن من التحريف راجع الميزان في تفسير القرآن ١٢: ١٠٤ ـ ١٣٣ و البيان في تفسير القرآن ٢١٥ ـ ٢٥٤.

٤ ـ الكوثر ١٠٨/١ ـ ٣.

٥ ـ الحشر ٥٩/٢.

أدب الحضور عند النبيّ ﷺ

قد عُنِيَت الأُمّة الإسلاميّة ببيان نواحي حياة النبيّ ﷺ وأخلاقه وآدابه، وألّف علماؤها وفطاحلها مؤلّفاتٍ جمّةً ضخمة في هذا الموضوع. والجدير بالذكر والمراجعة في هذا المضمار هو كلام الله الناطق بالحقّ والصواب، فإنّ الروايات الواردة لا يخلو بعضها من غموض وإشكال.

فنقول: قد أشار سبحانه تعالى إلى مكانته المرموقة ولزوم توقيره وتكريمه وأنّه لا يصحّ أن يُدعىٰ كدعاء بعضنا بعضاً بقوله، و ذلك في ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[١]، وقوله ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾[٢].

وأشار القرآن الكريم إلى حرمة التسرّع في إبداء الرأي والبدء في العمل بحضرته بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

صفات النبيّ ﷺ في القرآن

ذكر الله سبحانه في القرآن أوصافاً عديدة لرسوله ﷺ يمكن تجزئتها على هذا النحو:

١ ـ حرصه على هداية الناس

أشار القرآن الكريم إلى تأثّره ﷺ وهمّه وغمّه وحزنه من عدم استجابة قومه

---

١ ـ الحجرات ٤٩/٢.
٢ ـ النور ٢٤/٦٣.
٣ ـ الحجرات ٤٩/١.

لدعوته و الاهتداء بهداها بقوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[١]، و بقوله ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

٢ ـ شجاعته

أشار كتاب الله تعالى إلى تحمّسه ﷺ و ثباته في المعارك العظيمة و ما فيه من الشجاعة و ثبات القلب في مواقف الشدّة و ميادين الكفاح، و إلى وقوفه أمام العدوّ حينما دارت الدوائر على المسلمين و انهزموا و تفرّق كثير من أبطالهم و أعيانهم، فوقف النبيّ ﷺ و ثبت في ميدان الجهاد و معه من لا يتجاوز عددُهم عددَ الأصابع بقوله تعالى ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾[٣].

٣ ـ أنّه القدوة الكاملة

و أشار القرآن الكريم إلى أنّه بلغ من الكمال إلى حدّ صار معه إماماً و قدوة للمؤمنين، يتأسّون به في قيمه الروحيّة و مُثُله العليا بقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[٤].

٤ ـ أنّه أعطي الكوثر

و أشار إلى أنّه قد رزق الكوثر و الخير الكثير من كلّ جوانب الحياة و مظاهرها، فرزقه الله تعالى من بنت واحدة ما ملأ الخافقين بقوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[٥].

---

١ ـ الكهف ١٨/٦.
٢ ـ الشعراء ٢٦/٣.
٣ ـ آل عمران ٣/١٥٣.
٤ ـ الأحزاب ٣٣/٢١.
٥ ـ الكوثر ١٠٨/١ ـ ٣.

٥ ـ أنّ الله يصلّي عليه

و أشار القرآن إلى بلوغه مكاناً سامياً من العظمة فاستحقّ أن يصلّي عليه الله و الملائكة بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ وَ مَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1].

٦ ـ أنّه صاحب الخُلُق العظيم

و أشار إلى أنّه وصل إلى الذروة العالية من عظمة الروح و الخُلق و صفاء النفس وقوة العقل بقوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

٧ ـ أنّه رؤف رحيم

و أشار إلى حسن معاشرته و رأفته وعطفه على أعدائه و تنزّهه عن فظاظة الخُلق و غلظة القلب بقوله تعالى ﴿وَ لَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَ نْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[3].

و أشار إلى ما رُزق من قلب نقيّ و سريرة طيّبة و رغبة شديدة في خير المؤمنين وعِظَم ثقته بحسن نيّاتهم بقوله تعالى ﴿وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِين ءَامَنُوا مِنْكُم﴾[4].

٨ ـ أنّه صبور حيي

و أشار إلى حيائه وصبره على ما كان يؤذيه من أصحابه، و تجنّبه جرح مشاعرهم بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَ لَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لاَ مُسْتَأْنِسِينَ

---

١ ـ الأحزاب ٥٦/٣٣.
٢ ـ القلم ٤/٦٨.
٣ ـ آل‌عمران ١٥٩/٣.
٤ ـ التوبة ٦١/٩.

لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَ اللهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ﴾[1].

٩ ـ أنّه غزير العلم

و أشار إلى غزارة علمه بقوله تعالى ﴿وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[2].

١٠ ـ طهارته و أهل بيته من الرجس

و أشار القرآن الكريم إلى طهارة روحه و أهل بيته من الرجس و دَرَن الشرك و المعاصي بقوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[3].

١١ ـ عكوفه على العبادة

و أشار إلى عكوفه على العبادة و التهجّد بالليل بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ الَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طَآئِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾[4].

١٢ ـ أنّه مُصدِّق للكتب السماويّة

و أشار إلى أنّه مصدّق لما بين يدَيه من الكتب بقوله ﴿وَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾[5].

١٣ ـ أنّه صبور على الهداية

و أشار إلى صبره في طريق هداية الأُمّة بقوله ﴿وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ

---

١ ـ الأحزاب ٣٣/٥٣.
٢ ـ النساء ٤/١١٣.
٣ ـ الأحزاب ٣٣/٣٣.
٤ ـ المزّمّل ٧٣/٢٠.
٥ ـ البقرة ٢/١٠١.

وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[١].

١٤ ـ أنّ استغفاره للأُمّة مؤثّر

و أشار القرآن إلى قربه منه تعالى و تأثير استغفاره في الأُمّة بقوله ﴿وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[٢].

١٥ ـ سائر الصفات

وقد وصفه الله في كتابه بأنّه نبيّ رسول مكتوب اسمه في التوراة و الإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتي كانت عليهم، وأنّه شاهد ومبشّر ونذير وداعٍ إلى الله بإذنه وسراج منير، وأنّه أحد الأمانَين في الأرض، وأنّه تعالى لا يعذّب عباده وهو فيهم ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ﴾[٣].

و القرآن لم يقتصر على بيان روحانيّته ونفسانيّته بل ويصفه وصفَ محبّ متجلّد فيوجّه نظره السامي إلى تسمية أعضائه الظاهرة، فيصف بصره بقوله ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَ مَا طَغَىٰ﴾[٤]، ويذكر وجهه بقوله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[٥]، ويتحدّث قلبه بقوله ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾[٦]، ويذكر صدره بقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[٧]، وفؤاده بقوله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[٨]، وصوته بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ

---

١ ـ النحل ١٢٧/١٦.
٢ ـ النساء ٦٤/٤.
٣ ـ الأنفال ٣٣/٨.
٤ ـ النجم ١٧/٥٣.
٥ ـ البقرة ١٤٤/٢.
٦ ـ البقرة ٩٧/٢.
٧ ـ الشرح ١/٩٤.
٨ ـ النجم ١١/٥٣.

صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[١]، بل إنّه عزّوجلّ يحلف في القرآن بعمره فيقول ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢].

أسماء النبيّ في القرآن

يتفنّن القرآن في توصيف النبيّ ﷺ وذكره بل في تسميته و الإيماء إليه، فتارةً يشير إليه بقوله تعالى ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[٣]، وأُخرى يخاطبه بالألقاب الخاصّة بأنبيائه و رسله ويقول يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ[٤]، يا أَيُّهَا الرَّسُولُ[٥]، و ثالثة يخصّه باسمَيه اللّذين كان يدعى بهما في الإسلام و هما «محمّد» أو «أحمد».

الأوّل : جاء في أربعة مواضع من القرآن الكريم :

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾[٦].

﴿وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[٧].

﴿وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾[٨].

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٩].

و الثاني : قد جاء في موضع واحد، قال تعالى ﴿وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[١٠].

وليس رسولنا بِدعاً من الرسل في كونه ذا اسمَين، فقد سبقه في ذلك ثلّة من الأنبياء كيوشع وهود وذي‌الكفل في القرآن، ويعقوب وهو إسرائيل، ويونس وهو ذوالنون، وعيسى وهو المسيح، و الخضر وهو حلقيا. سأل الشاميُّ

---

١ ـ الحجرات ٢/٤٩.
٢ ـ الحجر ٧٢/١٥.
٣ ـ النجم ١٠/٥٣.
٤ ـ الأنفال ٦٤/٨.
٥ ـ المائدة ٤١/٥.
٦ ـ الأحزاب ٤٠/٣٣.
٧ ـ آل‌عمران ١٤٤/٣.
٨ ـ محمّد ٢/٤٧.
٩ ـ الفتح ٢٩/٤٨.
١٠ ـ الصفّ ٦/٦١.

أميرَالمؤمنين عليه السلام عن ستّة أنبياء لهم اسمان فأجاب بذكر هؤلاء الستّة كما في عيون أخبار الرضا[١]. وقد أشير في القرآن إليه صلى الله عليه وآله بتعابير أخرىٰ هي: يا أيّها المُزّمّل[٢]، ويا أيّها المُدّثّر[٣]، وطه[٤]، ويسٓ[٥] ون والقلم وما يسطرون[٦]، والمُذكّر[٧]، وعبد الله[٨].

هذه جملة من صفات النبيّ صلى الله عليه وآله ونعوته وأسمائه الّتي أُشير إليها في الذكر الحكيم، ولم نَستقصِ أكثر ممّا ذُكر[٩]، والحمد لله ربّ العالمين.

---

١ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤٥.

٢ ـ المزّمّل ١/٧٣.

٣ ـ المدّثّر ١/٧٤.

٤ ـ طه ١/٢٠.

٥ ـ يسٓ ١/٣٦.

٦ ـ القلم ١/٦٨.

٧ ـ الغاشية ٢١/٨٨.

٨ ـ الجنّ ١٩/٧٢.

٩ ـ ثمّة أوصاف و نعوت أخرىٰ للنبيّ صلى الله عليه وآله نطق بها القرآن، إضافة إلىٰ ما أورده المؤلف، نذكر منها:

١ ـ الأُمّيّ: ﴿الذينَ يَتَّبِعونَ الرَّسُولَ النبيَّ الأُمّيّ﴾ الأعراف ١٥٧/٧.

٢ ـ أوّل العابدين: ﴿قُل إنْ كانَ للرحمٰنِ وَلَدٌ فأنا أوّلُ العابدين﴾ الزخرف ٨١/٤٣.

٣ ـ أولىٰ بالمؤمنين مِن أنفسهم: ﴿النبيُّ أولىٰ بالمؤمِنينَ مِن أنفُسِهم﴾ الأحزاب ٦/٣٣.

٤ ـ أوّل المسلمين: ﴿و أُمِرتُ لِأنْ أكونَ أوّلَ المسلمين﴾ الزمر ١٢/٣٩.

٥ ـ برهان: ﴿يا أيُّها الناسُ قد جاءَكُم بُرهانٌ مِن ربِّكُم﴾ النساء ١٧٤/٤.

٦ ـ بَشَر يوحىٰ إليه: ﴿قُل إنّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحىٰ إلَيَّ﴾ الكهف ١١٠/١٨.

٧ ـ رسول مُبين: ﴿أنّىٰ لَهُمُ الذِّكرىٰ و قد جاءَهُم رسولٌ مُبين﴾ الدخان ١٣/٤٤.

٨ ـ داعٍ الى الله: ﴿وَ داعِياً إلى اللهِ بإذنِه﴾ الأحزاب ٤٦/٣٣.

٩ ـ شهيد: ﴿فكيف إذا جِئنا مِن كُلِّ أمّةٍ بشهيدٍ و جِئنا بكَ علىٰ هؤلاءِ شَهيداً﴾ النساء ٤١/٤.

١٠ ـ عبدالله: ﴿و أنّهُ لمّا قامَ عَبدُ اللهِ يدعوه كادُوا يكونُونَ عَلَيهِ لِبَداً﴾ الجنّ ١٩/٧٢.

١١ ـ المدّثّر: ﴿يا أيُّها المُدَّثِّر. قُمْ فَأنْذِرْ﴾ المدّثّر ١/٧٤ ـ ٢.

١٢ ـ المزّمّل: ﴿يا أيُّها المُزَّمِّلُ. قُم اللَّيلَ إلّا قَليلاً﴾ المزّمّل ١/٧٣ ـ ٢.

١٣ ـ يتيم: ﴿ألَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوىٰ﴾ الضحىٰ ٦/٩٣.

الأصل الثالث
الإمامة

الباب الأوّل
منصب الإمامة الإلهيّة

الإمامة عند الشيعة عبارة عن الرّئاسة العامّة الإلهيّة خلافةً عن الرسول على الخلق، فيما يختصّ بشؤونهم الدينيّة و الدنيويّة. و هي مستمرّة منذ قُبض النبيّ الأعظم إلى أن يشاء اللّه تعالى انقراض العالم. و قد ختم بالنبيّ الكريم باب النبوّة الّتي هي تحمّل النبأ عن اللّه سبحانه، و أُغلق باب الرسالة الّتي هي تنفيذ ما تحمّله النبيّ صلى الله عليه وآله عن اللّه في الأمّة.

و هذه الإمامة و الولاية غير النبوّة و الرسالة، و إن كانت تجامعهما مرّة و تفارقهما أُخرى. و قد تمثّلت المناصب الثلاثة في شخص إبراهيم عليه السلام، إذ كان يمثّل منصب الإمامة كما كان يمثّل منصب النبوّة والرسالة، و قد أعطاه اللّه تعالى منصب الإمامة بعد ما منح له منصب الرسالة و النبوّة، كما يدلّ عليه قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ﴾[1]. و لايخفى أنّ قضية الإمامة كانت في أواخر عهد إبراهيم بعد مجيء البشارة له بإسحاق و إسماعيل. و إنّما جاءت الملائكة بالبشارة في مسيرهم إلى قوم لوط و إهلاكهم، و قد كان إبراهيم عليه السلام حينئذ نبيّاً مرسلاً، فقد كان نبيّاً قبل أن يكون إماماً، فإمامته غير نبوّته.

و قد أشار أبو جعفر الباقر عليه السلام في حديثه مع جابر إلى ما ذُكر، كما في الكافي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّ اللّه اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبيّاً، وإنّ الله اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً، و إنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، و اتّخذه خليلاً قبل أن يتّخذه إماماً... الحديث[2].

ثمّ إنّ الإمامة في الآية لا تكون بمعنى النبوّة، بداهةَ أنّ إبراهيم كان نبيّاً قبل ذلك،

---

١ ـ البقرة ٢/١٢٤.

٢ ـ الأُصول من الكافي ١ :١٧٥.

و لا معنى لإعطاء ما أُعطي له ثانياً. و لا تكون بمعنى الخلافة فإنّها نحو من النيابة. و لا تكون بمعنى الوصاية فإنّها أيضاً نحو منها. و لا بمعنى الرئاسة، بداهةَ أنّها نحو من المُطاعيّة و هو مصدريّة الحكم في الاجتماع، مع أنّ الإطاعة و المطاعيّة من لوازم النبوّة و الرسالة كما لايخفى.

بل تكون الإمامة بمعنى كون الإنسان بحيث يقتدي به غيره، بأن يطابق أقوالَه و أفعالَه على أفعاله و أقواله بنحو التبعيّة. و لا معنى لأن يقال لنبيّ من الأنبياء مفترض الطاعة: إنّي جاعلك للناس نبيّاً أو مطاعاً أو رئيساً تأمر و تنهى في الدين أو وصيّاً أو خليفةً في الأرض تقضي بين الناس في مرافعاتهم بحكم اللّه تعالى.

و الملاحَظ أنّه تعالى كلّما تعرّضَ لمعنى الإمامة في كلامه تعرّضَ معها للهداية تَعرُّضَ تفسيرٍ، قال تعالى ﴿وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[١]، و ﴿ وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِأَيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٢]، فوصفَ الإمامة بالهداية وصفَ تعريفٍ و قيّدها بالأمر.

و قد بيّن أنّ الإمامة ليست مطلق الهداية، بل الهداية الّتي تقع بأمر اللّه تعالى، و هو الأمر الّذي يقول عنه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣]. فالإمام هادٍ يهدي بأمر ملكوتيّ يصاحبه، وعلى هذا فالإمامة نحو ولاية للناس في أعمالهم. و هذه الهداية التي تتّصف بها الإمامة هي إيصالها الخلق إلى المطلوب بأمر اللّه تعالى دون مجرّد إراءة الطريق الّذي هو شأن النبيّ و الرسول بل شأن المؤمن الهادي إلى اللّه بالحكمة و الموعظة الحسنة.

و بالجملة أنّ الإمامة و الولاية منصب إلهيّ كالنبوّة، و قد عرّفها، الإمام أبوالحسن الرضا عليه السلام بأبلغ تعبير في حديث طويل، منه: ... إنّ الإمامة هي منزلة الأنبياء، و إرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة اللّه و خلافة الرسول... إنّ الإمامة زمام الدين، و نظام المسلمين، و صلاح الدنيا و عزّ المؤمنين، إنّ الإمامة أسّ الإسلام النامي، و فرعه

---

١ ـ الأنبياء ٢١/٧٢ـ٧٣. ٢ ـ السجدة ٣٢/٢٤.

٣ ـ يس ٣٦/٨٢.

السامي... الإمام يحلُّ حلال اللّه، و يحرّم حرام اللّه، و يقيم حدود اللّه، و يذبّ عن دين اللّه، و يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة و الموعظة الحسنة و الحجّة البالغة ... إلى آخر الرواية المشتملة على صفات الإمام و مكانته العالية[١].

الفصل الأوّل
معنى الإمامة و الولاية و الولاء

و ممّا ينبغي أن يعلم أنّ لفظ الولاء و الولاية يستعمل في موارد:

١ ـ ولاء المحبّة و القرابة، و هذه الولاية ثابتة لعليّ و أولاده المعصومين صلوات اللّه عليهم، و قد جعلت أجراً للرسالة في قوله تعالى ﴿قُلْ لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾[١]. و حيث قال تعالى في موضع آخر من كلامه ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾[٢] يعلم من الآيتين أنّ مودّة القربى و محبّتهم يرجع أثرها إلى المسلمين لا إلى النبيّ أو إليهم صلوات اللّه عليهم. و من البديهيّ أنّ هذه الولاية، بمقتضى الأخبار، من أساس الإسلام، و ينحرف عن الدين ـ بغير خلاف بين الشيعة و السنّة ـ من حاد عنهم و أبغضهم.

ابن عبد البرّ في الاستيعاب عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: مَن أحبّ عليّاً فقد أحبّني، و من أبغض عليّاً فقد أبغضني، و من آذىٰ عليّاً فقد آذاني، و من آذاني فقد آذىٰ الله[٣].

و في موضع آخر منه، عن طائفة من الصحابة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام: لايحبّك إلّا مؤمن و لايبغضك إلّا منافق[٤].

و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: و الّذي نفسي بيده، لا يُبغضنا أهلَ البيت أحدٌ إلّا أدخله الله

---

١ ـ الشورىٰ ٢٣/٤٢.

٢ ـ سبأ ٤٧/٣٤.

٣ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة ٣: ٣٧.

٤ ـ نفس المصدر.

النار[١].

جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب: يا عليّ، لو أنّ أُمّتي أبغضوك لَكبّهم الله عزّوجلّ في النار[٢].

ابن عبّاس، قال: سمعت النبيّ ﷺ قال لعليّ بن أبي طالب عليه السلام: يا عليّ، مَن سبّك فقد سبّني، و من سبّني فقد سبّ الله، و من سبّ الله أكبّه الله على مِنخرَيه في النار[٣].

٢ ـ ولاء الإمامة: يعني كون الشخص مرجعاً لأُمور الدين بحيث يطبّق الغيرُ أقواله و أفعاله على أقواله و أفعاله، فيتأسّى به كما يجب التأسيّ بالرسول ﷺ بقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[٤]. و هذا المقام يدّعي الشيعة أنّه قد ثبت بالعقل و النقل لعليّ و الأئمّة من بعده صلوات اللّه عليهم بعد الرسول الكريم، كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى.

٣ ـ ولاء الزعامة، يعني كون الشخص رئيساً و قائداً اجتماعيّاً و سياسيّاً يدبّر أُمور الناس في اجتماعهم و يهديهم إلى ما هو الأصلح لهم. و قد كان هذا المقام للنبيّ ﷺ في حياته و أثبته لعليّ و بنيه بعد وفاته، قال تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[٥]، و قال تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[٦]. ثمّ إنّ مقتضى الآيات كقوله تعالى ﴿مَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٧]، و قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ و أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[٨]، و قوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[٩] أنّ الرسول الكريم كان ثابتاً له ﷺ منصب الولاية، بمعنى الزعامة الاجتماعيّة و المرجعيّة الدينيّة. و قد أثبت هذه

---

١ ـ الصواعق المحرقة ١٧٤.

٢ ـ كفاية الطالب ١٠٠.

٣ ـ نفس المصدر ٧٣.

٤ ـ الأحزاب ٢١/٣٣.

٥ ـ النساء ٥٩/٤.

٦ ـ المائدة ٥٥/٥.

٧ ـ الحشر ٧/٥٩.

٨ ـ النساء ٥٩/٤.

٩ ـ الأحزاب ٦/٣٣.

المناصب لعليّ عليه السلام بالنصّ و العمل، كما سيأتي.

٤ ـ ولاء التصرّف: يعني كون الشخص واصلاً إلى مرحلة من القرب إليه تعالى بسبب صبره في ذات اللّه و تحمّله مشاقّ العبوديّة فيجعله الله مطّلعاً على الضمائر و شاهداً على الأعمال و السرائر و قادراً على التصرّف في الكائنات ـ و هو ما يُعبّر عنه بالولاية التكوينيّة ـ فيكون حجة اللّه على عباده و عين اللّه في خلقه لا يخلو منه الزمان و الأرض.

و الإمامة في الأخبار و الآثار و كلمات الأعلام و إن استُعملت تارة بمعنى الرئاسة الاجتماعيّة و أُخرى بمعنى المرجعيّة في الدين و ثالثة بمعنى الوصول إلى تلك المرحلة العالية، لكن دعوى الشيعة: ثبوت الولاية بالمعاني الثلاثة للأئمّة عليهم السلام بعد النبيّ الكريم، بمقتضى الأخبار و الآثار حسب ما سيمرّ عليك إن شاء اللّه.

الفصل الثاني
ضرورات الحاجة إلى الإمام

ذكر الأعلام وجوهاً تقتضي انفتاح باب الولاية الإلهيّة في وجه الأُمّة بعد ختم النبوّة و الرسالة بالتحاق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى، نذكرها على سبيل الإيجاز.

أوّلاً : لا شبهة في انقطاع الوحي بوفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، كما لاشبهة في أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قام بمهمّة التشريع و التبليغ أحسن قيام، و قد أكمل الدين بإذنه تعالى و وحيه كما أخبر بقوله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[1]. غير أنّه صلى الله عليه وآله كان يراعي في نشر الأحكام حاجة الناس و مقتضيات الظروف. و بعد حياته الشريفة ظهرت مسائل مستحدثة لم‌تكن معهودة في زمن الرسول صلى الله عليه وآله لم يَرِد فيها نصّ من كتاب اللّه و سنّة رسوله، و لم يتسنّ للنبيّ صلى الله عليه وآله في وقته الإشارة إليها، لتأخّر ظروفها أو لغيره من الأسباب.

و قد ظهرت بوادر هذا الأمر عند ما اتّسع نطاق الإسلام و فتح المسلمون أقطار الأرض، فخالطوا الأمم و فوجئوا بمسائل جديدة لا يعرفون لها حلّاً في الكتاب و السنّة النبويّة، مع أنّه تعالى قد أخبر في كتابه بإكمال دينه و إتمام نعمته. و بناءً على

---

١ ـ المائدة ٥/ ٣.

هذا نستكشف أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ـ إبقاء لغرض التشريع ـ لابدّ أن يكون قد استودع معارفه مَن يقوم مقامه و يكون له من الصلاحية ما يمكنه القيام بمثل هذا الأمر الخطير، و إلى ذلك يشير الإمام باقر العلوم عليه السلام بقوله مخاطباً هشام بن عبد الملك بن مروان:... إنّا نحن نتوارث الكمال و التمام اللّذين أنزلهما اللّه على نبيّه صلى الله عليه وآله في قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾، و الأرض لاتخلو ممّن يكمل هذه الأمور الّتي يقصر عنها غيرنا...[١].

ثمّ إنّ الكتاب العزيز الّذي فيه المحكم و المتشابه و العامّ و الخاصّ و الناسخ والمنسوخ و إن وجب العلم بما فيه على الأمّة ـ إذ الجهل به يوجب سقوطها ـ إلّا أنّ تفسير المتشابه و تشخيص الناسخ و المقيّد من دون الاستناد إلى ركنٍ وثيق يورث اختلافاً شديداً بين المسلمين. و واضح أنّ تشخيص المقيّد و الناسخ وتفصيل المجمل يحتاج إلى إحاطة كاملة بمفاهيم الكتاب و تشريعاته، وليس لأحد ذلك إلّا للنبيّ صلى الله عليه وآله و من يتلو تِلوَه، فلأجل رفع هذه المحاذير كان من لطف الله تعالى ـ حفاظاً على وحدة الأمّة وصيانتها من الضياع ـ أن يشفع كتابه بميزانٍ آخر يوضّح أسراره و يفصّل مجمله، لترجع إليه الأمّة حتّى يكتمل غرض التشريع، ويرتفع الاختلاف و الخلاف في الشؤون الدينيّة. و قد أشار رسول الله صلى الله عليه وآله إلى هذا العِدل بقوله صلى الله عليه وآله: إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه و أهل بيتي، و إنّهما لم يفترقا حتّى يَرِدا عليّ الحوض[٢].

ثانياً: إنّ الإسلام ليس منهجاً فلسفيّاً، أو فكراً علميّاً محضاً يتحقّق الغرض منه بمجرّد تدوينه على الورق، و ليس أفكاراً في مجالات التصوّر و الخيال، بل هو نظام عامّ كامل لإصلاح البشر و إسعادهم في جميع المجالات الدنيويّة و الدينيّة، وينبغي نشره وتطبيقه في الأقطار كلّها، و لأجل ذلك كان النبيّ صلى الله عليه وآله يهتمّ بأمر التبليغ

١ ـ دلائل الإمامة ٢٣٥، و الآية في سورة المائدة ٥/٣.

٢ ـ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٤٨.

و نشر الأحكام، وكان يرسل رسلاً إلى الأقطار القريبة والبعيدة، و لم تكن عنايته بالتبليغ أقلّ من اهتمامه بالتشريع، غيرأنّ الرسول ﷺ قد قُبض و لم يستوفِ غرضه من التبليغ، و لم يتّضح الدين للناس بجميع خطوطه و تفاصيله، و المسلمون حديثو عهدٍ بالإسلام، و لم يدخل الإيمان في قلوبهم و لم تذهب من بينهم الآثار الجاهليّة الثابتة في صدورهم، فكان الإسلام دعوةً ناشئة لم تمتزج بأفكارهم، و لم تترسّخ الفكرة الإسلامية في مشاعرهم. من هنا كان ربّما ظهر منهم الارتداد و النكوص. وقد ظهرت الرُّجعىٰ منهم في إحدىٰ الحروب الدامية عند ما أُشيع أنّ النبيّ ﷺ فانهزم بعضهم كما في غزوة أُحد. حتّى قال بعضهم: ليت لنا رسولاً إلى عبد اللّه بن أُبيّ فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان! و قال بعضهم: إن كان محمّد قد قُتل فألحقوا بدينكم الأوّل[١]! وكذا ظهرت الردّة منهم في هوازن كما يظهر بالرجوع إلى سيرة ابن هشام عند ما نقل واقعة حُنين[٢].

و هذا كلّه يدلّ على أنّ الإيمان لم يدخل في قلوبهم، و أنّ الأفكار الجاهليّة ما تزال راسخة في صدورهم، ولأجل ذلك كيف يصحّ لصاحب الدعوة أن يجعل القيادة الإسلاميّة في يد أُمّة ناشئة في الدين، بل لابدّ لتحقيق هذه المهمّة ـ بعد التحاق الرسول بالرفيق الأعلى ـ من إمام له من الشرائط و الصلاحيّات ما للنبيّ ﷺ سوى الوحي، حتّى يخلفه في تبليغ الإسلام و تطبيقه على جميع المجالات، إلى أن تبلغ الأُمّة حدّاً تقدر معه على تنفيذ الأحكام و تُضحّي في سبيل نشر الدعوة الإسلاميّة بالنفس و النفيس.

و بالجملة لم‌يكن موقف الدولة الإسلاميّة من الناحية الاجتماعيّة يسمح بأن يترك النبيُّ ﷺ الحكومة الإسلامية بعده بغير رعاية فلا ينصّ على من يتولّى شؤون الحكم و السياسة من بعده، فقد جاء الإسلام بمبادئ جديدة في الفكر و السلوك

---

١ ـ مجمع البيان ١:٥١٣.

٢ ـ السيرة النبويّة ٤: ٨٠.

والحياة و الاجتماع و الحكم، و توفّي النبيّ ﷺ والعقيدة الإسلامية بعد لم ترسخ في قلوب الناس، و المبدأ الإسلاميّ لم يؤثّر أثره الكامل في القضاء على الأنماط الجاهليّة من الحكم و السياسة و الحياة و الفكر.

فهل يمكن أن يترك النبيُّ ﷺ مِن بَعدِه الدينَ الناشئَ الّذي يريد أن يشقّ طريقة في الحياة، و يقضي على رواسب الجاهليّة الأُولى، و لا يؤمن للدولة و المجتمع القيادة الدينيّة التي تستمرّ مِن بَعده، مع أنّه ﷺ لم يشقّ طريقه إلّا بكونه قائداً وقائماً بإجراء الحكم و الامر. مِن هنا يكون من المحال أن يترك الأمة من بعده هَمَلاً بغير راعٍ و لا قائد، و هو المدرك تمام الإدراك لضرورة القيادة في الحياة. وفضلاً عن هذا فإنّ غير واحد من الصحابة قد أدرك ضرورة تعيين القائد؛ فمن المعروف أنّ عمر مثلاً قد عيّن أبابكر ليخلفه في الحكم.. فلابدّ إذاً أن يكون رسول‌الله ﷺ قد حدّد خليفته و القائد الذي يقود الأمة بعد وفاته[١].

ثالثاً: ما زال الإسلام من أوّل أمره إلى زماننا هذا محطّاً لإثارة الشبهات عليه من جانب أعدائه؛ ففي زمان رسول الله ﷺ و بعد وفاته كانت تزور المدينة عاصمة الإسلام وفود من أهل الكتاب و فيهم علماء منهم، و هم يلقون الأسئلة و يطرحون الشبهات. و القيام بمهمّة الجواب عن الشبهات و الأباطيل من قِبَل الرسول ﷺ تعني الإحاطة الكاملة بالعقائد و المذاهب المضادّة للإسلام، لمواجهة الشبهات و الدفاع عن الإسلام. من هنا يكون على صاحب الدعوة تعيين مَن هو مؤهّل للنهوض بهذه المهمّة، حتّى يتّسعَ للمسلمين طريقهم الواضح و تُصان نفوسهم من شبهات المضلّين.

و هذه الوجوه الثلاثة التي تحكم بضرورة وجود الإمام تقتضي أن يكون المنصوب لهذه المهمّة الإلهيّة ممّن له الولاية الإلهيّة العامّة و ممّن ينطوي على

---

١ ـ الغدير ٧: ١٤٤ـ١٤٥.

شروط صلاحيّات تمكّنه من القيام بهذه الأُمور، من العلم الكامل و العصمة و سواها ممّا ستعرفه لدى الحديث عن شرائط الإمامة، و هو ـ في هذه الشرائط ـ ينوب عن النبيّ الذي يقوم بترويج شريعة مَن سبقه و تبليغ دين من تقدّمه.

و النبيّ الأعظم ﷺ كان يتحمّل هذه المهمّات كلها، و من الواضح أنّ مثل هذه العمليّة العظيمة لا تكفيها حياة أنسان واحد، مهما بلغت قابليّاته و طاقاته، و هذا يتطلّب استمرار القيادة المعصومة متمثّلة في شخص آخر هو الإمام.

رابعاً: و ممّا يستلزم تنصيب النبيّ ﷺ من يقوم بعده بأمور الدين أنّ من الواضحات لكلّ مطّلع على حقيقة وضع الأُمّة الإسلاميّة، قُبيل وفاة النبيّ ﷺ، أنّ الدولة الإسلاميّة الفتيّة كانت محاصرة من جهة الشمال و الغرب بأكبر إمبراطوريّتين في ذلك العصر، و هما دولة الفرس و دولة الروم. و هاتان الامبراطوريّتان خصمان قويّان مجهّزان بأحسن تجهيز، و قد أعدّ النبيّ ﷺ في أُخريات حياته عُدّة لمقابلة الروم بقيادة أُسامةبن زيد[1]، ولَعَن مَن تخلّف عن جيشه[2].

من هنا كيف يُعقل أن لا يقوم النبيّ ﷺ و الحال هذه بتنصيب مَن يقوم بحفظ كيان الأُمّة و الدولة بعده، و يترك الأمر فوضى ممّا يهدّد بتمزيق بناء الأُمّة، و يعرضها للخطر و الانحلال ؟! أليست هذه المحاذير العقلائيّة موجبة لقيام النبيّ ﷺ بنصب من يتولّى الأُمور بعده ؟! و كيف يُهمل النبيّ الكريم أمر القيادة من بعده و هو الحريص على تحقيق دعوته العالمية و الباذل كلّ نفيس له في سبيل الإسلام و ترسيخ حقائقه في نفوسهم ؟!

خامساً: ثمّ إنّ المجتمع الإسلاميّ الحديث كان زاخراً بالمنافقين الّذين يتربّصون الدوائر بالمسلمين فيُظهرون الإسلام و يُضمرون الكفر، و كانوا يترصّدون

---

١ ـ أُسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزّىٰ بن امرئ القيس...استعمله النبيّ ﷺ على جيشٍ لغزو الشام و في الجيش عمر و الكبّار، فلم يَسِر حتّى توفّي رسول اللّه ﷺ... سيرأعلام النبلاء ٢: ٤٩٦ـ٥٠٧.

٢ ـ الكامل في التاريخ ٢: ٣١٨.

لإشعال الحروب الداخليّة و إثارة الفتن، لتمزّق صفوف المسلمين و تشتيت شملهم. و من الواضح أنّ النبيّ لم يكن غافلاً عن قصدهم و مكائدهم، فكيف يمكن أن يُنسب الإهمال و عدم تنصيب من يقوم تجاه مقاصدهم السيّئة و أهوائهم الفاسدة في حين أنّه قد أقام عليّاً عليه‌السلام مقامه عند مسيره إلى تبوك، ليقف في وجه المنافقين ويدفع عن الإسلام شرّهم و مؤامرتهم، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله :أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي[1].

و بالجملة: الأخطار الّتي كانت تحيط بالأُمّة الإسلاميّة من الداخل و الخارج، كانت توجب على النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ، بحكم العقل، أن ينصب للأُمة حافظاً و قائداً و دليلاً وعيناً، يجمع متفرّقاتها، و يحافظ على وحدتها، و يرعى عقيدتها، و يدفع عنها الأخطار الّتي يمكن أن تحلّ بها كلّ حين، و يصون معالم الدين من الاندراس و الاضمحلال، فيقوم بكلّ أمركان النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله بنفسه الشريفة قائماً به .

ثمّ إنّ المتتبّع في الآثار، يجد بعض ما ذكرنا من الجهات الخمسة لبيان وجه الحاجة إلى الإمام و الولاية في المحاورات و المناظرات الّتي كانت تدور بين أصحاب الأئمة و خرّيجي مدرستهم، و بين رجال العامّة و فضلائهم في عهد الأئمة عليهم‌السلام.

شواهد تاريخية

هذا هشام بن الحكم و هو أحد رجالات العلم و الفكر من الشيعة الإماميّة، يناظر الشاميّ الّذي ورد على الإمام ليناظر أصحابه، فيقول له عند المناظرة: ... يا هذا، أربّك أنظَرُ لخلقه أم خَلقُه لأنفسهم؟ فقال الشاميّ: بل ربّي أنظَرُ لخلقه. قال: ففعل بنظره لهم ماذا؟ قال: أقام لهم حجّة و دليلاً كيلا يتشتّتوا و يختلفوا، يتألّفهم

---

١ ـ مسند أحمدبن حنبل ١: ١٨٢ـ١٨٣.

و يقيم أودهم و يخبرهم بفرض ربّهم. قال: فمن هو؟ قال: رسول اللّه ﷺ. قال هشام: فبَعد رسول اللّه؟ قال: الكتاب و السنّة، قال هشام: فهل نَفَعنا اليوم الكتاب والسنّة في دفع الاختلافات عنّا؟ قال الشاميّ: نعم، قال: فلِمَ اختلفنا أنا و أنت وصرتَ إلينا من الشام في مخالفتنا إيّاك؟ قال: فسكت الشاميّ، فقال أبوعبداللّه عليه السلام للشاميّ: مالك لا تتكلّم؟ قال الشاميّ: إن قلتُ: لم نختلف كذبتُ، و إن قلت: إنّ الكتاب و السنّة يرفعان الاختلاف أبطلت، لأنّهما يحتملان الوجوه...[١].

و له مناظرة أُخرى مع عمرو بن عُبَيد إمام البصرة في عهده، و فيها قال هشام: يا أبا مروان، فاللّه تبارك و تعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح، و يتعيّن به ما شكّ فيه، و يترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم و شكّهم واختلافهم، لايقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم و حيرتهم، و يقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك و شكّك! قال: فسكت و لم يقل لي شيئاً...[٢].

و ما ذكره هذا العبقريّ يصرّح بما قدّمناه لك من أنّه يجب عليه تعالى و رسوله ـ حفاظاً على وحدة الأُمّة و صيانتها من الشرور في متاهات الضلال ـ نصب إمام يفزع إليه الناس عند حدوث الحوادث، يصدرون عن منهله العذب و هم راضون بحكمه.

و هذا منصور بن حازم، أحد الأكابر من أصحاب الصادق عليه السلام، يحكي للصادق عليه السلام ما دار بينه و بين غيره من المناظرة، و يقول: قلت للناس: أليس تعلمون أنّ رسول اللّه ﷺ كان هو الحجّة من اللّه على خلقه؟ قالوا: بلىٰ، قلت: فحين مضى رسول اللّه ﷺ مَن كان الحجة على خلقه؟ فقالوا القرآن، فنظرت في القرآن فاذا هو يخاصم به المرجئ والقدريّ و الزنديق الّذي لايؤمن به حتّى يغلب الرجال بخصومته، فعرفت أنّ القرآن لايكون حجّة إلّا بقيّم...[٣].

---

١ ـ الأصول من الكافي ١: ١٧٢.
٢ ـ نفس المصدر ١/ ١٧٠.
٣ ـ نفس المصدر ١:١٦٩.

و هذا أبوالحسن الرضا عليه السلام يشرح لفضل بن شاذان وجه الحاجة إلى القيّم و الإمام، و أنّه لماذا جُعل أُولو الأمر و أُمر بطاعتهم في كلام طويل، و يقول:... ومنها أنّه لو لم‌يَجعل لهم إماماً قيّماً أميناً حافظاً مستودعاً، لَدَرست الملّة و ذهب الدين، وغُيّرت السنن و الأحكام، و لزاد فيه المبتدعون و نقص منه الملحدون، و شبّهوا ذلك على المسلمين، لأنّا قد وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين مع اختلافهم و اختلاف أهوائهم و تشتّت أنحائهم، فلو لم‌يجعل لهم قيّماً حافظاً لِمَا جاء به الرسول لفسدوا على نحو ما بيّنا، وغُيّرت الشرائع و السنن و الأحكام و الإيمان، و كان في ذلك فساد الخلق أجمعين...[1].

و هذا هو الإمام الصادق عليه السلام يعرّف الإمام و مكانته العظيمة و شأنه الرفيع عليه السلام قائلاً: إنّ الأرض لاتخلو إلّا و فيها إمام، كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردّهم، و إن نقصوا شيئاً أتمّه لهم[2].

إيقاظ

لايخفى أنّ التواريخ و السير، تشهد بأنّ كلّ واحد من الأئمة الاثني عشر قد قام في عصره بأعباء المهمّات المتقدّمة خير قيام، و أنّ حياة كلّ منهم كانت زاخرة بالعمل المتواصل في سبيل إيصال مفاهيم الإسلام الصحيحة إلى الأُمّة، و قد لاقوا من الأهوال و المشاقّ في ذلك ما لاقاه النبيّ صلى الله عليه وآله، و عند ذلك فازت الإنسانيّة بشكل عامّ، و المسلمون بشكل خاصّ بتعاليمهم الرفيعة الهادية التي هي رسالة جدّهم السماويّة، فكان عملهم سلام الله عليهم امتداداً لعمل النبيّ صلى الله عليه وآله مِن بعده.

---

١ ـ عيون أخبار الرضا ٢: ١٠١.

٢ ـ الأصول من الكافي ١: ١٧٨.

الفصل الثالث
من يتقلّد الإمامة و الولاية

قال اللّه مخاطباً إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّی جَاعِلُك لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتی قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِينَ﴾[1] يعني أنّي جاعلك مقتدىً يقتدي بك الناس و يتّبعونك في أقوالك و أفعالك، فإنّ الإمام هو الّذي يقتدي به الناس و به يأتمّون. و الإمام يسوق الخلق إلى اللّه سبحانه يوم القيامة، كما يسوقهم إليه في ظاهر هذه الحياة الدنيا وباطنها.

و مِن البديهيّ أنّ منصب الإمامة على شرفه و عظمته لايقوم إلّا بمن كان سعيد الذات بنفسه، إذ الّذي ربما تلبّست ذاته بالظلم و الشقاء فإنّ سعادته إنّما تتحقّق بهدايةٍ من غيره، و قد قال اللّه تعالى ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِی إِلَی الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَّا يَهِدِّی إِلَّا أَنْ يُهْدَی فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2]؟! و قد قوبل في الآية بين الهادي إلى الحقّ وبين غير المهتدي إلّا بغيره، و هذه المقابلة تقتضي أن يكون الهادي إلى الحقّ مهتدياً بنفسه، و أنّ المهتدى بالغير لايكون هادياً إلى الحقّ. و يستفاد من هنا أمران:

أحدهما: أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً من الضلال و المعصية و إلّا كان غير مهتدٍ بنفسه. و يدلّ أيضاً على وجوب عصمته قوله تعالى ﴿ وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً

---

١ ـ البقرة ٢ /١٢٤.

٢ ـ يونس ١٠ /٣٥.

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَآءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1]، فإنّ أفعال الإمام خيرات يهتدي هو إليها لابهداية من غيره، بل باهتداء نفسه بتأييد إلهيّ و تسديد ربّانيّ. و مقتضى قوله تعالى ﴿ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أنّ ما فعل الأئمّة من الخيرات إنّما كان بوحي باطنيّ و تأييد سماويّ.

ثانيهما: أنّ من ليس بمعصوم لا يكون إماماً هادياً إلى الحقّ. و ممّا ذكرنا يظهر أنّ المراد بالظالمين في قوله تعالى ﴿وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾[2] مطلق مَن صدر عنه الظلم مِن شرك أو معصية، و إن كان في برهة من عمره ثمّ تاب و صلح، ذلك أنّ الشرك و المعصية ظلم بمقتضى قوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3]، و قوله تعالى ﴿وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللّٰهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[4]، و غير ذلك من الآيات الّتي جعل فيها العاصي ظالماً.

و الخلاصة أنّ الإمام الّذي يتقلّد الإمامة لابدّ أن يكون معصوماً غير صادر منه الظلم، ولو في برهة من عمره، ليكون سعيداً بذاته مهتدياً بنفسه.

و لبعض الأجلّة[5] بيان في دلالة الآية على عصمة الإمام لا بأس بذكره، وحاصله أنّ الناس بحسب القسمة العقليّة على أربعة أقسام: ١ ـ من كان ظالماً في جميع عمره، ٢ ـ من لم يكن ظالماً في جميع عمره، ٣ ـ من هو ظالم في أوّل عمره دون آخره، ٤ ـ من هو بعكس الثالث. و إبراهيم عليه السلام أجلّ شأناً من أن يسأل الإمامة للأوّل و الرابع من ذريّته فبقي قسمان، و قد نفى اللّه تعالى أحدهما و هوالّذي يكون ظالماً في أوّل عمره دون آخره، فبقيالآخر و هو القسم الثاني[6].

و مقتضى هذه الآية و غيرها أنّ الإمامة مجعولة منه تعالى لصالحي عباده، و أنّ

١ ـ الأنبياء ٢١/٧٣.
٢ ـ البقرة ٢/١٢٤.
٣ ـ لقمان ٣١/١٣.
٤ ـ النحل ١٦/٦١.
٥ ـ عبّر عنه العلامة الطباطبائي رحمه الله في تفسيره بـ ﴿بعض أساتيذنا﴾.
٦ ـ الميزان في تفسير القرآن ١: ٢٧٤.

الإمام يجب أن يكون معصوماً مؤيّداً من عنده تعالى، و أنّ الأرض و فيها الناس لاتخلو من إمام حقّ، و أنّ الإمام يجب أن يكون عالماً بجميع ما يحتاج إليه الناس في أُمور معاشهم و معادهم، و أنّه الأفضل من غيره ليكون هو المقتدى.

و قد ذكر سلطان المحقّقين للإمام شرائط ثمانية، هي:

١ ـ العصمة بالمعنى الّذي ذكرناه مفصّلاً في باب النبّوة مع أدلّتها.

٢ ـ العلم بجميع ما تحتاج إليه الأمّة من أُمور الدين و الدنيا؛ لأنّ الغرض منه لا يحصل إلّا بذلك.

٣ ـ كونه أشجع من جميع رعاياه، لأنّ فرار الرئيس يورث ضراراً عظيماً على الأمّة بخلاف الرعيّة.

٤ ـ كونه أفضل من جميع الرعيّة في جميع الصفات الكماليّة، لئلّا يلزم تقديم المفضول على الفاضل ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ﴾[1].

٥ ـ كونه مبرّءاً من العيوب المنفّرة في الخَلق و الخُلق، لئلّا يلزم خُلف المقصود.

٦ ـ كونه أزهد الناس و أطوعهم للّه و أقربهم منه.

٧ ـ ظهور الإعجاز منه ليكون دليلاً على إمامته.

٨ ـ كون إمامته عامّة غير منحصرة لئلّا يظهر الفساد[2].

و في الرواية الصحيحة عن الرضا عليه السلام بيان لصفات الإمام ينجلي بـه الظـلام: أبومحمّد القاسم بن العلاء رحمه الله رفعه عن عبدالعزيز بن مسلم قال: كنّا مع الرّضا عليه السلام بمَرْو فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء مَقدَمِنا، فأداروا أمر الامامة و ذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلتُ على سيّدى عليه السلام فأعلمته خوض النـاس فـيه، فتبسّم عليه السلام ثمّ قال: يا عبدالعزيز، جَهِل القوم وخُدعوا عن آرائهم، إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ لم يَقبض نبيّه صلى الله عليه و آله حتّى أكمل له الدين و أنزل عليه القرآن فيه تبيان كلِّ شيء، بيّن

---

١ ـ الزمر ٣٩/٩.

٢ ـ (رسالة الإمامة) ملحقة بتلخيص المحصّل ٤٣٠-٤٣١.

فيه الحلال و الحرام، و الحدود و الأحكام، و جميع ما يحتاج إليه الناس كملاً، فقال عزَّ و جلَّ ﴿مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ﴾[١]، و أنزل في حجة الوداع و هي آخر عمره صلى الله عليه وآله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[٢]، و أمرُ الإمامة من تمام الدين، و لم يمضِ صلى الله عليه وآله حتّى بيّن لأمّته معالم دينهم و أوضح لهم سبيلهم و تركهم على قصد سبيل الحقّ، و أقام لهم عليّاً عليه السلام عَلَماً و إماماً، و ما ترك شيئاً يحتاج إليه الأمّة إلّا بيّنه، فمَن زعم أنَّ اللّه عزّوجلّ لم يُكمِل دينه فقد ردَّ كتاب اللّه، و من ردَّ كتاب اللّه فهو كافرٌ به.

هل يعرفون قدر الإمامة و محلّها من الأُمّة فيجوز فيها اختيارهم ؟! إنَّ الإمامة أجَلُّ قدراً و أعظم شأناً و أعلا مكاناً و أمنع جانباً و أبعد غوراً من أن يَبلُغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم.

إنَّ الإمامة خصَّ اللّه عزّوجلّ بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوَّة و الخلّة مرتبةً ثالثة، وفضيلة شرّفه بها و أشاد بها ذكره، فقال ﴿إِنِّى جاعِلُك لِلنَّاسِ إماماً﴾[٣]، فقال الخليل عليه السلام سروراً بها ﴿وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى﴾ قال اللّه تبارك و تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾، فأبطلَتْ هذه الآيةُ إمامةَ كلِّ ظالم إلى يوم القيامة، و صارت في الصفوة. ثمّ أكرمه اللّه تعالى بأن جعلها في ذرّيّته أهلِ الصفوة و الطهارة فقال ﴿وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٤].

فلم تَزَل في ذرّيّته يَرِثها بعضٌ عن بعض قَرناً فقرناً حتّى ورّثها اللّه تعالى النبيَّ صلى الله عليه وآله، فقال جلّ و تعالى ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِىُّ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَ اللَّهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، فكانت له خاصّة، فقلّدها صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام بأمر

---

١ ـ الأنعام ٦/٣٨.
٢ ـ المائدة ٥/٣.
٣ ـ البقره ٢/١٢٤.
٤ ـ الأنبياء ٢١/٧٢ـ٧٣.
٥ ـ آل عمران ٣/٦٨.

اللّه تعالى على رسمِ ما فرض اللّه، فصارت في ذرّيّته الأصفياء الّذين آتاهم اللّـه العلم و الايمان، بقوله تعالى ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾[١] فهي في ولد عـليّ عليه السلام خـاصّة إلى يـوم القـيامة، إذ لا نـبيّ بـعد محمّد صلى الله عليه وآله. فمِن أين يختار هؤلاء الجهّال ؟!

أنَّ الإمامة هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة اللّه، و خلافة الرسول صلى الله عليه وآله، و مقام أميرالمؤمنين عليه السلام، و ميراث الحسن و الحسين عليهما السلام. إنّ الإمـامة زمام الدين، و نظام المسلمين، و صلاح الدُّنـيا، و عـزُّ المـؤمنين. إنّ الإمـامة أُسّ الإسلام النامي، و فرعه السامي. بالإمام تمام الصلاة و الزكـاة و الصـيام و الحـجّ والجهاد، و توفير الفيء و الصدقات، و إمضاء الحدود و الأحكام، و مـنع الثـغور و الأطراف.

الإمام يُحلُّ حلال الله، و يحرّم حرام الله، و يقيم حدود الله، و يذبُّ عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة و الموعظة الحسنة، و الحجّة البالغة. الإمام كالشمس الطالعة المجلّلة بنورها للعالم و هي في الأُفق بحيث لا تنالها الأيدي و الأبصار.

الإمام البدر المنير، و السراج الزاهر، و النور السـاطع، و النـجم الهـادي فـي غياهب الدجى و أجواز البلدان و القفار، و لجج البحار. الإمام الماء العذب عـلى الظماء و الدالّ على الهدى، و المنجي من الردى. الإمام النار على اليَفاع، الحارُّ لمن اصطلى به، و الدليل في المهالك، مَن فارقه فهالك. الإمام السحاب الماطر، و الغيث الهاطل، و الشمس المضيئة، و السماء الظليلة، و الأرض البسيطة، و العين الغزيرة، و الغدير و الروضة.

الإمام الأنيس الرفيق، و الوالد الشفيق، و الأخ الشـقيق، و الأُمّ البـرّة بـالولد الصغير، و مفزع العباد في الداهية النآد. الإمام أمين الله في خلقه، و حـجّته عـلى

١-الروم ٥٦/٣٠.

عباده و خليفته في بلاده، و الداعي إلى الله، و الذابّ عن حرم الله.

الأمام المطهّر من الذنوب و المبرّأ عن العيوب، المخصوص بالعلم، الموسوم بالحكم، نظام الدين، و عزّ المسلمين و غيظ المنافقين، و بوار الكافرين.

الإمام واحد دهره، لايدانيه أحدٌ، لايعادله عالم، و لايوجد منه بدل و لا له مثل و لا نظير، مخصوص بالفضل كلّه من غير طلب منه له و لااكتساب، بل اختصاص من المفضّل الوهّاب.

فمَن ذا الّذي يبلغ معرفة الإمام، أو يمكنه اختياره؟! هيهاتَ هيهات! ضلّت العقول، و تاهت الحُلوم، و حارت الألباب، و خَسِئت العيون، و تصاغرت العُظماء، و تحيّرت الحكماء، و تقاصرت الحلماء، و حَصِرت الخطباء، و جَهِلت الألبّاء، وكلّت الشعراء، وعجزت الأُدباء، و عَيِيت البلغاء عن وصف شأن من شأنه، أو فضيلة من فضائله، و أقرّت بالعجز و التقصير. و كيف يُوصف بكلّه، أو يُنعت بكنهه، أو يُفهم شيء من أمره، أو يوجد من يقوم مقامه و يغني غَناه؟! لا كيف و أنّى و هو بحيث النجم من يد المُتناولين، و وصف الواصفين، فأين الاختيار من هذا؟! و أين العقول عن هذا؟! و أين يوجد مثل هذا؟!

أتظنّون أنّ ذلك يوجد في غير آل الرسول محمّد ﷺ؟ كذبتهم و الله أنفسهم، و مَنّتهم الأباطيل فارتقَوا مرتقىً صعباً دَحضاً، تَزِلّ عنه إلى الحضيض أقدامُهم. راموا إقامة الإمام بعقول حائرة بائرة ناقصة، و آراء مضلّة، فلم يزدادوا منه إلّا بعداً، قاتلهم الله أنّى يؤفكون. و لقد راموا صعباً، و قالوا إفكاً، و ضلّوا ضلالاً بعيداً، و وقعوا في الحيرة، إذ تركوا الإمام عن بصيرة، و زيّن لهم الشيطانُ أعمالهم فصدّهم عن السبيل و كانوا مستبصرين.

رغبوا عن اختيار الله و اختيار رسول الله ﷺ و أهل بيته إلى اختيارهم، و القرآن يناديهم ﴿وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللّهِ وَ تَعَالَى عَمَّا

يُشْرِكُونَ﴾[١]، و قال عزّوجلّ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٢]، و قال ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[٣]، و قال عزّوجلّ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٤] أم ﴿طُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[٥] أم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٦] أم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا﴾[٧]، بل هو ﴿فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٨].

فكيف لهم باختيار الإمام؟! و الإمام عالِمٌ لايجهل، و راعٍ لاينكل، معدن القدس والطهارة، و النسك و الزهادة، و العلم و العبادة، مخصوص بدعوة الرسول صلّى الله عليه وآله، ونسل المطهّرة البتول، لامغمز فيه في نسب، و لايدانيه ذو حسب، في البيت من قريش، والذروة من هاشم، و العترة من الرّسول صلّى الله عليه وآله و الرضا من الله عزّوجلّ. شرف الأشراف، و الفرع من عبد مناف، نامي العلم، كامل الحلم، مضطلع بالإمامة، عالم بالسياسة، مفروض الطاعة، قائم بأمر الله عزّوجلّ، ناصحٌ لعباد الله، حافظٌ لدين الله.

إنّ الأنبياء و الأئمّة صلوات الله عليهم يوفّقهم الله و يؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لايؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق علم أهل الزمان في قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّيَ إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٩]،

١-القصص ٦٨/٢٨.
٢-الأحزاب ٣٦/٣٣.
٣-القلم ٦٨/٣٦-٤٢.
٤- محمّد ٢٤/٤٧.
٥-التوبة ٨٧/٩.
٦- الأنفال ٢١/٨-٢٣.
٧-البقرة ٩٣/٢.
٨- الحديد ٢١/٥٧.
٩-يونس ٣٥/١٠.

وقوله تبارك و تعالى ﴿وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[١]، و قوله في طالوت ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]، و قال لنبيّه ﷺ ﴿أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[٣]، و قال في الأئمّة من أهل بيت نبيّه و عترته و ذرّيّته صلوات الله عليهم ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ ءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً * فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾[٤].

و إنّ العبد إذا اختاره الله عزّوجلّ لأمور عباده، شرح صدره لذلك، و أودع قلبه ينابيع الحكمة، و ألهمه العلم إلهاماً، فلم يَعيَ بعده بجواب، و لايحير فيه عن الصواب، فهو معصومٌ مؤيّدٌ، موفّقٌ مسدّد، قد أمن من الخطايا و الزلل و العِثار، يخصُّه الله بذلك ليكون حجّته على عباده، و شاهده على خلقه، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَّشَاءُ وَ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٥].

فهل يقدرون على مثل هذا فيختارونه أو يكون مختارهم بهذه الصفة فيقدّمونه ؟! تعدَّوا ـ و بيت الله ـ الحقّ و نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لايعلمون، و في كتاب الله الهدى و الشفاء، فنبذوه و اتّبعوا أهواءهم، فذمّهم الله ومقّتهم و أتعَسَهم، فقال جلّ و تعالى ﴿وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٦]، و قال ﴿فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٧]، و قال ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٨]. صلّى الله على النبيّ محمّد و آله و سلّم تسليماً كثيراً[٩].

١-البقرة ٢/٢٦٩.
٢-البقرة ٢/٢٤٧.
٣-النساء ٤/١١٣.
٤ - النساء ٤/٥٤ ـ ٥٥ .
٥ ـ الحديد ٥٧/٢١ .
٦-القصص ٢٨/٥٠.
٧-محمّد ٤٧/٨.
٨-غافر ٤٠/٣٥.
٩ ـ الأصول من الكافي ١: ١٩٨ـ٢٠٥

الفصل الرابع
مَن الذي يختار الإمام

قال تعالى ﴿وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ[1]﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾[2].

بعد ما عرفت أنّ الإمامة إمرة إلهيّة كالنبوّة، و إذ كان الرسول خُصّ بالتشريع و الوحي الإلهي، فشأن الإمام و الخليفة التبليغ و البيان و تفصيل المجمل، و تطبيق الكلمات و الكُبرَيات على مصاديقها، و إظهار ما لم يتسنّ للنبيّ ﷺ الإشارة إليه، إمّا لتأخّر ظرفه أو لعدم تهيّؤ النفوس له، أو لغير ذلك من العلل. فمقتضى اللطف الواجب عليه تعالى[3] يوجب تعيين مَن يكمل الشريعة ببيانه، و يزيح شُبَه الملحدين ببرهانه، و يجلو ظلم الجهل بعرفانه، و يدرأ عن الدين عادية أعدائه بسيفه و سِنانه، و يقيم الحقّ بيده و لسانه.

---

١ ـ القصص ٢٨/٦٨. ٢ ـ الأحزاب ٣٣/٣٦.

٣ ـ اللطف : تقريب العباد إلى الطاعة و تبعيدهم عن المعصية، و لذلك خلقهم و استعبدهم و علّمهم ما لم يعلموا، و لم يَدَع البشر كالبهائم ليأكلوا و يتمتّعوا و يُلهيهم الأمل، و لكن خلقهم ليعرفوه و ليمكّنهم من الحصول على مرضاته، و سهّل لهم الطريق إلى ذلك ببعث الرسل و إنزال الكتب، و الناس في شمول ذلك اللطف الواجب عليه تعالى شرع سواء. المؤلف

لزوم الوصيّة

و لمّا كانت لله تعالى عناية تامّة بعبيده، و قد ألزم نفسه بأيصال الخير إليهم، و أن لا يوليهم إلّا الخير و السعادة كان عليه أن يختار لهم مَن يمثّل الرسول صلى الله عليه و آله في الوظائف كلّها، فينصّ عليه بلسان ذلك الرسول المبعوث، و لايجوز أن يخلّي سربهم و يتركهم سدى. و بهذا الحكم العقليّ المسلّم تمسّك عبدالله بن عمر و قال لأبيه: إنّي سمعتُ الناس يقولون مقالةً فآليتُ أن أقولها لك؛ زعموا أنّك غير مُستخلِف و قد علمت أنّه لو كان راعي غنم فجاءك و قد ترك رعايته رأيت أن قد ضيع، فرعاية الناس أشدّ[1].

و تمسّك بهذا أيضاً معاوية بن أبي سفيان في استخلاف يزيد إذ يقول: إنّي كرهت أن أدع أُمّة محمّد بعدي كالضأن لا راعي لها[2].

و قالت عائشة لابن عمر: يا بُنيّ، أبلغ عمر سلامي و قل له: لاتَدَع أُمّة محمّد بلا راعٍ. استخلف عليهم و لا تَدَعْهم بعدك هَمَلاً، فإنّي أخشى عليهم الفتنة[3]، فتركُ الناس مهمَلين فيه خشية الفتنة عليهم.

و من الواضحات في الشرع و العرف لزوم الوصيّة بقيام من يتولّى أُمور الموصي و رعاية أبنائه من بعده. و قد أكّد الإسلام كتاباً و سنّةً على ذلك، فهل ترى أنّ النبيّ الكريم قد غفل عن هذا الحكم العقليّ المسلّم أو تغافل أو نسي ربُّه أو نسي هو، أو لميكن أنظر لخلقه من أنفسهم، أو جعل الناس بعد الرسول كالغنم بلا راع؟ تعالى اللّه عن ذلك و رسوله و أولياؤه.

و لا بأس هنا بالإشارة إلى وجوه تدلّ على أن الذي يختار في هذا المضمار هو اللّه تعالى لاغير، و أنّه لابدّ من تعيين الخليفة بعد النبيّ صلى الله عليه و آله.

---

١ ـ السنن الكبرى ٨: ١٤٩.

٢ ـ الإمامة والسياسة ١: ١٨٤.

٣ ـ نفس المصدر ١: ٢٣.

١ ـ إنّه اعترف الناس كلّهم حتّى المخالفون بأنّ عادة اللّه جَرَت من آدم إلى الخاتم أنّه لم يقبض نبيّاً حتّى عيّن له خلَفاً و وصيّاً. و جرت عادة نبيّنا صلى الله عليه وآله أنّه متى سافر عيّن خليفة في المدينة. و على هذا جرت طريقة الرؤساء و الولاة، فكيف تخلّفت هذه السنّة الّتي لن تجد لها تبديلاً و هذه العادة الّتي لم يكن لها تحويلاً بالنسبة إلى خاتم الأنبياء المرسل الى هذه الأُمّة المرحومة، فتركها سُدىً مع انقطاع الرسالة بوفاته و بقاء التكليف إلى يوم القيامة؟!

٢ ـ إنّ مرتبة الإمامة كالنبوّة، فكما لايجوز للخلق تعيين النبيّ كذلك لايجوز لهم تعيين الإمام؛ فإنّ العقول قاصرة، و الأفهام حاسرة عن معرفة مَن يصلح لهذا المنصب العظيم. فكم رأينا أهل العقل و التدبير اتّفقوا على تعيين والٍ في قرية أو بلد أو حكم ثمّ تبيّن لهم خطأهم في ذلك فغيّروه و بدّلوه، فكيف تفي العقول الناقصة بتعيين رئيس عامّ على الخلائق في أمور الدين و الدنيا ؟! فلايبقى سبيل إلّا أن يختار الإمامَ المطّلع على السرائر و المحيط بكلّ شيء من البواطن و الظواهر.

٣ ـ قد عرفت ممّا تقدّم أنّ العصمة شرط في الإمام كالنبيّ صلى الله عليه وآله، و هي من الأمور الباطنية الّتي لايطّلع عليها إلّا العالِم بما في الصدور و الناقد البصير، و هو الواحد القدير الذي هو أعلم بمن يختار لإمامة الناس.

٤ ـ إنّه تعالى أخبر بإكمال دينه و إتمام نعمته على الناس بقوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾[1]. و من البديهيّ أنّ نصب الإمام من أعظم أركان الدين، و أهمّ مصالح المسلمين فلابدّ أن يكون واقعاً قبل نزول الآية، وقد استفاضت الأخبار بأنّ هذه الآية نزلت بعد نصب النبيّ بإذنه تعالى عليّاً للإمامة.

٥ ـ إنّه تعالى عاقب الناس حيث قالوا: لماذا ما أرسل اللّه غير هذا الرسول؟ ﴿لَوْلَانُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ﴾[2]، فقال ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ

١ ـ المائدة ٥/٣.

٢ ـ الزخرف ٤٣/٣١.

رَبِّك نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾[١].
وقال أيضاً ﴿وَ رَبُّك يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهُ و تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢]، فإنّ الآيتين صريحتان في أنّ الرزق و المراتب الدنيويّة لمّا كانت بقسمته تعالى و تقديره لاباختيار الناس و انتخابهم، فالمراتب المعنويّة و الدرجات الأُخرويّة كالنبّوة و ما هو تاليها كالإمامة الّتي هي خلافة دينيّة و رفعة معنويّة أولى و أحرى بأن تكون بتعيينه تعالى و لايكلها إلى العباد، فإنّ العقول إذا قَصُرت عن قسمة الدرجات الدنيويّة و ما فيها فهي أحرى بأن تكون قاصرة عن تعيين منزلةٍ تشتمل على الرئاسة الدينيّة و الدنيويّة معاً، فله تعالى الخيار في ذلك دون غيره.

٦ ـ إنّه تعالى أمر بإطاعة الرسول و أُولى الأمر بقوله ﴿أَطِيعُوا اللَّـهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[٣]. و من البديهيّ أنّه تعالى لايأمر المؤمنين ـ و فيهم الصلحاء و الأولياء ـ بإطاعة كلّ ذي أمر و حكم و فيهم الفسّاق و الظلمة و مَن ينقلب على عَقِبَيه، فيجب أن يكون أُولو الأمر الّذين أمر اللّه تعالى بطاعتهم معصومين مثل النبيّ صلى الله عليه وآله عالمين بجميع ما يحتاج إليه الناس، و هذا لايكون إلّا من اختاره اللّه تعالى كما اختار النبيّ صلى الله عليه وآله.

ردّ على اختيار النّاس للإمام

قد ظهر ممّا مرّ أنّ نصب الإمامة بيده تعالى، و لا يجوز الرجوع إلى اختيار الناس في تعيينه، و لكن القوم ذهبوا إلى وجوب النصب على الأُمّة شرعاً، و استدلّ صاحب المواقف و شارحها و شارح التجريد بوجوه ثلاثة:

الأوّل: إنّه تواتر إجماع المسلمين في الصدر الأوّل بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله على

---

١ ـ الزخرف ٣٢/٤٣. ٢ ـ القصص ٦٨/٢٨.

٣ ـ النساء ٥٩/٤.

امتناع خلوّ الوقت من خليفة و إمام، حتّى قال أبوبكر في خطبته المشهورة حين وفاته صلى الله عليه وآله: ألا إنّ محمّداً قد مات و لابدّ لهذا الدين ممّن يقوم به. فبادرَ الكلّ إلى قبول قوله و لم يَقُل أحد إنّه لا حاجة إلى ذلك، بل اتّفقوا عليه و قالوا: ننظر في هذا الأمر! و بكّروا إلى السقيفة و تركوا أهمّ الأشياء و هو دفن رسول اللّه صلى الله عليه وآله. واختلافهم في التعيين لايقدح في ذلك الاتّفاق، و لم يَزَل الناس بعدهم على ذلك في كلّ عصر إلى زماننا هذا من نصب إمام متّبع[١].

و فيه: ما عرفت سابقاً من وجوب نصبه عليه تعالى، فلا محلّ لوجوبه على الأُمّة شرعاً، مع أنّ دعوى امتناع خلوّ الوقت من إمام أعمّ من وجوب نصبه عليه تعالى أو على الأُمّة شرعاً أو عقلاً.

نعم، لو صحّ ما نقلوا عن أبيبكر و قبول الصحابة له و قولهم «ننظر في هذا الأمر لكان ظاهراً في وجوبه عليه شرعاً، لكنّه كذبٌ صريح إذ لم يَقُل أبوبكر: لابدّ لهذا الذين ممّن يقوم به، في خطبته الّتي أثبتتها كتبهم كتاريخ الطبري[٢] و ابنالأثير[٣] وصحيح البخاريّ عند ذكر مناقب أبيبكر[٤].

و ما قال أحد بعد خطبة أبي بكر: ننظر في هذا الأمر، و لاراحوا إلى السقيفة وفاءً بالعهد و قياماً بواجب النصب شرعاً، فإنّ رواياتهم متظافرة على أنّ الأنصار اجتمعوا في السقيفة لبيعة سعد بن عُبادة ساعة وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، فعلم أبوبكر وأصحابه و ذهبوا ينافسونهم في الإمرة[٥]، كما تدلّ عليه خطبة عمر الّتي بيّن فيها بأنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة[٦].

فكيف يمكن أن تكون مبادرتهم إلى السقيفة أداءً للوظيفة الشرعيّة و الحال أن تجهيز النبيّ و مراعاة حرمته أهمّ الواجبات و أنّ تأخير دفنه تلك المدّة أكبر توهين

---

١ ـ شرح المواقف ٦٠٣؛ شرح تجريد العقائد ٣٦٥.
٢ ـ تاريخ الطبريّ ٢ : ٤٤٢.
٣ ـ الكامل في التاريخ ٢:٩ـ١٠.
٤ ـ صحيح البخاريّ ٤ : ١٩٤.
٥ ـ نفس المصدر.
٦ ـ مسند أحمد بن حبنل ١ : ٥٥.

له وللإسلام، و لايضرّ تقديم تجهيزه على أمر الإمامة و لا سيّما بناءً على حُسن الظنّ بالصحابة و الحكم بعدالتهم أجمع و صلابتهم في‌الدين كما زعم القوم، فلا ريب أنّهم لم يؤخّروا دفن النبيّ ﷺ مبادرة لواجب البيعة، و إنّما أخّروه منافسة في‌الدنيا و انتهازاً لفرصة انشغال أميرالمؤمنين بالنبيّ ﷺ، و علمهم بأنّه لايترك النبيّ ﷺ بلا دفن و يأتي لمنافستهم.

و لو كانوا في أداء واجب البيعة على هذا المستوى من الاهتمام فما بال عمر أباح تأخير البيعة إلى ثلاثة أيّام في الشورىٰ، و النفر الّذين اختارهم للشورىٰ كانوا ستّة و يمكنهم في الأمر خلال يوم واحد بل ساعة واحدة و لاسيّما مع علمهم بحاله قبل موته.

و لو كانوا على هذه الدرجة من الاهتمام فلِمَ لم يسألوا النبيَّ ﷺ نصبَ إمام لمّا أخبرهم مراراً بقرب وفاته، تصريحاً و تلويحاً، فيريحهم من تكلّف ذلك المهمّ، و لِمَ نسبوه إلى الهُجر و منعوه من الكتابة[١]؟!

و لِمَ لم يُعطِها النبيُّ ﷺ بعض اهتمامهم و لم‌ينصب لهم خليفة كما يزعمون؟! ولِمَ لم يكن هذا الاهتمام عند أميرالمؤمنين و لم يشاركهم في هذه المهمّة فتركهم سُدىٰ و اشتغل بتجهيز أخيه النبيّ ﷺ ؟

و أمّا دعوى أنّ الناس على ذلك في كلّ عصر إلى زماننا هذا فغريب جداً، فإنّا لم‌نَرَ ولم نسمع أنّهم اهتمّوا بنصب إمام قياماً بالواجب، و لذا لم‌يطلبوا إماماً جامعاً للشرائط الّتي ذكروها من العدالة و الاجتهاد و القرشيّة و نحوها، و إنّما وجدنا وسمعنا قيامهم برئاسة من انتفت عنه الشرائط كلّياً لينالوا به شيئاً من الدنيا الدنيّة.

الثاني: إنّ في نصب الإمام دفع ضرر مظنون، و دفعه واجب إجماعاً[٢].

و فيه: إنّ الدفع إنّما يجب على الناس إذا لم يجب عليه تعالى أو أنّه أهمل أمر

---

١ ـ تاريخ الطبريّ ٢ : ٤٣٦.

٢ ـ شرح المواقف ٦٠٤؛ شرح تجريد العقائد ٣٦٥.

الإمامة، و كلاهما باطل. و لو سلّم فلا مخرج للنبيّ ﷺ عن وجوب دفع الضرر المحتمل أو المظنون بالنصب، فلابدّ أن يكون قد نصب، و إلّا أخلّ بالواجب. على أنّ نصبهم للإمام و إن دَفَع ضرراً إلّا أنّ نصب غير المعصوم يوجب ضرراً آخر أعظم ناشئاً من عَمده أو خطئه، فيضرّ بالدين و الأُمّة فيَحرُم، فلامناص من نصبه تعالى لمن يعلم عصمته.

الثالث: إنّ الشارع أمر بإقامة الحدود و تجهيز الجيوش و سدّ الثغور و نحوها ممّا لايتمّ إلّا بالإمام، و ما لايتمّ الواجب إلّا به فهو واجب[1].

و فيه: مع توقّفه على عدم الوجوب عليه تعالى و تركه لنصب الإمام ـ وكلاهما باطل كما تقدّم ـ أنّ تلك الواجبات إنّما تجب بشرط وجود الإمام ومقدّمة الواجب المشروط غير واجبة، كالاستطاعة بالنسبة إلى الحجّ، و لا سيّما أنّ إقامة الحدود واجبة على الإمام و كذا تجهيز الجيوش و سدّ الثغور، فكيف تجب مقدّمتها و هي نصب الإمام على غيره؟

نعم، لو خِيفَ على بيضة الإسلام فإنّ سدّ الثغور و تجهيز الجيش يجب على الناس أيضاً فيجب عليهم النصب هنا خاصّة، و لو سلّم وجوب تلك الأُمور على الناس و أنّ النصب مقدّمة وجود لها فكثير منهم لايقولون بوجوب مقدّمة الواجب كما حقّق في محلّه.

فاتّضح بما ذكرنا بطلان الرجوع إلى اختيار الأُمّة و بطلان إيجاب النصب عليهم، لكنّ القوم مع اختيارهم لذلك اكتفوا ببيعة الواحد و الاثنين في عقد الإمامة وإيجاب اتّباعه على الأُمّة و هما عنوان مذهبهم، كما قال صاحب المواقف وشارحها: و إذا ثبت حصول الإمامة بالاختيار و البيعة فاعلم أنّ ذلك لايفتقر إلى الاجماع من جميع أهل الحلّ و العقد إذ لم يَقُم عليه دليل من العقل و النقل، بل

---

١ ـ شرح تجريد العقائد ٣٦٥.

الواحد و الاثنان من أهل الحلّ و العقد كافٍ في ثبوت الإمامة و وجوب اتّباع الإمام على أهل الإسلام، و ذلك لعلمنا أنّ الصحابة مع صلابتهم في الدين و شدّة محافظتهم على أُمور الشرع كما هو حقّها اكتفوا في عقد الإمامة بذلك المذكور من الواحد و الاثنين، كعقد عمر لأبي بكر و عقد عبد الرحمان بن عوف[١] لعثمان، و لم يشترطوا في عقدها اجتماع مَن في المدينة من أهل الحلّ و العقد فضلاً عن إجماع الأُمّة من علماء أمصار الإسلام و مجتهدي جميع أقطارها. هذا و لم ينكر عليه أحد. و عليه ـ أي على الاكتفاء بالواحد و الاثنين في عقد الإمامة ـ انطوت الأعصار بعدهم إلى وقتنا هذا، انتهى كلامهما[٢].

و أنت إذا تدبّرت فيما تقدّم منّا عرفت بطلان هذا الكلام. و من العجيب دعواهما اكتفاء الصحابة في عقد الإمامة بالواحد و الاثنين و لم يعلما أنّ أميرالمؤمنين و جماعة من الصحابة امتنعوا عن بيعة أبي بكر و تخلّفوا عنها زماناً طويلاً[٣]، و لم يكتفوا ببيعة مَن بايعه من أهل السقيفة فضلاً عن عمر وحده، كأنّهما لم يسمعا بتخلّف سعد[٤] و ابن عمر[٥] و أُسامة بن زيد[٦] و محمّد بن مسلمة[٧] و أبي سعيد

---

١ ـ ...أحد العشرة، و أحد الستّة أهل الشورى، و أحد السابقين البدريين، القرشيّ الزهريّ. وفاته في سنة اثنتين و ثلاثين. سير أعلام النبلاء ١ : ٦٨ ـ ٩٢.

٢ ـ شرح المواقف ٦٠٧.

٣ ـ تاريخ الطبريّ ٢ : ٤٤٨.

٤ ـ سعد بن أبي وقّاص أحد السابقين الأوّلين، و أحد من شهد بدراً و الحديبيّة، و أحد الستّة أهل الشورى. مات و هو ابن اثنين و ثمانين سنة في سنة ستّ و خمسين و قيل: سنة سبعين. سير أعلام النبلاء ١ : ٩٢ ـ ١٢٤.

٥ ـ عبد الله بن عمر بن الخطّاب... فأوّل غزواته الخندق و هو ممّن بايع تحت الشجرة، و أُخته أُمّ المؤمنين حفصة. سير أعلام النبلاء ٣ : ٢٠٣ ـ ٢٣٩.

٦ ـ مرّ ذكره سابقاً.

٧ ـ محمّد بن مسلمة بن سلمة بن خالد...الأنصاريّ ... شهد بدراً و المشاهد... اعتزل الفتنة و لم يحضر الجمل و لاصفّين، بل اتّخذ سيفاً من خشب، و تحوّل إلى الربذة، فأقام بها مديدة. مات. في صفر سنة ثلاث و أربعين. سير أعلام النبلاء ٢ : ٣٦٩ ـ ٣٧٣.

الخدريّ[١] و غيرهم عن بيعة أميرالمؤمنين[٢] مع مشاهدتهم بيعة أهل الحلّ و العقد له! ألم يَدريا أنّ بيعة الأوس لأبي بكر كانت حسداً للخزرج[٣] لا للاكتفاء المذكور، كما يظهر لمن راجع تاريخ السقيفة وقضاياها، كما أنّ بيعة المهاجرين كانت حسداً لأميرالمؤمنين عليه السلام و عداوة له[٤]. وأعجب من ذلك دعواهما انطواء الأعصار على ذلك؛ فإنّا لم‌نسمع أنّه اتّفق في زمانٍ اكتفاء ببيعة الواحد و الاثنين و أنّ التكليف دعاهم إلى التسليم.

نعم، سمعنا بعهد الملوك الفسقة لأبنائهم الفجرة، و من المضحك أنّهم يصفون الصحابة بالصلابة في الدين في مثل المقام ممّا يحتاجون معه إلى إثبات صلابتهم. ويدّعون في مقام آخر أنّ مبادرتهم إلى البيعة و إعراضهم عن دفن الرسول كان خوفاً من الفتنة و من زوال أمر الإسلام! فإنّهم إذا كانوا بتلك الصلابة فأيّ خوف يُخشى على الإسلام إذا بادروا إلى دفن الرسول و أخّروا البيعة ساعات، و تشاوروا في أثناء هذا الوقت بتعيين الأولى و الأحقّ؟ و ستأتي تتمّة لهذا البحث إن شاء الله.

في الأخبار الواردة عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام، أُشير إلى بعض هذه الوجوه ففي البحار عن سعد بن عبد اللّه القمّيّ قال: سألت القائم في حِجر أبيه فقلت: أخبِرْني يا مولاي عن العلّة الّتي تمنع القوم من اختيار الإمام لأنفسهم؟ قال عليه السلام: مصلح أو مفسد؟ قلت: مصلح، قال عليه السلام: هل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لايعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟ قلت: بلى، قال عليه السلام: فهي العلّة أيّدتها لك ببرهان يقبل ذلك عقلك، قلت: نعم. قال: أخبرني عن الرسل الّذين اصطفاهم اللّه و أنزل عليهم الكتب و أيّدهم بالوحي و العصمة إذ هم أعلام الأُمم و أهدى أن لو ثبت الاختيار و منهم موسى و عيسى، هل يجوز مع وفور عقلهما و كمال علمهما إذا

---

١ ـ أبو سعيد الخُدريّ. مفتي المدينة، سعدبن مالك بن سنان، و شهد أبو سعيد الخندق و بيعة الرضوان. مات بعد الحَرّة بسنة. سير أعلام النبلاء ٣: ١٦٨ ـ ١٧٢.

٢ ـ الكامل في التاريخ ٢: ٣٠٣.

٣ ـ الإمامة و السياسة ١: ٨.

٤ ـ نفس المصدر ١: ١٢.

همّا بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق و هما يظنّان أنّه المؤمن؟ قلت: لا، قال: فهذا موسى كليم اللّه مع وفور عقله و كمال علمه و نزول الوحي عليه اختار مِن أعيان قومه و وجوه عسكره لميقات ربّه سبعين رجلاً ممّن لم يشكّ في إيمانهم و إخلاصهم، فوقعت خيرته على المنافقين، قال اللّه عزّ و جلّ ﴿وَ اخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾. فلمّا وجدنا اختيار مَن قد اصطفاه اللّه للنبوّة واقعاً على الأفسد دون الأصلح، و هو يظنّ أنّه الأصلح دون الأفسد، علمنا أنّ لا اختيار لمن لايعلم ما تخفي الصدور، و ما تُكنّ الضمائر، و تنصرف عنه السرائر، و أن لا خطر لاختيار المهاجرين و الأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لمّا أرادوا أهل الصلاح[١].

إيقاظ في اختيار الله للإمام

قد مرّت عليك الوجوه الّتي تدلّ على أنّ اختيار الإمام بيده تعالى دون غيره، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أو الوصيّ ينصب الإمام للناس من بعده بإذنه تعالى. و ليس لغيره تعالى اختيار نصبه حتّى أنّ النبيّ الكريم مع عِظَم مقامه و جلالة شأنه ليس له الاستقلال بالنصب، و قد أُشير إلى ذلك في أخبار كثيرة.

منها: ما عن البز نطيّ، قال: قلت للرضا عليه السلام : الإمام إذا أوصى إلى الّذي يكون مِن بعده بشيء ففوّض إليه فيجعله حيث يشاء أو كيف هو؟ قال عليه السلام :إنّما يوصي بأمر اللّه عزّوجلّ، فقال: إنّه حكي عن جدّك قال: أتَرَون أنّ هذا الأمر الينا نجعله حيث نشاء؟! لا واللّه، ما هو إلاّ عهد من رسول اللّه رجل فرجل مسمّى، فقال: فالّذي قلتُ لك من هذا.[٢]

---

١ ـ بحارالأنوار ٢٣ : ٦٨ ـ ٦٩ نقلاً عن الاحتجاج ٤٦٤، و الآية في سورة الأعراف ١٥٥/٧.

٢ ـ قرب الإسناد ٣٥٢.

و منها: ما عن عمر بن أبان قال: ذكر أبوعبد اللّهعليه السلام الأوصياء، و ذكرت: إسماعيل، و قال: لا واللّه يا أبا محمد ما ذلك إلينا، ما هو إلّا إلى اللّه يُنزل واحداً بعد واحد[1].

و منها: ما عن ابن الأشعث قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: أتَرَون هذا الأمر إلينا نضعه حيث شئنا؟! كلّا واللّه، إنّه عهد من رسول اللّهصلى الله عليه وآله رجل فرجل حتّى ينتهي إلى صاحبه[2].

الفصل الخامس
الإمامة أصل من أُصول الدين

أصل الشيء أساسه و ما يبتنى عليه، و أُصول الدين هي الّتي يبتنى عليها الدين، والشهادتان بالضرورة كذلك، إذ لايكون الشخص مسلماً إلّا بهما، وبالإقرار بوحدانيّة الله تعالى و رسالة النبيّ الأعظم، وكذلك الاعتراف بالإمام بدلالة للكتاب و السّنة.

أمّا الكتاب، فقوله تعالى ﴿وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾[1]، فإنّ الاستفهام فيه ليس على حقيقته؛ لاستلزامه الجهل في حقّه تعالى فلابدّ أن يراد به الإنكار أو التوبيخ. و كلّ منهما لايكون إلّا على أمر محقّق بالضرورة، فيكون انقلابهم بعد موت النبيّ صلى الله عليه وآله محقّقاً، و لأجل ذلك أتى بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقّقه.

و من البداهة أنّ الصحابة بعد موت النبيّ صلى الله عليه وآله لم يعدلوا عن الشهادتين، فيتعيّن أن يراد به أمر آخر، و ما هو إلّا إنكار إمامة أميرالمؤمنين، إذ لم يصدر منهم ما يكون وجهاً لانقلابهم عموماً غيره بالإجماع. فإذا كان إنكار إمامته عليه السلام انقلاباً عن الدين كانت الإمامة و الإقرار بالإمام أصلاً من أُصول الدين و لاينافي ما ذكرنا نزول الآية

---

١ ـ آل عمران ٣/١٤٤.

يوم أُحد، حيث أراد بعض المسلمين الارتداد، و قد مرّت مقالة بعضهم لبعض فيما تقدّم، حيث إنّ سلبيّة نزولها في المورد لاتمنع عن صراحتها في وقوع الانقلاب بعد النبيّ صلى الله عليه وآله كما يقتضيه الترديد بين القتل و الموت، فإنّ ما وقع يوم أُحد إنّما هو لزوم القتل، و قد فهم ذلك أميرالمؤمنين عليه السلام فيما رواه ابن عباس، قال: كان عليّ يقول في حياة رسول اللّه صلى الله عليه وآله إنّ اللّه تعالى يقول ﴿ اَفَائِنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْـقَابِكُمْ﴾ و اللّه لانقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا اللّه و اللّه لئن مات أو قتل لأقاتلنّ على ما قاتَلَ عليه حتّى أموت، و اللّه إنّي لَأخوه و وليّه و ابن عمّه و وارث علمه، فمَن أحقّ به منّي؟[1]

أمّا السنّة فهي روايات من طرق السنّة، و هي من طريقهم حجّة عليهم.

منها: ما هو كالآيه الشريفة في الدلالة على ارتداد الأُمّة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، كروايات الخواصّ، فإنّها صريحة في ارتداد الأمّة إلّا النادر منهم، فقد روى البخاريّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: بينا أنا قائم فإذا زمرة حتّى إذا عرفتُهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلمّ... فقلت: أين؟ قال: إلى النار و اللّه. قلت: و ما شأنهم؟ قال: إنّهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرىٰ فلاأُراه يخلص منهم إلّا مثل هَمَل النَّعَم.[2] و هذه الرواية و أمثالها تدلّ على ارتداد الصحابة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا القليل الّذي هو في القلّة كالنَّعَم المُهمَلة المتروكة سُدى. وقد مرّ أنّ الصحابة لم يرتكبوا ما يمكن أن يكون سبباً للارتداد غير إنكار إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، فلامحالة تكون الإمامة أصلاً من أُصول الدين و إلّا لم يكن إنكارها موجباً للارتداد.

و منها: الأخبار المستفيضة الدالّة على أنّ من مات بلا إمام مات ميتة جاهلية و نحو ذلك، كرواية مسلم في باب الأمر بلزوم الجماعة من كتاب الإمارة عن ابن عمر قال: سمعت رسولاللّه صلى الله عليه وآله يقول: مَن خلع يداً من طاعة لقي اللّه يوم القيامة

---

١ ـ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٦، و الآية في سورة آل عمران ١٤٤/٣.

٢ ـ صحيح البخاريّ ٧: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

لا حجّة له، و من مات و ليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية[١]. و رواية مسلم في الباب المذكور و البخاريّ في كتاب الفتن عن النبيّ ﷺ، قال: مَن كره مِن أميره شيئاً فليصبر، فإنّه مَن خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية[٢].

و رواية أحمد في مسنده، قال رسول اللّه ﷺ: مَن مات بغير إمام مات ميتة جاهلية[٣]. إلى غير ذلك من الأخبار، فلو لم تكن الإمامة من أساس الدين كيف يكون خلع اليد و ترك البيعة للإمام موجباً لكون موتة خالع اليد عنها ميتة جاهلية ؟!

و منها: الأخبار الكثيرة المرويّة عن الطريقَين، الّتي ناطت الإيمان بحبّ آل محمّد و الكفر ببغضهم، فإنّها كناية عن الاعتراف بإمامتهم و إنكارها، للملازَمة عادة بين حبّهم الحقيقيّ و الاعتراف بفضلهم، و بين بغضهم و إنكار فضلهم. و لا يراد الحبّ و البغض بنفسيهما، بداهةَ أنّه لا دخل لهما بماهيّة الإيمان و الكفر، فلابدّ أن يكونا كناية عمّا ذكرنا، فلو لم تكن الإمامة أصلاً من أُصول الدين فكيف صار بغضهم المكنّىٰ به عن إنكار إمامتهم موجباً للكفر؟

و من تلك الأخبار ما رواه الكشّاف في تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾ عن النبيّ ﷺ في حديث طويل، قال فيه: ألا و مَن مات على حبّ آل محمّد مات مؤمناً... ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات على السنّة و الجماعة، ألا و من مات على بغض آل محمّد مات كافراً[٤].

و في كنز العمّال عن النبيّ ﷺ: أساس الإسلام حبّي و حبّ أهل بيتي[٥]. و فيه

---

١ ـ صحيح مسلم ٦ : ٢٢.

٢ ـ صحيح مسلم ٦ : ٢١ ـ ٢٢ ؛ صحيح البخاريّ ٨ : ٨٧.

٣ ـ مسند أحمد بن حنبل ٤ : ٩٦.

٤ ـ الكشّاف ٤ : ٢٢٠ ـ ٢٢١، و الآية في سورة الشورىٰ ٤٢/٢٣.

٥ ـ كنزالعمّال ١٣ : ٦٤٥ ـ ٦٤٦.

أيضاً عن ابن عباس و ابن عمر، أنّ النبيّ‌ﷺ قال لعليّ‌ﷺ يوم المؤاخاة: أمَا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه ليس بعدي نبيّ؟ ألا مَن أحبّك حُفّ بالأمن و الإيمان، و مَن أبغضك أماته اللّه ميتة الجاهلية[1].

و روي أيضاً عن الطبرانيّ و الحاكم في المستدرك عن زيد بن أرقم، أنّ النبيّ‌ﷺ قال: مَن أحبّ أن يحيا حياتي و يموت موتتي و يسكن جنّة الخلد الّتي وعدني ربّي... فليتولَّ عليّ بن أبي‌طالب؛ فإنّه لن يخرجكم من هدْيي، و لن يدخلكم في ضلالة[2].

و روي عن جماعة آخرين أنّه‌ﷺ قال:...فليتولّ عليّاً و ذرّيّته أئمّة الهدىٰ و مصابيح الدجىٰ من بعده، فإنّهم لن يخرجوكم من باب الهدىٰ إلى باب الضلالة[3].

و يحتمل أن يريد النبيّ‌ﷺ فيه بتولّي عليّ‌ﷺ الالتزام بولايته أي إمامته، فيكون دالّاً بصراحة على المطلوب، و كذلك تولّي أولاده كما في الحديث الأخير.

و ممّا يشهد على أنّ الإمامة من أساس الإسلام أنّ منزلة الإمام كالنبيّ‌ﷺ في حفظ الشرع و وجوب اتّباعه و الحاجة إليه و رئاسته العامّة بلافرق.

و قد أشار أبوالحسن الرضاﷺ إلى صفات الإمام و الإمامة بقوله: هل يعرفون قَدر الإمامة و محلّها من الأُمّة فيجوز فيها اختيارهم؟! إنّ الإمامة أجلّ قدراً و أعظم شأناً و أعلى مكاناً، و أمنع جانباً، و أبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم. إنّ الإمامة خصّ اللّه عزّوجلّ بها إبراهيم الخليل بعد النبوّة ـ إلى أن قال ـ إنّ الإمامة هي منزلة الأنبياء و وارث الأوصياء. إنّ الإمامة خلافة اللّه و خلافة الرسول، و مقام أميرالمؤمنين و ميراث الحسن و الحسين. إنّ الإمامة زمام الدين و نظام المسلمين و صلاح الدنيا و عزّ

---

١ ـ نفس المصدر ١١ : ٦٠٧.

٢ ـ المعجم الكبير ٥ : ١٩٤ ؛ المستدرك على الصحيحين ١٢٨:٣ باختلاف يسير.

٣ ـ المناقب للخوارزميّ ٧٥.

المؤمنين. إنّ الإمامة أُسّ الإسلام الناميّ و فرعه الساميّ... الخبر.[١]

إلى هنا اتّضح تعريف الإمامة و وجه الحاجة إليها، و أنّ اختيار الإمام بيده تعالى كالنبيّ ﷺ، و أنّ الإمامة من أُصول الدين و أساس الإسلام، و أنّ الإمامة لابدّ أن تكون ممثّلة في العلم وغيره من صفات النبيّ ﷺ سوى النبوّة.

الباب الثاني

اختيار أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام للإمامة

الفصل الأوّل
الأدلّة العقليّة

بعد ما ثبت أنّ الإمامة كالنبوّة فإنّ اختيار تعيينها و تعيين من يتقلّدها إنّما يكون للّه تعالى، و قد اختار سبحانه للإمامة و بلّغ عنه الرسول ﷺ عليّاً أميرالمؤمنين إمّاماً بعد رسول‌الله ﷺ و قد ألّف الأعلام في ذلك من المؤلّفات الزاخرة بآلاف الادلة ما تتمّ به الحجّة على النّاس أجمعين، و نحن نذكر نبذاً من تلك الأدلّة التي استدلّوا بها.

استدلّ على تعيين عليّ للخلافة بعد رسول الله ﷺ بالأدلّة العقليّة و النقليّة من الكتاب و السنّة. أمّا الأدلّة العقليّة فنكتفي بذكر عشرة منها:

١ ـ إنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً؛ لما تقدّم من أدلّة العقل و النقل، و غير عليّ ممّن ادُّعي له الإمامة لم يكن بمعصوم إجماعاً، فتعيّن أن يكون هو الإمام.

٢ ـ شرط الإمام أن لاتسبق منه معصية على ما تقدّم، و الشيوخ قبل الإسلام كانوا يعبدون الأصنام فلايكونون أئمّة، فتعيّن أن يكون هو الإمام لعدم صدور معصية منه، من شرك و غيره في حالة من حالاته.

٣ ـ إنّ الإمام لابدّ أن يكون منصوصاً عليه أو مُظهراً للمعجزة مع ادّعاء الإمامة؛ لِما تقدّم من بطلان الاختيار و أدائه إلى التنازع و التشاجر و أعظم أنواع الفساد، و غير عليّ لم‌يكن كذلك فلا يكون إماماً و يتعيّن هو للإمامة.

٤ ـ الإمام يجب أن يكون أفضل رعيّته كما تقدّم، و غير عليّ لم يكن كذلك، فتعيّن هو للإمامة دون غيره.

٥ ـ الإمامة زعامة عامّة، و إنّما تُستحقّ بالزهد و العلم و العبادة و الشجاعة و الإيمان، و سيأتي إن شاء الله أنّ علياً هو الجامع لهذه الصفات على الوجه الأكمل، لم يلحقه فيها غيره فهو المتعيّن للزعامة.

٦ ـ إنّ الإمام لابدّ أن يكون حافظاً للشرع عالماً بجميع أحكامه تعالى، المودعة في كتابه لانقطاع الوحي بموت النبيّ صلى الله عليه وآله و قصور ما يفهمه الناس من الكتاب و السنّة من جُلّ الأحكام، فلابدّ من مبيّن و شارح لتلك الأحكام منصوباً من عنده تعالى منزّه من الزلل في الاعتقاد و العمل، و غير عليّ لم يكن كذلك فتعيّن أن يكون هو الإمام.

٧ ـ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يفارق المدينة قطّ إلّا و قد خلّف فيها مَن يخلفه، و لاأرسل جيشاً إلّا و أمّر عليهم كما تقتضيه الرئاسة العامّة و السياسة، فكيف يمكن أن يتركهم في غيبته الدائمة معرضاً للفتن و غرضاً لسهام الخلاف على قرب عهدهم بالكفر و توقّع الانقلاب منهم، و وجود مَن مَردوا على النفاق و تربّص الكفّار بهم الدوائر كما نطق به الكتاب؟ وكيف يمكن أن لايطالبه المسلمون على كثرتهم بنصب إمام لهم مع طول مرضه و إعلامه مراراً لهم بموته؟ فلمّا لم يقع الطلب منهم مع ضرورة حاجتهم إلى الإمام من بعد الرسول عُلم أنّه قد أغناهم بالبيان الّذي عَلِمه الشاهد و الغائب، و ليس هو إلّا نص الغدير و نحوه فيكون أمير المؤمنين عليه السلام هو الإمام المنصوص عليه في الغدير. و لايمكن أن يكون تشريع جواز ترك الاستخلاف سبباً لترك النبيّ صلى الله عليه وآله النصّ كما زعموا؛ لأنّ فائدة التشريع متابعة الناس له في فعله، و بالضروة أنّه لم يتّفق ترك مَلِك أو خليفة النصَّ على مَن بعده عملاً بالسنّة الجارية بين العقلاء.

٨ ـ لا شك أنّ مَن يعرف طرفاً من التاريخ يستبين له أنّ بين أميرالمؤمنين عليه السلام

والشيوخ الثلاثة مباينة بعيدة و مناوأة شديدة، حتّى لم يشهد التاريخ باشتراكه في حرب لنصرتهم مع أنّه أبو الحروب و ابن بَجْدَتها، و ما قام الإسلام إلّا بسيفه و ما تخلّف عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في موقف قطّ سوى تبوك في ظرف خاص بُيِّن في موضعه[1]، و قد قام بأعباء الحروب الدامية في إبّان تولّيه الخلافة، و قد امتلأت كتب التاريخ بما وقع بينه وبينهم لاسيّما الثالث منهم، و ذلك لايجتمع مع البناء على أنّهم جميعاً أركان الدين، وأقطاب الحقّ، و إخوة الصدق، و أنّ همّتهم نصر الإسلام لاالزعامة الدنيوّية، فلابدّ من وقوع خلل هناك ؛ إمّا لكونهم جميعاً على باطل و هذا لا يقوله مسلم، أو لكون أحد الطرفين على الحقّ و الآخر على الباطل، و هو المتعيّن. و لا قائل من أهل الإسلام بأنّ عليّاً إذ ذلك مبطل حتّى الخوارج، فتعيّن أن يكون أميرالمؤمنين هو الحقّ و غيره المبطل، فإنّ عليّاً مع الحقّ و الحقّ معه يدور حيثما دار[2]، فتعيّن أن يكون هو الإمام.

٩ ـ الإمام مرجع الأنام، فهم محتاجون إليه و هو غنيّ عنهم، و احتياج الكلّ إليه وغناه عن الكلّ يشهد بأنّه إمام الكلّ، كما نطق بهذا الدليل جمع من مخالفيه وكثير من مناوئيه.

١٠ ـ إنّ الإمام لابدّ أن يكون مختاراً للّه تعالى، حيث قد عرفت أنّ الاختيار والتعيين في أمر النّبوة و الإمامة بيده تعالى، و غير عليّ لم يكن مختاراً له فتعيّن أن يكون هو الإمام.

---

١ ـ الصواعق المحرقة ١٢٠.

٢ ـ ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ٣ : ١١٧ ؛ المناقب لابن شهر آشوب ٣ : ٦٢.

الفصل الثاني
الأدلّة النقليّة (الكتاب)

و هي أدلّة كثيرة، و قد استدلّ على تعيين عليّ للإمامة بعد النبيّ ﷺ بآيات من القرآن الكريم تقرب من مائة أو أكثر، نختار منها عشرة.

آية التبليغ

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَاالرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْك مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُك مِنَ النَّاسِ﴾[1].

قد ذكر في كتاب غاية المرام تسعة أحاديث من طرق العامّة في تفسير الآية الشريفة و أنّها نزلت في قصّة الغدير[2]، و ذكر في الغدير ثلاثين خبراً عن حفّاظ العامّة و مفسّريهم[3]. و أمّا الشيعة فالمتسالَم عليه بينهم ذلك. و ينبغي التكلّم هنا في أُمور ثلاثة:

الأوّل: إنّ الآية إنّما نزلت في ولاية أميرالمؤمنين في غدير خمّ، و قد استفاضت الأخبار من الطريقين مستندة إلى أهل البيت عليهم السلام و ابن عبّاس و جابر

---

١ ـ المائدة ٥/٦٧.

٢ ـ غاية المرام و حجّة الخصام ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

٣ ـ الغدير ١ : ٢١٤ ـ ٢٢٣.

و أبي سعيد الخدريّ و أبي هريرة في أنّ الآية نزلت في غدير خمّ؛ بل الأخبار من طرقنا متواترة، مع أنّ الآية تدلّ من وجهين على أنّ المنزل من الرّب تعالى والمأمور بتبليغه إنّما هي الولاية، و ذلك لأنّ الظاهر من الآية الشريفة أمران:

أحدهما: أنّ اهتمامه تعالى بما أنزله على رسوله في هذا المورد أشدّ من اهتمامه بسائر ما أنزل على رسوله، حيث نفى رسالته رأساً لو لم يبلّغ هذا الحكم بخصوصه.

ثانيهما: إنّ تبليغه كان ثقيلاً على النبيّ صلى الله عليه وآله لخوفه من استنكاف الناس عن قبوله، و إيذائهم له حيث هدّده تعالى و أوعده على ترك تبليغه بقوله ﴿وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، فإنّه لايقال مثل هذا التعبير إلّا إذا كان الأمر ثقيلاً على مَن يراد خطابه به، ولذا عصمه تعالى من الناس بقوله ﴿وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

و كلّ منهما يدلّ على أنّ المنزَل عليه كان هو الولاية و الخلافة، و ذلك أنّ سورة المائدة آخر سورة نزلت على النبيّ صلى الله عليه وآله ممّا يعني أن ليس من المشركين، لأنّ مَن لم يُسلِم منهم كانوا من المقهورين في زمان نزول الآية، فهذا الخوف كان بالنسبة إلى المسلمين الّذين أسلموا بأفواههم. و الظاهر من الأخبار و التواريخ أنّ الّذي استنكف مثل هؤلاء المسلمين عنه إنّما هو ولاية أميرالمؤمنين، و لميكن شيء أثقل عليهم من قبول ولايته و لم تكن لهم معارضة للصوم و الصلاة و الحجّ و غيرها من الأحكام.

نعم، إنّهم منعوا الخُمس لأجل الولاية أيضاً[1]، و كفى بذلك شاهداً قضية الحارث بن النعمان الفِهريّ الّتي رواها الفريقان على ما ذكره في الغدير[2]، فتبيّن أنّ الّذي أمر بتبليغه من الربّ و خاف الرسول من الناس في تبليغه فوعده اللّه العصمة منهم و أكّد تبليغه غاية التأكيد، بحيث جعله بمنزلة تمام الدين إنّما هي الولاية

١ ـ الكشّاف ٢ : ٢٢٢.
٢ ـ الغدير ١ : ٢٤٢.

و الخلافة؛ لأنّ تبليغ غيرها من الأحكام لم‌يكن محلاًّ لخوف الرسول من النـاس، كما أنّ غير الولاية لايناسبه هذا الاهتمام و التأكيد، إذ لايكون منزلة غيرها مـن الأحكام بهذه المثابة بحيث لو تُرِك فكأنّما ترك الجميع. و إنّما تكون الخلافة لهـا هذه العظمة، إذ لو لم‌ينصب الخليفة مِن قِبله تعالى لَما حُفِظ الديـن مـن الضـياع، ولَصار مَعرِضاً للزيادة و النقصان بتركه.

هذا و قد ذكر الرازيّ في تفسيره وجوهاً عشرة في مقام شأن نزولها و جعل عاشرها نصّ الغدير. ثمّ قال بعد عدّ الوجوه: اعلم أنّ هذه الروايات [المرويّة فـي قصّة الغدير] و إن كثرت إلّا أنّ الأولى حمله على أنّه تعالى آمنه من مكر اليـهود والنصارى و أمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم، و ذلك لأنّ ماقبل هذه الآية بكثير و ما بعدها بكثير لما كان كلاماً مع اليهود و النصارى امتنع إلقاء هذه الآيـة الواحدة في البين على وجه تكون أجنبيّة عمّا قبلها و عمّا بعدها[١].

و أنت ترى أنّ ترجيحه لهذا الوجه مجرّد استنباط منه بملاءمة سياق الآيات من غير استناد إلى آية أو رواية، و نحن إذا علمنا أنّ ترتيب الآيات في الذكر غير ترتيبها في النزول نوعاً فلايهمّنا مراعاة السياق تجاه النقل الصحيح. على أنّ طبع الحال يستدعي أن يكون خوفه ﷺ من اليهود و النصارى في أُولَيات البعثة. و على فرض التنازل فإنّه يكون بعد الهجرة بيسير لا في أُخرَيات أيّامه الّتي كان يُهدِّد فيها دولَ العالم و تهابه الأُمم و قد فتح خيبر و استأصل شأفة بني قُـرَيضَة و النَّـظير، وعنت له الوجوه و خضعت له الرقاب طوعاً و كرهاً، و فيها كانت حجّة الوداع الّتى نزلت فيها الآية و على ما ذكره المفسّرون فإنّ سورة المائدة مدنيّة و هي آخر سورة نزلت على النبيّ الكريم، كما صرّح بذلك الخازن في تـفسيره[٢] و السـيوطيّ فـي «الإتقان»[٣] و القرطبيّ في تفسيره[٤]. و ذكر جمّ غفير منهم أنّ الآية نزلت في غدير

---

١ ـ التفسيرالكبير ١٢ : ٤٩ ـ ٥٠.
٢ ـ تفسير الخازن ٢ : ٢.
٣ ـ الإتقان في علوم القرآن ١ : ١٠٦.
٤ ـ الجامع لأحكام القرآن ٦ : ٣٠.

خمّ، و مع هذا كلّه لا تبقى قيمة لما ذكره الرازيّ أو ذهب إليه بعضهم من أنّها نزلت في عيب اليهود و استهزائهم بالدين، أو في سكوت النبيّ عن عيب آلهة الوثنيّين أو غير ذلك من الوجوه.

مضافاً إلى أنّ تلك الوجوه لم يَقُم عليها دليل، بل ذكروها اعتماداً على مراسيل مقطوعة غير معلومة القائل، و لذا نُسبت جميعاً في تفسير نظام الدين النيشابوريّ إلى القيل، و جعل ماروي في نصّ الغدير أوّل الوجوه، و أسنده إلى ابن عبّاس و البراء بن عازب و أبي سعيد الخدريّ، و محمّد بن عليّ عليهما السلام[1]. و كيف كان فلا مجال لتلك المزاعم و الأباطيل، و لعلّ منشأها تجاه الروايات الكثيرة المعتبرة ليس إلّا الحسد و المعاندة، عصمنا اللّه منهما.

الثاني: إنّ مابلّغه الرسول من اللّه في غدير خمّ كان في شأن أميرالمؤمنين عليه السلام، فقد تواترت الأخبار من الطرفين على أنّه صلى الله عليه و آله نصّ على ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام في منصرفه من حجّة الوداع في غدير خمّ و قال: مَن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه.

و قد ذكر مؤلّف غايةالمرام من طريق المخالفين تسعة و ثمانين حديثاً في ذلك، ومن طرق الخاصّة ما لا يُحصى كثرة و قد ذكر جملة منها حتّى يظهر لمن رجع إليها[2].

الثالث: إنّ حديث الغدير صريح في إمامة أميرالمؤمنين عليه السلام و خلافته للرسول بلافصل، و لذلك بنى أوائلهم على كتمان الخبر و إنكاره لو وجدوا إليه سبيلاً، ولم ينقل منهم مناقشة في دلالته.

و أمّا الأواخر فلمّا رأوا أنّه بعد كتمان أوائلهم له قد ظهر الخبر ظهور المتواترات، و لم يمكنهم إنكاره بَنَوا على المناقشة في الدلالة و سيأتي عند تعرّضنا للخبر الشريف وجوه المناقشة مع جوابها إن شاء اللّه و ذكر القرائن الدالّة على

---

١ ـ غرائب القرآن ٦ : ١٢٩.

٢ ـ غاية المرام ٧٩ ـ ١٠٣.

صراحة الخبر في مدّعى الشيعة.

تنبيه: إنّ اللّه تعالى عبّر بكلمة الرسول في هذه الآية دون النبيّ و نحوه؛ لأنّ المناسب لمقام التبليغ ذكر وصف الرسالة مهتمّاً به في الغاية كالمقام، و عبّر بصيغة التفعيل دون الإفعال، لكمال الاهتمام ببلوغ المُنزَل إلى الأُمّة، فناسب التعبير بالتفعيل الدالّ على اتّصاف المحلّ بالمبدأ دون صيغة الإفعال الدالّة على مجرّد إيصال المبدأ بالمحلّ. وعبّر كذلك بصيغة المجهول في ﴿أُنزِل﴾ تنبيهاً على أنّ الاهتمام التامّ الّذي سبقت له الآية إنّما هو بشأن المُنزَل مع قطع النظر عن الإسناد إلى الفاعل. و أتى بقوله ﴿مِنْ رِبِّكَ﴾ و إن كان جميع ما عنده صلى الله عليه وآله مُنزلاً من اللّه، تنبيهاً على أنّ إنزال هذا الأمر المهمّ إنّما هو من طرفه تعالى؛ دفعاً لتوهّم الجهلة من الأُمّة. و لعلّ المستفاد من الآية أنّ إنزال هذا الأمر العظيم كان قبل نزول هذه الآية، و قد أخّر الرسول صلى الله عليه وآله تبليغه خوفاً من استهزاء الجهلة منهم و انتظاراً لأن تأتيه العصمة منه تعالى. و أكّد اللّه تعالى علىٰ تبليغه هذه الآية و أوعده على تركه و وعده العصمة من الناس. و قد أُشير إلى ذلك في الأخبار المرويّة من طرقنا[1].

آية الولاية

قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ ءَآمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ و هُمْ رَاكِعُونَ﴾[2].

عن أنس بن مالك أنّ سائلاً أتى المسجد و هو يقول: من يقرض المليّ الوفيّ؟ و عليّ عليه السلام راكع يقول بيده خلفَه للسائل، أي إخلع الخاتم من يدي. قال رسول اللّه: يا عمر، وجَبَت. قال: بأبي أنت و أُمّي يا رسول اللّه، ما وجبت؟ قال: وجبت له الجنّة، و اللّهِ ما خلعه من يده حتّى خلعه اللّه من كلّ ذنب و من كلّ خطيئة. قال: فما

---

١ ـ الأصول من الكافي ١ : ٢٨٩.

٢ ـ المائدة ٥/٥٥.

خرج أحد من المسجد حتّى نزل جبرائيل بقوله عزّوجلّ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ﴾، فأنشأ حسان بن ثابت يقول :

أبا حسنٍ تَفديكَ نفسي و مهجتي — و كلّ بطيء في الهدى و مُسارعِ
أيَذهب مدحيكَ المُحبَّر ضائعاً — و ما المدح في جنب الإلّه بضائعِ
فأنت الّذي أعطيتَ إذ كنتَ راكعاً — زكاةً، فدتكَ النفس يا خيرَ راكعِ
فأنزلَ فيك اللّهُ خيرَ ولايةٍ — و ثَبّتها مَثنىً كتابُ الشرائعِ [1]

قد أجمع المفسّرون و أهل الحديث و التاريخ على أنّها نزلت في عليّ عليه السلام حينما تصدّق بخاتمه راكعاً. و ذكر في غاية المرام في تفسير الآية من طريق العامة أربعة و عشرين حديثاً [2]، و ذكر في الغدير إخراج الحديث من الأعلام و الصحابة بما يقرب من ستّة و ستّين طريقاً [3]. أمّا الشيعة فلاخلاف بينهم في نزولها في عليّ عليه السلام.

و بالجملة لامجال للمناقشة من هذه الجهة، و لهذا بنى بعضهم على المناقشة في الدلالة، فدعوى أنّه لاخلاف بين المسلمين في نزول الآية الكريمة في شأن عليّ عليه السلام دعوى صدق و مقالة حقّ.

أمّا دلالة الآية على المدّعى، فإنّ اللّه تعالى أثبت الولاية لذاته و شَرِك معه الرسولَ و أميرالمؤمنين عليه السلام، و ولاية اللّه عامّة فكذا ولاية النبيّ والولي. و مقتضى الحصر : انحصار الولاية بمن ذُكر دون غيره. و لا شبهة في أنّ الولاية الثابتة له تعالى إنّما هي السلطة و القيام بأمور الخلق في شؤون دينهم و دنياهم، و هي تامّة في ذاتها مع أنّ الآية مطلقة تفيد العموم بقرينة الحكمة. و قد شرك بمقتضى العطف النبيّ صلى الله عليه و آله في الولاية وكذا الوليّ. ولو كان ما ثبت للّه مغايراً لما ثبت للنبيّ و الوليّ ـ و المقام مقام الالتباس ـ لكان الأنسب أن تُفرد ولاية أُخرى لهما بالذكر رفعاً للالتباس، كما

١ ـ صدر الخبر في فرائد السمطين ١ : ١٨٨ و ذيله في مجمع البيان ٢ : ٢١٠ ـ ٢١١.
٢ ـ غاية المرام ١٠٣ ـ ١٠٦.
٣ ـ الغدير ٣ : ١٥٦ ـ ١٦٢.

وقع نظيره في نظيرها، قال تعالى ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ[١]﴾ فقد كرّر لفظ الايمان لما كان في الموضعين لمعنى غير الآخر. على أنّ لفظ ﴿وليّكم﴾ أتى به مفرداً و قد نسب إلى الّذين آمنوا و هو جمع، و قد وجّهه المفسّرون بكون الولاية ذات معنى واحد هو للّه سبحانه تعالى على الأصالة و لغيره بالتبع.

هذا و لايخفى أنّ كلمة الحصر تقتضي أن تكون الولاية بمعنى السلطة التامّة والقيام بالأُمور لاالمحبّة و النصرة و التصرّف و غيرها، بداهةَ أنّ هذه المعاني لاتنحصر فيه تعالى و في رسوله و في المؤمن الموصوف بأنّه يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة راكعاً، فتحقيق معنى الحصر يوجب القطع بأنّ المراد بالولاية إنّما هو ولاية الأمر و السلطة و أولويّة التصرّف.

و حيث قد تواترت الأخبار بأنّ المصلّي المتصدّق على السائل راكعاً كان أميرالمؤمنين عليه السلام، فهو القائم بأُمور المسلمين و الأولى بالتصرّف من أنفسهم بمقتضى هذه الآية، كما كان اللّه تعالى و رسوله كذلك.

إشكالات و ردود

و قد أُشكل في المقام بما لاينبغي أن يُشكل، و لابأس بالإشارة إلى بعض تلك التوهّمات و الجواب عنها:

منها: إنّ لفظ المولى مشترك بالاشتراك اللفظيّ بين معانٍ متعدّدة، فيحتاج في حمله على أحدها إلى القرينة. و السياق يقتضي أن يكون بمعنى الناصر و المحبّ لا الأولى بالتصرّف و القائم بالأُمور، و ذلك أنّ السياق ينافي كون الولاية بمعنى الأولى بالتصرّف حيث إنّ الآيات قبلها و بعدها تكون الولاية فيها بمعنى المحبّة و النصرة،

---

١ ـ التوبة ٩/٦١.

فوجب أن يحمل ما بينهما على النصرة أيضاً لتلاؤم أجزاء الكلام، قال تعالى قبل هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَاالَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ﴾[1] و قال فيما بعد هذه الآية ﴿وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2] والولاية في الموضعين تكون بمعنى المحبّة و النصرة بلاكلام و كذا فيما بينهما.

و فيه: أنّ هذه الآية مفصولة عن قوله تعالى ﴿لَاتَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ﴾ بآيات عديدة أجنبيّة، و لذا صدّر آية المقام مع الآية الّتي قبلها المتّصلة بها بخطاب مستقلّ فلا تصلح تلك الآية المفصولة بآيات عديدة للقرينة، و إليك الآيات من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِيٓ أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَ يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَايَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ * وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[3]

و أنت ترى أنّه انتقل في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ﴾ إلى تمام الآيتين إلى مطلب آخر مستقلّ بخطاب، فكيف تكون إرادة الأنصار من الأولياء في الآية الأُولى البعيدة موجبة لعدم إرادة الأولى بالتصرّف من المولى في هذه الآية ؟!

و لو سلّم أنّ الآيات كلّها مرتبط بعضها ببعض فلاينافي المطلوب؛ لأنّه المراد

---

١ ـ المائدة ٥/٥١. ٢ ـ المائدة ٥/٥٦.

٣ ـ المائده ٥/٥١ ـ ٥٦.

أيضاً بالأولياء في الآية الأُولى، و كذا في قوله تعالى ﴿وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾. بل هذه الآية ظاهرة في كون الولاية فيها ما تكون في آية المقام و هو القائمون بالأمور في الجملة، و لو بالنسبة إلى النصرة والمحافظة حيث إنّه لايبعد أن يكون الوليّ مشتركاً لفظيّاً موضوعاً للقائم بالأمر، أي الّذي له سلطان على المولّى عليه و لو في الجملة فيكون مشتقّاً من الولاية بمعنى السلطان، و منه وليُّ المرأة و الصبيّ و الرعيّة، أي القائم بأمورهم و له سلطان عليهم في الجملة.

و منه: الوليّ بمعنى الصديق و الناصر و المحبّ، فإنّ لكلّ واحد منهم سلطاناً على شقيقه في الجملة. و لو سلّم أنّ لفظ «الوليّ» مشترك لفظيّ بين المعاني المتعدّدة، فلاريب أنّ المناسب لإنزال اللّه تعالى الآيةَ في مقام التصدّق أن يكون المراد بالوليّ هو القائم بالأمور لاالناصر و المحبّ، ضرورةَ أنّ العاقل لايتصوّر أنّ إسراع اللّه سبحانه بذكر فضيلة التصدّق و اهتمامه في بيانها بهذا البيان العجيب لا يفيد إلّا مجرّد بيان أمر ضروريّ و هو نصرة عليّ عليه السلام أو محبّته للمؤمنين.

و لو سلّم أنّ المراد به الناصر فحصر الناصر باللّه و رسوله و عليّ عليه السلام لا يصحّ إلّا بلحاظ إحدى جهتين:

أولاهما: إنّ نصرتهم للمؤمنين مشتملة على القيام و التصرّف في أُمورهم، وحينئذٍ يرجع إلى المعنى المطلوب.

ثانيهما: أن تكون نصرة غيرهم كلا نصرة بمقتضى الحصر، و حينئذ يتمّ المطلوب أيضاً؛ إذ من لوازم الإمامة النصرة الكاملة للمؤمنين، و لا سيّما أنّ اللّه تعالى قد حكم بأنّها في قِران نُصرته.

و بالجملة؛ تكون الآية دالّة على انحصار الولاية بأيّ معنى فُسّرت باللّه ورسوله وعليّ عليه السلام و أنّ ولايتهم من سنخ واحد، فلابدّ و أن يكون عليّ عليه السلام ممتازاً على الناس جميعاً بما لايحيط به وصف الواصفين، فلايليق إلّا أن يكون إماماً

وقائداً لهم و نائباً منه تعالى عليهم جميعاً، مع أنّ قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ...﴾ ظاهرة في أنّ من يأتي بهم اللّه تعالى إنّما هم من أهل الولاية على الناس و القيام بأُمورهم، حيث إنّ هذه الأوصاف المذكورة لهم إنّما تناسب ذا الولاية و الحكم و الإمامة فيكون تعقيبها بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...﴾ دليلاً علي أنّ المراد بوليّ المؤمنين إمامهم القائم بأمورهم للارتباط بين الآيتين.

و من الإشكالات: إنّ قوله تعالى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صيغة جمع فلا تُصرَف إلى الواحد إلّا بدليل، و قول المفسّرين نزلت في عليّ عليه السلام، لا يقتضي الاختصاص، ودعوى انحصار الأوصاف فيه مبنيّة على جعل ﴿وَ هُمْ رَاكِعُونَ﴾ حالاً من ضمير ﴿يُؤْتُونَ﴾ و ليس بلازم بل يحتمل العطف، بمعنى أنّهم يركعون في صلاتهم لاكصلاة اليهود خالية من الركوع، أو بمعنى أنّهم خاضعون.

و فيه: أوّلاً أنّ التعبير بصيغة الجمع عن المفرد فى مقام التعظيم شائع، مع أنّه من البديهيّ وجود فرق بين إطلاق لفظ الجمع و إرادة الواحد و استعماله فيه و بين إعطاء حكم كلّي أو الإخبار بمعرّف جمعيّ في لفظ الجمع لينطبق على من يصحّ أن ينطبق عليه، ثمّ لايكون المصداق الّذي صحّ أن ينطبق عليه إلّا واحداً فرداً. و اللغة تأبى قبول الأوّل بلاقرينة دون الثاني مع شيوعه في الاستعمالات، لكن اقتضتها البلاغة، و يشهد لذلك قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1]، و انّما كان القائل نعيم بن مسعود وحده بإجماع المفسّرين و المحدّثين[2]، فعبّر اللّه تعالى عنه و هو مفرد بلفظ «الناس» و هي للجماعة تعظيماً لشأن الّذين لميصغوا إلى قوله. قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا

١ ـ آل عمران ٣/١٧٣.

٢ ـ مجمع البيان ١: ٥٤١؛ نعيم بن مسعود... الأشجعيّ، له صحبة، أسلم زمن الخندق و هو الّذي خذّل بين الأحزاب، و كان يسكن المدينة... و مات في خلافة عثمان... تهذيب الكمال ٢٩: ٤٩١ ـ ٤٩٣.

الّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّه عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [١] و انّما كان الّذي بسط يده إليهم رجل واحد من بني محارب يقال: له غورث [٢]، فعبّر تعالى عنه بلفظ «القوم» و هي للجماعة تعظيماً لنعمة اللّه و هي سلامة نبيّهم من عدوّه. و قال تعالى ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [٣] و القائل هو عبد اللّه بن أُبيّ [٤]. و قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً و عَلاَنِيَةً﴾ [٥] وقد أجمع المفسّرون على أنّ المراد بالمنفِق هو أميرالمؤمنين [٦] أو أبوبكر [٧]. و في آية المباهلة عبّر عن الحسنين بـ(أبنائنا) و عن فاطمة بـ(نسائنا) بلاخلاف بين المفسّرين [٨]. و بالجملة: التعبير عن المفرد بالجمع في اللغة و الآيات كثير، و هذا دليل على أنّ النكتة البيانيّة إذا اقتضت ذلك فإنّه يجوز بلاريب.

و قد ذكر الزمخشريّ في كشّافه أنّ الفائدة في هذا التعبير ترغيب الناس في مثل فعله فينالوا مثل نواله، و لينبّه على أنّ سجيّة المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ و الإحسان و تفقّد الفقراء، حتّى أنّ رفع حاجتهم أمر لايقبل التأخير وهم فيالصلاة لم يؤخّروه إلى الفراغ منها. [٩]

و لبعض الأجلّة التفاتة أُخرى في هذا التعبير، و هي أنّ إيمانه و جهاده و صبره وقيامه هو أكمل مراتب الايمان و الجهاد و الصبر، فهو يساوي جُلّ المؤمنين بـل أعلى و أنبل، و كما جعل النبيّ ﷺ إيمانه كلّ الايمان فقال: قد بَرَز الإيمانُ كلُّه إلى الشرك كلّه، فعبّر عنه بلفظ الجمع تنبيهاً على هذاالمعنى. [١٠]

---

١ ـ المائدة ٥/١١.

٢ ـ الدرّ المنثور ٢ : ٢٦٥.

٣ ـ المائدة ٥/٥٢.

٤ ـ مجمع البيان ٢ : ٢٠٦.

٥ ـ البقرة ٢/٢٧٤.

٦ ـ نفس المصدر ١ : ٣٨٨.

٧ ـ وقيل: نزلت في أبيبكر حين تصدّق بأربعين ألف دينار... الكشّاف ١:٣١٩.

٨ ـ مجمع البيان ١: ٤٥٢ ـ ٤٥٣ ؛ الكشّاف ١ : ٣٦٨.

٩ ـ الكشّاف ١ : ٦٤٩.

١٠ ـ دلائل الصدق ٢/٥٠.

و ذكر السيد المجاهد شرف الدين نكتة لطيفة لهذا التعبير، و حاصلها أنّه تعالى أتى بلفظ الجمع دون المفرد بُقْياً منه تعالى على كثير من الناس؛ حيث أنّ شانئي عليّ وحاسديه لايطيقون أن يسمعوها بصيغة المفرد إذ لايبقى لهم حينئذ مَطمَع في تمويه، و لا مُلتمَس في تضليل، فيكون منهم بسبب يأسهم ما يُخشىٰ على الإسلام، فجاءت الآية بصيغة الجمع مع كونها للمفرد اتّقاءَ شرّهم. ثمّ كانت النصوص بعدها تَتْرىٰ بعبارات مختلفة و مقامات متعددة و بثّ فيهم أمر الولاية تدريجاً، حتّى أكمل اللّه الدين و أتمّ النعمة جرياً منه ﷺ علىٰ عادة الحكماء في تبليغ النّاس ما يشقّ عليهم. و لو كانت الآية بعبارة مفرد لجعلوا أصابعهم في آذانهم و أصرّوا استكباراً. وهذه الحالة مُطَّرِدة في كلّ ما جاء في القرآن الحكيم من آيات فضل أميرالمؤمنين عليه السلام و أهل بيته الطّاهرين[١].

عَود إلى البحث

تحصّل أنّ المراد بـ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ إنّما هو مصداق مخصوص لا العنوان العامّ الشامل لكلّ مَن آتى الزكاة في حال الركوع، حيث إنّ الصّفة المأخوذة أُخذت معرّفة لا عنواناً يدور مداره الحكم بحيث يعمّ الحكم كلَّ مَن يتصدّق راكعاً، فلابدّ من تعريف المصداق المخصوص الّذي هو موضوع الحكم. و لم يُعرَف مَن فعل هذا في أخبار الطرفَين مع كثرتها و تواترها ـ كما تقدّمت الإشارة إليها ـ إلّا عليّ عليه السلام أميرالمؤمنين. مع أنّ كون جملة «وَ هُمْ رَاكِعُونَ» حالاً من ضمير «يُؤتُون» متعيّنة لوجهين:

الأوّل: بُعد الاحتمالَين المذكورَين، لاستلزام أوّلهما التأكيد المخالف للأصل؛ كأنّ لفظ الصلاة مغنٍ عن بيان أنّهم يركعون في صلاتهم لتبادر ذات الركوع منها، كما

---

١ ـ المراجعات ١٦٤ ـ ١٦٥.

أنّ المتبادر من الركوع ما هو المعروف، فالاحتمال الثاني أيضاً باطل.

الثاني : إنّ روايات النزول صريحة بالحالية و إرادة الركوع المعروف، ففي الدرّ المنثور للسيوطيّ عن ابن مردوية من حديث طويل قال في آخره: وخرج رسول‌الله ﷺ فقال : أعطاكَ أحدٌ شيئاً؟ قال : نعم، قال : مَن؟ قال: ذاك الرجل القائم، قال : على أيّ حال أعطاكه؟ قال : و هو راكع، قال: و ذاك عليّ بن أبي طالب... الخبر[1]. و في تفسير الرازيّ عن عبدالله بن سلام قال : لمّا نزلت هذه الآية قلت : يا رسول‌الله، أنا رأيت عليّاً تصدّق بخاتمه على محتاج و هو راكع، فنحن نتولّاه[2].

و الحاصل أنّ الأخبار صريحة في الحالية، و إرادة الركوع المعروف الدالّة على أنّ المراد تعيّن أميرالمؤمنين عليه السلام بهذه الأوصاف، كما لا ريب بإرادة المفسّرين اختصاص الآية بأميرالمؤمنين عليه السلام.

و منها : أنّ الحصر إنّما ينفي ما فيه تردّد. و لا نزاع و لا خفاء في أنّه لم يكن نزاع في إمامة الثلاثة عند نزول الآية. وفيه ـ مع النقض بالنسبة إلى ولاية الله و رسوله حيث لم يكن نزاع للمخاطبين في ذلك ـ أنّه لو سلّم اعتبار التردّد و النزاع، فإنّما هو في القصر الإضافيّ لا الحقيقيّ، ولو سلّم كفى النزاع في علم الله تعالى؛ فإنّه عالم بوقوع النزاع في إمامة الثلاثة في المستقبل.

و منها : أنّ ظاهر الآية ثبوت الولاية بالفعل، و لا شبهة في أنّ إمامة عليّ إنّما كانت بعد النّبيّ، و صرف الآية إلى ما يكون في المستقبل لا يستقيم في حقّه تعالى و رسوله.

و فيه : أنّ ولاية كلّ منهم بحسبه، فولاية الوصيّ في طول ولاية النبيّ ﷺ وبَعدها، فإذا دلّت الآية على ولاية أميرالمؤمنين و إمامته فقد دلّت على أنّها بعد

---

١ ـ الدرّ المنثور ٢ : ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

٢ ـ التفسير الكبير ١٢ : ٢٦.

الرسول صلى الله عليه وآله، مع أنّ الولاية له عليه السلام كانت ثابتة في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله برتبة ثانية فتجب طاعته وتمضى تصرّفاته، لكنّه كان ساكتاً غالباً كما هو شأن الإمام في حياة الإمام الّذي قبله كالحسن عليه السلام في زمان أبيه والحسين عليه السلام في زمن أخيه. ويشهد لذلك حديث المنزلة الدالّ على أنّ منزلة أميرالمؤمنين عليه السلام من النبيّ صلى الله عليه وآله كمنزلة هارون من موسى[١]. ومن البديهيّ ثبوت الولاية لهارون في زمن موسى عليه السلام؛ لأنّه شريكه ووزيره، فكذا عليّ له الولاية الفعليّة وإن سكت إذ لم يستثنِ إلّا النبوّة. ويشهد لذلك أيضاً حديث الغدير، ولذا قال له عمر: أصبحتَ وأمسيتَ مولى كلّ مؤمن ومؤمنة[٢].

ويشهد له أيضاً ما قال النبيّ صلى الله عليه وآله في حقّه حيث أصاب جارية فُوشِيَ به عند النبيّ صلى الله عليه وآله فقال صلى الله عليه وآله في حقّه: ما تريدون من عليّ؟! إنّ عليّاً منّي وأنا منه، وهو وليّ كلّ مؤمن بعدي[٣]، حيث يدلّ على أنّ تصرّفاته كانت مُمْضاة كتصرّفات النبيّ صلى الله عليه وآله لولايته، فالبَعديّة في هذه الرواية وأمثالها إنّما هي بلحاظ الرُّتبة لا الزمان. وقد خلا بعض ألفاظ الأحاديث من كلمة بَعدي[٤]، والحمد لله على ما أنعم.

آية التطهير

قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٥].
تدلّ الآية على إذهاب كلّ رجس عن أهل البيت، وهم الخمسة أو الأربعة: محمّد وعليّ وفاطمة والحسنان صلوات‌الله عليهم، حسب ما يأتي من الأخبار. و«الرجس» عبارة عن الذنوب وغيرها كما في الكشّاف[٦] وغيره.

وقد تصدّرت الآية بأداة الحصر، فأفادت أنّ إرادة الله تعالى في أمرهم مقصورة

---

١ ـ فرائد السمطين ١: ١٢٢.
٢ ـ نفس المصدر ١: ٦٥.
٣ ـ المناقب لابن المغازليّ ٢٢٤.
٤ ـ المستدرك على الصحيحين ٣: ١١١.
٥ ـ الأحزاب ٣٣/٣٣.
٦ ـ الكشّاف ٣: ٥٣٨.

على إذهاب الذنوب عنهم وتطهيرهم منها، وهذا كُنه العصمة وحقيقتها. وإذا ثبتت عصمتهم ـ وقد ادّعى أميرالمؤمنين لنفسه الإمامة[١] وادّعاها له الحسنان[٢] وفاطمة[٣] ـ ولا يكونون كاذبين كان الكذب من الرجس الّذي طهّرهم الله منه، فتدلّ الآية بالملازمة على خلافة أميرالمؤمنين عليه السلام.

ولا بأس بتوضيح المراد من الآية في خمسة أُمور:

الأوّل: الإرادة على قسمين: تكوينيّة وتشريعيّة، والأولى لا تتخلّف عن المراد ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٤]. والثانية لا تستلزم وقوع المراد في الخارج؛ لرجوعه إلى أمره تعالى عبادَه بالطاعة ونهيهم عن المعصية. ومن المعلوم أنّ مجرّد الأمر والنهي لا يستلزم تحقّق الامتثال، وإلّا لَأُجبِروا على الطاعة وترك المعصية.

ولا يجوز أن يراد من الإرادة في الآية التشريعيّة؛ لأنّه تعالى خلق الجنّ والإنس للطاعة والعبادة فلا وجه لاختصاص أهل البيت عليهم السلام به وحصر المراد في طاعتهم، فتعيّن أن يكون المراد بها هي التكوينيّة الّتي لا تتخلّف عن المراد.

الثاني: أنّ الرجس عبارة عن مطلق ما يُعدّ قذارة معنويّة أو غيرها، فالمعاصي بل الأخلاق الذميمة بل مطلق متابعة الهوى وما يرجع إلى الشيطان وما له مدخل فيه كلّه يكون رجساً.

قال الطبريّ في تفسيره: يقول الله تعالى: إنّما يريد الله لِيذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت محمّد، ويطهّركم من الدنس الّذي يكون في أهل معاصي الله تطهيراً[٥].

وقال ابن عطيّة: الرجس اسم يقع على الإثم، وعلى العذاب، وعلى النجاسات

---

١ ـ الاحتجاج ٧٣ ـ ٧٤.
٢ ـ نفس المصدر ٢٨٧ و ٢٩٢.
٣ ـ نفس المصدر ١٠٨ ـ ١٠٩.
٤ ـ يس ٣٦/٨٢.
٥ ـ تفسير الطبريّ ٢٢: ٥.

والنقائص، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت[١].

وقال الأزهريّ: الرجس اسم لكلّ ما استُقذِر من عمل[٢].

وقد أُطلق الرجس على العمل المستقذر والشيء المستقذر في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ﴾[٣]، كما أُطلق على أثر العمل السيّئ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[٤]، و﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٥].

الثالث: أنّ إذهاب الرجس والتطهير منه على قسمين، أحدهما: إذهابه بعد ثبوته بسبب الإتيان بما يزيله، كتطهير الأعيان المتنجّسة بالماء، وتطهير المذنب نفسَه من رجس الذنوب بالتوبة.

ثانيهما: إذهابه عن المحلّ بدفعه عنه بسبب قوّة ملكوتية دافعة عنه مانعة من عروضه على المحلّ. والتعبير بإذهاب الرجس حينئذ مثل قولك: «ضيّقَ فمَ الركيّة» أو قول النحاة: المبتدأ اسم مجرّد عن العوامل[٦]، حيث إنّ المحلّ في نفسه كان صالحاً لعروضه عليه، وإنّما حصل الدفع بسببٍ خارج عن ذاته.

وحيث إنّ الرجس معرّف بلام الجنس فإنّه يفيد العموم، مع أنّه وقع عقيب ما في معنى السلب، ووقوعه هكذا ـ وهو في حكم النكرة ـ يفيد العموم بلا كلام؛ مع أنّ قوله تعالى ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ يفيد العموم قطعاً، بداهةَ عدم حصول التطهير برفع بعض الأقذار، وإنّما يتحقّق برفع جميعها ودفعها عن المحلّ. ومقتضى الحصر ـ أي حصر الإرادة في إذهاب الرجس، وحصر إذهاب الرجس في أهل البيت ـ أنّه تعالى خصّهم بهذا التطهير الّذي يكون عبارة عن العصمة، فهم منزّهون عن كلّ رجس وقَذَر، ذنباً كان أو غيره، وإذاً فهم معصومون بصريح الآية.

---

١ ـ المحرّر الوجيز ٤: ٣٨٤.
٢ ـ تهذيب اللغة ١٠: ٥٨٠.
٣ ـ المائدة ٥/٩٠.
٤ ـ التوبة ٩/١٢٥.
٥ ـ الأنعام ٦/١٢٥.
٦ ـ البهجة المرضيّة ٨٠.

ولا شبهة في أنّه عليه السلام وزوجته وابنَيه الّذين هم أهل البيت المقصود بالآية قد ادّعَوا الإمامة لعليّ، و هم لا يمكن أن يكونوا كاذبين؛ لأنّ الكذب هو من الرجس الّذي أذهبه الله عنهم وطهّرهم منه تطهيراً. مضافاً إلى أنّه لا يُعقل أن يكون من يتطرّق إليه الإثم والزلل مرجعاً وملاذاً وإماماً مفترض الطاعة لمن عصمه الله من الرجس والزلل وطهّره تطهيراً، والقول بجواز إمامة غير الطاهر للطاهر مخالفة لضرورة العقل. كما لا يمكن أن يقال: إنّ المعصوم حينئذ إمام لنفسه ولا يكون مأموماً للغير ولا إماماً له، بداهةَ أنّ الشخص لا يخلو من كونه مطاعاً أو مطيعاً، وخلوّه منهما مستلزم للفساد، والخصم لا يلتزم به أيضاً.

الرابع: المراد من أهل البيت المخاطَبين مِن قِبله تعالى هم محمّد وعليّ وفاطمة والحسنان، وذلك لتصريح الأخبار من الشيعة والسنّة في ذلك. أمّا من طرق الشيعة فعن عليّ عليه السلام والسجّاد والباقر والصادق والرضا عليهم السلام وأُمّ سلَمة وأبي ذرّ وأبي ليلى وأبي الأسود الدؤلي وغيرهم في بضع وثلاثين طريقاً. ومن طرق السنّة عن عائشة وأُمّ سلمة وأبي سعيد الخدريّ وواثلة بن الأسقع وابن عبّاس وغيرهم في قريب من أربعين طريقاً، ذكر ذلك كلّه في غاية المرام[1].

وفي كثير منها أنّ النبيّ الكريم دعا بقوله: اللّهمّ إنّ هؤلاء أهل بيتي فأذهِبْ عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وأخذ بكساء يمانيّ وجعلهم تحته، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقد تكرّرت منه صلى الله عليه وآله قضية الكساء حتّى احتمل بعضهم تكرار نزول الآية، والصواب أنّها نزلت مرّة واحدة لكن حكمة الصادق الأمين في نصحه ببلاغه المبين اقتضت تكرّر تلك القضية مرّة في بيت أُمّ سلمة[2] عند نزول الآية وتبليغها لأهلها المخاطبين فيها، وأُخرى في بيت فاطمة[3]. وفي كلّ مرّة يتلو عليهم الآية وهم في معزل عن الناس تحت ذلك الكساء، رفعاً للشبهة من قلوب بعضهم. وقد

---

١ ـ غاية المرام ٢٨٧ ـ ٣٠٠.

٢ ـ تفسير الطبريّ ٢٢ : ٨.

٣ ـ نور الأبصار ٢٢٦.

بلغ ﷺ في توضيح اختصاص الآية كلّ مبلغ، وسلك في إعلان ذلك مسلكاً ينقطع معه طمع كلّ طامع، حتّى كان بعد نزول الآية كلّما خرج إلى صلاة الفجر يمرّ على بيت فاطمة فيقول: الصلاةَ يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. وقد استمرّ على هذا ستّة أشهر على رواية أنس[١]، وتسعة أشهر على رواية ابن عبّاس[٢]؛ كلّ ذلك دفعاً للشبهة وقطعاً للمعاذير.

تشكيك وردود

ولكن مع ذلك كلّه ذهب جماعة من أعداء أهل البيت ودعاة الخوارج إلى صرف الآية عن أهلها.

فقال بعضهم: إنّها خاصّة بنساء النبيّ ﷺ! وتشبّثوا في ذلك بسياق الآية وبالغ عكرمة ومقاتل في الانتصار لهذا الرأي والاستدلال بالسياق عليه، فكان عكرمة ينادي به في الأسواق تحاملاً على أصحاب الكساء، كما نقل ذلك الواحديّ في أسباب النزول[٣] وابن حجر في الصواعق المحرقة[٤]. وأشار في الإصرار على غيّه إلىٰ أنّه يباهل الناس في ذلك. ونفس هذا الإصرار كاشف عن اشتهار الاختصاص بالخمسة كما لا يخفى، ولا عجب فإنّ عكرمة من الدعاة إلى عداوة عليّ عليه السلام ومن السُّعاة إلى تضليل الناس عنه بكلّ طريق، وكان من الخوارج ويعتقد كفر مَن عداهم مِن أهل القبلة، كما صرّح بكفريّاته وخزعبلاته في ميزان الاعتدال وغيره[٥]. وكذلك فعلَ مقاتل بن سليمان الذي كان من الخوارج ودأبه صرف الفضائل عن عليّ عليه السلام حتّى افتضح بذلك، وكان كذّاباً جسوراً يأخذ من اليهود والنصارىٰ علم القرآن الّذي

١ ـ كنزالعمّال ١٣: ٦٤٦.
٢ ـ الدرّ المنثور ٥: ١٩٩.
٣ ـ أسباب النزول ٢٤٠.
٤ ـ الصواعق المحرقة ١٤٣.
٥ ـ عِكْرِمة مولى ابن عباس، ... تكلّم فيه لرأيه لا لحفظه فاتّهم برأي الخوارج... مات سنة خمس ومائة... ميزان الاعتدال ٣: ٩٣ ـ ٩٧؛ تهذيب الكمال ٢٠: ٢٦٤ ـ ٢٩٢.

يوافق كتبهم، ذكر ذلك كلّه ابن خلّكان في الوفيات[١].

وأمّا تمسّكهم بوقوع الآية في سياق خطاب النساء فزعم باطل وتشويه محض، ولنا في ردّه وجوه:

الأوّل: أنّه اجتهاد في مقابل النصّ الصريح والأحاديث المتواترة الّتي مرّت الإشارة إليها إجمالاً.

الثاني: أنّها لو كانت خاصّة بالنساء كما يزعم هؤلاء لكان الخطاب في الآية بما يصلح للإناث، والإتيان بضمير المخاطَبين فيها دون غيرها من آيات النساء كافٍ في ردّ شبهتهم.

الثالث: أنّ الكلام البليغ ربّما يدخله الاستطراد والاعتراض، وهو تخلّل الجملة الأجنبيّة بين الكلام المتناسق، كقوله تعالى في حكاية خطاب عزيز مصر لزوجته إذ يقول لها ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَ اسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ﴾[٢]؛ فقوله تعالى ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا﴾ مستطرَد بين خطابَيه لهما. وقال تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[٣]، وتقديره: فلا أُقسم بمواقع النجوم إنّه لقرآن كريم، وما بينهما استطراد، وهذا كثير في الكتاب واللغة الفصحى.

وآية التطهير من هذا القبيل جاءت مستطردة بين آيات النساء ليبيّن بسبب استطرادها أنّ خطاب الله لهنّ بتلك الأوامر والنواهي والآداب لم يكن إلّا لعناية الله تعالى بأهل البيت، وهم الخمسة عليهم صلوات الله؛ لئلّا ينالهم من جهة النساء لوم، أو ينسب إليهم بواسطتهنّ شين، أو يكون عليهم للمنافقين بسببهنّ سبيل، ولولا هذا الاستطراد لما حصلت هذه النكتة الشريفة الّتي عَظُمت بها بلاغة الذكر الكريم.

---

١ ـ أبوالحسن مقاتل بن سليمان... كان مشهوراً بتفسير كتاب الله العزيز... و قد اختلف العلماء في أمره... و منهم من نسبه إلى الكذب... و توفّي سنة خمسين و مائة بالبصرة...، وفيات الأعيان ٥: ٢٥٥ ـ ٢٥٧.

٢ ـ يوسف ١٢/٢٨ ـ ٢٩.

٣ ـ الواقعة ٥٦/٧٥ ـ ٧٧.

الرابع : أنّ القرآن لم يُرتّب عند جمعه على حسب ترتيبه في النزول، بإجماع المسلمين. وعلى هذا فالسياق لا يكافئ الأدلّة عند تعارضهما؛ لعدم الوثوق معها بنزول الآية في ذلك السياق، ولذا كان الواجب في مقامنا هذا ترك ظهور السياق، لو سلّم ظهوره فيما ادّعى، والتسليم إلى حكم ما سمعته من الأدلّة القاطعة و الحجج الساطعة. وحمل الآية على خلاف السياق غير منافٍ للبلاغة ولا مخلّ بالإعجاز، فكيف يختصّ أو يشمل أهلُ البيت النساءَ، وقد جعلهم النبيّ ﷺ عِدلاً للقرآن وقرنهم بالكتاب الحكيم الّذي لا يأتيه الباطل من بين يدَيه ولا من خلفه بقوله ﷺ : إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا: كتابَ الله، وعترتي أهل بيتي[١]. ومن الضرورة أنّ كثيراً من نسائه لم تكن فيها الأهليّة لذلك، وكيف تختصّ بالنساء أو تشمله ولو مُجتمِعات مع كونهنّ غير مطهّرات من الرجس، حتّى لو أُريد به الشرك وكبائر الذنوب؛ لتقدّم الشرك منهنّ وحدوث الكبائر من بعضهنّ، كعائشة فإنّها خرجت على إمام زمانها[٢] الّذي قال فيه رسول‌الله ﷺ : حربك حربي[٣]. وخالفت أمر الله بقرارها في بيتها، وتظاهرت مع صاحبتها على رسول‌الله وكذبتا عليه، فأنزل الله فيه قرآناً مبيناً لعظيم مكرهما، وضرب لهما المثل بامرأتَي نوح ولوط[٤].

هذا مع أنّ إرادة الأزواج مخالفة للأخبار المتواترة المشتملة على الصحيح عندهم، الدالّة على نزول الآية في خصوص أمير المؤمنين وفاطمة والحسنين، وبعضها نصّ بخروج الأزواج كما في الخبر الّذي رواه مسلم في باب فضائل أهل البيت عن عائشة، قالت : خرج النبيّ غداةً وعليه مِرْط مُرحَّل من شَعر أسود، فجاء الحسنُ بن عليّ فأدخله، ثمّ جاء الحسين فدخل معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمّ جاء عليّ فأدخله، ثمّ قال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

---

١ ـ الصواعق المحرقة ١٤٥.
٢ ـ الكامل في التاريخ ٢ : ٣١٢.
٣ ـ المناقب لابن المغازليّ ٥٠.
٤ ـ التحريم ٦٦/١٠.

تَطْهِيراً﴾[١].

وفيما رواه الحاكم عن أُمّ سلمة قالت: في بيتي نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، فأرسل رسول‌الله ﷺ إلى عليّ وفاطمة والحسن والحسين فقال: هؤلاء أهل بيتي[٢]. إلى غير ذلك ممّا رواه الحاكم وغيره عن واثلة، وأبي سعيد الخدريّ، وعبدالله بن جعفر، وعمر بن أبي‌سلمة وغيرهم، من الأخبار الدالّة على نزول الآية الكريمة في الخمسة الأطهار عليهم السلام أو في الأربعة[٣]، فلا تشمل الأزواج قطعاً، بل المستفاد من هذه الأخبار أنّ المراد من أهل البيت عند الإطلاق هو خصوص الخمسة عليهم السلام أو الأربعة فضلاً عن نزول الآية بهم، فلاتدخل الأزواج فيهم بأيّ حال، إلّا أن يراد بقرينة بيت السُّكنى فتدخل الإماء أيضاً.

ويدلّ على خروج الأزواج من مسمّى أهل البيت ـ فضلاً عن اختصاص الآية بهنّ ـ ما رواه أحمد عن أُمّ سلمة، قالت: بينا رسول‌الله في بيتي يوماً إذ قالت الخادم: إنّ عليّاً وفاطمة بالسدّة، فقال لي: قومِي فتنحَّي عن أهل بيتي، قالت: فقمت وتنحّيت... فوضعهما في حِجره... الخبر[٤].

وأضعف من القول باختصاص أهل البيت بالأزواج أو شموله لهنّ: دعوى شمول أهل البيت لأقارب النبيّ مطلقاً؛ لأنّه مضافاً إلى أنّه مخالف للأخبار الدالّة على اختصاص أهل البيت بالخمسة أو الأربعة أنّ غيرهم من أقاربه غير مطهّرين من الرجس قطعاً، كما هو واضح.

وإذا ظهر لك ما ذكرنا فلا مجال للإصغاء إلى ما ورد من الخبر الشاذّ المردود من جهة سنده أو دلالته الدالّ على أن الآية نزلت في نساء النبيّ ﷺ أو أقاربه أو الجمع، لأنّ تلك الشواذّ من الأخبار مع كونها ضِعافاً في نفسها مخالفةٌ للصحاح

---

١ ـ صحيح مسلم ٧: ١٣٠.

٢ ـ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٤٦.

٣ ـ المناقب لابن المغازليّ ٣٠١ ـ ٣٠٧؛ الدرّ المنثور ٥: ١٩٨ ـ ١٩٩.

٤ ـ مسند أحمد بن حنبل ٦: ٢٩٦.

من الأخبار المسلّمة عند الطرفين.

فاتّضح بما ذكر كلّه دلالة الآية الكريمة على عصمتهم من جميع الذنوب؛ لإطلاق الرجس وإفادته العموم، إضافةً إلىٰ أنّ النبيّ ﷺ قال: أنا و أهل بيتي مطهّرون من الذنوب[١]. فإنّ الذنوب جمعٌ مُحلّىٰ باللام يفيد العموم بلا كلام، مضافاً إلى أنّ الآية تدلّ على مدحهم وعناية الله تعالى بهم، و لا يحسن أن ينزل الله قرآنا يُتلىٰ إلى الأبد و فيه طهارتهم من كلّ ذنب لا من خصائص الشرك أو كبائر الذنوب ـ خاصة أنّه ممّا يشاركهم فيه كثير من المؤمنين ـ فكيف يخصّهم بالثناء و يأتي بما يفيد الحصر؟!

وإذ ثبت نزول الآية في الخمسة عليهم السلام أو الأربعة ودلّت على عصمتهم من الذنوب مطلقاً ثبتت إمامة أمير المؤمنين عليه السلام دون مَن تقدّمه؛ لِما سبق من أنّ العصمة شرط الإمامة، وغير عليّ عليه السلام لم يكن بمعصوم إجماعاً وضرورة، و لأنّ أمير المؤمنين و زوجته و ابنَيه ادّعوا الإمامة له و أنّها حقّه و إن لم يتمكّن مِن حرب مَن تقدّم عليه فيكون صادقاً؛ لأنّ الكذب و لا سيّما في هذا المقام من أقبح الأرجاس. ودعوى عدم ادّعائه الإمامة مكابرة للوجدان، كيف وقد تأخّر عن بيعتهم إلى أن قهروه عليها[٢]، و بقي متظلّماً منهم مدّة حياته، وقد جرّد الزبيرُ[٣] سيفه[٤] و أشار أصحابه الخواصّ إظهاراً لحقّه و دفاعاً عن حريم قدسه و جلالته[٥].

الخامس: ربّما قيل بأنّ الآية الكريمة تدلّ على عصمتهم حال نزولها لا قَبله؛ لأنّه تعالى أخبر عن إرادته في الحال وعبّر بصيغة المضارع الّتي هي للحال أو الاستقبال، فلا تدلّ على عصمتهم من حين تولّدهم كما يدّعيه الإمامية، خصوصاً

---

١ ـ كشف الغمّة ١ : ١٣.

٢ ـ الإمامة و السياسة ١ : ١٢ ـ ١٦.

٣ ـ الزبير بن العوّام... صاحب رسول‌الله... شهد بدراً و المشاهد كلّها... و كان قتله يوم الجمل في جمادى الأُولى سنة ستّ و ثلاثين...، تهذيب الكمال ٩ : ٣١٩ ـ ٣٢٩.

٤ ـ الإمامة و السياسة ١ : ١١.

٥ ـ الاحتجاج ٧٥.

مع التعبير بالتطهير و إذهاب الرجس المتوقّف على ثبوته في المحلّ.

و لكن هذا التوهّم ضعيف جدّاً، ذلك أنّ دلالة المضارع على الحال في مثل هذا المقام ممنوع، حيث إنّه قد ثبت في محلّه أنّ الفعل لا يتقوّم باقترانه بأحد الأزمنة وضعاً[١] كما اشتهر بين المتأخّرين من أهل الأدب، بل الفعل يتقوّم بإنبائه عن حركة المسمّى كما أفاد أميرالمؤمنين[٢] و الفرق بين أنواعه إنّما يكون باختلاف أنحاء الإسناد[٣]؛ فإنّ صيغة الماضي وضعت لإفادة تحقّق المبدأ من الذات، كما أنّ صيغة المضارع لإفادة اتّصاف الذات بالمبدأ كما تشهد به موارد الاستعمال. و استفادة الزمان الخاصّ في الماضي و الحال أو الاستقبال من المضارع إذا استفيد منها إنّما يكون للانصراف و القرائن لا بالوضع. و لا انصراف للمضارع في مثل المقام إلى الحال، بداهةَ أنّه إذا استعمل في مقام المدح أو الذمّ أو الشكر و نحوه إنّما يفيد الاستمرار في الاتّصاف، فإنّ قوله تعالى ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٤] ليس بناظر إلى أنّه يستهزئ بهم في الحال أو الاستقبال، و أنّه لم يستهزئ بهم في الماضي مثلاً بل يفيد أنّه يتّصف بالاستهزاء بهم، لأجل نفاقهم و استهزائهم برسوله.

وهكذا في المقام حيث إنّه تعالى في مقام تنزيه أهل البيت عن الرجس، فقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ناظر إلى أنّه تعالى يتّصف بإرادته تنزيهَ أهل البيت و أنّه يستمرّ في هذا الاتّصاف. و لا نظر في الكلام إلى أنّه يتّصف به في الحال أو الاستقبال، بل إنّ إظهار ضمير المخاطب بقوله ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ تنبيه على أنّه تعالى إنّما يريد إذهاب الرجس عنهم لكونهم أهل بيت الرسول. وهذه الخصوصيّة كانت ثابتة لهم في الماضي و الحال و الاستقبال، فلا مجال للتفكيك بين الأزمنة و القول بتعلّق الإرادة بالتنزيه في الحال دون غيره.

---

١ ـ كفاية الاُصول ٤٠ ـ ٤١.
٢ ـ المناقب لابن شهر آشوب ٢ : ٤٧.
٣ ـ كفاية الاُصول ٤١.
٤ ـ البقرة ٢/ ١٥.

هذا، وإذا لاحظتَ الأخبار الواردة في مورد الآية تجدها شاهد صدق لما قلنا، ففي غاية المرام بإسناده عن ابن عبّاس قال: قال رسول‌الله ﷺ: قَسَم اللهُ الخلقَ قسمَين، فجعلني في خيرها قِسماً، فذلك قوله تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾[١]، فأنا خير أصحاب اليمين. ثمّ جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني في خيرها قسماً، فذلك قوله تعالى ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾[٢] ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾[٣] وأنا من السابقين وأنا من خير السابقين. ثمّ جعل الأثلاث قبائل فجعلني من خيرها قبيلة، ثمّ جعل القبائل بيوتاً، فجعلني من خيرها بيتاً، فذلك قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٤]؛ فإنّ دلالة الخبر على أنّ أهل البيت كانوا من أفضل السابقين وأنّ الله قد اصطفاهم واختارهم وطهّرهم من الرجس حين خلقهم ممّا هو غير خفيّ. وكذا ما ورد من أنّهم المَعنيّون بالكلمات الّتي قُبلت بها توبة آدم لمّا تلقاها[٥]، وأنّه لولاهم ما خلق الله آدم ومَن دونه[٦]، إذ لا يُعقل ثبوت هذه المنزلة لهم مع عدم عصمتهم من أوّل الأمر. ولا ينافي ما ذكرناه ما ورد عنه ﷺ أنّه قال: اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهِبْ عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً[٧]، فإنّه تنبيه منه ﷺ على أنّ الإبقاء على الموهبة بعد الموهبة نعمة أُخرى تحتاج إلى دعاء وطلب منه تعالى.

آية المباهلة

قال تعالى ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا

---

١ ـ الواقعة ٥٦/٢٧.

٢ ـ الواقعة ٥٦/٨.

٣ ـ الواقعة ٥٦/١٠.

٤ ـ غاية المرام ٢٨٩.

٥ ـ مجمع البيان ١: ٨٩.

٦ ـ معاني الأخبار ١٢٤؛ عيون أخبار الرضا عليه‌السلام ١: ٣٠٧.

٧ ـ الدرالمنثور ٥: ١٩٨.

وَ أَبْنَآءَكُمْ وَ نِسَآءَنَا وَ نِسَآءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1].

في غاية المرام عن الشيخ المفيد في الاختصاص بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام قال عليه السلام: اجتمعت الأُمّة بَرّها و فاجرها أنّ حديث النَّجرانيّ حين دعاه النبيّ صلى الله عليه وآله إلى المباهلة، لم يكن في الكساء إلّا النبيّ صلى الله عليه وآله وعليّ، وفاطمة و الحسن، و الحسين عليهم السلام... الخبر[2].

وعن طريق السنّة روي نزول الآية فيهم بأسانيد صحيحة عندهم[3]، و أنّ معاوية قال لسعد: ما منعك أن تسبّ أباتراب؟ فقال: أما ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله: فلن أسبّه، لَأنْ يكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حُمْر النَّعَم، سمعت رسول‌الله صلى الله عليه وآله يقول له و قد خلّفه في بعض مغازيه فقال له عليّ عليه السلام: يا رسول الله، خلّفتَني مع النساء و الصبيان؟! فقال له رسول‌الله صلى الله عليه وآله: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي. وسمعته يقول يوم خيبر: لأُعطيَنَّ الرايةَ رجلاً يحبّ الله و رسوله و يحبّه الله و رسوله. قال: فتطاوَلْنا لها، فقال: أُدعوا لي عليّاً، فأُتي به أرمدَ، فبصق في عينه، و دفع الراية إليه، ففتح الله عليه، ولمّا نزلت هذه الآية ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ دعا رسول الله عليّاً وفاطمة وحَسَناً وحُسَيناً وقال: اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي[4]. ومقتضى هذه الأخبار انحصار أصحاب الكساء في الخمسة الطيّبة، وعليه الأُمّة جمعاء.

ولا ينافي ذلك التعبير بصيغة الجمع في كلّ من الفقرات، مع عدم تعدّد النساء و الأنفس؛ لأنّ التعبير بالجمع في مقام التعظيم شائع. و في المقام، مضافاً إلى ذلك، إنّما هو تبيين أنّ كلّاً من المتباهلين ينبغي أن يدعو خواصّ أهله من الابن و الزوجة

---

١ ـ آل‌عمران ٣/٦١.

٢ ـ غاية المرام ٣٠٤؛ الاختصاص ٥٦.

٣ ـ مسند أحمد بن حنبل ١: ١٨٥؛ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥٠.

٤ ـ صحيح مسلم ٧: ١٢٠ ـ ١٢١؛ سنن الترمذيّ ٥: ٦٣٨.

والنفس سواء تعدّد أفراد كلّ صنف أم لا، فإحضاره من الأبناء الحسنَين، ومن النساء فاطمة، ومن الأنفس عليّاً يكشف عن أنّهم أخصّ أهل بيته، ولم يكن فيهم مَن يدانيهم في الفضل حتّى يدعوه معهم، فالآية دالّة على أنّ الّذين اختارهم الرسول للمباهلة بأمر الله وجعلهم تحت الكساء كانوا أحبّ الخلق إليه وأقربهم إلى الله ورسوله. كما أنّها تدلّ على أنّ أميرالمؤمنين من بينهم أخصّ وأقرب، حيث جُعل بمنزلة نفس الرسول ﷺ، إذ لا مجال لدخوله في غير ﴿أنفسنا﴾. ولا ينافي ذلك تأخيره في الذكر عن ﴿أبنائنا﴾ و﴿نسائنا﴾؛ لأنّ الترقّي إنّما كان من الخاصّ إلى الأخصّ ومن العالي إلى الأعلى، مع أنّه لو قدّم لتوهّم كونه تأكيداً للضمير فيفوت المطلوب حينئذ.

كما أنّه لا مجال لتأويل ﴿أَنْفُسَنَا﴾ بغير عليّ عليه السلام، إذ الّذين دعاهم النبيّ ﷺ للمباهلة باتّفاق الأُمّة لم يكونوا إلّا أربعة، وتأويله بنفس الرسول غير جائز إذ يلزم منه أن لا يكون ذِكر لعليّ عليه السلام مع دخوله في المدعوّين بلا كلام، ويلزم اتّحاد الداعي والمدعوّ، وبطلانه واضح، ويلزم زيادة قوله تعالى ﴿وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وعدم الحاجة إليه لدخوله في قوله تعالى ﴿نَدْعُ﴾ كما لا يخفى.

وبالجملة: استغاثة النبيّ ﷺ بهم في الدعاء بأمره تعالى مع وجود ذوي السنّ من أقاربه وأصحابه الذين هم أسنّ من فاطمة والحَسنَين لَأعظم دليل على امتيازهم بالشرف وتميّزهم بالمعرفة والفضل، ولذا قال ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ﴾ فجعل الحسنين ممّن تشمله اللعنة لو كان من الكاذبين، وأشركهما في تحقيق دعوة الإسلام وتأييد دين الله فكانا شريكي رسول الله. وعليّ وفاطمة في ذلك ممتازان على الأُمّة كما امتاز عيسى وهو صبيّ على غيره، وكيف كان فقد ظهر أنّ الآية تدلّ على أنّ منزلة عليّ منزلة نفس النبيّ ﷺ، كما صرّح بذلك النبيّ ﷺ فيما رواه الفريقان: لمّا افتتح رسول الله ﷺ مكّة انصرف إلى الطائف فحاصرها تسع عشرة أو ثمان عشرة فلم يفتحها، ثمّ ارتحل روحة أو غدوة فنزل ثمّ

هَجّر، ثمّ قال: أيّها النّاس، إنّي فَرَط لكم وأُوصيكم بعترتي خيراً، وإنّ موعدكم الحوض. والّذي نفسي بيده، لَتقيمُنَّ الصلاة ولَتؤتُنَّ الزكاة أو لأبعثَنَّ إليكم رجلاً منّي ـ أو لنفسي ـ فليضربَنّ أعناق مقاتلهم وليَسْبِيَنَّ ذراريهم، فرأى الناس أنّه أبوبكر أو عمر، فأخذ بيد عليّ فقال: هذا[١]. وعن أنس قال رسول‌الله: ما من نبيّ إلّا وله نظير في أُمّته، وعليّ نظيري[٢].

وإذا اتّضح أنّ منزلة عليّ بمنزلة الرسول صلى الله عليه وآله اتّضح لك اختصاص الخلافة والإمامة به، ضرورةَ أنّ خلافة شخص لشخص آخر عبارة عن شِركته في منزلته، وقيامه مقامه، وصيرورته بمنزلة نفسه، ولا حقيقة للخلافة إلّا ذلك. وبعد ثبوت هذه المنزلة لعليّ ـ بمقتضى الآية الشريفة ـ لا معنى لسلب الخلافة عنه، ويكون سلبها عنه مناقضة ظاهرة، وما ورد من التصريح بخلافته تأكيد وإرشاد إلى ثبوت هذه المنزلة.

وبتقرير آخر: أنّ مقتضى الآية مساواة أميرالمؤمنين للنبيّ صلى الله عليه وآله في الخصائص والكمال الذاتيّ عدا خصيصة النبوة، فإنّ ما كان للنبيّ صلى الله عليه وآله من الخصائص كان له غير النبوّة، كما هو مفاد قوله صلى الله عليه وآله فيما روى في كنزالعمّال في فضائل عليّ عليه السلام عن ابن جرير أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام: ما سألتُ الله لي شيئاً إلّا سألتُ لك مثله، ولا سألت الله شيئاً إلّا أعطانيه، غير أنّه قيل لي: لا نبيّ بعدك[٣]، وقوله: إنّ عليّاً منّي وأنا منه[٤]. وإذا كان مساوياً للنبيّ صلى الله عليه وآله في خصائصه عدا النبوّة فإنّه يستوجب أن يكون مثله صلى الله عليه وآله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأفضل من غيره من جميع الجهات، وأن تمتنع صيرورته رعيّة ومأموراً لغيره كما امتنع ذلك في حقّ النبيّ صلى الله عليه وآله، بل يكفي في الدلالة على خلافته مجرّد دلالتها على أفضليّته على جميع الأُمّة.

ثمّ إنّه إذا دلّت الآية على أفضليّة عليّ عليه السلام ومساواته للنبيّ صلى الله عليه وآله، وأنّ منزلته

---

١ ـ كنز العمّال ١٣: ١٦٤.

٢ ـ إحقاق الحقّ ٦: ٤٦٠ نقلاً عن أرجح المطالب.

٣ ـ كنز العمّال ١٣: ١٧٠.

٤ ـ مرّ ذكره سابقاً.

منزلته و أنّه خليفته و القائم مقامه، فلا يبقى مجال لتوهّم عدم دلالة الآية على عدم اختصاص الخلافة به، و أنّه يمكن لغيره أيضاً أن يكون بمنزلة نفس الرسول و أنّه خليفته منه ﷺ أيضاً؛ و ذلك لأنّ ثبوت الخلافة له عليه السلام بنصّ الآية الكريمة مانع عن ثبوتها لغيره بالبيعة و نحوها، بداهةَ عدم وجود مجال للبيعة و الشورى مع النصّ. و لو كانت منزلة غيره عليه السلام منزلة الرسول لأدخله تحت الكساء و لجعله من المتباهلين، فعدم دعوته و عدم إدخاله تحت الكساء كاشف قطعيّ عن عدم صلاحيّته و عدم ثبوت هذه المنزلة له.

و العجب أنّ نصارىٰ نجران قد فهموا أنّ الأربعة محلّ عناية خاصّة من قبل اللّه و النبيّ ﷺ دون زوجاته و أصحابه و غيرهم من أقاربه و أهل بيتِ سُكناه، و أنّ الأربعة محلّ الخطر و العظمة و الشرف، فقال الأُسقف : إنّي لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها[1]، و من يدّعي الإسلام ثمّ يستطيع أن ينكر ذلك و يصرف الفضيلة إلى غير الأربعة، أو يشارك غيرهم فيها؟!

آية الإطاعة

قال تعالى ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَ الرَّسُولِ﴾[2].

لا ينبغي أن يُشكّ في أنّ مضمون الآية أساس جمع الشرائع و الأحكام الإلهيّة، و أنّه سبحانه و تعالى لا يريد بإطاعته إلّا إطاعته فيما يوجبه علينا من طريق رسوله من المعارف و الشرائع.

أمّا الرسول فله حيثيّتان :

١ ـ الكشّاف ١ : ٣٦٨ ـ ٣٦٩؛ التفسير الكبير ٨ : ٨٥.

٢ ـ النساء ٤/٥٩ .

إحداهما: حيثيّة التشريع بما يوحي إليه ربّه ويبيّنه النبيُّ ﷺ للناس ﴿وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1].

الثانية: ما يراه من الرأي المُصيب وهو الّذي يرتبط بحكومته بين الناس والقضاء لهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللهُ﴾[2].

إذا ظهر لك ما ذكرنا اتّضح الفرق بين إطاعة الله تعالى وبين إطاعة رسوله، وإن كانت إطاعة الرسول إطاعة له تعالى حقيقة؛ لأنّه تعالى هو المشرّع لوجوب إطاعته، وعلى الناس أن يطيعوه فيما يبيّنه لهم بالوحي وفيما يحكم بينهم، وهذا هو الموجب لتكرار الأمر بالطاعة في قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لا أن يكون التكرار للتأكيد كما ذكره بعض المفسّرين؛ بداهةَ أنّه لو قيل أطيعوا الله والرسول لكان أدلّ عليه، ويفيد بأنّ إطاعة الرسول عين إطاعة الله وأنّ الإطاعتين واحدة.

وأمّا ﴿أُولِى الْأَمْرِ﴾ فهم كائنين مَن كانوا ـ وسيأتي إنشاء الله المراد بهم ـ لا نصيب لهم من الوحي، وإنّما شأنهم الرأي الّذي يستصوبونه، فلهم افتراض الطاعة نظير ما للرسول في رأيهم وقولهم، ولذلك لمّا ذكر وجوب الردّ والتسليم عند المشاجرة لم يذكرهم وإنّما خصّ الله والرسول بالذكر، وذلك أنّ المخاطبين بهذا الردّ هم المؤمنون المخاطبون في صدر الآية، والتنازع تنازعهم بينهم لا تنازعهم مع أولي الأمر الّذين فُرضَت طاعتهم عليهم.

ثمّ لا ينبغي أن يُشكّ في أنّ هذه الإطاعة المأمور بها في الآية إطاعة مطلقة غير مقيّدة بقيد وغير مشروطة بشرط، وهذا هو الدليل على أنّ الرسول لا يأمر بشيء ولا ينهى عن شيء يخالف حكم الله في الواقعة، وإلّا كان فرض طاعته تناقضاً منه تعالى، ولا يتمّ ذلك إلّا بعصمة فيه. وهذا الكلام جاء بعينه في أُولي

---

١ ـ النحل ١٦/٤٤.

٢ ـ النساء ٤/١٠٥.

الأمر، حيث إنّه تعالى جمع فيها بين الرسول وأُولي الأمر وذكر لهما إطاعة واحدة. ولا يجوز للرسول أن يأمر بمعصية أو يغلط في حكم، فلو جاز شيء من ذلك على أُولي الأمر لم يصحّ إلّا أن يذكر سبحانه القيد الوارد عليهم، كما ذكر القيد فيما هو دون هذه الطاعة المفترضة كقوله تعالى في الوالدين ﴿وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾[1]. فلمّا لم يُظهر شيئاً من القيود، وأنّه إذا أمر أُولو الأمر بما يخالف الربّ أو لا يعلم حقيقته لا يجب إطاعتهم مثلاً في آية تشتمل على أُسّ أساس الدين وإليها تنتهي عامّة عروق السعادة الإنسانية، فلا مناص من أخذ الآية مطلقة من غير قيد وشرط، ولازمه اعتبار العصمة في جانب أُولي الأمر كما اعتبر في جانب الرسول من غير فرق.

ثمّ إنّ المراد بالأمر هو الشأن الراجع إلى دين المؤمنين أو دنياهم، لا الأمر المقابل للنهي كما هو واضح.

وأمّا التقييد بقوله ﴿مِنْكُمْ﴾ فهو نظير قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾[2] وقوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾[3] فهو ظرف مستقرّ أي كائنين منكم، فلا يدلّ على أنّ تقييده يفيد أنّ الواحد منهم مثلنا إنسان عاديّ من غير مزيّةِ عصمةٍ إلهيّة كما تُوهِّم، وصريح الآية وجوب إطاعة الله ورسوله وأُولي الأمر، وأنّ إطاعتهم كإطاعة الرسول، وأنّهم المعصومون كالرسول.

اختصاص أولي الأمر بالمعصومين عليهم السلام

إنّ تعبير أُولي الأمر لا ينطبق إلّا على الأئمّة المعصومين من آله صلّى الله عليه وعليهم، ويتّضح ذلك ببيان أُمور:

١ ـ إنّ عنوان «أُولِى الأمر» إنّما يصدق على من كان صاحباً للأمر واقعاً لا مَن

---

١ ـ العنكبوت ٨/٢٩.
٢ ـ الجمعة ٢/٦٢.
٣ ـ البقرة ١٢٩/٢.

كان متغلّباً على الأمر بدون حقّ، كما أنّ صاحب المال مالكه لا الغاصب المتغلّب الّذي حاز المال بغير حقّ، وأنّ أُولي الألباب هم الّذين لهم اللبّ واقعاً لا المتظاهرون به الفاقدون له حقيقة، فصاحبيّة الأمر تتحقّق بكونه حقّاً له ولا يكون حقّاً له إلّا بثبوت الأمر له.

٢ ـ إنّ ولاية الأمر ذاتاً وابتداء إنّما هي للخالق؛ لأنّه المكوّن لكلّ شيء مُبدئاً له. وأمّا الخلق فلا ولاية لبعضهم على بعض ذاتاً، وإنّما تثبت الولاية لبعضهم على بعض بجعله تعالى والانتهاء إلى أمره. ولا يُعقَل أن تحصل الولاية مِن قِبل تولية بعضهم بعضاً، لأنّ المولّي فاقد للولاية في حدّ نفسه فكيف تثبت الولاية لغيره من قبله؟!

٣ ـ إنّ وجوب الإطاعة يدور مدار الولاية، ضرورةَ أنّه مع عدم ولاية الآمر على المأمور لا يستحقّ الإطاعة، فاستحقاق الطاعة هو من شؤون الولاية، ولا تقوم صفة أُخرى مقامها حتّى العصمة؛ فإنّها توجب تصديق قوله وأنّ ما قاله حقّ وصدق. نعم، لو قال المعصوم: إنّي أولى بالأمر وجب تصديقه بالولاية، وبعد ثبوتها بقوله تجب إطاعته فيما يأمر وينهى لولايته، وبعد ثبوت الولاية له لا حاجة إلى إثبات وجوب إطاعته إلى أمر آخر، ضرورةَ وجوب إطاعته حينئذ بحكم العقل، وما ورد في الشرع ممّا يدلّ على وجوب إطاعته إنّما هو تأكيد وإرشاد إلى ما استقلّ به العقل، كما قرّر في محلّه.

٤ ـ إنّ الولاية على قسمين: مطلقة ومحدودة.

والأُولى: ثابتة لله تعالى، فإنّه الخالق والربّ، والمربوب يرجع بكلّه إليه، فلا يُعقل تحديد ولايته تعالى وإلّا لزم أن يستقلّ الممكن في بعض جهاته، وهو مناقض لإمكانه. ولا تثبت هذه الولاية لأحد إلّا باستخلافه تعالى إيّاه، فإذا ثبت هذا النحو من الولاية لأحد من الأولياء كما ثبت لنبيّنا ﷺ بقوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ

بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[١] فهو كاشف عن ثبوت خلافته الكبرىٰ له ﷺ عنه تعالى شأنه.

وأمّا الثانية : فيجوز ثبوتها، من قبيل استخلافه تعالى بعضَ المخلوقين، كولاية القيّم والوليّ والمستأجر والزوج على الّذين جعلت لهم الولاية بجعله تعالى في هذه الموارد.

وإذا تقرّرت هذه الأُمور فنقول : إنّه لا تحديد كما تقدّم في وجوب إطاعته تعالى ولا في وجوب إطاعة رسوله، وقد عطف «أُولي الأمر» على «الرسول»، وأُطلق الكلام ولم يقيّد بقيد وشرط، فدلّ على أنّ طاعتهم كطاعة الرسول مطلقة غير محدودة.

وهذا معنى ما قاله أميرالمؤمنين : الّذين قَرَنَهم اللهُ بنفسه وبنبيّه[٢]. ولمّا كان لا يُعقل ثبوت هذه الولاية المطلقة لأحد إلّا بأن يكون قريناً لرسوله في العلم بما في الكتاب والعصمة والطهارة، فتعيّن أنّها ليست إلّا لمن أخبر النبيّ ﷺ عنهم بأنّهم المتّصفون بها، ولذا قال عليه السلام بعد طلب السائل الايضاح : الّذين قال رسولالله ﷺ، في آخر خطبته، كما سيجيء نصّ الحديث إنشاءالله.

وبتعبير آخر : إنّ المراد بـ«أولى الأمر» في الآية رجال من الأُمّة حُكمُ الواحد منهم في العصمة والعلم والطاعة كحكم الرسول، والولاية الثابتة للرسول ووجوب إطاعته ثابتة لهم، ولا يكون هؤلاء إلّا مَن أخبر النبيّ بوحيه تعالى بأنّهم هم. ولا ينافي عموم اللفظ بحسب اللغة إرادة أشخاص مخصوصين، فإنّ قصد مفهوم من المفاهيم من اللفظ شيء وإرادة المصداق الّذي ينطبق عليه المفهوم شيء آخر، كما أنّ مفهوم الرسول معنى عامّ كلّيّ، وهو المراد من اللفظ، والمقصود هو الرسول محمّد ﷺ. وأمّا المصداق الّذي بيّنه الرسول بوحي منه تعالى، والمنطبق عليه الآية

---

١ ـ الأحزاب ٣٣/٦.

٢ ـ سيأتي نصّ الحديث بتمامه بعد قليل.

فهم الأئمّة الهداة عليهم السلام، ويظهر ذلك بمراجعة الأخبار؛ فقد ذكر في غاية المرام عن طرق العامّة أربع روايات، وعن طرق الخاصّة ذكر ما يقرب من حدّ التواتر[1]. من جملتها: ما رواه بإسناده عن سُلَيم بن قيس قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: وأتاه رجل فقال له: ما أدنىٰ ما يكون به العبد كافراً وأدنى ما يكون به العبد ضالاًّ؟ فقال عليه السلام: قد سألتَ فافهم الجواب ـ إلى أن قال عليه السلام: ـ أدنىٰ ما يكون به العبد ضالاًّ أن لا يعرف حجّة الله... الّذي أمر الله عزّوجلّ بطاعته وفرض ولايته. قلت: يا أميرالمؤمنين، صفهم لي. قال: الّذين قَرَنَهم الله بنفسه وبنبيّه فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، فقلت: يا أميرالمؤمنين جعلني الله فداك، أوضِح لي، فقال: الّذين قال رسولالله في آخر خطبة يوم قبضه الله إليه: إنّي قد تركتُ فيكم أمرَين لن تضلّوا بعدي إن تمسّكتم بهما: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي.... الخبر[2].

وفي تفسير البرهان بإسناده عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ: لمّا أنزل الله عزّوجلّ على نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قلت: يا رسولالله، عَرَفنا الله ورسوله فمَن أُولو الأمر الّذين قَرَن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: هم خلفائي يا جابر وأئمّة المسلمين من بعدي، أوّلهم: عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ عليّ بن الحسين، ثمّ محمّد بن عليّ المعروف في التوراة بالباقر ستدركه يا جابر فإذا لقيتَهُ فاقرئه منّي السلام، ثمّ الصادق جعفر بن محمّد، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ عليّ بن موسى، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ عليّ بن محمّد، ثمّ الحسن بن عليّ، ثمّ سَميّي محمّد وكَنيّي حجّة الله في أرضه وبقيّته في عباده ابن الحسن بن عليّ، ذلك الّذي يفتح الله تعالى على يدَيه مشارق الأرض ومغاربها، ذلك الّذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبةً لا يثبت فيها على القول

---

١ ـ غاية المرام ٢٦٣ ـ ٢٦٨.

٢ ـ غاية المرام ٢٦٦؛ كتاب سليم بن قيس الهلاليّ ٥٩.

بإمامته إلّا مَن امتحن الله قلبه للإيمان... الخبر[١]. والأخبار بهذا المضمون في الكافي[٢] وغيره كثيرة جدّاً، راجع البرهان[٣] وغاية المرام[٤] وينابيع المودّة[٥] وغيرها.

خاتمة

الأوّل : إنّ لفظة «أُولي الأمر» لمّا كانت اسم جمع دلّت على كثرة جمعيّة في هؤلاء المسمَّين بأُولي الأمر، وهذا لا شكّ فيه، لكن لا يلزم وجود هذه الكثرة في زمان واحد بل في كلّ زمان آحاد منهم، يلي الأمر ويتلبّس بافتراض الطاعة واحد منهم بعد واحد، فينسب افتراض الطاعة إلى جمعهم بحسب اللفظ والأخذ بجامع المعنى، كقولنا : صلِّ فرائضك وأطِعْ سادتك وكبراء قومك. ولعلّ التعبير بالجمع إنّما هو للإشارة إلى تعدّدهم وعدم انحصاره في فرد، وإنّ جعلَه تعالى وليّ الأمر ونصبه بعد نبيّه غير منحصر بعليّ عليه السلام بعد الرسول بل يتلوه سائر الأولياء. وقد فصّل هذا الإجمالَ النبيُّ الكريم في بيانه المقدّس المتقدّم ذكره، فالآية كما تدلّ على فرض طاعة عليّ عليه السلام بعد النبيّ تدلّ على افتراض سائر الأئمّة عليهم السلام أيضاً. والعجب من الرازيّ حيث قال : إنّ هذا المعنى يوجب حمل الجمع على المفرد، وهو خلاف الظاهر[٦]. وقد غفل عن أنّ هذا شائع في الاستعمال، والقرآن مليء به كقوله تعالى ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٧] و﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾[٨] و﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾[٩] و﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾[١٠]؛ فإنّ الّذي خلاف الظاهر من حمل الجمع على المفرد هو أن يطلق لفظ الجمع ويراد به واحد من آحاده لا أن يوقع حكم على الجمع

١ ـ البرهان في تفسير القرآن ١ : ٣٨١.
٢ ـ الأُصول من الكافي ١ : ١٨٥ ـ ١٩٠.
٣ ـ البرهان في تفسير القرآن ١ : ٣٨١ ـ ٣٨٦.
٤ ـ مرّ ذكره آنفاً.
٥ ـ ينابيع المودّة ١١٤ ـ ١١٧.
٦ ـ التفسير الكبير ١٠ : ١٤٦.
٧ ـ القلم ٨/٦٨.
٨ ـ الفرقان ٥٢/٢٥.
٩ ـ الأحزاب ٦٧/٣٣.
١٠ ـ البقرة ٢٣٨/٢.

بحيث ينحلّ إلى أحكام متعدّدة بتعدّد الآحاد، كما لا يخفى.

الثاني: ذكر بعض المفسّرين أنّ المراد من «أُولي الأمر» هم العلماء[١]، فإن أراد منهم الأئمّة المعصومين ـ كما قد ورد عنهم عليهم السلام نحن العلماء وشيعتنا المتعلّمون[٢] ـ فهو حقّ لا يعتريه شكّ. وإن أُريد بهم غيرهم فهو باطل؛ لاختصاص الولاية المطلقة بأهل بيت النبوّة المطهّرين من الأرجاس العالمين بالكتاب. وكيف يراد من «أُولى الأمر» العلماء بقول مطلق مع أنّ كثيراً منهم فاسقون وأغلبهم خاطئون وفي آرائهم متشتّتون وأكثرهم عن الشرع منحرفون ؟!

وذكر الرازيّ أنّ الأقوال في معنى «أُولي‌الأمر» لا تتجاوز أربعة: الخلفاء الراشدون، وأُمراء السرايا، والعلماء، والأئمّة المعصومون. والقول الخامس خرق للإجماع المركّب. ثمّ أرجع الكلّ إلى الثالث[٣].

وأنت خبير بأنّ الآية كما تقدّم تدلّ على عصمة أُولي الأمر وعدم خطئهم، والعصمة غير مدّعاة للخلفاء والأُمراء والعلماء، وخطؤهم بل عمدهم وتجاوزهم غير قليل، والكتب مشحونة بذلك، والعيان مُغنٍ عن البيان.

وأمّا إرادة أهل الحلّ والعقد من «أُولى الأمر» مع عدم عصمتهم وخطئهم فيردّه أنّ العصمة أمر معنويّ لابدّ أن يتّصف بها الشخص المعيّن لا الهيئة الحاصلة من عنوان خاصّ مع كون أنّ الآحاد فيها فاسق أو مخطئ أو كافر أحياناً. والالتزام بعدم لزوم العصمة فيهم فهو كما ترى. نعم، لو قلنا بأنّ الدين عبارة عن سنّة اجتماعيّة سُبكت في قالب الدين وظهرت في صورته ـ فهو محكوم بما يحكم على سائر السنن الاجتماعيّة البشريّة ـ لكان مجال لدعوى أنّ المراد من «أُولى الأمر» المفروض طاعتهم على الأُمّة هم أهل الحلّ والعقد ومن ينفذ حكمهم ورأيهم بين الأُمّة ولو بالتغلّب عليهم، فتكون حال الملّة الإسلاميّة حال سائر المجتمعات

---

١ ـ تفسير ابن عبّاس ٧٢.

٢ ـ الأُصول من الكافي ١ : ٣٤.

٣ ـ التفسير الكبير ١٠ : ١٤٤ ـ ١٤٦.

الفاضلة في أنّ فيها فئات مختارة تحكم على قوانين المجتمع على حسب مقتضيات الأحوال والأمكنة والأشخاص، لكنّ الكلام في الآية مبنيّ على أن يكون الدين له أصل مؤثّر في جميع الأُصول والفروع من معارف أصيلة ونواميس أخلاقيّة وأحكام فرعيّة.

وحينئذ لابدّ ـ بعد الالتزام بدلالة الآية على عصمة أُولي الأمر ـ أن يُستسلم لما ذكره النبيّ صلى الله عليه وآله في تفسيرها بالأئمّة المعصومين عليهم السلام.

تنبيه: ذكر بعض الجهلة من المتجدّدين أنّ قوله تعالى ﴿وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ لا يدلّ على شيء ممّا ذكره المفسّرون، أمّا أوّلاً: أنّ فرض طاعة أُولي الأمر لا يدلّ على فضل ومزيّة لهم على غيرهم، كما أنّ طاعة الجبابرة والظلمة واجبة علينا حال الاضطرار اتّقاءً من شرّهم، ولا يكونون بذلك أفضل منّا عنده تعالى. وثانياً: إنّ الحكم المذكور في الآية لا يزيد على سائر الأحكام الّتي تتوقّف فعليّتها على تحقّق موضوعها، نظير وجوب الإنفاق على الفقير إن وُجِد، وليس يجب علينا أن نوجد فقيراً حتّى ننفق عليه[١].

وأنت خبير بفساد ما ذكره أوّلاً، وذلك أنّ النهي عن متابعة الظالمين والكافرين والإمداد لهم كثير في القرآن، ومن المحال أن يأمر بطاعتهم مع ذلك. ثمّ زاد عليه بأن يقرن طاعتهم بطاعة نفسه ورسوله؛ فلا يكون هناك أمر بمتابعتهم مع النهي عن مساعدتهم ومتابعتهم، وإنّما رخّص حال الاضطرار والتقيّة تسهيلاً على الأُمّة، فلا وجوب حتّى يقاس بالمقام.

وما ذكره ثانياً مبنيّ على الوجه الأوّل من معنى الآية، أمّا لو فرض افتراض طاعتهم لكونهم ذوي شأن في الدين لكانوا معصومين عن الخطأ والفساد؛ لِما تقدّم تفصيلاً. ومن المستحيل أن يأمر الله تعالى بطاعة من لا مصداق له أو له مصداق

١ ـ لم نعثر على قائله، ولكن أقواله ذكرت في الميزان في تفسير القرآن ٤ : ٣٩٨.

اتّفاقيّ في آية تتضمّن أُسّ أساس الدين، و الحاجة إلى أُولي الأمر عين الحاجة إلى الرسول كما تقدّم في محلّه مفصّلاً. كما تقدّم أنّ المراد من «أُولي الأمر» آحاد من الأُمّة معصومون في أقوالهم مفترضة طاعتهم، فتحتاج معرفتهم إلى تنصيص من جانبه تعالى من كلامه أو بلسان نبيّه، فينطبق على ما روي من طرق الخاصّة و العامّة بأنّهم هم الأئمّة المعصومون عليهم السلام.

و أمّا ما ذهب إليه المفسّرون من أنّ المراد بهم أهل الحلّ و العقد أو الخلفاء الراشدون أو أُمراء السرايا أو العلماء المتّبعون في أقوالهم و أفعالهم فيدفعه أوّلاً: إنّ الآية تدلّ على عصمة أُولي الأمر و لا عصمة في هؤلاء الطبقات بلا إشكال، و ثانياً: إنّ كلّاً من الأقوال لا دليل عليه من العقل و النقل.

تشكيك و ردود

ثمّ إنّه أورد على كون المراد بأولي الأمر أئمّة أهل البيت بوجوه:

الإيراد الأوّل: إنّ ذلك يحتاج إلى تصريح من الله ورسوله، ولو حدث لـما اختلف في أمرهم اثنان بعد الرسول[١]. و يُردّ عليه بأنّ التصريح بذلك منصوص في الكتاب و السنّة، كآية الولاية[٢] و التطهير[٣] وحديث السفينة[٤] و الثقلين[٥] و الغدير[٦]

---

١ ـ نفس المصدر ٤: ٣٩٩.

٢ ـ ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ﴾ المائدة ٥٥/٥.

٣ ـ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب ٣٣/٣٣.

٤ ـ ألا إنّ مَثَل أهل بيتي فيكم مَثَل سفينة نوح من قومه: مَن ركبها نجا، و من تخلّف عنها غرق. المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥١.

٥ ـ إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و أهل بيتي، و إنّهما لن يفترقا حتّى يَرِدا علَيّ الحوض. نفس المصدر ٣: ١٤٨.

٦ ـ ... قال رسول‌الله صلّى الله عليه وآله عن الإمام عليّ عليه السلام يوم غدير خمّ ... مَن كنت مولاه فعليّ مولاه... نفس المصدر ٣: ١١٦.

والأخبار الواردة في بيان هذه الآية[١]. وسنذكر وجه اختلاف الأمّة بعد الرسول وإعراضهم عن النصوص والتصريحات التي صدرت منه ﷺ عند الكلام على حديث الغدير إن‌شاءالله.

الإيراد الثاني: إنّ طاعتهم مشروطة بمعرفتهم؛ فإنّها من دون معرفتهم تكليف بما لا يطاق. وإذا كانت مشروطة فالآية تدفعه لأنّها مطلقة[٢].

وفيه: أوّلاً أنّه ينتقض بأنْ لو كان المراد بهم الخلفاء أو الأمراء أو غيرهما لَما كان فرق بين المعرفتين إلّا بأن معرفة المعصوم تحتاج إلى بيانه تعالى أو بيان رسوله، ومعرفة هؤلاء لا تحتاج إلى بيانه، بل يعرف هؤلاء من عند أنفسنا. وأمّا من جهة كونها شرطاً فلا فرق بينهما، مما ينافي الآية لا محالة.

وثانياً: إنّ المعرفة وإن كانت شرطاً لكنّها ليست كالاستطاعة والصحّة وعدم السفر والحيض بالنسبة إلى ما اشترط فيه لتكون شرطاً للتكليف أو المكلّف به، بل شرط راجع إلى تحقّق بلوغ التكليف، نظير شرائط الموضوع والمعلّق الّتي لابدّ من تحصيلها، مع أنّ كلمة «منكم» بعد «أولي الأمر» تصرّح بأنّ هناك من يكون صاحباً للأمر واقعاً موجوداً بينهم حتماً. وولاية الأمر لا تتحقّق إلّا بالاستخلاف وتنصيب منه تعالى، فلو لم ينصبه للمؤمنين لم يأمرهم بإطاعته، فأمره تعالى بإطاعته مقروناً بإطاعة نفسه وإطاعة رسوله كاشف عن نصبه لهم وهم في الناس موجودون.

الإيراد الثالث: إنّا في عصرنا عاجزون عن الوصول إلى الإمام المعصوم وأخذ العلم والدين منه؛ فما فُرضت طاعته على الأمّة لا يكون إذ لا سبيل إليه، فالأمر بالرجوع إلى الإمام تكليف بما لا يطاق وهو مستحيل[٣].

وفيه: إنّ ذلك مستند إلى نفس الأمّة في سوء فعالها وخيانتها لنفسها لا إلى الله ورسوله، فالتكليف غير مرتفع، كما لو قَتَلت الأمّة نبيّها ثمّ اعتذرت بأنّها لا تقدر

---

١ ـ نور الثقلين ١: ٤٩٧ ـ ٥٠٨.

٢ ـ راجع: الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٩٩.

٣ ـ نفس المصدر ٤: ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

على طاعته، مع أنّ الإشكال وارد أيضاً على مَن اعتقد بأنّ أُولي الأمر هم أهل الحلّ والعقد، إذ كيف يمكن تصوّر أُمّة إسلاميّة واحدة ينفذ فيها ما استصوبه أهل الحلّ والعقد منها ؟!

آية السؤال

قال تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، أوجب الله تعالى في هذه الآية سؤالَ أهل الذكر فيما يرجع إلى الدين. والمراد من أهل الذكر إنّما هم أهل بيت النبوّة، كما صرّحت بذلك الأخبار من الطرفَين.

ففي غاية المرام ذكر في بيان أنّ المراد من أهل الذكر أهل البيت عليهم السلام ـ وفيه واحد وعشرون حديثاً من طرقنا[2] ـ قال : الحديث الأوّل : عن أبي جعفر عليه السلام، في قول الله عزّوجلّ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الذِّكر أنا والأئمّة أهل الذكر. وقوله عزّوجلّ ﴿وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ قال أبوجعفر عليه السلام : نحن قومه ونحن المسؤولون[3]، إلى غير ذلك من الأخبار.

وأمّا من طرق العامّة فقد ذكر في غاية المرام ثلاثة أحاديث :

منها : ما عن الثعلبيّ في تفسيره عند قوله تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال جابر : لمّا نزلت هذه الآية، قال عليّ عليه السلام : نحن أهل الذكر.

ومنها : ما رواه الحافظ محمّد مؤمن الشيرازيّ في المستخرج من التفاسير الاثني عشر في تفسير قوله تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني : أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، والله ما سمّي مؤمناً إلّا كرامة لعليّ بن أبي

---

١ ـ النحل ١٦/٤٣.
٢ ـ غاية المرام ٢٤٠ ـ ٢٤٢.
٣ ـ نفس المصدر ٢٤٠، والآية الثانية في الزخرف ٤٣/٤٤.

طالب، إلى غير ذلك من الأخبار[١].

ثمّ لا يخفى أنّه قد أُطلق الذِّكر في القرآن على رسول‌الله ﷺ، ففي سورة الطلاق ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ۞ رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾[٢] وأُطلق الذكر على القرآن كقوله تعالى ﴿وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٣]. والظاهر أنّ المعنى واحد، وإنّما الاختلاف في المصداق؛ فإنّ كلّاً منهما ممحّض لذِكره تعالى، وأهل البيت عليهم السلام أهل لهما معاً.

أمّا الأوّل فواضح، وأمّا الثاني فلأنّهم الّذين قَرَنَهم الرسول بكتاب الله وخلّفهما في أُمّته وأمر بالتمسّك بهما، فقال: إنّهما لن يفترقا حتّى يَرِدا علَيّ الحوض[٤]، فهم أهل القرآن المخاطَبون به، العاملون العالمون بأسرار، فهم لا يفارقونه وهو لا يفارقهم. وتفسير الذِّكر في أكثر الأخبار بالرسول لا ينافي تفسيره في بعضها بالقرآن، لرجوع التفسيرين إلى واحد.

وبما ذكرنا ظهر أنّ أهل الذكر المسؤولين هم أهل البيت، فوجب الرجوع إليهم بمقتضى الأمر بالسؤال منهم. كما أنّه اتّضح عدم صحّة تفسير أهل الذكر بمطلق العلماء أو علماء اليهود والنصارى. وبطلانه واضح، ضرورة أنّه لو أُريد من الذكر مطلق الكتب السماويّة لم يشمهلم تعبير أهل الذكر؛ لأنّ إضافة «الأهل» إلى «الذكر» تصحّ مع العلم به واتّباعه عملاً، وأمّا مع عدم العلم به أو عدم اتّباعه فلا يصدق على العالم به كذلك أنّه من أهل الذكر قطعاً. وعلماء اليهود والنصارى قد خالفوا الذكر حيث ما أسلموا، بل حتى لو شملهم تعبير أهل الذكر فإنهم لا يكونون مشمولين بأمر الناس أن يسألوهم، بداهة أنّ الأمر بالسؤال إنّما هو بالنسبة إلى الأمين منهم، وهؤلاء المخالفون للذكر في عداد الخونة والفسقة فكيف يأمر تعالى بسؤالهم، والحال أنّا لو سألناهم لَدَعوْنا إلى دينهم ولقالوا هو أفضل من دين

---

١ ـ نفس المصدر ٢٤٠.
٢ ـ الطلاق ٦٥/١٠ ـ ١١.
٣ ـ النحل ١٦/٤٤.
٤ ـ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥١.

الإسلام؟! كما أُشير إلى ذلك فيما روي عن الرضا عليه السلام : ... فنحن أهل الذكر الّذين قال الله عزّوجلّ ﴿فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فنحن أهل الذكر فاسألونا إن كنتم لا تعلمون، فقالت العلماء : إنّما عَنَى الله بذلك اليهود والنصارى، فقال أبوالحسن عليه السلام : سبحان الله! وهل يجوز ذلك إذا يَدْعُونا إلى دينهم، ويقولون : إنّه أفضل من دين الإسلام؟! فقال المأمون : فهل عندك في ذلك شرح بخلاف ما قالوه يا أباالحسن؟ فقال أبوالحسن عليه السلام : نعم، الذكر رسول‌الله ونحن أهله...[1].

إذا ظهر ما قدّمنا نقول : إنّ الآية تدلّ على اختصاص الخلافة والإمامة بهم دون غيرهم؛ لأنّ التعبير عنهم بأهل الذكر ووجوب السؤال منهم فيما لا تعلمه الأُمّة يدلّ على أنّهم الهداة المعصومون الّذين نَصَبهم الله وجَعَلهم مرجعاً للأُمّة في أخذ العلم والدين منهم. ومَن هذا شأنه يكون خليفة للرسول وإماماً للأُمّة وممثّلاً للإسلام؛ لأنّ الخلافة عن الرسول ـ في شأن رسالته المستتبعة لافتراض طاعته ووجوب البيعة له ـ إنّما هي بقيام هداية الأُمّة به، ودلالتهم إلى الحقّ وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور اليقين، ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، فكيف يقتدى بمثل هذا ويستفاد من جهله؟! فيا عجباً من تقديم القوم الجاهلَ المظلم على العالِم الهادي ﴿أَفَمَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّيَ إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2]. يضاف إلى ذلك أنّ أئمّة القوم ـ مع كونهم جاهلين وعاجزين عن بيان المعارف والحقائق ـ لم يَدّعوا أنّهم هم أهل الذكر، بل أذعنوا وصرّحوا بخلافه، كما هو واضح لمن راجع التواريخ والسِّيَر.

---

١ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٣٩.

٢ ـ يونس ١٠/٣٥.

آية «كونوا مع الصادقين»

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[١].

إنّ الله تعالى قد أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين، و المراد بالكون معهم ليس الحضور الخارجيّ بالضرورة، بل المراد اتّباعهم في كلّ ما يراد به الاتّباع و العمل شرعاً؛ لاقتضاء الاطلاق له. فتدلّ الآية على عصمة المتبوع لوصفه له بالصدق أي في الأعمال و الأقوال بمقتضى الإطلاق، ولقبح الأمر باتّباع من لا يؤمَن عليه مخالفة أحكام الله تعالى عمداً أو خطأً وللزوم اجتماع الضدّين أي وجوب اتّباعه وحرمته لو فعل المعصية. و إذ أفادت الآية عصمة الصادق المتبوع تثبت إمامته؛ لأن العصمة شرط للإمامة كما قرّر في محلّه[٢]. ولا عصمة لغير عليّ وأولاده عليهم السلام بالإجماع، مع أنّ أمر الأمّه باتّباع شخص على الإطلاق ظاهر في إمامته لهم.

و المراد من الصادقين في الآية هو أميرالمؤمنين و الأئمّة الطاهرون عليهم السلام، كما صرّحت بذلك أخبار؛ ففي الكافي عن مولانا الباقر عليه السلام: إيّانا عنى[٣]، وعن مولانا الرضا عليه السلام: الصادقون هم الأئمّة الصدّيقون بطاعتهم[٤].

وفي كمال الدين عن أميرالمؤمنين عليه السلام: إنّه صلى الله عليه وآله قال في جمع من المهاجرين و الأنصار: أسألكم بالله، أتعلمون أنّه لِما نزلت هذه الآية؟ قال سلمان لرسول الله: عامّة هذه الآية أم خاصّة؟ فقال صلى الله عليه وآله: أمّا المأمورون فعامّة المؤمنين أُمروا بذلك، و أمّا الصادقون فخاصّة لأخي عليّ و أوصيائي من بعده إلى يوم القيامة. قالوا: اللّهمّ نعم[٥].

وقد ذكر في غاية المرام تسعة أخبار من طريقنا وسبعة أخبار من طريق العامّة[٦]

---

١ ـ التوبة ٩/١١٩.

٢ ـ كما مرّ في أوّل هذا الباب.

٣ ـ الأُصول من الكافي ١: ٢٠٨.

٤ ـ نفس المصدر.

٥ ـ كمال الدين ٢٧٨.

٦ ـ غاية المرام ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

كلّها يدلّ على ما ذكرنا. و من جملة الأخبار من طرق القوم ما ذكره أبونعيم عن ابن عبّاس[١]، و نقل السيوطيّ في الدرّ المنثور عن ابن مردويَه أنّه أخرج عن ابن عبّاس في قوله تعالى ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال : مع عليّ بن أبي طالب[٢].

و الظاهر أنّ المخاطب بالاتّباع في الآية هو جمع المؤمنين في كلّ زمان لا خصوص الصحابة، فيدلّ على وجود معصوم واجب الاتّباع بكلّ وقت، فكان هو محمّداً ﷺ في وقته و عليّاً في وقته و الأئمّة الطاهرين من آلهما بعدهما عليهم السلام، كما يقتضيه كون الصادقين صيغة جمع. و إنّما خصّصت بعض الأخبار عليّاً لأنّ وجوب اتّباع النبيّ ﷺ أمر مسلَّم، و لأنّ عليّاً أوّل الأئمّة عليهم السلام و أصلهم، فوجوب اتّباعهم فرع وجوب اتّباعه. ويشهد لذلك ما ورد في ينابيع المودّة بسنده عن ابن عبّاس قال : الصادقون في هذه الآية محمّد ﷺ و أهل بيته[٣]. وفيها عن الرضا و الباقر عليهما السلام قالا : الصادقون هم الأئمّة من أهل البيت[٤].

تشكيك و ردود

تنبّه الرازيّ لدلالة الآية الكريمة على ضرورة وجودِ معصوم يجب اتّباعه في كلّ وقت، لكنّه زعم أنّ المعصوم هو مجموع الأُمّة [أي مجموع علمائها و أهل الحلّ و العقد فيها] فتدلّ الآية عنده على حجيّة الإجماع[٥].

و أنت خبير بفساد ما زعمه، بداهةَ عدم تيسّر تحصيل الإجماع في كلّ وقت أو امتناعه فلا يوجد حتّى يؤمر باتّباعه، مع أنّ المجموع بما هو مجموع لا يوصف بالصادق؛ فإنّ الصفة عارضة على الشخص، و ليست هي الهيئة المعبَّر عنها بالمجموع من حيث المجموع، مع أنّ المجموع من حيث هو مجموع ليس ممّن

---

١ ـ غاية المرام ٢٤٨.

٢ ـ الدرّ المنثور ٣: ٢٩٠.

٣ ـ ينابيع المودّة ١١٩.

٤ ـ نفس المصدر.

٥ ـ التفسير الكبير ١٦ : ٢٢١.

يعقل فلا يجمع بصيغة جمع المذكّر السالم. ولو سُلّم ـ ولو مسامحة ـ فلا ريب أنّ إرادة المجموعات خلاف الظاهر، فإنّ ما يتبادر من كلمة الصادقين هو الأفراد لا المجموعات، فتدلّ الآية على وجوب الكون مع الأفراد الصادقين المعصومين واتّباعهم في كلّ وقت وهو المطلوب. ونحن متّبعون بحمد الله لإمام زماننا بالإقرار بإمامته والأخذ بأحكامه وتعاليمه، وإن لم نجتمع معه ونسعد برؤية.

ثمّ إنّ الرازيّ أشكل على إرادة أئمّتنا من كلمة الصادقين بقوله: لأنّه تعالى أوجب على كلّ واحد من المؤمنين أن يكون مع الصادقين، وإنّما يمكنه ذلك لو كان عالماً بأنّ ذلك الصادق مَن هو لا الجاهل بأنّه من هو، فلو كان مأموراً بالكون معه كان ذلك تكليف ما لا يطاق [وهو غير جائز]، فإنّا لا نعلم إنساناً معيّناً موصوفاً بوصف العصمة[١].

ولا يخفى ما فيه من العناد واللجاج، بداهة إمكان معرفة المعصوم بشخصه، إذ يمكن الفحص عنه ليُعرف فيُتبع. وقد أوضح الله تعالى السبيلَ لمعرفته بقيام الأدلّة الساطعة والبراهين القاطعة، ولا ينكره إلّا المكابر الجاحد.

تنبيه: ذكر بعضهم أنّ المراد من الصادقين مطلق الصحابة من المهاجرين والأنصار، أو خصوص الثلاثة الّذين تخلّفوا في غزوة تبوك[٢]، وعدم عصمة هؤلاء بل فسقهم وارتداد بعضهم أغنانا عن جواب القوم وضعف ما ذهبوا إليه.

هذا ولو قيل بهذا التفسير فلابدّ أن يراد من الصدق مطلق الصدق الشامل لمرتبة منه مطلوبة من كلّ مؤمن، ولابدّ أن يراد من الصادقين المعنى العامّ الشامل لكلّ من اتّصف بالصدق في أيّ مرتبة كان، وحينئذ كان اللازم أن يعبّر بـ«مِنْ» بدلاً من «مع»، ضرورةَ أنّه يجب على كلّ مؤمن أن يتحرّز من الكذب وأن يكون من

---

١ ـ نفس المصدر.

٢ ـ الكشّاف ٢: ٣٢١.

الصادقين، فالعدول عن كلمة «مِنْ» إلى «مع» يكشف عن أنّ المراد بالصدق مرتبة مخصوصة، وبالصادقين أشخاص مخصوصون، ومن البديهيّ أنّ هذه المرتبة مرتبة كاملة يستحقّ المتّصفون بها أن يتّبعهم سائر المؤمنين المخاطَبين. وهذه المرتبة الخاصة ليست إلّا العصمة والطهارة الّتي لم يتطرّق معها كذب قولاً وعملاً، وفي الأُمّة من يكون كذلك و هم أهل البيت الطاهرون من الأرجاس بنصّ آية التطهير واتّفاق المسلمين. فلو أُريد من الصادقين غير المعصومين لزم أن يكون المعصوم مأموراً بمتابعة غير المعصوم المتطرّق إليه الكذب ولو جهلاً أو سهواً وهو قبيح عقلاً، فتعيّن أن يكون الصادق المتّبَع هو المعصوم الطاهر وهو عليّ عليه السلام وأولاده المطهّرون.

والآية تدلّ على كونهم أئمّة، حيث أمر سبحانه جميع المؤمنين باتّباعهم والكون معهم. ولا يصدق على المؤمنين الكون معهم إلّا أن يكونوا تحت طاعتهم متحرّزين عن مخالفتهم، وليس للإمامة معنى إلّا افتراض طاعة الإمام بقولٍ مطلق على المأموم من قِبله تعالى كما لا يخفى.

آية المودّة

قال تعالى ﴿قُلْ لَّا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1].

واضح من نصّ الآية الكريمة أنّ الله تعالى قد جعل المودّة في القربى أجر الرسالة، وهذا يدلّ على أمرين :

الأوّل : وجوب مودّة القربى من حيث كون هذه المودّة أجراً للرسالة، ضرورةَ أنّه لا يُعقل ثبوت الأجر، مع عدم وجوب الوفاء بالمودّة. ولغاية وضوح المعنى

---

١ ـ الشورى ٤٢/٢٣.

وظهوره قال الصحابة بعد نزول الآية : يا رسول‌الله، مَن قرابتك الّذين وَجَبت علينا مودّتهم[١]؟ كما سيأتي في الأخبار الآتية إن‌شاءالله. بل يدلّ على أنّه من أعظم الواجبات الدينيّة و أكملها ؛ لأنّ أمر الرسالة من أعظم أُمور الدين و أقواها، إذ لا أمر بعد التوحيد أجلّ و أنبل من الرسالة، و أجر الشيء ما يوازيه و يعادله فأجرها يساويها في الجلالة و العظمة.

الثاني : إنّهم أفضل و أحبّ عندالله من جميع الأُمّة، حيث أوجب تعالى على جميع الأُمّة مودّتهم وجعلها أجر الرسالة بحيث يكون من وفى بها قد أدّى أجرها، ومن لم يَفِ بها ظلم الرسول وعليه لعنة الله، و لا يكون شخص أحبّ و أفضل عنده تعالى إلّا لأنّه أشدّ طاعة و أقوَم إيماناً بالله و رسوله. ومَن هذا شأنه يستحقّ الإمامة و الخلافة عنه تعالى وعن رسوله و لا يجوز لأحد أن يتقدّم عليه، ومن أجاز ذلك فقد خالف الفطرة و العقل السليم.

توضيح : هذا و توضيح المرام يتوقّف على أُمور :

الأوّل : إنّ ما نُفي سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرسالة و الدعوة الدينيّة، وقد حكى تعالى ذلك عن جملة من الأنبياء قبل نبيّنا ﷺ كنوح وهود وصالح وشعيب فيما حكى عنهم في سورة الشعراء ﴿وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]. وحكى عن النبيّ ﷺ ذلك أيضاً حيث قال ﴿وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[٣]. وقد أمره تعالى أن يخاطب المؤمنين في هذا المعنى بتعابير مختلفة ﴿قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[٤]، و ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾[٥]، و ﴿لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[٦]. فأشار في الآية الأخيرة إلى وجه النفي وهو أنّه ذكرى للعالمين لا يختصّ ببعض دون بعض حتّى يُتّخذ عليه الأجر.

---

١ ـ نفس المصدر ٤ : ٢١٩ ـ ٢٢٠.

٢ ـ الشعراء ٢٦/١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

٣ ـ يوسف ١٢/١٠٤.

٤ ـ الفرقان ٢٥/٥٧.

٥ ـ سبأ ٣٤/٤٧.

٦ ـ الأنعام ٦/٩٠.

وقال تعالى في هذه الآية ﴿قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾، فجعل أجر الرسالة المودّة في القربى. ومن المتيقّن من مضامين سائر الآيات الّتي وردت في هذا المعنى أنّ هذه المودّة أمر يرجع إلى الاستجابة للدعوة، إمّا الاستجابة لها كلّها أو لبعضها ممّا يرجع نفعه إلى المستجيب، كما هو صريح قوله تعالى ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾. وبالجملة: المودّة المفروضة الّتي جُعلت أجراً للرسالة لم تكن أمراً وراء الدعوة الدينيّة من حيث بقاؤها ودوامها، فالآية في مؤدّاها لا تنافي الآيات النافية لسؤال الأجر. وعليه لا يصحّ ما توهّمه البعض من أنّ طلب الأجر وجعله مودّة القربى لا يناسب مقام النبوّة، لما فيه من التهمة؛ فإنّ أكثر طلّاب الدنيا يفعلون شيئاً يسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم، وأيضاً ينافي ما ذكرتم لقوله تعالى ﴿وَ مَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

ووجه بطلان هذا التوهّم أنّ إطلاق الأجر على المودّة وتسميتها به إنّما هو بحسب الدعوى، وأمّا بحسب الحقيقة فلا يزيد مدلول الآية على ما تدلّ عليه الآيات الأُخر النافية لسؤال الأجر و الدالّة على النفع العائد إلى الأُمّة فلا مورد للتهمة والتنافي. على أنّ الآية مدنيّة خوطب بها المسلمون وليس لهم آنذاك أن يتّهموا نبيّهم المصون بعصمة إلهيّة بعد الإيمان به وتصديق عصمته فيما يأتيهم من ربّهم. ولو جاز الاتّهام في ذلك لجاز اتّهامه في الآيات الدالّة على وجوب إطاعته كقوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[1]، وفيما ورد من لزوم التأسّي به وأنّ الأنفال و الغنائم له وأنّ النساء أبيحت له بما يشاء.

الثاني: إنّ لفظ «القُربى»، و هي على صيغة «فُعلى»، التي تفيد مزيّة وجود المبدأ، مُفادها القرابة القريبة، ولا تنطبق على مطلق أقاربه من ولد العبّاس وغيرهم؛ لعدم القرابة القريبة بينهم. وقد صرّح في الأخبار بذلك، وأنّه تعالى ما

---

١ ـ النساء ٥٩/٤.

عنى غير الطاهرين من عترة النبيّ ﷺ. وقد ورد في المصباح أنّ القربى أو القرابة يستعملان في الرحم، كما أنّ قربة وقربان يستعملان في المنزلة[١]، وعليه يكون تفسير القربى بالتقرّب كما عن بعضهم[٢] غلطاً فاحشاً.

الثالث: إنّ المودّة في القربى قد اختلفت فيها تفاسير القوم.

فقيل ـ ونُسب إلى الجمهور ـ إنّ الخطاب لقريش[٣]، والأجر المسؤول هو مودّتهم للنبيّ بقرابته منهم، وذلك لأنّهم كانوا يكذّبونه ويبغضونه لتعرّضه لآلهتهم، فأُمِرَ رسول‌الله ﷺ أن يسألهم إن لم يؤمنوا به فليَودّوه لمكان قرابته، فالقربى مصدر بمعنى القرابة وكلمة «في» للسببيّة.

و فيه: إنّ معنى الأجر إنّما يتمّ إذا قوبل به عمل يمتلكه معطي الأجر فيعطي العامل ما يعادل ما امتلكه من مال ونحوه. فسؤال الأجر من قريش وهم لم يؤمنوا وما وصل إليهم شيء منه ﷺ حتّى يقابلوه بالأجر إنّما لغو محض. وعلى تقدير الإيمان به، لا يتصوّر بغض حتّى تُجعل المودّة أجراً للرسالة وتُسأل، وبالجملة إنّهم إن لم يؤمنوا لا يتحقّق معنى للأجر، وإن آمنوا لا يتحقّق بغض حتّى يُسألوا المودّة[٤].

و قيل: إنّ الخطاب للأنصار[٥]، والمراد بالمودّة في القربى ما تقدّم حيث أتَوه بمال ليستعين به على ما ينوبه، فنزلت الآية فردّه ﷺ وقد كان له منهم قرابة من جهة سلمىٰ بنت زيد النجاريّة[٦] ومن جهة أخوال أُمّه.

و فيه: إنّ أمر الأنصار في حبّهم للنبيّ ﷺ أوضح من أن يرتاب فيه أحد، فإنّهم آوَوا النبيّ ﷺ وأصحابه وآثَروهم على أنفسهم، ونصروه بالنفس والنفيس. وإذا كانوا كذلك فما معنى أن يؤمر النبيّ ﷺ أن يتوسّل إلى مودّتهم بقرابته منهم

---

١ ـ المصباح المنير ٤٩٥.
٢ ـ تفسير الطبريّ ٢٥: ٢٥.
٣ ـ نفس المصدر ٢٥: ٢٤.
٤ ـ الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٤٣.
٥ ـ تفسير الطبريّ ٢٥: ٢٥.
٦ ـ الظاهر أنّها سلمى بنت عمرو بن زيد كما في البداية و النهاية ٢: ١٩٥ عند ذكر أولاد هاشم بن عبد مناف.

هذه القرابة البعيدة الغير المُعنية عند الأعراب[١].

و قيل: إنّ الخطاب لقريش و المودّة في القربى هي المودّة بسبب القرابة، غير أنّ المراد بها مودّة النبيّ ﷺ لا مودّة قريش[٢]، و محصّل المعنى: إنّي لا أسألكم أجراً على ما أدعوكم إلى الهدى الّذي ينتهي بكم إلى الجنّة و لا أطلب منكم جزاء، لكنّ حبّي لكم بسبب قرابتكم منّي دفعني إلى أن أهديكم إليه و أدلّكم عليه.

و فيه: إنّ هذا لا يلائم الآيات الواردة في سبيل الدعوة حيث قال ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٣] و ﴿وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾[٤] و ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾[٥]، فلم يكن له أن يندفع إلى هداية أحد أحبّ قرابته أو يعرض عن هداية آخرين لبغض أو كراهية، و مع هذا كيف يتصوّر أن يقول لقريش: إنّه دفعه إلى دعوتهم حبّه لهم لقرابتهم منه[٦].

و قيل: المراد بالمودّة في القربى مودّة الأقرباء مطلقاً[٧]، و الخطاب فيه لقريش أو لعامّة الناس و المعنى: لا أسألكم على دعوتي أجراً إلّا أن تودّوا أقرباءكم.

و فيه: إنّ مودّة الأقرباء على إطلاقها غير مندوبة قطعاً، كيف وقد نهى تعالى عن التحبُّب إليهم إذا كانوا كافرين، و الحبّ في الله مندوب في الإسلام من غير أن يكون للقرابة خصوصيّة في ذلك. نعم، قد اهتمّ الإسلام بالرحم و القرابة بعنوان الصلة و إيتاء المال على حبّه ذوي القربى لا بعنوان مودّة القربى، فلا حبّ إلّا لله و لا بغض إلّا في الله[٨].

و قيل: معنى القربى هو التقرّب إليه تعالى، و المودّة في القربى هي التودّد إليه

١ ـ الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٤٣ ـ ٤٤.
٢ ـ تفسير الطبريّ ٢٥: ٢٣.
٣ ـ القصص ٢٨/٥٦.
٤ ـ النحل ١٦/١٢٧.
٥ ـ آل عمران ٣/٢٠.
٦ ـ الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٤٤ ـ ٤٥.
٧ ـ تفسير الطبريّ ٢٥: ٢٥.
٨ ـ الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٤٥.

تعالى بالطاعة[١].

و فيه : إنّ المشركين ما كانوا منكرين للتقرّب إليه تعالى، وقد أخبر تعالى عنهم أنّهم ما يعبدون الأصنام إلّا ليقرّبوهم إلى الله زُلفى[٢]. فسؤال التودّد إليه تعالى بالتقرّب إليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده، وجعل ذلك أجراً مطلوباً ممّن يرى شركه نوعَ مودّةٍ إليه تعالى بالتودّد إليه، وخطابهم بذلك من الّذي يدعو إلى التوحيد، ممّا لا يناسب المقام، مع أنّ لفظ «القربى» بمعنى التقرّب لم يستعمل قطّ كما تقدّم[٣].

و قيل : المراد بالمودّة في القربى مودّة قرابة النبيّ ﷺ وهم عترته من أهل بيته[٤]، وقد وردت الأخبار بذلك من الطريقين، و ذكر في غاية المرام سبعة عشر حديثاً من طريقهم واثنان وعشرون حديثاً من طريقنا[٥].

فمن الأخبار من طريقهم ما رواه ابن حنبل في مسنده عن ابن عبّاس، قال : لمّا نزل ﴿قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾ قالوا : يا رسول‌الله، مَن قرابتك الّذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال ﷺ : عليّ وفاطمة، وأبناؤهما[٦].

ومن جملة الأخبار من طرقنا ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه‌السلام في قول الله عزّوجلّ ﴿قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾ قال : هم الأئمّة[٧].

ويؤيّد هذا الأخبارُ المستفيضة التي تدلّ على وجوب حبّ أهل البيت[٨] وأنّه مسؤول عنه يوم القيامة[٩]. وذكر في الكشّاف أخباراً جعلها دليلاً لإرادة عليّ وفاطمة والحَسنَين من القربىٰ[١٠].

وذكر ابن حجر عند كلامه في الآية عن ابن عبّاس ﴿وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ

---

١ ـ الميزان في تفسير القرآن ١٨ : ٤٥.
٢ ـ إشارة إلى يونس ١٠/١٨.
٣ ـ الميزان في تفسير القرآن ١٨ : ٤٥ ـ ٤٦.
٤ ـ الكشّاف ٤ : ٢١٩.
٥ ـ غاية المرام ٣٠٦ ـ ٣١٠.
٦ ـ نفس المصدر ٣٠٦.
٧ ـ الأُصول من الكافي ١ : ٤١٣.
٨ ـ الكشّاف ٤ : ٢٢٠ ـ ٢٢١.
٩ ـ راجع : الصواعق المحرقة ١٤٩.
١٠ ـ الكشّاف ٤ : ٢١٩ ـ ٢٢٠.

فِيهَا حُسْناً﴾، قال : المودّة لآل محمّد[١]، ومثله في الدرّ المنثور[٢]. فيا للأسف ما هان على القوم منع ذكر هذه الأخبار حتّى ذهبوا إلى الأقوال المتقدّم ذكرها ونسبوا بعضها إلى ابن عبّاس!

وتلك الأقوال مع كونها مخالفة لظاهر القرآن وللأخبار المستفيضة المعتبرة عندهم لا دليل عليها وكلّها تفسير بالرأي، وقول بغير برهان، وتحريف الكلم عن مواضعه ممّا يدعو إليه العناد والتعصّب. مع أنّ دعوى شمول الآية لجميع قرابة النبيّ كما عن الفضل[٣] تردّه القرينة اللفظيّة والحاليّة ؛ أمّا الأُولى فلفظ «القربى» هي كما تقدّم وكما في الأخبار المصرّحة بالمراد منها، وأمّا الثانية فالمعلوم من حال النبيّ صلى الله عليه وآله الاهتمام بشأن الأربعة الطيّبين دون سائر أقاربه ممّن ناوأه من أقربائه الّذين لم يسلموا إلّا بالسيوف والغلبة. بل القرينة العقلية أيضاً تردّه ؛ إذ لا يتصوّر أن يكون حبّ مَن حادّ الله ورسوله أجراً للرسالة والتبليغ، فلابدّ أن يكون المراد مودّة أشخاص مخصوصين كامل إيمانهم ويكمل بمودّتهم إيمان المحبّ وتحصل له السعادة الأبديّة بمحبّتهم. بل بلحاظ شأن النبيّ صلى الله عليه وآله إنّما يُعدّ قرابةً مَن هو منه، لا مَن بان عنه معنىً ومنزلة.

قال الرازيّ في تفسير الآية : آل محمّد صلى الله عليه وآله هم الّذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل. ولا شكّ أنّ فاطمة وعليّاً والحَسنَين كان التعلّق بينهم وبين الرسول أشدّ التعلّقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فكانوا هم الآل[٤]. ونحو هذا آتٍ في لفظ «القربىٰ»، فتعيّن أن يكون المراد بالقربىٰ هم عليهم السلام لا غيرهم.

وحيث إنّه أوجب مودّتهم مطلقاً استلزم ذلك وجوب طاعتهم مطلقاً، ضرورةَ

---

١ ـ الصواعق المحرقة ١٧٠، والآية في سورة الشورىٰ ٤٢/٢٣.

٢ ـ الدرّ المنثور ٦ : ٧.

٣ ـ دلائل الصدق ٢ : ٧٦.

٤ ـ التفسير الكبير ٢٧ : ١٦٦.

أنّ العصيان ينافي الودّ المطلق ووجوب الطاعة مطلقاً يستلزم العصمة الّتي هي شرط للإمامة، ولا معصوم غيرهم إجماعاً فتنحصر الإمامة فيهم، لا سيّما مع وجوب طاعتهم على الأُمّة جمعاء.

تنبيه : وإن أشكل على كون الآية واردة في شأن عليّ وفاطمة والحَسنَين، بدعوى أنّ السورة مكيّة وعليّ عليه السلام لم يتزوّج فاطمة فيها فضلاً عن ولادة الحسنين، قلنا : إنّ الأخبار المستفيضة الشارحة لبيان نزولها فيهم حجّة قاطعة، فلا يُعتنىٰ بهذه الدعوىٰ. علىٰ أنّه جاء في بعض أخبار النزول أنّها مدنيّة، ولو سلّم كونها مكيّة فإنّما يكون ذلك بلحاظ أكثر آياتها لا جميعها، وهذه الآية مدنيّة بمقتضى هذه الأخبار[1].

آية الابتلاء

قال الله تعالى ﴿وَ إِذِ ابْتَلىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾[2].

توضيح الكلام في الآية وما يستفاد منها يقع في ضمن بحوث :

البحث الأوّل :

يستفاد من الآية الكريمة أُمور :

١ ـ إنّ الإمامة عهد إلهيّ ومنصب ربانيّ لا مدخل فيه لاختيار الناس، حيث قال ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ وقال ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ ؛ فإنّ صراحة هذا في كون الإمامة عهداً إلهيّاً لا ينكره إلّا المكابر العنود. وإذا كان عهداً إلهيّاً فإنّ اختيار الناس لا يتطرّق إليه، بداهةَ أنّ لهم الاختيار فيما يرجع إليهم من العهود

---

١ ـ دلائل الصدق ٢ : ٨٠.

٢ ـ البقرة ٢ / ١٢٤.

و العقود لا فيما يختصّ به تعالى.

٢ ـ إنّ الإمامة مرتبة فوق النبوّة حيث أنّ إعطاءه تعالى إيّاها لإبراهيم وطلبها عليه السلام تعالى لذرّيّته كان بعد نَيله درجة النبوّة، إذ الوحي إليه بجعله إماماً للناس وطلبه منه تعالى ذلك لذرّيّته وجوابه عزّوجلّ بأنّه لا ينال عهدي الظالمين لا يصلح إلّا لمن كان نبيّاً يوحى اليه أو كليماً. بل في الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أنّه كان بعد الخلّة، و الخلّة كانت بعد الرسالة.

في الكافي عن ابن سِنان عن زيد الشحّام، قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: إنّ الله تبارك و تعالى اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً... وإنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: إنّي جاعلك للناس إماماً، فمِن عِظَمها في عين إبراهيم قال: ومِن ذرّيّتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين. قال عليه السلام: لا يكون السفيه إمام التقيّ[1].

ويدلّ على ذلك ـ أي على كون حِبائه تعالى الإمامةَ لإبراهيم كان بعد خلّته وكِبَر سنّه ووجود الذرّيّة له قوله ﴿وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى﴾، حيث إنّه قبل مجيئ الملائكة ببشارة إسماعيل وإسحاق ما كان يعلم ولا يظنّ أن سيكون له ذرّيّة، حتّى أنّه بعد ما بشّره الملائكة بالأولاد خاطبهم بما ظاهره اليأس، وحيث قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِىَ الْكِبَرُ﴾[2]؟! وكذلك قالت زوجته: ﴿ءَأَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هَـٰذَا بَعْلِى شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَىءٌ عَجِيبٌ﴾[3]. ومن البديهيّ أنّ قوله ﴿وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى﴾ إنّما هو قول مَن يعتقد لنفسه ذرّيّة، فالقصّة وقعت في أواخر عهد إبراهيم بعد البشارة بالأولاد وحصولهم له. على أنّ هذه المنحة له كانت بعد ابتلائه مراراً. ومِن أعظَم البلاء هو بلاء إسماعيل حيث أُمر بذبحه وفداه الله تعالى بذِبح عظيم. ومن الواضح أنّ إيتاءه إسماعيل كان في كبر سنّه، كما قال تعالى حاكياً عنه ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى

---

١ ـ الأصول من الكافي ١: ١٧٥.
٢ ـ الحجر ١٥/٥٤.
٣ ـ هود ١١/٧٢.

الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾[١].

٣ ـ إنّ الّذي قارَف الظلمَ لا يصلح لهذا العهد الشريف، وذلك أنّ النبوّة مرتبة أدنى من مرتبة الإمامة، والعصمة معتبرة فيها بالاتّفاق بين المسلمين. وإذا اعتبرت العصمة في المرتبة النازلة فهي معتبرة في الفائقة بطريق أولى، ومن قارف الظلم لا يكون معصوماً فلا يكون إماماً. والمراد من الظالمين في الآية الكريمة هو مَن جاز عليه الظلم وتطرّق إليه أو وُجِد منه ولو في الماضي ثمّ انقضى عنه.

ودعوى أنّ المشتقّ حقيقة في المتلبّس بالمبدأ وإطلاقه على من تطرّق فيه التلبّس بالمبدأ أو انقضى عنه المبدأ مجاز لا يصار إليه إلّا بدليل، فإنّما هي دعوى فاسدة جدّاً؛ لأنّه أوّلاً أن المشتقّ لا يصدق إلّا على مَن تلبّس بالمبدأ فعلاً دون المنقضي إذا كان المبدأ من قبيل الصفات كالعالم والجاهل والقائم، وأمّا إذا كان من قبيل الأفعال الّتي يكون العنوان المأخوذ منها شرعاً من حدوث المبدأ من الذات كالضارب والقاتل والوالد، فصدق المشتقّ منها دائر مدار حدوث المبدأ ولا يعتبر فيه بقاؤه أصلاً، ألا ترى أنّ القاتل والوالد لا يصدق حقيقة على من انقضى عنه المبدأ ؟! والظالم من هذا القبيل، فإطلاقه على المنقضي عنه المبدأ حقيقة ولا يكون مخالفاً للظاهر حتّى لا يصار إليه إلّا بدليل.

نعم، لو أُريد منه مَن جاز عليه الظلم فهو مخالف للظاهر، لكن الدليل إلى المصير إليه موجود وهو منافاة عدم العصمة وتطرّق الظلم لنيل الإمامة الّتي هي عهد إلهيّ فوق مرتبة النبوّة.

البحث الثاني

قد ذكر في غاية المرام بإسناده عن ابن مسعود قال: قال رسول‌الله ﷺ: أنا

١ ـ إبراهيم ١٤/٣٩.

دعوة أبي إبراهيم، قلنا : يا رسول‌الله، وكيف صِرتَ دعوة أبيك إبراهيم؟ قال : أوحى الله تعالى إلى إبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ فاستخفّ إبراهيمَ الفرحُ ﴿قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أئمّة مِثلي، فأوحى الله عزّوجلّ أنْ: يا إبراهيم، لا أُعطيك عهداً لا أفي لك به. قال : يا ربّ، ما العهد الّذي لا تفي لي به؟ قال : لا أُعطيك عهداً لظالم من ذريّتك... قال إبراهيم عندها ﴿وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : فانتهت الدعوة إليّ و إلى عليّ عليه السلام لم يسجد أحدنا لصنم قطّ، فاتّخذني نبيّاً و اتّخذ عليّاً وصيّاً[1].

وفي كثير من الأخبار من طرقنا أنّ الآية أبطلت إمامة كلّ ظالم، فصارت في الصفوة من ذرّيّة إبراهيم الخليل[2].

و الآية بضميمة الأحاديث تدلّ على إمامة عليّ و الطاهرين من ولده عليهم السلام، حيث إنّ الحديث يدلّ على استجابة دعوة إبراهيم في بعض ذرّيّته وصيرورتهم أئمّة للنّاس، لكونهم أنبياء أو أوصياء، ودلّت على أنّ الدعوة انتهت إلى رسول‌الله صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام، فكانت إمامة رسول‌الله صلى الله عليه وآله باتّخاذه تعالى له نبيّاً وإمامة عليّ عليه السلام باتّخاذه وصيّاً، فوصايته لابدّ أن تكون بإمامته للناس ومن أنواعها. ولو سُلّم أنّ المراد بالوصاية هو وراثة العلم و الحكمة كما ذهب إليه الفضل[3]، فهي من اختصاص الأئمّة لقوله تعالى ﴿أَفَمَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّيَ إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[4].

ثمّ إنّ قوله صلى الله عليه وآله : لم يسجد أحدنا لصنم قطّ، إشارة إلى انتفاء مانع النبوّة و الإمامة عنهما، أعني: المعصية و الظلم المذكور في قوله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فيكون معنى كلامه صلى الله عليه وآله : انتهت إليّ و إلى عليّ عليه السلام دعوةُ إبراهيم لذرّيّته،

---

١ ـ غاية المرام ٢٧٠ ـ ٢٧١.

٢ ـ نفس المصدر ٢٧٠ ـ ٢٧٢، الآية في سورة إبراهيم ١٤/٣٥ ـ ٣٦.

٣ ـ دلائل الصدق ٢ : ٨٩.

٤ ـ يونس ١٠/٣٥.

لانتفاء الظلم عنّا الّذي جعله الله تعالى مانعاً من نيل الإمامة، فاتّخذني نبيّاً واتّخذ عليّاً وصيّاً. وإنّما خصّ السجود للصنم بالذكر دون سائر أنواع الظلم والمعصية؛ لأنّه الفرد الأهمّ في الانتفاء وهو الذي ابتُلي به عامّة قومه، فالمقصود بيان انتفاء المانع المذكور في الآية عنهما لا بيان أنّ عدم السجود للصنم علّة تامّة لانتهاء الدعوة إليهما حتّى تلزم إمامة كلّ من لم يسجد للصنم وإن كان جاهلاً عاصياً، وليس المقصود بيان أنّ عدم السجود للصنم فضيلة مختصّة بهما في دائم الدهر حتّى يقال بمشاركة كلّ من ولد على الإسلام لهما، ولا المقصود بيان أنّ عدم السجود للصنم سبب تامّ للأفضليّة حتّى يقال إنّ بعض مَن تاب من الكفر أفضل ممّن ولد على الإسلام ولم يسجد لصنم.

ثمّ إنّ المراد بانتهاء الدعوة إليهما وصولها لا انقطاعها عندهما، كما هو ظاهر التعدية بـ«إلى»، فلا ينفي إمامة الحسنَين والطاهرين من ولد الحسين عليهم السلام.

هذا، وقد ظهر ممّا ذكرنا بطلان ما لفّقه ابن تيميّة في المقام وادّعى تجويز نبوّة مَن كان كافراً بل وقوعها، حيث أنكر كون عدم السجود لصنم فضيلة على من كان كافراً ثمّ تاب واستدلّ عليه بأنّ لوطاً آمن لإبراهيم ثمّ بعثه تعالى نبيّاً، وأنّ شعيباً قال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا﴾ وقال تعالى حكاية عن الرسل ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾. وإذا كانوا هؤلاء أنبياء ـ ومن المعلوم أنّ الأنبياء أفضل من غيرهم ـ فلا يكون عدم السجود لصنم موجباً للأفضليّة[1].

وأنت ترى أنّ إيمان لوط لإبراهيم لا يستدعي سَبقَ الكفر منه وحاشاه؛ لاحتمال ولادته بعد نبوّة إبراهيم أو أنّه كان متديّناً بشريعة سابقة وآمن به في أوّل نبوّته. والإطلاق في الآية من باب التغليب بلحاظ أتباعهم. ثمّ إنّ مقتضى استدلال

١ ـ منهاج السنّة ٤: ٣٧، الآية الأُولى في سورة الأعراف ٨٩/٧ والثانية في إبراهيم ١٣/١٤.

ابن تيميّة أنّ الرسل كانوا كلّهم أو أكثرهم بزعمه كفّاراً هو خلاف ضرورة الإسلام والمسلمين، وما الداعي الذي دعاه إلى هذا الضلال إلّا إنكار فضل أميرالمؤمنين عليه السلام على أُناس أفنَوا أكثر عمرهم في الكفر. وقد أنكر ابن تيميّة نفسُه حقيقةَ عدم سجود أخي النبيّ صلى الله عليه وآله لصنم قبل إسلامه خلافاً لإجماع المسلمين، مع أنّ القوم كلّما ذكروا عليّاً قالوا: «كرّم الله وجهه» إشارة إلى عدم سجوده لصنم قطّ[1].

البحث الثالث

إنّ الآية الشريفة تدلّ على عدم استحقاق الخلفاء الثلاثة الإمامةَ، من وجوه:

١ ـ إنّ الإمامة عهد إلهيّ لا يثبت إلّا بالتنصيص من الله تعالى، وإمامة الأوّل كانت ببيعة الناس له بزعمهم مع عدم اتّفاقهم على بيعته عندنا؛ لخروج خيار الصحابة عنهم. وإمامة الثاني كانت بنصّ الأوّل من عند نفسه، وإمامة الثالث كانت بحكم أهل الشورىٰ الّتي جعلها الثاني، ولم يدّع أحد منهم نصّاً على خلافته مِن قِبَله تعالى أو مِن قبل رسوله.

٢ ـ إنّهم ما كانوا معصومين مع اعتبار العصمة في الإمامة كما هو صريح الآية، ولم يدّع أحد عصمتهم في حال إمامتهم فضلاً عمّا قبلها. وقد ذكرنا فيما تقدّم اعتبار العصمة من حين ولادة الإمام إلى حين رحلته.

٣ ـ إنّه تعالى قد صرّح بعدم نَيل الظالمين لهذه المرتبة العظيمة ولهذا المنصب الجليل، وهم قد كانوا ظالمين حيث إنّ الظالم في الآية عبارة عمّن وُجِد منه الظلم أو جاز عليه. وهو بكلا المعنيين منطبق عليهم، فكيف ينالون الإمامة؟!

ثمّ إنّه قد ذكرنا في المقدّمات أنّ الإمامة من أُصول الدين وأنّ الاعتراف بإمامة الإمام وولايته كالإقرار بالنبوّة، ولذا قال صلى الله عليه وآله: مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات

---

١ ـ نور الأبصار ١٥٦.

ميتة جاهليّة[١].

البحث الرابع

وبمقتضى ما استفدناه من الآية الدالّة على أنّ مرتبة الإمام فوق مرتبة النبوّة فظهر الوجه في تقديم النبيّ ﷺ منزلته في الآية من حيث الإمامة لا من حيث النبوّة و ذلك حين استخلف عليّاً و جعله في مكانه و أبان ولايته فقال : ألستُ أولى بكم من أنفسكم[٢]؟ ولم يَقُل ألستُ رسولكم أو نبيّكم، فإنّ إمامة الفرع وولايته متفرّعة عن ولاية الأصل وإمامته لا نبوّته و رسالته ؛ إذ لا توجب نبوّة الأصل ورسالته ثبوت الإمامة لخليفته القائم مقامه. كما أنّه قد ظهر ممّا تقدّم أنّ سائر الأئمّة عليهم السلام أيضاً أفضل من سائر الأنبياء حتّى أُولي العزم منهم. أمّا تقدّمهم على غير أُولي العزم فقد اتّضح لك ممّا مرّ من أنّ مرتبة الإمامة فوق مرتبة النبوّة و الرسالة، وقد كانوا أئمّة فهم أفضل ممّن ليست له الإمامة والولاية. و أمّا تقدّمهم على أُولى العزم من الرسل ـ مع ثبوت الإمامة لهم ـ فمن جهة أن الإمامة و الولاية لها مراتب، وأتمّ مراتبها و أكملها قد ثبت للنبيّ الأكرم ﷺ، ولذلك كان أفضل منهم بلا كلام. ومرتبة إمامة الفرع في مرتبة إمامة أصله، فإمامة الأئمّة عليهم السلام أيضاً أتمّ مراتب الإمامة و الولاية.

وقد تبيّن لك أيضاً ممّا مرّ أنّ الإمامة و النبوّة قد تجتمعان في شخص وقد تفترقان، و لا يقال : إنّه إذا كانت الإمامة مرتبة فوق النبوّة فكيف تفترق عنها كما في الأئمّة عليهم السلام ؟ فإنّ نَيل المرتبة الفائقة متفرّع عن نيل المرتبة النازلة. و نقول : إنّ استحقاق المرتبة الفائقة متفرّع عن استحقاق المرتبة النازلة وهذا الاستحقاق ثابت للأئمّة عليهم السلام وإنّما منع عن التلبّس و التقمّص بها ثبوت الخاتميّة للنبيّ الأكرم ﷺ.

---

١ ـ ينابيع المودّة ١١٧.

٢ ـ تفسير القمّيّ ٢ : ١٧٦ ؛ الصواعق المحرقة ٤٣.

وإليه يشير ما ورد من قوله ﷺ في حديث المنزلة بعد قوله ﷺ لا نبيّ بعدي: «لو كان لَكنته»[١].

آية «من عنده علم الكتاب»

قال الله تعالى ﴿وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[٢].

توضيح البحث في هذه الآية الشريفة وكيفيّة دلالتها على إمامة أميرالمؤمنين يستدعي بيان أُمور:

الأوّل: قد ذكر في ينابيع المودّة نقلاً عن الثعلبيّ وأبي نعيم عن ابن الحنفيّة وعن ابن عطاء قال: كنت مع محمّد بن عليّ الباقر في المسجد فرأيت ابن عبدالله بن سلام[٣]**، فقلت: هذا ابن الّذي عنده علم الكتاب؟ قال: إنّما ذلك عليّ بن أبي طالب**عليه السلام[٤]**. ثمّ ذكر في الينابيع إنّه روي أيضاً عن أبي سعيد الخدريّ والإمام موسى بن جعفر وزيدبن عليّ وإسماعيل السدّيّ أنّهم قالوا: هو عليّ بن أبي طالب**[٥].

وفي الكافي عن مولانا الباقر عليه السلام **: ... إيّانا عنَى، وعليّ أوّلنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبيّ** ﷺ[٦].

وفي الاحتجاج سأل رجلٌ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام **عن أفضل منقبة له، فقرأ الآية وقال** عليه السلام **: إيّاي عنى بمَن عنده علم الكتاب**[٧].

---

١ ـ المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٦.
٢ ـ الرعد ١٣/٤٣.
٣ ـ عبدالله بن سلام بن الحارث... له إسلام قديم بعد أن قدم النبيّ ﷺ المدينة و هو من أحبار اليهود، [و ابناه: يوسف و محمّد]، ... سير أعلام النبلاء ٢: ٤١٣ ـ ٤٢٦.
٤ ـ ينابيع المودّة ١٠٢.
٥ ـ نفس المصدر ١٠٣.
٦ ـ أنظر: الأُصول من الكافي ١: ٢٢٩.
٧ ـ الاحتجاج ١٥٩.

وفي تفسير البرهان من طرق المخالفين: روى المغازليّ بطريق والثعلبيّ بطريقَين: أنّه عليّ بن أبي طالب[١]. فالأخبار من الطريقين بحدّ التواتر دالّة على أنّ المراد بـ«من عنده علم الكتاب» في هذه الآية هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، كما لا يخفى.

الثاني: إنّ قوله تعالى ﴿وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ يختصّ بمولانا أميرالمؤمنين وأولاده الطاهرين، وإنّ هذه الشهادة أفضل منقبة له عليه السلام. وتبيين المرام يحتاج إلى بيان مقدّمة يذكر فيها أُمور:

١ ـ إنّ ضمّ شهادة مَن عنده علم الكتاب إلى شهادة الله تعالى يكون من قبيل ضمّ برهان إلى برهان لا شهادة عَدل إلى شهادة عدل آخر، بداهةَ عدم تطرّق نقص إلى شهادته تعالى حتّى تتمّ بضمّ شهادة غيره إليها ولعلّ تقديمه عزّوجلّ ﴿شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ﴾ على المعطوف؛ تنبيه على هذا المعنى، فكلّ من الشهادتَين برهان قطعيّ على ثبوت نبوّته صلى الله عليه وآله، ولا مجال لتوهّم أنّ شهادة مَن عنده علم الكتاب إلى شهادته تعالى يكون من قبيل ضمّ الدليل الظنّيّ إلى القطعيّ؛ لأنّ الدليل الظنّيّ في مثل المقام ـ مع عدم حجيّته ذاتاً والنهي عن اتّباعه في الآيات وعدم جواز الركون إليه عقلاً في الأُصول ـ كيف يمكن أن يؤخذ ويُحتجّ به لإثبات رسالته صلى الله عليه وآله؟! وحيث عطف هذه الشهادة على شهادته تعالى اقتضى اشتراكها معها في الحكم وهو الاكتفاء بشهادة مَن عنده علم الكتاب كشهادته تعالى.

٢ ـ إنّ اللام في «الكتاب» إنّما هو للعهد، فينصرف إلى القرآن المجيد الّذي فيه تبيان كلّ شيء أو اللوح المحفوظ المكتوب فيه كلّ شيء دون سائر الكتب السماوية. ويحتمل أن يكون للجنس فيعمّ الكتب كلّها، فيتّحد الوجهان في المعنى.

٣ ـ الشهادة منه تعالى في المقام إنّما كانت شهادة فعليّة، بداهةَ أنّه تعالى

---

١ ـ البرهان في تفسير القرآن ٢: ٣٠٤.

لم يتكلّم مع الناس بإيجاد صوت في شجرة كما تكلّم مع كليمه موسى عليه السلام؛ لعدم قابليّة عامة الناس لهذا المقام الجليل. فالمراد بشهادته تعالى لرسالته صلى الله عليه وآله هو إظهار المعجزات على يده تصديقاً لرسالته، و من أعظمها إنزال القرآن المجيد البالغ في البلاغة و المعارف و العلوم بحيث تحدّى جميع البشر و عجزوا عن مثله. و من البديهيّ أنّه يقبح إظهار المعجزة على يد الكاذب، كما قرّر في محله. و أمّا شهادة مَن عنده علم الكتاب فهي قوليّة و فعليّة، وقد حصلت بوجه أتمّ و أكمل بكلا الوجهين من أميرالمؤمنين و الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

٤ ـ المراد من «علم الكتاب» ليس العلم بظاهره فقط، بداهةَ أنّ العلم به كذلك يمكن أن يجامع عدم العصمة وعدم متابعة الهدى. ومَن هذا شأنه لا تفيد شهادتُه العلمَ و لا تكون مقبولة عند العقل، فكيف يستحقّ أن تُجعل شهادته عديلة لشهادته تعالى و برهاناً لرسالة الرسول؟! من هنا كان المراد به هو العلم بالكتاب كلّه ظاهره وباطنه، تأويله وتنزيله، أسراره وحكمه المودعة فيه، الّذي هو موهبة إلهيّة غير كسبيّة لا يليق بها إلّا المعصوم المطهّر من الزلل و الخطأ عمداً وسهواً، لتكون مفيدة للعلم و اليقين مقبولة عند العقل لائقة لأن تُجعل عديلة لشهادته تعالى.

و لا يخفى أنّ طريق كون الشخص عالماً بباطن القرآن و أسراره لا ينحصر بإخبار النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّه عالم بذلك وإلّا لزم أن لا تكون شهادته مثبتة لنبوّته، إذ التصديق بعلمه بالباطن وعصمته حينئذ فرع التصديق بنبوّة الرسول صلى الله عليه وآله، فكيف تكون شهادته مُثبتة لما يتفرّع منه؟! إنّ العلم بالباطن و أسرار القرآن كما يستكشف من إخبار النبيّ صلى الله عليه وآله بعد التصديق بنبوّته يستكشف كذلك من ظهور آثاره فيه من ظهور المعجزات على يده عند طلبها منه لإثبات الحجّة[1]، كما ظهر من أميرالمؤمنين عليه السلام[2] ومن آصف وصيّ سليمان حين أتى بعرش بلقيس قبل ارتداد

---

١ ـ قصص الأنبياء ٢٨١ ـ ٣١٥؛ بحار الأنوار ج ١٧ و ١٨.

٢ ـ بحار الأنوار ٤١: ١٦٦ ـ ٢٨٣ و ٤٢: ١ ـ ٥٦.

الطرف[١].

٥ ـ إنّ الإضافة في مثل المقام تفيد العموم، فلا يقال: «زيد عنده علم النحو أو الفقه» باعتبار أنّه عالم ببعض مسائله لا محيط بجميعها كما هو واضح.

إذ اتّضحت لك هذه الأُمور اتّضح غاية الوضوح عدم انطباق مَن عنده علم الكتاب إلّا على أميرالمؤمنين عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام، حيث إنّ الاكتفاء بشهادة مَن عنده علم الكتاب في إثبات الرسالة الّتي هي أساس الدين، وجعلَها عديلاً لشهادته تعالى متوقّف على إفادتها العلمَ واليقين. وهي متوقّفة على ثبوت عصمة الشاهد وطهارته المتوقّفة على إرادة العلم بظاهر الكتاب وباطنه.

ومن البديهيّ أنّ غير عليّ عليه السلام لم يكن كذلك، فإنّ ابن سلام ونظراءه من علماء اليهود لم ينالوا مقام العصمة والطهارة وإلّا لم يبقوا على شريعة موسى المنسوخة بشريعة عيسى؛ فإنّ بقاءهم على شريعة موسى إمّا أن يكون عناداً منهم مع الحقّ وإمّا جهلاً، وكلّ منهما ينافي العصمة. وإذا لم يكونوا معصومين فإسلامهم أيضاً لا يلازم الحقّ، إذ من المحتمل أن يكون الداعي لهم الطمع أو الخوف، فلا يجوز الاحتجاج بإسلامهم وشهادتهم على حقيقة الرسالة.

وقد ظهر أيضاً أنّ إضافة العلم إلى الكتاب تفيد العموم، ولو كان المراد منه البعض لأتى بكلمة «مِن» كما في قصّة آصف وصيّ سليمان[٢]، فإنّ علم الكتاب كلّه لم يكن عند سائر الأنبياء فضلاً عن علماء اليهود والنصارىٰ، فكيف يُفسَّر بعلمائهم مع أنّ سورة الرعد كلّها مكيّة وابن سلام ونظراؤه من علماء اليهود الّذين فُسّروا بـ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ـ على ما ذهب إليه بعض القوم ـ آمنوا برسول‌الله صلى الله عليه وآله في المدينة بعد الهجرة؟! ولذا قال سعيد بن جُبَير: كيف تكون هذه الآية نزلت في

---

١ ـ مجمع البيان ٤ : ٢٢٣.

٢ ـ قوله تعالى في النمل ٢٧/ ٤٠: ﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

عبدالله بن سلام والسورةُ كلّها مكّيّة[١] ؟! وممّن صرّح بكونها مكيّة: النيسابوريّ في تفسيره[٢]، والبَغويّ في معالم التنزيل[٣].

إنّ الآية، كما في الأخبار المرويّة عن الطرفين، غير منطبقة إلّا على أميرالمؤمنين وأولاده الطاهرين عليهم السلام، فإنّهم المعصومون العالِمون بالكتاب كلّه. وتوهُّم أنّ المراد بـ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ هو الله تعالى وأنّ العطف تفسيريّ كما عن الفضل[٤] مردود جدّاً؛ فإنّ العطف التفسيريّ مع الفصل بين المعطوفَين غير موجود في المقام، مع أنّ ظاهر العطف على اسم الجلالة فإنّه لا يحسن، ولا يجوز عطف الصفة على الموصوف.

هذا وإذا ثبت أنّ المراد مِن ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو أميرالمؤمنين عليه السلام، وأنّ الآية تدلّ على فضله الظاهر على غيره وعصمته لِجعلِ الله تعالى شهادتَه شهادةً كافية في ثبوت نبوّة نبيّنا من حيث ظهور فضله ومعرفته وكمال عصمته واجتنابه الكبائر والنقائص حتّى عدّت شهادته مقرونة بشهادته تعالى، فلابدّ أن يكون هو الإمام، ولا سيّما لكونه عنده علم الكتاب؛ فإنّ المرجع الدينيّ والمفزع الإسلاميّ الكامل في علمه وعمله والأفضل من جميع الأُمّة يُقدّم على غيره؛ لئلّا يلزم تقديم المفضول على الفاضل المستقبح عقلاً بلا كلام.

الثالث: إنّ المنقبة المذكورة في الآية هي من أفضل المناقب. وقد أشار أميرالمؤمنين عليه السلام إلى ذلك كما في الخبر المقدّم ذكره؛ فإنّ سائر المناقب الفاضلة متفرّعة عن هذه المنقبة، وذلك أنّ المناقب كلّها منشأها العصمة والعلم، والآية تدلّ على عصمته عليه السلام حيث اكتفى تعالى في إثبات نبوّة الرسول بشهادته عليه السلام الملازمة لعصمته عليه السلام وعدم تطرّق الخطأ إلى ساحة قدسه، بل تدلّ على المرتبة الكاملة من

١ ـ معالم التنزيل بهامش تفسير الخازن ٤ : ٢٦؛ الدرّ المنثور ٤ : ٦٩.

٢ ـ غرائب القرآن ١٣ : ٩٧.

٣ ـ معالم التنزيل بهامش تفسير الخازن ٤ : ٢٦.

٤ ـ دلائل الصدق ٢ : ١٣٤.

العصمة ومن هنا لا يصدر منه ترك الأولى كما لم يصدر من أُولي العزم من الرسل، وإن صدر عن غير أُولي العزم منهم.

وتدلّ على أنّ العلم الوافر والعلم كذلك ملازم لكمال العصمة والطهارة وتمام القدس ومنتهى طهارة النفس. ومن البديهيّ أنّ المقام الأعلى من العلم والعصمة مرتبة جليلة لا يليق بها إلّا من اجتمعت فيه الصفات الحميدة والفضائل الكريمة، ويؤتيها الله من يشاء حسب مراتب استعداد مَن يُؤتاها ولياقته. وقد اختلف نصيب الأنبياء من ذلك، فأُوتي نبيّنا وأئمّتنا الحظّ الأوفر، ومن إعطائه تعالى لهم المراتب العالية من العصمة والعلم يستكشف ارتقاؤهم في درجات الكمال إلى منتهاها بحيث لا يُتصوّر فوقها درجة ومرتبة.

ومن مناقبه عليه‌السلام : أنّه أخو الرسول في الدنيا والآخرة[١]، وهو هادي الأُمّة والنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله منذرها[٢]، ومنها الولاية على الأُمّة.

ومن البديهيّ أنّ صيرورة الشخص أخا النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله العالم بالكتاب المُنزل عليه والمعصوم من الزلل يقتضي أن يكون هو أيضاً كذلك، كما أنّ هداية الأُمّة بغير علم وافر وعصمة أمر غير معقول.

والولاية على الأُمّة تقتضي العلم بالكتاب كلّه والعصمة من الزلل حتّى يكون صاحبها مرجعاً لهم وملاذاً ووالياً وأميراً؛ فالعالِم بالكتاب كلّه والمعصوم من الزلل المعرّف في الكتاب والسنّة بذلك هو أميرالمؤمنين عليه‌السلام ، فلابدّ من تقديمه على غيره.

خاتمة

الأوّل : ربّما يُتوهّم أنّ المنكِر للأصل وهو النبوّة منكر للفرع وهو الولاية، فلا تكون شهادة الوصيّ قاطعة للخصومة بالنسبة إلى الرسالة ولا وَقْع لشهادته عند

---

١ ـ المناقب لابن المغازليّ ٣٧.

٢ ـ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٩ ـ ١٣٠.

منكرها، فكيف يَستشهِد الله تعالى بشهادته على نبوّة رسوله و يجعلها كافية لإثباتها؟

وهذا الاعتراض فاسد جدّاً، بداهةَ أنّ الاكتفاء بشهادة الفرع إنّما لا يجوز إذا كان القبول مستنداً إلى مجرّد الإقرار و الاعتراف مع قطع النظر عن ظهور مقامه و درجته وكونه عالماً بالكتاب قادراً على المعجزات ممّا يلازم العصمة و الصدق عقلاً. و أمّا إذا كان الاستشهاد به من حيث كونه كذلك كما في المقام حيث لم يُذكر الشاهد باسمه بل بوصفه لينظر المنكر في شأنه و يرجع إليه و يظهر عنده ثبوت آثاره، فيكشف عنده ثبوت الوصف للشاهد و حقّية المشهود، فهو قاطع للخصومة و مُثبت للدعوى بالضرورة، ولذلك حكي عن الرئيس ابن سينا أنّه اعترف بنبوّة الرسول الأعظم بعد ما ثبت عنده أنّ أميرالمؤمنينعليه السلام قد آمن به و اعترف برسالته[1].

الثاني: قد تقرّر أنّ الآية، منضمّة إلى الأخبار، تدلّ على أنّ علم الكتاب كلّه عند أميرالمؤمنين و الأئمّة الطاهرين من ولده عليهم السلام، وعليه يكونون أفضل من جميع الأنبياء و المرسلين حتّى أُولي العزم منهم؛ لأنّ علومهم محدودة و ليس عندهم علم الكتاب كلّه. أمّا علوم الأئمّة فغير محدودة، ففي الاحتجاج بإسناده عن محمّد بن أبي عُمَير عن ابن الوليد قال: قال أبوعبدالله عليه السلام: ما تقول الناس في أُولي العزم وصاحبِكم أميرالمؤمنين عليه السلام؟ قال: قلت: ما يقدّمون على أُولي العزم أحداً، فقال: إنّ الله تبارك وتعالى قال لموسى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىءٍ مَوْعِظَةً﴾[2] ولم يَقُل «كلَّ شيء»، وقال لعيسى ﴿وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾[3]، وقال لصاحبكم أميرالمؤمنين عليه السلام ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[4]، وقال عزّوجلّ ﴿وَ لَا رَطْبٍ وَ لَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[5] وعلم هذا

---

١ ـ مرّ سابقاً و لم نعثر عليه.

٢ ـ الأعراف ١٤٥/٧.

٣ ـ الزخرف ٦٣/٤٣.

٤ ـ الرعد ٤٣/١٣.

٥ ـ الأنعام ٥٩/٦.

الكتاب عنده[١]. وعليه يكون أميرالمؤمنين عليه السلام بمقتضى وفور علمه وعدم محدوديّته ـ بخلاف الأنبياء وأُولي العزم منهم، فإنّ علومهم محدودة ـ أفضل منهم وكذا المعصومون من عترته، حيث إنّهم المقصودون بـ «مَن عنده علم الكتاب» أيضاً، كما تقدّم في الأخبار.

١ ـ الاحتجاج ٣٧٥.

الفصل الثالث
الأدلّة النقليّة (السنّة)

الأخبار الدالّة على أنّ عليّاً أميرالمؤمنين خليفة رسول‌الله ﷺ بلا فصل و أنّ أبناءه المعصومين مِن بعده واحداً بعد واحد أوصياء رسول‌الله وخلفاؤه، هي بحدّ التواتر من الطريقَين، ولا بأس بذكر جملة منها للتبرّك بها، ونختار منها عشرة:

حديث الغدير

ورد عندنا أنّ جبرئيل نزل على النبيّ ﷺ في حجّة الوداع بأن ينصب عليّاً خليفة له، فضاق رسول‌الله به ذرعاً مخافَة تكذيب قومه، وقال لجبرئيل: إنّ قومي لم يُقرّوا لي بالنبوّة إلّا بعد ما جاهدتُ فكيف يقرّون لعليّ بالإمامة بكلمة واحدة؟! وعزم على نصبه بالمدينة، فلمّا وصل إلى غدير خمّ نزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾. ولمّا سار بعد نصبه ووصل إلى العقبة دحرجوا له الدِّباب لينفّروا ناقته ويقتلوه فينقُضوا فِعله فعصمه الله منهم، ثمّ أراد أن يؤكّد له النصّ في كتاب لا يضلّون بعده فنسبوه إلى الهُجْر، وأراد تسييرهم بجيش أُسامة فَعَصوه[1].

هذا، ولا بدّ من تحقيق الحديث في الجملة سنداً ودلالة، وهنا مطلبان:

---

١ ـ دلائل الصدق ٢: ٥٢، ومعناه في الاحتجاج ٥٦ ـ ٧١.

الأوّل : في صحّته سنداً.

وهي ممّا لا ريب فيه إلّا لبعض النُّصّاب. وقد صرّح ابن حجر في الصواعق في الشبهة الحادية عشرة من الفصل الخامس من الباب الأوّل أنّه حديث صحيح لا مِرْية فيه، وقد أخرجه جماعة كالترمذيّ[١] والنَّسائيّ[٢] وأحمد[٣]، وطرقه كثيرة جدّاً ومن ثَمّ رواه ستّة عشر صحابيّاً. وفي رواية لأحمد أنّه سمعه من النبيّ ثلاثون صحابيّاً وشهدوا به لعليّ عليه السلام لمّا نُوزِعَ أيّام خلافته[٤]، وهذا صريح في دلالة الحديث على الخلافة أيضاً. ثمّ قال في الصواعق : وكُثر من أسانيده صِحاح وحِسان، ولا التفات لمن قَدَح في صحّته ولا لمن ردّه بأنّ عليّاً كان باليَمن ؛ لثبوت رجوعه منها وإدراكه الحجَّ مع النبيّ صلّى الله عليه وآله. وقول بعضهم أنّ زيادة «اللّهمّ والِ مَن والاه.. الخ» موضوعة مردود، فقد ورد ذلك من طرق صَحّح الذهبيّ كثيراً منها[٥].

والحقّ أنّ الحديث من المتواترات حتّى عند القوم، كما عن الجزريّ الشافعيّ أنّه أثبت في رسالته أسنى المطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب عليه السلام تواتره من طرق كثيرة، ونسب مُنكره إلى الجهل والعصبيّة[٦]. واعترف السيوطيّ بتواتره[٧]، كيف لا وقد زادت طرقه على مائة عندهم، ورواه سبعون صحابيّاً أو أكثر[٨]؟! ونقل عن الطبريّ أنّه أخرجه عن خمسة وسبعين طريقاً وأفرد له كتاباً سماه الولاية. وعن ابن عقدة أنّه أخرجه عن مائة وخمسة طرق وأفرد له كتاباً سمّاه الموالاة[٩]. وقد أشار إلى الكتابين في تهذيب التهذيب بترجمة أميرالمؤمنين[١٠].

---

١ ـ سنن الترمذيّ ٥ : ٦٣٣.
٢ ـ الخصائص للنسائيّ ٣٠.
٣ ـ مسند أحمد بن حنبل ١ : ١١٨ و ١٥٢ ، ٤ : ٢٨١ و ٣٦٨ و ٣٧٠ و ٣٧٢.
٤ ـ نفس المصدر ٤ : ٣٧٠.
٥ ـ الصواعق المحرقة ٤٢.
٦ ـ أسنى المطالب في مناقب سيّدنا عليّ بن أبي طالب ٤٨.
٧ ـ تاريخ الخلفاء ١٨٨.
٨ ـ الغدير ١ : ١٤ ـ ٦٠، وقد ذكر من رواة الحديث مائة وعشرة من أعاظم الصحابة.
٩ ـ غاية المرام ٨٩ ـ ٩٠.
١٠ ـ تهذيب التهذيب ٧ : ٣٣٩.

والحاصل أنّ الحديث من المتواترات في جميع الأعصار. وقد أتعب السيّد السعيد[1] نفسه الزكيّة في بيان ذلك، وتبعه في ذلك شيخنا الأمينيّ في الغدير، فذكرا طرق القوم في كلّ عصر من زمان صدور الحديث إلى زماننا هذا، وذكرا مؤلّفيهم في هذا الموضوع ومفسّريهم وشعراء القوم وأُدباءهم، وليراجع الطالب ليظهر له الحقّ[2].

وحيث إنّ الحديث سنداً غير قابل للإنكار أوجس القوم في قلوبهم إنكار دلالته على الخلافة والإمامة العامّة وتشبّثوا بما هو أوهن من بيت العنكبوت، وستعرف الوجه فيه إن شاء الله تعالى.

الثاني: في دلالة الحديث على المطلوب.

قد روي أصحاب الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا بلغ موضعاً يسمّى بغدير خُمّ قام خطيباً، فحَمِد الله وأثنىٰ عليه ـ إلى أن قال عليه السلام: ـ أيّها الناس، مَن أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمَن كنتُ مولاه، فعليّ مولاه، يقولها ثلاث مرّات ـ وفي لفظ أحمد إمام الحنابلة أربع مرّات ـ ثمّ قال: اللّهمّ والِ مَن والاه وعادِ من عاداه وأبغِض من أبغضه وانصُر من نصره واخذُل من خذله وأدِر الحقّ معه حيثما دار، ألا فليُبلّغ الشاهدُ الغائب. ثمّ لم يتفرّقوا حتّى نزل جبرئيل بقوله تعالى ﴿الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الربّ برسالتي والولاية لعليّ عليه السلام مِن بعدي. ثمّ طَفِق القوم يُهنّئون أميرالمؤمنين، وممّن هنّأه في مقدّم الصحابة الشيخان، كلّ يقول: بَخٍ بَخٍ لك يا بن أبي طالب، أصبحتَ وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة. وقال ابن عبّاس: وجبت واللهِ في أعناق القوم، وأنشأ حسان أشعاره

---

١ ـ المراد به: السيّد هاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسينيّ البحرانيّ في كتابه المسمّى بـ«غاية المرام».

٢ ـ غاية المرام ٧٩ ـ ٨٩؛ الغدير، الجزء الأوّل.

المعروفة[١].

وقد وقعت الواقعة المشهورة وهي نزول العذاب ونزول الآية الكريمة ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ على الحرث بن النعمان الفِهْريّ حيث أتى النبيَّ ﷺ على ناقة له فأناخها على باب المسجد بعد ما شاع وطار في الأقطار والأمصار حديث الولاية، ووصل إلى اللعين فعقل ناقته وجاء إلى النبيّ ﷺ فقال: يا محمّد، إنّك أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله فقبلنا منك ذلك ـ إلى أن قال ـ ثمّ لم ترضَ بهذا حتّى رفعتَ بضبعَي ابن عمّك وفضّلته على الناس فقلتَ: مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه، فهذا شيء منك أو من الله؟ فقال رسول‌الله ﷺ وقد احمرّت عيناه: واللهِ الّذي لا إله إلّا هو إنّه من الله وليس منّي، قالها ثلاثاً. فقام الحرث وهو يقول: اللّهمّ إن كان ما يقول محمّد حقّاً فأرسل من السماء حجارةً أو ائتنا بعذابٍ أليم! واللهِ، فما بلغ ناقته حتّى رماه الله من السماء بحجر وقع على هامته فخرج من دبره ومات، فنزلت الآية[٢].

وأنت ترى أنّ دلالة الألفاظ والمقام على ثبوت الخلافة لعليّ ؑ أبيَن من النار على المنار ومن الشمس في رابعة النهار، ومهما شككنا في شيء فلا نشكّ في دلالة الحديث على ذلك. وقد فهم الكلّ حتّى المعاندون هذه الدلالةَ، وفي طليعة الناس ممّن فهم الولاية والإمامة من هذا القول والعمل الصادر من النبيّ ﷺ أميرُالمؤمنين ؑ، حيث احتجّ بذلك على القوم مراراً، واحتجّ به أولاده المعصومون وأصحابه ومواليه وتابعوه في مناشداتهم، وأهل الأدب والشعراء في أشعارهم ومعاهدهم من زمن صدور الحديث إلى يومنا هذا. ولا يسع الباحث أن يحكم بخطأ هؤلاء جميعاً وهم مصادر في اللغة ومراجع الأمّة في الأدب، بل فهم المعنى حتّى المنافقون وإن لم يعربوا عنه بقريض، ولكنّهم أبدَوه بصريح كلامهم حيث أتَوا

١ ـ الغدير ١: ١٠ ـ ١١، والآية في سورة المائدة ٥/٣.

٢ ـ نفس المصدر ١: ٢٤٢، والآية في سورة المعارج ٧٠/١ ـ ٢.

أميرَالمؤمنين وهنّؤوه بأنّه أصبح مولاهم ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة، وقد ضاق بعضهم بذلك صدراً حتّى سأل الله تعالى إنزالَ العذاب، فعوجل بالعقوبة كما مرّ.

وقد فهم المعنى أيضاً الوفد الّذين وافَوا أميرالمؤمنين في رحبة الكوفة قائلين: السلام عليك يا مولانا، فاستوضح الإمام عليه السلام الحالة لإيقاف السامعين على المعنى الصحيح، وقال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم من العرب؟ قالوا: إنّا سمعنا رسولالله صلى الله عليه وآله يقول يوم غدير خمّ: مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه[١]، فإنّ المولويّة المستعظَمة عند العرب الّذين لم يكونوا يتنازلون بالخضوع لكلّ أحد إنّما هي الرئاسة الكبرى الّتي استوضحها أميرالمؤمنين للملأ باستفهام، فكان مِن جواب القوم إنّهم فهموها من نصّ الرسول، و هي ليست بمعنى النصرة والمحبّة وغيرهما من المعاني المحتملة، فإنّها لم تكن مورداً للمنازعة والمخالفة حتّى تحتاج إلى الإبراز والاحتجاج والمناشدة كما لا يخفى.

وبالجملة: مناشدة عليّ عليه السلام يوم الشورى[٢] وفي الرحبة[٣]، ومناشدة الزهراء[٤] والحسن[٥] والحسين[٦] والباقر[٧] والرضا[٨]، ومناشدة عمر بن العبد العزيز[٩] والمأمون[١٠] وكثير من الصحابة، ومناشدة الشعراء والأدباء والمحدّثين والرواة، والاستدلال بالحديث في كلّ عصر وزمان، أوضح برهان على ظهور الخبر وصراحته فيما كان مورداً للمنازعة والمخاصمة، أعني الزعامة العامّة، وليراجع للاستيضاح الغدير[١١].

---

١ ـ مسند أحمد بن حنبل ٥: ٤١٩.
٢ ـ المناقب للخوارزميّ ٣١٣ ـ ٣١٥.
٣ ـ المناقب لابن المغازليّ ٢٠ ـ ٢١.
٤ ـ أسنى المطالب ٥٠ ـ ٥١.
٥ ـ ينابيع المودّة ٤٨٠ ـ ٤٨٢.
٦ ـ كتاب سُلَيم بن قيس الهلاليّ ١٦٩ ـ ١٧١.
٧ ـ الاحتجاج ٣٣٠.
٨ ـ نفس المصدر ٤٣٣.
٩ ـ حلية الأولياء ٥: ٣٦٤.
١٠ ـ ينابيع المودّة ٤٨٤.
١١ ـ الغدير ١: ١٥٩ ـ ٢١٣.

إشكالات و ردود

أشكل القوم على دلالة الحديث بما هو بالإعراض جدير، و إنّما نذكر و نجيب استيفاءً للبحث، فنقول : قد ذكر في المقام إشكالات:

الأوّل : إنّ «المولى» من الألفاظ المشتركة بين معانٍ عديدة تبلغ خمسة وعشرين أو أكثر، منها الابن، العمّ، الناصر، المحبّ، المعتق، الصديق، الحليف، وهكذا. و ليست هناك قرينة جليّة على إرادة الأولى بالتصرف كما عليه الشيعة، فيصير اللفظ مجملاً و لا يصحّ الاستدلال به على أحد المعاني بعينه.

و هذا الإشكال لا وَقع له؛ لأنّ توهّم لفظ «المولى» مشترك بين المعاني العديدة غلط محض، حيث إنّ هيئته ظاهرة في جميع موارد استعمالاته في إفادة نسبة المبدأ إلى شيء على وجه المحليّة زماناً أو مكاناً. و أمّا المادّة أعني «وَلْي» كفَلْس فهي كما عن المصباح بمعنى القرب ولم يذكر له سوى هذا المعنى، و إنّما ذكر بعد ذلك موارد استعمالاته[1]. و من الموارد المستعملة في القرب المعنويّ: الموالاة بين الشخصين، بمعنى المحبّة و النصرة و السلطنة.

و الحاصل أنّ المعنى الأصليّ و هو القرب محفوظ في جميع موارد استعماله لا يختلف باختلافها، و إنّما تختلف الخصوصيات الطارئة على أصل المعنى باختلاف الموارد، فتوهّم أنّ المعنى يختلف في الموارد و الاشتراك لفظيٌّ، خيال فاسد.

و على هذا لا إجمال في هذا اللفظ لعدم تعدّد المعنى الأصليّ المستعمل فيه اللفظ حتّى يتطرّق الإجمال إلى المستعمل فيه لكي يحتاج إلى قرينة معيّنة. هذا بالنسبة إلى أصل المعنى، و أمّا بالنسبة إلى الخصوصيّات الطارئة باختلاف الموارد فظهور لفظ «المولى» في مالك الأمر و الأولى بالتصرّف في حدّ نفسه ـ مع قطع

---

۱ ـ المصباح المنير ۶۷۲.

النظر عن المورد ـ غير خفيّ. ومن البديهيّ أنّ هذه الأولويّة محفوظة في جميع موارد استعماله كما يظهر بأدنى تأمّل، مع أنّ المورد يقتضي صراحة اللفظ في هذا المعنى، وذلك لقرائن كثيرة ذكرها في الغدير[١].

منها: صدر الخبر، حيث أخذ الإقرار منهم بأنّه ﷺ أولى بهم من أنفسهم، فقال بعد ذلك: مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه.

ومنها: سَبق أمر الله سبحانه نبيَّه بهذا التبليغ وتهديده تعالى نبيّه على تركه، فإنّه لا يصحّ حمله على الأمر بتبليغ أنّ عليّاً مُحبّه أو ناصره أو صديقه وهكذا، فإنّ المناسب لهذا التبليغ الخطير هو أن يكون المبلَّغ به أمراً دينيّاً عظيماً لا يتحمّله الناس بسهولة ويلزمهم الأخذ به ولو رغماً على أنفسهم، فإنّ التبليغ بالمحبّة أو النصرة أو الصداقة مع كونها من البديهيّات إنّما يشبه إبلاغ الواضحات. على أنّ مثل النصرة لكلّ مؤمن ومؤمنة موقوفة على إمامته وزعامته العامّة، بداهةَ عدم تماميّتها مع كونه رعيّة لغيره ومحكوماً له في جُلّ أيّامه، ولذا لم يقدر على نصرة أخصّ الناس به وهي سيّدة النساء مع علمه بأنّها محقّة في مطالبتها بحقّها، فلابدّ أن يكون إمّا كلامه ﷺ كذباً وحاشاه وإمّا بياناً لإمامة عليّ عليه السلام، وهو المطلوب.

ومنها: إنّه ﷺ بيّن قرب وفاته كما في روايات الباب، وهو مقتضٍ للعهد بالخلافة، فكلامه ﷺ محمول على هذه الجهة لا على الحبّ والنصرة، مع أنّه ﷺ صرّح: بـ«إنّي تاركٌ فيكم الثقلين وإنّي سائلكم عنهما وإنّهما لن يفترقا»[٢]، وكلّ هذا لا يناسب إلّا العهد بالإمامة.

ومنها: دعاؤه لعليّ عليه السلام بما يناسب العهد له.

ومنها: القرائن الحاليّة الدالّة على أنّه ﷺ ما أراد إلّا بيان أهمّ الأُمور وأعظمها، ومن هذه القرائن: بالصلاة جامعة، واجتماع الناس في ذلك المكان

---

١ ـ الغدير ١ : ٣٧٠ ـ ٣٩٠.

٢ ـ المناقب لابن المغازليّ ٢٣٤.

المُقفِر مع حَرّ الحجاز وقت الظهيرة، وإقامة المنبر من الأهداج، وقيامه خطيباً بين جماهير يبلغ عددهم مائة ألف أو أكثر أو أقلّ، وتهنئة الناس له بالولاية، والسلام عليه بالإمارة، ومصافحتهم إيّاه بالخلافة، وجعلُ ذاك اليوم عيداً، واتّخاذ التّيجان له كتيجان الملائكة، وغير ذلك ممّا لا يصلح إلّا لأن يكون مراد النبيّ ﷺ بيان ولاية أميرالمؤمنين التي يلزم إيضاح حالها والاهتمام بشأنها وإعلام كلّ مسلم بها لا توضيح الواضحات و إعلام البديهيّات، إلى غير ذلك من القرائن الحاليّة والمقاليّة[1].

الإشكال الثاني: ما ذكره الرازيّ وتبعه مؤلّف كتاب المواقف وشرحه من أنّ «مَفْعَل» بمعنى «أفعَل»، لم يذكره أحد من أئمّة اللغة، مع أنّ الاستعمال على خلافه لجواز أن يقال: هو أولىٰ من كذا، ولا يقال: مولى من كذا. ولو سلّم أنّ المولى بمعنى الأولى فأين الدليل على أنّه بمعنى أولى بالتصرّف والتدبير؟ لجواز أن يراد الأولى في أمر من الأمور فيراد الأولويّة بالاتّباع والاختصاص لا بالتصرّف والتدبير فيصحّ الاستفسار بأن يُسأل: في أيّ أمر يكون أولى؟ ويصحّ التقسيم بأن يقال: كونه أولى به إمّا في نصرته، وإمّا في ضبط أمواله، وإمّا في تدبيره والتصرّف فيه، وحينئذ لا يدلّ الحديث على إمامته[2].

وفيه: أوّلاً: أنّ أباعُبَيدة فسّر المولى في قوله تعالى ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ بـ«الأولىٰ بكم»[3]، كما حكي عنه في شرح تجريد القوشجيّ وغيره[4].

وثانياً: أنّ من فسّر «المولى» بالتصرّف لا يريد أنّه اسم تفضيل مثله حتّى يَرد عليه النقض بما ذُكر، بل أراد التفسير بحاصل المعنى بالقرائن المتقدّم ذكرها. وأمّا

---

١ ـ الغدير ١: ٢٦٧ ـ ٢٩٣.

٢ ـ الأربعين في اُصول الدين ٤٦٢ ـ ٤٦٣؛ شرح المواقف ٦١٢.

٣ ـ مجاز القرآن ٢: ٢٥٤.

٤ ـ شرح تجريد العقائد ٣٦٩؛ الكشّاف ٤: ٤٧٦، والآية في سورة الحديد ١٥/٥٧.

ما ذكر من صحّة الاستفسار وصحّة التقسيم وجواز إرادة الأولى في أمر من الأُمور غير التصرّف والتدبير فخطأ محض، بداهةَ أنّ ذلك مبنيّ على إجمال الحديث؛ وقد مرّ صراحة اللفظ بل كونه نصّاً في الأولى بالتصرّف بالقرائن المتقدّمة، كيف ولو كان الحديث مجملاً مع تلك القرائن فيدخله هذا الاحتمال ويجوز فيه الاستفسار والتقسيم لكانت كلمة «الشهادة» أولى بالإجمال؛ لإمكان الاستفسار فيها عن المراد: هل هو لا إله إلّا هو في السماء، أو في الأرض، أو في الدنيا، أو في الآخرة؟ لإمكان التقسيم فيها أيضاً بهذا النحو، وهذا لا يقوله ذو مسكة مِن عقل.

الإشكال الثالث: إنّ عليّاً لم يكن يوم الغدير مع النبيّ فإنّه كان باليمن[1].

ويرد عليه ما رواه ابن حجر وغيره منهم بأنّه رجع عليه السلام من اليمن والتحق بالنبيّ صلى الله عليه وآله في الميقات[2].

الإشكال الرابع: إنّ أكثر رواة حديث الغدير لم يَرووا صدر الحديث، وهو: ألستُ أولى بكم من أنفسكم.

وفيه: إنّه لو سلّم عدم ذكر الأكثر لكفى ذكر غالبهم في الصحاح الكثيرة التي صرَّح بصحّتها ابن حجر والذهبيّ والحاكم، كما نقل في الغدير[3].

الإشكال الخامس: إنّه لو سلّم بدلالة الحديث على إمامة عليّ عليه السلام فلا نسلّم بدلالته على كونها بعد النبيّ صلى الله عليه وآله بلا فصل حتّى تنتفي إمامة الثلاثة.

وفيه: أوّلاً: قد عرفت دلالة لفظ «المولى» على القرب ومجيئ أحد الطرفَين بعد الآخر بغير فصل.

وثانياً: هل يُعقل أن يَترك النبيُّ صلى الله عليه وآله ـ في وقت نصب إمام للمسلمين وقد حضر أجله ـ التصريحَ بإمامة الثلاثة وصرّح بإمامة الرابع التي تجيئ بعدهم بخمس وعشرين سنة بعد وفاته؟! ولو جاز ذلك لكان ولاة العهد عامّةً محلّ كلام إذ

---

١ ـ شرح المواقف ٦١٢.

٢ ـ الصواعق المحرقة ٤٢.

٣ ـ الغدير ١: ٣٠٠، ١٢٤، ١٠٧.

لا يقول السلطان : هذا وليّ عهدي بلا فصل.

وأظنّ أنّه لو صرّح الرسول بقوله : أنّ عليّاً مولى من بعدي، لقالوا : لا منافاة بين البعديّة والفصل كما صنع القوشجيّ[1]، بل لو قال : مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه من بعدي بلا فصل، لقالوا : يُحتمل أن يكون المعنى بلا فصل من غير الثلاثة! ولا يبعد ممّن نشأ على التعصّب والعناد أن يقول كما بيّن تعالى عنه ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَاءَنَآ عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾[2].

وثالثاً : يلزم أن يكون عليّ عليه السلام إمام بعض الناس، مع أنّ الظاهر أنّه وليّ كلّ فرد منهم من زمن الرسول إلى آخر الدهر.

تنبيه : الأمر الأوّل : قد أنكر مؤلّف كتاب المواقف وشارحه تواتر الحديث بدعوى : أنّ أكثر أصحاب الحديث كالبخاريّ ومسلم وأضرابهما لم ينقلوه، وقد طعن فيه أبو داود السجستانيّ وأبو حاتم الرازيّ[3].

نقول : إنْ أراد من عدم التواتر عدم صحّته وأنّه لم يَرِد بسند صحيح فهو كذب محض؛ لتصحيح الحاكم وغيره له حتّى أنّ الذهبيّ وابن حجر اعترفا بصحّة كثير من طرقه، وقد تقدّم كلامهما. وإن أراد عدم إفادته اليقينَ بالصدور لعدم كونه متواتراً عندهم، فهو أيضاً بهتان عظيم؛ لاستفاضة طرقه عندهم فضلاً عنّا استفاضةً توجب أعلى مرتبة التواتر عند المنصفين. وقد اعترف السيوطيّ وابن الجرزيّ بتواتره ونسب منكره إلى الجهل والتعصّب، كما تقدّم.

وأمّا عدم ذكر البخاريّ ومسلم له فغير عجيب، إذ كم أهملا أخباراً صحيحة عندهم واستدركها أصحابهما! ولست ألومهما على إهمالهما هذا الحديث الصحيح المتواتر، لا لمجرّد عدم موافقته لمذهبهما بل لرعاية ملوك زمانهما وهوى قومهما، والناس على دين ملوكهم، وهذا أيضاً عذر السجستانيّ وأبي حاتم وأمثالهما؛ فعدم

---

١ ـ شرح تجريد العقائد ٣٦٩.

٢ ـ الزخرف ٤٣/٢٢.

٣ ـ شرح المواقف ٦١١.

ذكرهم الحديث و إهمالهم الحقّ كان لذلك، كما لا يخفى على أُولي النُّهى.

الأمر الثاني : ربّما يختلج في البال أنّ حديث الغدير لو كان من المسلّمات على النحو الذي ذُكر و كانت دلالته على المدّعى صريحة كما سطر، فما الوجه في عدم تمسّكه عليه‌السلام و تمسّك أصحابه الكرام به وقت السقيفة؟

وهذا التوهّم لا وجه له ؛ و ذلك لأنّه عليه‌السلام حال السقيفة كان مشغولاً بتجهيز النبيّ ولم يحضرها ليُلقي عليهم الحجّة. والّذين اجتمعوا فيها كان كلّ واحد منهم يجرّ النار إلى قرصه، وبعضهم كان ينتظر الفرصة بصرف الأمر عن عليّ عليه‌السلام حسداً أو عناداً. ولعلّ أصحابه عليه‌السلام قد تمسّكوا به ولم يذكر ذلك التاريخ. وأمّا بعد وقوع البيعة وغلبة القوم على الأمر فلم يكن له عليه‌السلام مجال لأخذ حقّه والتمسّك بحجّته، مع شدّة وطأته وتنمّره في ذات الله وحرصه على أصل الدين وخوف الفتنة عليهم من التبدّد والارتداد ؛ لكونهم حديثي عهد بالإسلام. ومع ذلك كان كلّما وجد فرصة مقتضية لطلب الحقّ واقتضت الحكمة إظهاره وإنجازه قام بما هو جدير بأهل الحكمة والعقل. وقد احتجّ بواقعة الغدير هو بنفسه كما احتجّ أصحابه وأولاده الطاهرون، وأشارت الزهراء عليها‌السلام في خطبتها المشهورة وأُشير إلى احتجاجاتهم فيما تقدّم اختصاراً، فتأمّل جيّداً.

أحاديث المنزلة و المؤاخاة و الوراثة

حديث المنزلة

زيد بن أبي أوفىٰ قال : لمّا آخى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله بين أصحابه و آخى بين عمر و أبي بكر، ـ إلى أن قال ـ فقال عليّ عليه‌السلام : لقد ذهب روحي وانقطع ظهري حين رأيتك فعلتَ بأصحابك ما فعلت غيري، فإن كان هذا من سخط عليّ فلك العُتبى و الكرامة، فقال رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : والّذي بعثني بالحقّ ما أخّرتك إلّا لنفسي، و أنت منّي بمنزلة

هارون من موسى غير أنّه لا نبيّ بعدي، وأنت أخي ووارثي. قال: وما أرث منك يا نبيّ‌الله؟ قال: ما وَرّثت الأنبياءُ مِن قَبلي. قال: ما ورّثت الأنبياء مِن قبلك؟ قال ﷺ: كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم، وأنت معي في قصري في الجنّة مع فاطمة ابنتي، وأنت أخي ورفيقي. ثمّ تلا رسول‌الله ﷺ ﴿إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[1].

والأخبار في باب المنزلة والأُخوّة متواترة، قد ذكر في غاية المرام[2] منها ما يبلغ المائة، وذكر في الغدير[3] ما يشفي الغليل، فلا مجال للمناقشة فيها سنداً. كما أنّ حديث الوراثة[4] أيضاً ممّا استفاضت به الأخبار، وهذه الرواية وأمثالها مشتملة على مناقب ثلاث لأميرالمؤمنين عليه السلام: «المنزلة، والأُخوّة، و الوراثة»، وكلّ واحدة منها دليل صريح على اختصاص الإمامة والولاية بعد رسول‌الله ﷺ به دون غيره مع وجوده.

أمّا المنزلة فلأنّ قوله ﷺ: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى»، يدلّ على ثبوت جميع منازل هارون من موسى لمولانا أميرالمؤمنين عليه السلام من رسول‌الله ﷺ، إلّا النبوّة الّتي استثناها. ومن جملة منازل هارون من موسى بل أظهرُها وأجلاها: خلافته عنه ووزارته له، كما قصّ الله تعالى على رسوله في كتابه. وقد مرّ في ما تقدّم من رواية أنّ النبيّ ﷺ سأل ربّه جميع منازل هارون من موسى لعليّ عليه السلام، وقد أعطاها إلّا النبوّة. وبالجملة لا شبهة في أنّ الاستثناء دليل العموم، فتثبت لعليّ عليه السلام جميع منازل هارون الثابتة في قوله تعالى ﴿وَاجْعَلْ لِّى وَزِيراً مِنْ أَهْلِى هَـٰرُونَ أَخِى * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى * وَ أَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى﴾[5].

ومن منازل هارون: الإمامة، فإنّ المراد بالأمر في قوله تعالى ﴿وَ أَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى﴾ ما هو أعمّ من النبوّة الّتي هي التبليغ عنه تعالى، ومن الإمامة الّتي هي

---

١ ـ ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١: ١٢٣، والآية في سورة الحجر ٤٧/١٥.

٢ ـ غاية المرام ٤٧٨ ـ ٤٩١.

٣ ـ الغدير ٣: ١١٣ ـ ١٢٤.

٤ ـ المناقب لابن المغازليّ ٢٠٠ ـ ٢٠١.

٥ ـ طه ٢٩/٢٠ ـ ٣٢.

الرئاسة العامّة ؛ فهما أمران مختلفان قد ثبتا معاً لشخص وقد يثبت أحدهما له دون الآخر، ولذلك جعل الله سبحانه إبراهيم نبيّاً[1] وإماماً[2] بجعلَين مستقلّين.

ويشهد لِلحاظ الإمامة وإرادتها من الأمر في الآية: الأخبار في ذيل الآية الشريفة، بأنّ النبيّ ﷺ دعا، فقال: اللّهمّ إنّي أسألك بما سألك أخي موسى أن تشرح لي صدري، وأن تيسّر لي أمري، وتحلّ عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً أخي، اشدُد به أزري، وأشركه في أمري[3]؛ فإنّ المراد هنا بالإشراك في أمره هو الإشراك في الإمامة لا النبوّة كما هو ظاهر، ولا المعاونة على تنفيذ ما بُعث فيه لأنّه دعا له أوّلاً بأن يكون وزيراً له.

والحاصل أنّ معنى الآية الكريمة إشراك هارون في الأمر الشامل لجهتَي النبوّة والإمامة، ولذا لم تكن خلافة هارون لموسى لمّا ذهب إلى الطور كخلافة سائر الناس ممّن لا حكم له ولا رئاسة ذاتاً، بل هي خلافة شريك لشريك أقوى. وكما لا يتصرّف الخليفة بحضور المستخلِف بحضوره فهكذا عليّ عليه السلام ؛ بحكم الحديث لدلالته على أنّ له جميع منازل هارون الّتي منها شركته لموسى في أمره إلّا النبوّة، فيكون عليه السلام إماماً مع النبيّ ﷺ في حياته كما تقدّم في بعض كلماتنا. فلابدّ أن تستمرّ ولايته إلى بعد وفاته. ولو تنزّلنا عن ذلك فلا إشكال في أنّ مِن منازل هارون أن يكون خليفة لموسى لو بقي بعده؛ لأنّ الشريك أولى الناس بخلافة شريكه. وكذا يكون عليّ عليه السلام، مع أنّ هارون كان أفضل قوم موسى بحكم الآية فكذا عليّ عليه السلام بالنسبة إلى المسلمين فيكون إمامهم.

وقد ظهر على جميع الوجوه أنّه لا ينافي في الاستدلال بالحديث على المدّعى موتُ هارون قبل موسى. كما عُلم بطلان أن يكون المراد مجرّد استخلاف أميرالمؤمنين عليه السلام في المدينة خاصّة، فإنّ خصوص المورد لا يخصّص عموم

---

١ ـ مريم ١٩/٤١.
٢ ـ البقرة ٢/١٢٤.
٣ ـ الدرّ المنثور ٤: ٢٩٥.

الموارد، لا سيّما أنّ الاستخلاف في المدينة لم يكن مختصّاً بأميرالمؤمنين؛ لاستخلاف النبيّ ﷺ غيرَه بها في باقي الغزوات غير تبوك. و مقتضى الحديث أنّ للاستخلاف منزلة خاصّة به كمنزلة هارون من موسى الّتي لم يُستَثنَ منها إلّا النبوّة، فلابدّ أن يكون المراد بالحديث إثبات تلك المنزلة العامّة له بعد النبيّ ﷺ.

تشكيك و ردود

و أمّا ما ادّعى الفضل بن روزبهان ـ من أنّ الاستخلاف كان خاصّاً عند ذهابه به إلى تبوك، واستدلّ عليه بقوله تعالى ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ حيث كان هارون خليفة لموسى عند ذهابه إلى الطور فقط لا الاستخلاف المطلق حيث مات قبله، فيكون التنزيل من هذه الجهة فقط[١] ـ فهو غير سديد جدّاً؛ وذلك لأنّ مجرّد وقوع الاستخلاف الخاصّ من موسى لا يدلّ على اختصاص خلافة هارون بذلك المورد دون غيره وكذا استخلاف عليّ عليه السلام، بل العبرة بعموم الحديث مع اقتضاء شركة هارون لموسى في أمره بثبوت الخلافة العامّة له وكذا لعليّ عليه السلام.

ويدلّ على عدم إرادة الاستخلاف الخاصّ بخصوصه ورود الحديث في موارد لا دخل لها فيه، منها ما ورد من تعليل النبيّ ﷺ تحليلَ المسجد لعليّ عليه السلام جُنباً بأنّه عليه السلام منه بمنزلة هارون من موسى[٢].

و منها: ما رواه في كنز العمّال عن أُمّ سليم أنّ النبيّ ﷺ قال لها: يا أُمّ سليم، إنّ عليّاً لحمه من لحمي ودمه من دمي وهو منّي بمنزلة هارون من موسى[٣].

و منها: ما رواه في الكنز أيضاً عن ابن عبّاس أنّ عمر قال: كُفُّوا عن ذِكر عليّ بن أبي طالب؛ فإنّي سمعت رسول‌الله ﷺ يقول: في عليّ ثلاث خصال لأَن

---

١ ـ دلائل الصدق ٢: ٢٥١، و الآية في سورة الأعراف ١٤٢/٧.

٢ ـ كفاية الطالب ٢٥٠ ـ ٢٥١؛ علل الشرائع ٢٠٢.

٣ ـ كنز العمّال ١١: ٦٠٧.

يكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ ممّا طلَعتْ عليه الشمس. كنت و أبوبكر و أبوعُبَيدة و نفر من أصحاب رسول الله و النبيُّ ﷺ متّكئ على عليّ ﷺ حتّى ضرب بيده على منكبه ثمّ قال : أنت يا عليّ أوّل المؤمنين إيماناً و أوّلهم إسلاماً، ثمّ قال : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، وكذب مَن زعم أنّه يحبّني ويبغضك[١].

و منها : ما في الكنز أيضاً عن زيد بن أبي أوفىٰ في قصّة المؤاخاة[٢]، وقد تقدّم الحديث في أوّل البحث.

و منها : ما ورد عند مخاصمة عليّ و جعفر و زيد في تربيته بنت حمزة على ما رواه النسائيّ في الخصائص فقال ﷺ : ... يا عليّ، أنت منّي بمنزلة هارون من موسى...[٣].

ويشهد لعموم المنزلة ما ورد من أنّ النبيّ ﷺ سمّى الحسنَين بالحسنين اقتفاءً لهارون في تسمية ولدَيه بشبّر و شبير[٤]، فإنّ ذلك ونحوه شاهد على أنّ عليّاً شبيه هارون في جميع المزايا و أنّ له خصائصه كلّها و أظهرُها الإمامة. بل يستفاد من حديث التسمية إمامة الحسنَين أيضاً كولدَي هارون. ويشهد لعموم المنزلة ما عَمَد اليه النبيّ ﷺ يوم الغدير في حقّ عليّ ﷺ من التشريفات كإقامة الخيمة وتتويجه بعمامة خاصّة و أخْذ البيعة له من الصحابة، والتسليم عليه بإمرة المؤمنين، و جعل الخلافة وسبيل الهداية والنجاة في أولاده الطاهرين كما فعل موسى لهارون عند إظهار نبوّته و خلافته[٥].

و منها : ما رواه في غاية المرام عن ابن المغازليّ الشافعيّ بإسناده إلى إسماعيل بن أبي خادم عن قيس، قال : سأل رجل معاوية عن مسألة فقال : سَلْ عنها عليّ بن أبي طالب فإنّه أعلم، فقال لمعاوية : قولك فيها أحبّ إليّ من قول

---

١ ـ نفس المصدر ١٣ : ١٢٢ ـ ١٢٣.
٢ ـ نفس المصدر ١٣ : ١٠٥ ـ ١٠٦.
٣ ـ الخصائص للنسائيّ ٢٧.
٤ ـ أمالي الصدوق ١١٦.
٥ ـ علل الشرائع ٢٠٩.

عليّ عليه السلام! قال: بئس ما قلت؛ لقد كرهت رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُغِرّه العلم غرّاً، ولقد قال له رسول الله: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي، ولقد كان عمر بن الخطاب يسأله فيأخذ عنه... الخبر[١].

فهذه الأخبار شاهدة على عموم المنزلة وعدم اختصاص الاستخلاف بمورد خاصّ. وإذا ثبت بمقتضى الحديث جميع منازل هارون من موسى لعليّ من رسول الله صلى الله عليه وآله غير النبوّة ـ ومن أظهرها الخلافة العامّة ـ فيكون الحديث مصرّحاً بخلافته عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله بلا فصل، حيث كانت خلافة هارون من موسى أيضاً كذلك، ولمّا كان هذا النصّ قد ورد في حقّ عليّ عليه السلام دون غيره فلا وجه للعدول عنه، وبما أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قضى لعليّ عليه السلام هذا الحكم وأثبت له هذه المنزلة فليس لهم الخيرة مع خيرة الله ورسوله، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٢]، مع أنّه ليس لهم الخيرة في أمور دينهم ودنياهم مع اختيار الله ورسوله صلى الله عليه وآله، فكيف لهم أن يختاروا في أمر الرسول بعد قضائه به ؟!

حديث المؤاخاة

وأمّا الأُخوّة فهي أيضاً ممّا تواترت به الأخبار، وقد استشهد بها الإمام عليه السلام في وقعة الشورىٰ وفي موارد كثيرة يجدها الباحث في الغدير[٣]. وهي أيضاً دالّة على أنّه عليه السلام أقرب الناس شرفاً ومنزلة منه صلى الله عليه وآله، ومَن هذا شأنه كيف يجوز لغيره التقدّم عليه في الخلافة عنه صلى الله عليه وآله ؟! وبيان ذلك أنّ الأُخوّة في الدين ثابتة بين جميع المؤمنين لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٤].

---

١ ـ غاية المرام ١٠٢؛ المناقب لابن المغازليّ ٣٤ ـ ٣٥.

٢ ـ الأحزاب ٣٣/٣٦.

٣ ـ الغدير ١: ١٦٢.

٤ ـ الحجرات ٤٩/١٠.

وأمّا المؤاخاة الّتي اتّخذها رسول الله ﷺ بين كلّ اثنين من الصحابة فهي حسب مرتبتهما في الدين والإيمان كما هو ظاهر، فاتّخاذه ﷺ عليّاً عليه السلام أخاً لنفسه دون غيره يدلّ على أنّه أقرب الخلق إليه ﷺ في الدين والإيمان بالله ورسوله والعلم بالكتاب والسنّة والعمل بهما، ومَن هذا شأنه يستحقّ أن يكون خليفة له وأن يكون ممثّلاً لِما بُعث ﷺ لأجله مِن قِبله تعالى، وهذه المؤاخاة كانت رمزاً للإمامة. كما أنّ جعل النبيّ ﷺ عليّاً نفسَه في آية المباهلة أيضاً رمز إليها، ولذلك احتجّ عليّ عليه السلام بحديث المؤاخاة يوم الشورىٰ. ويشهد لذلك أيضاً وصف عليّ عليه السلام بالإخوّة في معرض وصف النبيّ ﷺ بالرسالة فيما هو مكتوب على باب الجنّة، قال النبيّ ﷺ: مكتوب على باب الجنّة قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بألفي عام «محمّد رسول الله وعليّ أخوه»[1].

إيقاظ

قضيّة المؤاخاة بين المهاجرين ممّا تواترت به السنن والأخبار، ومع ذلك أنكر ابن تيميّة المؤاخاةَ بين النبيّ ﷺ وعليّ عليه السلام وقال: لأنّ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لإرفاق بعضهم ببعض، ولتأليف قلوب بعضهم ببعض، ولا معنى لمؤاخاة مهاجريّ لمهاجريّ[2]!

وفيه: إنّ التأليف والإرفاق أيضاً مطلوبان بين المهاجرين بعضهم مع بعض، مع اشتمالها على حكم كثيرة أُخر، قال في السيرة الحلبيّة: قال ابن حجر: وهذا ردّ للنصّ بالقياس، وكان بعض المهاجرين أقوى من بعض في المال والعشيرة، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى وليستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعليّ رضي الله عنه لأنّه هو الذي كان يقوم بأمره قبل البعثة[3]. وأنت خبير بأنّ

---

١ ـ المناقب لابن المغازليّ ٩١.

٢ ـ منهاج السنّة ٤: ٩٧.

٣ ـ السيرة الحلبيّة ٢: ٢٠.

هذا الكلام حسن، غير أنّ مؤاخاة النبيّ ﷺ لعليّ ليست للارتزاق؛ لغنى عليّ عليه السلام حينئذ بالغنائم و غيرها و بلوغه مرتبة يعول بها و لا يعال، و إنّما الغرض من مؤاخاته لعليّ تعريف منزلته و بيان فضله و أنّه يساوي نفسَ الرسول ويشبهه ويعادله.

حديث الوراثة

و أمّا الوراثة فهي أيضاً ممّا استفاضت به الأخبار، و دلالتها على الخلافة العامّة واضحة. بيان ذلك أنّ الوراثة عبارة عن قيام الوارث مقام مورّثه فيما تركه النبيّ ﷺ من حيث نبوّته و رسالته و إنّما هي الكتاب و السنّة لا المال كما هو صريح الخبر المتقدّم. و ما ورد من قوله ﷺ : إنّ الأنبياء لم يورّثوا درهماً و لا ديناراً و لكن ورّثوا العلم[١]. و من البديهيّ أنّ توريث النبيّ ﷺ في نبوّته إذا ورث شخص كتابه و سنّته فإنّما هو العلم بهما، و لمّا كانت الخلافة عنه ﷺ عبارة عن قيام الخليفة و الإمام مكانه في شؤون رسالته لا في تركته من الأموال وجبت على الأُمّة إطاعته فيما تجب فيه طاعة النبيّ ﷺ عليهم. و بعد قوله ﷺ : أنت أخي ووارثي، و تصريحه بأنّ هذه الوراثة ليست وراثة المال بل ما هو من شؤون الرسالة لا يبقى مجال لجعل الخلافة لغيره حيث لا واقع للخلافة غير ما ذكر. وعليه فإنّ إثبات الخلافة لغير مَن نَصَّ عليه بكونه وارثاً و خليفة و أخاً له نقض صريح لكلام النبيّ ﷺ و منع للوارث عن حقّه.

و لا يقال : أنّ النبوّة لها شؤون متعدّدة من العلم بالكتاب و السنّة و افتراض الطاعة على الأُمّة و العصمة و الطهارة و نزول الوحي. و الحديث يثبت الشأن الأوّل لعليّ عليه السلام دون غيره، و أيّ مانع من قيام شأن افتراض الطاعة و إثباتها لغيره أيضاً ؟!

فإنّه يقال : إنّ افتراض الطاعة ممّا يترتّب على العلم بالكتاب و السنّة؛ ضرورةَ

---

١ ـ الأُصول من الكافي ١ : ٣٤.

استحالة افتراض طاعة الجاهل في نفسه. وأقبح من ذلك تقديم طاعة الجاهل على طاعة العالم، وأقبح منه إيجاب طاعته عليه والحكم بوجوب بيعته للجاهل.

ويمكن أن يقال: إنّ المستفاد من الخبر أنّ عمدة ما تركه الأنبياء إنّما هو العلم بالكتاب والسنّة، حيث إنّ إرثهم فيه، وهو كذلك بداهة أنّ المقصود من بعثهم إرشاد العباد وهدايتهم إلى الحقّ واستكمالهم في العلم والعمل وإخراجهم من الظلمات إلى النور وتنوير أفكارهم، وهذا لا يتمّ إلّا بالعلم بالكتاب والسنّة، فسائر الشؤون تابعة له، ولا يُعقل وجود التابع من دون وجود متبوعه. والعجب أنّ الآخذين بزمام الخلافة لم يقضوا دَين النبيّ صلّى الله عليه وآله وما أنجزوا وعده وجعلوا قضاء دينه وانجاز عِدَته على عهدة أميرالمؤمنين عليه السلام، فأخذوا غُنم الوراثة وتركوا غُرمها.

دفع شبهات

لا بأس بذكر شبهات القوشجيّ في المقام وبيان دفعها، تتميماً لما أوضحناه من دلالة حديث المنزلة على الخلافة والرئاسة العامّة.

قال في ذيل كلام المحقّق الطوسيّ رحمة الله عليه «ولحديث المنزلة المتواتر»: بيانه أنّ المنزلة اسم جنس أُضيف إلى العَلَم كما إذا عرّف باللام بدليل صحّة الاستثناء، وإذا استثني منه مرتبة النبوّة بقيت عامّة في باقي المنازل الّتي من جملتها كونه خليفة له ومتولّياً في تدبير الأمر ومتصرّفاً في مصالح المسلمين ورئيساً مفترض الطاعة لو بقي بعده، ولم يكن خلافته مقيّدة بنبوّة موسى وإلّا لزم انتفاؤها بموته، وهو لا يليق بمقام هارون فيجب أن تكون مطلقة باقية لو بقي هارون بعد موسى، وإذ صرّح بنفي النبوّة لم يكن ذلك إلّا بطريق الإمامة.

وأجيب: بأنّه غير متواتر بل هو خبر واحد في مقابل الإجماع وبمنع عموم المنازل، بل غاية الاسم المفرد المضاف إلى العَلَم الإطلاق، وربّما يدّعى كونه معهوداً معيّناً كغلام زيد. وليس الاستثناء المذكور إخراجاً لبعض أفراد المنزلة

بمنزلة قولك إلّا النبوّة، بل منقطع بمعنى لكن، فلا يدلّ على العموم، كيف ومن منازله الأُخوّة في النسب ولم يثبت لعليّ عليه السلام، اللّهمّ إلّا أن يقال: إنّها بمنزلة المستثنى لظهور انتفائها. ولو سلّم العموم فليس من منازل هارون الخلافة والتصرّف بطريق النيابة على ما هو مقتضى الإمامة؛ لأنّه لا شريك له في النبوّة. وقوله تعالى ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ ليس استخلافاً بل هو مبالغة وتأكيد في القيام بأمر القوم، ولو سلّم فلا دلالة على بقائها بعد الموت. وليس انتفاؤها بموت المستخلف عزلاً ولا نقصاً بل ربّما يكون عوداً إلى حالة أكمل منه، هي الاستقلال بالنبوّة والتبليغ من الله تعالى، فتصرّف هارون وإنفاذ أمره لو بقي بعد موسى إنّما يكون لنبوّته، وقد انتفت النبوّة في حقّ عليّ عليه السلام فينتفي ما يبتنى عليها ويتسبّب عنها وبعد اللّتيا والّتي لا دلالة له على نفي إمامة الثلاثة قبل عليّ عليه السلام[1].

هذا، وأنت بعد الإحاطة بما ذكرنا فيما تقدّم تعرف ما فيما ذكره القوشجيّ في كلماته من المناقشة والفساد، ونقول توضيحاً للمرام:

أمّا دعوى عدم تواتر الحديث فخارقة جدّاً، وقد أشرنا إلى إسناده إجمالاً فلا ينكر تواتره إلّا الجاهل أو المعاند. كما أنّ من وقف على قصّة السقيفة وما جرى بين الأصحاب وكيفيّة أخذ البيعة منهم يعلم علماً ضروريّاً أنّه لم ينعقد الإجماع على بيعة أبي بكر حتّى يعارض النصّ، مع أنّه لو تمّ فإنّما يكون حجّة إذا فقد النصّ، ومع وجوده لا مجال للاتّفاق والإجماع على خلافته حتّى يعارضه أو يقدّم عليه.

أمّا منع العموم فلا وجه له بعد استثناء النبوّة من المنزلة المتفرّع على إرادة العموم منها، وادّعاء العهد جزاف محض، ولو سلّم فالمعهود من منزلة هارون من موسى إنّما هي الخلافة والوزارة.

---

١ ـ شرح تجريد العقائد ٣٦٩ ـ ٣٧٠، والآية في سورة الأعراف ١٤٢/٧.

وما توهّم من أنّ الاستثناء منقطع فلا يدلّ على العموم فهو سخيف؛ لعدم المصير إلى الانقطاع مع احتمال الاتّصال وصلاح المورد له.

بل مقتضى التحقيق أنّه لا انقطاع في الاستثناء، وما زعم أنّه منقطع فهو متّصل دالّ على عموم الحكم المستثنىٰ وإن لم يعمّه الموضوع، ولا منافاة بين عموم الحكم وعدم عموم الموضوع كما حقّق في محلّه.

وأمّا دعوى أنّ العموم ينافي عدم ثبوت الأُخوّة في النسب لعليّ عليه السلام فبطلانها أظهر من الشمس؛ بداهةَ أنّ عموم المنزلة إنّما يكون في الموارد الصالحة لذلك ومنها الأُخوّة التنزيليّة المنزّلة منزلة النسبيّة الثابتة لعليّ عليه السلام باتّفاق الفريقَين.

وأمّا دعوى أنّه لو سلّم العموم فليس من منازل... إلخ، فأغرب من الجميع؛ لأنّ شراكة هارون لموسى إنّما كانت في مطلق النبوّة لا في النبوّة الّتي اختصّ بها موسى من كونه صاحب كتاب وشرع ودين مستقلّ ناسخ لما قبله، فالأصل الّذي هو من أُولى العزم إنّما هو موسى، وأمّا هارون فكان كسائر أنبياء بني إسرائيل المتأخّرين عنه إلى زمان المسيح التابعين لموسى وشريعته، فلا تنافي نبوّة هارون حينئذ خلافته لموسى فيما اختصّ به من الإمامة.

وأمّا قوله ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ ودعوى أنّه لو سلّم فلا دلالة على بقائها بعد موت موسى فساقطة رأساً، وبيان ذلك: أنّ توهّم عدم بقاء الخلافة بعد موت المستخلف ناشئ عن أُمور:

الأوّل: كون الخلافة كالوكالة غير قابلة للبقاء في حدّ نفسها، فكما تبطل الوكالة بموت الوكيل أو الموكّل كذلك تبطل الخلافة بموت المستخلف.

وفيه: إنّ الوكالة تبطل بموت أحدهما، لأجل أنّها تصرّف مِن قِبل المالك أو من له الحقّ، ومن البديهيّ أنّه بموت الموكّل ينتقل ماله وحقوقه إلى وارثه، فلابدّ أن يجعله المالك الجديد مأذوناً في التصرّف. وأمّا شأن النبوّة فلا ينتقل بموت النبيّ صلى الله عليه وآله إلى غيره حتّى لا يتطرّق البقاء في الخلافة عنه، ولو كان كذلك لزم عدم

نفوذ الاستخلاف بالنسبة إلى ما بعد الموت ولو مع التصريح به وهو بديهيّ البطلان، مع أنّ الخلافة والإمامة استمرار للنبوّة واستحكام لها في مرحلة البقاء، فكيف تنتفي بموت المستخلف ؟!

الثاني : إنّ استقلال هارون في النبوّة بعد موت موسى مانع من قيام الخلافة به، إذ لا يعقل قيام الولاية التبعيّة به بعد ثبوت الولاية الأصليّة له.

و فيه : ما تقدّم من أنّ نبوّة هارون لم تكن في عرض نبوّة موسى حتّى تستقلّ بعد موت موسى ولم يكن مجال لقيام الخلافة به. وحيث إنّ هذه النبوّة الثابتة لم تكن مقتضية للاستقلال بقيام ما هو في شأن موسى في الإمامة بعد موته فنفوذ أمر هارون لو بقي بعد موت موسى لابدّ أن يكون لخلافته عنه لا لأجل نبوّة نفسه.

الثالث : إنّ الإمامة هي الخلافة بعد الموت، ولا يجوز أن تكون الخلافة في حال حياة المستخلف إمامة، وإلّا لزم أن يكون في زمان واحد إمامان مفترضا الطاعة، فالخلافة حال الحياة إنّما هي من قبيل الوكالة لا الإمامة فلا تبقى بعد الموت.

و فيه : إنّه لا مانع عقلاً وشرعاً من عقد عهد الإمامة للفرع بعنوان الخلافة عن الأصل بحيث يستقلّ في التصرّف مع غيبة الأصل أو بعد موته، ودعوى أنّ الإمامة خلافة بعد الموت فقط لا دليل عليها.

الرابع : إنّ خلافة هارون لموسى لم تكن مطلقة حتّى بعد الموت، وإنّما هي مقيّدة بحال حياة موسى عند ذهابه إلى الطور، فلا يدلّ التنزيل علىٰ منزلته في الخلافة العامّة الباقية بعد موت الرسول.

و فيه : إنّ قوله ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ مطلق غير مقيّد بوقت، ومجرّد كون الدّاعي على الاستخلاف إرادة السفر لا يوجب تقيّده بحال سفره وغَيبته، فوجب الحكم ببقائها بعد موت موسى لو بقي بعده.

ولا يقال : إنّ الخلافة حقيقة في قيام شخص مقام آخر فيما لا يتمكّن الأصل

من مباشرته بنفسه وهو لا يتمّ إلّا بغيبته.

لأنّا نقول : إنّ الخلافة تَصدُق على النائب مع قدرة المنوب عنه على المباشرة بالضرورة، وكذلك تتمّ مع عدم التمكّن من المباشرة بالغَيبة أو الموت، واختصاصه بأحدهما لا وجه له.

ثمّ إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله استخلف عليّاً عليه السلام عنه حال حياته وبعد مماته كما مرّ التصريح به، لكونه أخاً له في الدنيا والآخرة فلا تغفل.

ثمّ إنّ ما ذكر في آخر كلامه بأنّه بعد اللّتيا والّتي... إلخ، قد عرفت الجواب عنه عند الاستدلال بحديث المنزلة فلا نعيد.

حديث مدينة العلم

«أنا مدينة العلم وعليّ بابها»، عن الحرث وعاصم عن عليّ عليه السلام : قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله : إنّ الله خلقني وعليّاً من شجرة واحدة، أنا أصلها وعليّ فرعها، والحسن والحسين ثمرتها، والشيعة ورقها، فهل يخرج من الطيّب إلّا الطيّب وأنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد المدينة فليأتِها من بابها.

وفي لفظ آخر : أنا مدينة العلم وأنت بابها، كذب من زعم أنّه يصل إلى المدينة إلّا مِن قِبل الباب. وعن جابر بن عبدالله قال : سمعت رسول‌الله يوم الحديبيّة وهو آخذٌ بيد عليّ عليه السلام يقول : هذا أمير البررة وقاتل الفجرة، منصور مَن نصره، مخذول مَن خذله. ثمّ مدّ بها صوته فقال : أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد البيت فليأتِ الباب.

ويؤيّد الحديث قوله صلى الله عليه وآله : أنا دار الحكمة وعليّ بابها، أنا دار العلم وعليّ بابها، أنا ميزان العلم وعليّ كفّتاه، أنا ميزان الحكمة وعليّ لسانه، فهو باب مدينة علمي، عليّ باب علمي ومبيّن لأُمّتي ما أُرسلت به من بعدي. إلى غير ذلك من هذه

التعابير ممّا يجده الباحث في الغدير[١]. والحديث بحسب السند ممّا لا غبار عليه كما يظهر بمراجعة الغدير[٢].

وأمّا دلالته على المدّعى فنقول: معنى كونه باب مدينة علم النبيّ ﷺ أنّه الواسطة للناس في وصولهم إلى علم النبيّ ﷺ، فلا واسطة غيره والأخذ من غيره كالسارق، فيكون أخذ العلم منه واجباً ومن غيره حراماً، فهو الإمام دون غيره لعدم اجتماع إمامة غيره وحرمة الأخذ عنه واتّباعه فيما يحكم به. كما أنّ وجوب الأخذ عنه للوصول إلى علم النبيّ ﷺ لا يتمّ إلّا لعصمته، فتعيّن للإمامة لعدم كون غيره معصوماً إجماعاً. كما أنّ جعله الباب لعلم النبيّ ﷺ دالّ على وفور علمه وإحاطته بجميع ما صدر عن النبيّ ﷺ من العلوم، وذلك شأن الإمام.

ويشهد لانحصار الطريق إلى علم النبيّ بعليّ جهل الأُمّة بأكثر الأحكام لمّا أعرضوا عنه، والحال أنّه تعالى قد أكمل دينه، فما زالت آراؤهم مضطربة وأحكامهم مختلفة فكأنّ الله تعالى أوكل دينه إلى أهوائهم! ولمّا رجع الأمر إليه عليه السلام ظاهراً لم يقدر على إمضاء ما علم ولا على نشره حيث إنّ الناس قد أَلِفوا خلافه، فإنّه قد نهى عن صلاة التراويح مثلاً فصاح الناس: غيّرت سنّة عمر[٣]! ونهى عن أكل الجرّي والمار ماهي[٤] فلم يتّبعوه، وأمر بالمُتعتَين[٥] فخالفوه.. إلى غير ذلك. وإذ لو سلّم دلالة الحديث على انحصار طريق علم النبيّ ﷺ به فلا إشكال في دلالته على أعلميّته، فيقبح عندئذٍ تقديم المفضول عليه، لقوله تعالى ﴿أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٦].

والعجب ممّن يدّعي العلم والإيمان فيذهب إلى أنّ غيره كان أفضل، أو يذهب إلى أنّ غيره قُدِّم عليه لمصلحة وأمثال هذه المزاعم، مع أنّ القوم أنفسهم لم يُثبتوا

١ ـ الغدير ٦: ٧٩ ـ ٨٠.
٢ ـ نفس المصدر ٦: ٧٨ ـ ٧٩.
٣ ـ كتاب سُلَيم بن قيس الهلاليّ ١٢٦.
٤ ـ بحار الأنوار ٦٥: ١٩٧.
٥ ـ مستدرك الوسائل ١٤: ٤٨٣.
٦ ـ يونس ١٠/٣٥.

للأوّل إلّا أربعة ومائة خبر رواها عن رسول‌الله ﷺ[1]، وأنّ الثاني لم يكن له علم بالواضحات من الكتاب والسنّة واعترف مراراً بأنّه: لولا عليّ لهلك عمر[2]، وقد نقل الغدير[3] نوادر من علمه الذي يظهر منه الجهل.

ثمّ إنّ القمّيّ في (سفينة البحار) نقل أنّ مِن موارد تطبيق هذا القول على عليّ عليه السلام ما روي أنّ أعرابيّاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال له: طمش طاح فغادر شبلاً لِمَن النّشب؟ فقال ﷺ: للشبل مميطاً، فدخل عليّ عليه السلام فذكر له النبيّ ﷺ لفظ الأعرابيّ فأجاب بما أجاب به النبيّ ﷺ فقال: أنا مدينة العلم... الحديث[4].

حديث تبليغ «براءة»

بعث رسولُ الله ﷺ بعث أبابكر إلى مكّة بآيات من صدر سورة «براءة» ليقرأها على أهلها، فجاء جبرئيل من عند الله العزيز فقال: لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك، فبعث رسول‌الله ﷺ عليّاً على ناقته العَضباء أو الجَدعاء إثرَه، فقال ﷺ: أدرِكْه فحيثما لقيتَه فخذ الكتاب منه واذهب إلى أهل مكّة فاقرأه عليهم، فلحقه عليّ عليه السلام في العرج أو في ذي الحُليفة... وأخذ الكتاب منه وحجّ وبلّغ وأذّن. ورجع أبوبكر فقال لرسول‌الله ﷺ: هل نزل فيّ شيء؟ قال: لا، ولكن جبرئيل جاءني فقال: لا يؤدّى عنك إلّا أنت أو رجل منك[5].

والحديث ممّا تواتر سنداً وقد أرسله القوم إرسال المسلّمات، و ينبئ عن إطباق الصحابة الأوّلين على هذا الخبر مناشدةُ عليّ عليه السلام به يوم الشورىٰ[6]، ممّا يظهر للباحث بعد مراجعة الغدير[7].

---

١ ـ تاريخ الخلفاء ٩٨ ـ ١٠٥.

٢ ـ المناقب للخوارزميّ ٨١.

٣ ـ الغدير ٦: ٨٣ ـ ٣٣٣.

٤ ـ سفينة البحار ١: ٢٧٣.

٥ ـ الغدير ٦: ٣٣٨؛ مسند أحمد بن حنبل ١: ١٥١ باختلاف.

٦ ـ المناقب لابن المغازليّ ١١٦.

٧ ـ الغدير ٦: ٣٣٨ ـ ٣٥٠.

وأمّا دلالة الحديث على تشرّف أميرالمؤمنين عليه السلام بهذه الفضيلة وأنّه من النبيّ صلى الله عليه وآله على لسان أمين الوحي بوحي منه تعالى إليه فهو غير خفيّ، كما أنّ فيه إشارة إلى أنّ من لا يستخلفه الوحي المبين لتبليغ عدّة آيات من الكتاب كيف يأتمنه على تعليم الدين كلّه وتبليغ الأحكام والمصالح كلّها ؟! بل لابدّ أن يكون نصب أبي بكر ثمّ عزله بعليّ عليه السلام أثناء الطريق ـ بعد اشتهار نصبه بين الناس ـ للتنبّه من الله ورسوله على أنّ أبابكر غير صالح للقيام مقام النبيّ صلى الله عليه وآله في ذلك، فلا يصلح بالأولويّة للزعامة العظمىٰ بعده. وبالجملة ثبوت هذه الفضيلة لعليّ عليه السلام إرشاد إلى تعيّنه للإمامة والقيام مقام الرسول في الإمامة والزعامة دون سائر الناس، ولو أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام من أوّل الأمر لم يحصل ذلك التنبيه والإرشاد.

ويمكن الاستدلال بهذه القضيّة على المدّعى بوجه آخر، وهو أنّ عزل سيّد الأنبياء أبابكر ونصب أميرالمؤمنين لتبليغ «براءة» ـ معلّلا بـ«لن يؤدّي عنّك إلّا أنت أو رجل منك» ـ تصريح بعدم أهليّة أبي بكر ومَن يحذوحذوه لمقام الخلافة والإمامة، وأنّ المستحقّ لها ليس إلّا أهل بيته الّذين هم منه وهو منهم؛ لأنّ الخلافة عنه تولية لتأدية ما هو وظيفته وشأنه.

وقد ذكرنا في أوائل البحث أنّ الخلافة استمرار للدين وقيام بما هو وظيفة سيّد المرسلين، فقوله صلى الله عليه وآله بأنّ جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك، تصريح بأنّ التأدية عنه من وظائف نفسه الشريفة ومَن كان بمنزلة نفسه الشريفة، فلا يجوز لغيره القيام بها، فكيف يجوز لأبي بكر وغيره مباشرة الخلافة وتأدية وظائف النبوّة والرسالة ؟!

ولا يقال : على هذا لا يجوز لأحد من الصحابة أن يبلّغ ما سمعه من الأحكام، مع أنّه صلى الله عليه وآله أمر بتبليغ الشاهد الغائب وقال صلى الله عليه وآله : نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبلّغها مَن لم تبلغه، يا أيّها الناس ليبلّغ الشاهدُ الغائب، فربّ حامل فقه ليس بفقيه

و ربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه... الخبر[١].

لأنّه يقال : إنّ تبليغ الأحكام على وجه الرواية وظيفة كلّ صحابيّ سمع منه، والّذي هو من وظيفة أهل بيته إنّما هو التأدية عنه، بمعنى التولية لأداء ما هو من وظيفته وتنفيذه. و الخلافة عنه ليست مجرّد الرواية عنه، وإلّا اشترك فيه جميع الصحابة كما لا يخفى.

حديث الثقلين

في كنز العمّال عن جابر قال النبيّ ﷺ : يا أيّها الناس، تركتُ فيكم ما لن تضلّوا إن اعتصمتم :كتاب الله وعترتي أهل بيتي[٢].

وعن زيد بن أرقم قال ﷺ : إنّي تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي... كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يَرِدا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما[٣].

وقال ﷺ : إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله و أهل بيتي، وإنّهما لم يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض[٤].

وقال ﷺ : إنّي أُوشِك أن أُدعى فأُجيب، وإنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزّوجلّ وعترتي... الخبر[٥].

ولمّا رجع من حجّة الوداع و نزل غدير خمّ أمر بِدَوحات فقُمِمْنَ، فقال: كأنّي دُعيت فأجبت، إنّي قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر : كتاب الله

---

١ ـ الأصول من الكافي ١ : ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ؛ مسند أحمد بن حنبل ٤ : ٨٠ و ٨٢.

٢ ـ كنز العمّال ١ : ١٨٧.

٣ ـ ينابيع المودّة ٣٠.

٤ ـ المناقب لابن المغازليّ ٢٣٤ ؛ المستدرك على الصحيحين ٣ : ١٤٨.

٥ ـ المناقب لابن المغازليّ ٢٣٥ ؛ كنز العمّال ١ : ١٨٦.

وعترتي...[١].

وفي حديث عبد الله بن حنطب قال ﷺ: فإنّي سائلكم عن اثنين: القرآن وعترتي[٢].

والصحاح بهذا المضمون متواترة وطرقها عن بضعة وعشرين صحابيّاً متظافرة. وقد صرّح به الرسول ﷺ في مواقف له شتّى، تارة يوم غدير خمّ وأُخرى يوم عرفة على ناقته القصواء، وتارة في مسجد الخيف، ومرّة يوم قُبض على منبره في المدينة، وأُخرى في حجرته المباركة حال مرضه والحجرة غاصّة بأصحابه[٣]. وقد اعترف بتواتره جماعة من أعلام الجمهور حتّى قال ابن حجر بعد ما أورد حديث التمسّك بالثقلين: ثمّ اعلم أنّ لحديث التمسّك بهما طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابيّاً[٤]. وإنّما كرّره النبيّ ﷺ في المواقف المتعدّدة اهتماماً بشأن الكتاب والعترة.

وأمّا وجه دلالة الخبر على المدّعى فهو من وجوه:

الأوّل: إنّ تصريح النبيّ ﷺ بأنّ الكتاب والعترة لا يفترقان دالّ على علمهم بما في الكتاب وأنّهم لا يخالفونه قولاً وعملاً. والأوّل دليل الفضل على غيرهم والأفضل أحقّ بالإمامة، والثاني دليل العصمة الّتي هي شرط الإمامة ولا معصوم غيرهم.

الثاني: إنّه جعلهم عديلا للقرآن، فيجب التمسّك بهم كالقرآن واتّباعهم في كلّ أمر ونهي مثله، ولا يجب اتّباع شخص على الإطلاق إلّا النبيّ أو الإمام المعصوم.

الثالث: إنّه ﷺ عبّر عن الكتاب والعترة بخليفتين، كما في حديث أحمد في مسنده: إنّي تارك فيكم خليفتين كتاب الله... وأهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يَردا

---

١ ـ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٩.
٢ ـ أُسد الغابة ٣: ٢١٨.
٣ ـ الصواعق المحرقة ١٥٠؛ إحقاق الحق ٩: ٣٠٩؛ ينابيع المودّة ٣٤.
٤ ـ الصواعق المحرقة ١٥٠.

عليّ الحوض[١]، ومن الواضح أنّ خلافة كلّ شيء بحسبه، فخلافة القرآن بتحمّله أحكام النبيّ ومواعظه وإرشاداته، وخلافة الشخص بإمامته وقيامه مقامه بما تحتاج إليه الأُمّة ونشر الدعوة وجهاد المعاندين.

الرابع: إنّ النبيّ ﷺ ذكر في مفتتح الحديث قرب موته ودنوّ أجله، كقوله ﷺ: ...يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيبه، ثمّ قال: إنّي تارك فيكم الثقلين...[٢].

ومن المعلوم أنّ السلطان وصاحب النظام الّذي يلزم العمل به بعده إذا ذكر موته وقال: إنّي تارك فيكم فلاناً وكتاباً حافظاً لنظامي لم يفهم منه إلّا إرادة العهد إلى ذلك الشخص بالأمر بعده، خصوصاً وقد قال رسول‌الله ﷺ: مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه[٣]. ومن البديهيّ كما هو صريح الأخبار المتقدّمة وصيّة النبيّ ﷺ بالثقلين في غدير خمّ وهو أحد مواردها، فيكون قد عهد النبيّ ﷺ في خمّ بالخلافة لعليّ عليه السلام خصوصاً وإلى أهل البيت عموماً، فكان الخليفة بعده عليّاً عليه السلام ثمّ الحسَنَين ثمّ التسعة من بعد الحسين عليهم السلام. وتعبير «وأهل البيت» لا يشمل بقيّة الأقارب كما سبق وسيأتي إن‌شاءالله.

الخامس: قوله ﷺ: إنّي تارك فيكم أمرين لن تضلّوا إن اتّبعتموهما، كما في لفظ الحاكم[٤] والصواعق[٥] صريح في بطلان خلافة الشيوخ الثلاثة؛ لأنّه ﷺ رتّب عدم ضلال أُمّته دائماً وأبداً على التمسّك بالثقلين. وبالضرورة إنّ الضلال واقع ولو أخيراً؛ لاختلاف الأديان وفساد الأخلاق والأعمال، فيعلم أنّ عامّة الناس لم يتمسّكوا بالثقلين، وأنّ خلافة الثلاثة خلاف التمسّك بهما، ولذا وقع الضلال.

ولا يَرِد النقض بأنّ الأُمّة تمسّكت بالعترة حين بايعت عليّاً ومع ذلك وقع

---

١ ـ مسند أحمد بن حنبل ٥ : ١٨٢.
٢ ـ سنن الدارميّ ٢ : ٤٣٢.
٣ ـ المستدرك على الصحيحين ٣ : ١٠٩.
٤ ـ نفس المصدر ٣ : ١١٠.
٥ ـ الصواعق المحرقة ١٥٠.

الضلال المذكور، وذلك لأنّ المراد هو التمسّك بهما بعد النبيّ ﷺ بلا فصل. على أنّ الأُمّة لم تتمسّك بعليّ عليه السلام حقّ التمسّك بعد مبايعته لمخالفة الكثير منهم له عليه السلام حتّى انقضت أيّامه بحرب الأُمّة، فأين تمسّكها بالعترة، وأين تمسّكها بالكتاب وهو قاتلهم على تأويله ؟!

وقد تحصّل من هذه الوجوه دلالة خبر الثقلين وما بمعناه على أنّ الإمامة في العترة الطاهرة لاعلى مجرّد الوصيّة بأخذ العلم منهم. ولو سلّم فمن الواضح دلالة الحديث على وجوب أخذ العلم منهم وعدم جواز مخالفتهم كالقرآن، وحينئذ يجب اتّباع قولهم في الإمامة وفي صحّة إمامة شخص وعدمها ؛ لأنّه من أخذ العلم منهم.

ومن البديهيّ أنّ مخالفة عليّ عليه السلام في الخلافة سائرَ الخلفاء ـ ولو في بعض الأوقات ـ يبطل خلافتهم، ولو في الجملة. وهذا خلاف مذهب القوم، فكيف وقد ادّعى أنّ الحقّ له من يوم وفاة الرسول إلى حين موته عليه السلام وتظلّم منهم مدّة حياته ؟!

والأُمّة لم تتّبع العترة في الخُمس والمُتعتَين وكثير من الأحكام فيكونون ضُلّالا. وما أدري متى تمسّكت الأُمّة بالعترة؛ أفي زمن أميرالمؤمنين، أو في زمن أبنائه الطاهرين ؟! وقد تركوا كلّاً منهم حبيس بيته لا يُسمع له قول، ولا يُتّبع له أمر، ولا يؤخذ منه حكم، بل جُعل عداوتهم وسبّهم دِيناً، وحاربوهم بالبصرة والشام والكوفة، وسَبَوا نساءهم، فنبذوهم وراء ظهرهم كالكتاب، وإلى الله المشتكىٰ.

تنبيه : الحديث يدلّ على بقاء العترة الطاهرة إلى يوم القيامة، لأُمور :

الأوّل : قوله ﷺ : «إنّي تارك فيكم الثقلين» دالّ على أنّه ترك فيهم ما يحتاجون إليه، وما هو كافٍ في تلبية حاجتهم. وبالضرورة أنّه لو لم يَدُم الثقلان لَما كانا كافيَين ؛ لأنّ الأُمّة محتاجة مدى الدهر إلى الأحكام والحكّام.

الثاني : قوله ﷺ : «إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا»، فإنّ تأييد عدم الضلال موقوف على تأييد ما يُتمسّك به.

الثالث : قوله ﷺ : «لن يفترقا»، فإنّه لو لم يكن في وقت من الأوقات من هو

قرين الكتاب من العترة لافترق الكتاب عنهم، وقد أقرّ ابن حجر في عبارته: الحاصل أنّ الحثّ وقع على التمسّك بالكتاب وبالسنّة وبالعلماء بهما من أهل البيت، ويستفاد من مجموع ذلك بقاء الأُمور الثلاثة إلى قيام الساعة[١]، بإفادة الحديث بقاءَ العترة إلى يوم القيامة. وقال بعد ذلك: وفي أحاديث الحثّ على التمسّك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهّل منهم للتمسّك به إلى يوم القيامة كما أنّ الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض... ويشهد لذلك الخبر السابق: في كلّ خلف من أُمّتي عدول من أهل بيتي...[٢].

إيقاظ

عرفت فيما تقدّم تواتر حديث الثقلين وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمر مراراً بالتمسّك بهما عند انصرافه من الطائف، وفي حجّة الوداع يوم عرفة، ويوم غدير خمّ، وفي الحجرة حال مرضه والحجرة غاصّة بأصحابه، وعلى المنبر كثيراً، إلى غير ذلك من الموارد.

وقد ذُكر في غاية المرام للخبر من طريقنا اثنان وثمانون طريقاً، ومن طرقهم تسعة وثلاثون طريقاً[٣]. كما أنّه قد عرفت دلالة الخبر على إمامة عليّ عليه السلام وأولاده الطاهرين بوجوه متعدّدة، ونزيد وضوحاً: أنّه يدلّ على كونهم أفضل الناس بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث جُعل كلّ من الكتاب والعترة قريناً للآخر وعديلاً له غير مفترق عن صاحبه، وجعل التمسّك بهم رافعاً للضلالة. ولو كان في الناس مَن هو مقدّم على العترة أو مساوٍ لهم في الفضيلة لَما جعلهم متمسَّكين والعترة متمسِّكاً بهم، بل كان الواجب أن تتمسّك العترة بمن استحقّ التقدّم عليهم. ويدلّ أيضاً على أنّ الناس محتاجون إليهم وهم أغنياء عنهم، حيث قال صلى الله عليه وآله: «لا يفترقا حتّى يردا عليّ

---

١ ـ نفس المصدر.
٢ ـ نفس المصدر ١٥١.
٣ ـ غاية المرام ٢١١ ـ ٢٣٥.

الحوض»؛ فإنّ الناس محتاجون إلى علم الكتاب في معاشهم ومعادهم، وهم ترجمانه ومفسّروه وإلّا لافترقوا عنه، وحيث إنّ علم الكتاب عندهم فهم في غنىً عن غيرهم، وحيث لا يكون علمه عند غيرهم فالناس محتاجون إليهم.

ويدلّ أيضاً على أنّ خلافتهم عنه ﷺ تكون صريحةً، لقوله ﷺ: ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً، ضرورةَ أنّ التمسّك بهما يكون أماناً للمتمسّك فجعلهم عديل القرآن، وكونهم محلّاً لتمسّك الأمّة بهم صريح في إمامتهم وخلافتهم عنه تعالى وعن رسوله والتزام عقليّ من قوله ﷺ: لن يفترقا، لدلالته على احتياج الكلّ إليهم واستغنائهم عن الكلّ كما تقدّم، ولا يُعقل أن يكون الجاهل والمحتاج إماماً للعالِم.

ويدلّ أيضاً على عدم خلوّ الأرض منهم إلى يوم القيامة، حيث إنّه قال: لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض. وهو صريح في عدم افتراق القرآن عنهم إلى يوم القيامة، ومادام الكتاب باقياً إلى ذلك اليوم فكذا قرينه وعديله. ولو خلَت الأرض منهم قبل ورودهم الحوض عليه ﷺ لافترق كلّ منهما عن الآخر فلم يَصدُق قوله ﷺ «لن يفترقا حتّى يردا على الحوض»، مع أنّ الصون من الضلالة لا يحصل بمجرّد الكتاب من غير انضمام ترجمانه إليه ولا ترجمان له غيرهم. ولو جاز خلوّ الأرض منهم حيناً من الأحيان لَلزم انقطاع سبيل الهداية ونقصان الدين بعد إكماله، وقد أكمله الله تعالى كما أخبر به وأبان سبيل الهداية إليه. وهذا لا ينافي غيبة الثاني عشر منهم عليه السلام، لأنّه يُنتفع به في غيبته كما يُنتفع بالشمس من وراء السحاب.

تتميم: ربّما يختلج بالبال أنّ العترة ليست نصّاً في أهل بيت النبيّ ﷺ؛ لمجيء «العترة» بمعنى الرَّهط والطائفة، ومنه قول أبي بكر: نحن عترة رسول الله ﷺ وبَيضتُه الّتي فُقِئت عنه[1]. فلا يدلّ الخبر على انحصار الطريق

١ ـ شرح نهج البلاغة ٦: ٣٧٥.

والهداية ووجوب التمسّك بأهل البيت عليهم السلام.

ولكن لا يخفى ضعف هذا الاحتمال من خلال أمور:

أوّلاً: أنّ العترة لم تجئ بمعنى الرهط، وإنّما جاءت بمعنى ذرّيّة الشخص وأهله. وفي المصباح العترة نسل الإنسان، قال الأزهريّ وروى ثعلب عن ابن الأعرابيّ: إنّ العترة ولد الرجل وذرّيّته وعَقِبه من صُلبه، ولا تَعرف العرب من العترة غير ذلك[1]. وأمّا قول أبي بكر فهو مجاز كما قال ابن أبي الحديد في شرح كلام أميرالمؤمنين عليه السلام: وآخر قد تسمّىٰ عالماً وليس به فاقتبسَ جهائلَ مِن جهّال وأضاليلَ من ضُلّال،.. الخطبة[2]، وبالجملة إنّ عترة رسول الله صلى الله عليه وآله أهله ونسله، إلى آخر كلامه[3].

ثانياً: إنّ الأخبار مصرّحة بأنّ المراد من العترة هم أهل البيت، وكون المراد منهم أهل البيت كان أمراً واضحاً عند الأوائل، ولذا سئل عن دخول النساء في أهل البيت وأُجيب بالمنع كما في رواية زيد بن أرقم[4].

ثالثاً: إنّ الأوصاف المذكورة في الأخبار، من العصمة والعلم والطهارة ووجوب التمسّك بهم وأنّهم صون من الضلالة، وأنّ الحقّ معهم وهم معه[5]، وهم مع القرآن وهو معهم[6]، لا ينطبق إلّا على أهل البيت الّذين طهّرهم الله تطهيراً وقال فيهم النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله: مَثَلُهم مَثَل سفينة نوح[7]، وأنّ عليّاً خير البريّة[8] وأنّه سيّد العرب[9]، وخير الوصيّين[10]، وأنّه باب مدينة العلم[11]، وهو منه صلى الله عليه وآله[12] وحقّه على

---

١ ـ المصباح المنير ٣٩١.

٢ ـ نهج البلاغة ١١٩، الخطبة ٨٧.

٣ ـ شرح نهج البلاغة ٦: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

٤ ـ صحيح مسلم ٧: ١٢٣.

٥ ـ فرائد السمطين ١: ٣١٦.

٦ ـ نفس المصدر.

٧ ـ المناقب لابن المغازليّ ١٣٢.

٨ ـ المناقب للخوارزميّ ١١١.

٩ ـ المناقب لابن المغازليّ ٢١٣.

١٠ ـ ينابيع المودّة ٤٩٦.

١١ ـ المناقب لابن المغازليّ ٨٠.

١٢ ـ نفس المصدر ٩٢.

الأمّة كحقّ الوالد على الولد[١]. وبالجملة هذه الفضائل والأوصاف الّتي لا تعدّ ولا تحصى غير منطبقة إلّا على أهل البيت، ولا يُحتمل صدقها على غيرهم، أو عليهم وعلى سائر الناس، كما لا يخفى.

أحاديث الوصيّة والخلافة والولاية

أحاديث الوصيّة

و هي أحاديث متواترة عندهم وعندنا، وقد ذكر في ينابيع المودّة أحاديث كثيرة، منها ما عن مسند أحمد عن سلمان، قال: يا رسول‌الله، مَن وصيّك؟ قال ﷺ: يا سلمان، مَن كان وصيَّ أخي موسى؟ قال: يوشع بن نون، قال ﷺ: فإنّ وصيّي ووارثي يقضي دَيني وينجز موعدي عليّ بن أبي‌طالب[٢].

وقد سطّر ابن أبي الحديد ثلاث صفحات في أوائل الجزء الأوّل من الشعر المقول في صدر الإسلام لكثير من وجوههم تتضمّن بيان وصيّة عليّ عليه السلام، ثمّ قال بعد انتهائها: والأشعار الّتي تتضمّن هذه اللفظة كثيرة جدّاً ولكنّا ذكرنا منها هاهنا ما قيل في هذين‌الحِزبين، وأمّا ما عداهما فإنّه يجلّ عن الحصر ويَعظُم عن الإحصاء والعدّ...[٣]. وقد ذكر هذا في شرح خطبة له عليه السلام:... لا يقاس بآل محمّد من هذه الأُمّة أحد ولا يُسوّىٰ بهم من جَرَتْ نعمتهم عليه أبداً. هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يَفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة، الآن إذ رجع الحقّ إلى أهله، ونُقل إلى مُنتقَلِه[٤]. ولا يخفى لطف قوله عليه السلام: رجع الحقّ إلى أهله، وما فيه من الدلالة على غصب الثلاثة له.

وأمّا دلالة أحاديث الوصيّة على المدّعى، فنقول: إنّ معنى الوصيّة العهد،

---

١ ـ نفس المصدر ٤٧.

٢ ـ ينابيع المودّة ٧٨ ـ ٨٣.

٣ ـ شرح نهج البلاغة ١: ١٥٠.

٤ ـ نهج البلاغة ٤٧، الخطبة ٢.

يقال : أوصى فلان إلى فلان بمعنى عَهد إليه، فإن أُطلق متعلّق الوصيّة حكم بشموله بجميع ما يكون تعلّقها به، وإن قيّد بشيء اختصّ به. والرواية من قبيل الأوّل فتشمل الوصيّة بالخلافة، بل هي أظهر ما تشمله وتنصرف إليه، بل معنى وصيّ النبيّ خليفته كما يشهد بذلك أنّ النبيّ ﷺ ضرب لسلمان مثلاً بوصيّ موسى وهو يوشع خليفة موسى.

قد روى أحمد في مسنده عن طلحة بن مصرف... وقال الهُذَيل بن شُرَحْبيل : أبوبكر يتأمّر على وصيّ رسول‌الله ﷺ، ودّ أبوبكر أنّه وجد مع رسول الله ﷺ عهداً فخرم أنفه بخزام[1]. وهذه الرواية صريحة في أنّ معنى وصيّ رسول‌الله خليفته، مضافاً إلى أنّه عطف في الحديث الوارث على الوصيّ. والمراد من الوارث إمّا وارث المنزلة فهو المطلوب، وإمّا وارث العلم وهو يستدعي الخلافة لأنّ علم الأنبياء ميراث لمن هو أحقّ بالاتّباع والرئاسة، قال تعالى ﴿أَفَمَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَّا يَهِدِّيَ إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2].

ولو أُريد بالوصيّ من أُوصي له بالعلم والهداية وحفظ قوانين الشريعة وتبليغ العلم لتمّ المطلوب أيضاً، لا سيّما أنّ حفظ قوانين الشرع يتوقّف على الخلافة؛ لأنّ مجرّد المعرفة لا يُقدر بها على حفظها تماماً لاحتياجها إلى بسط اليد. وقد اشتملت أخبار الوصيّة على قرائن آخر تقتضي إرادة الخليفة من الوصيّ، كقول النبيّ ﷺ في بعضها في وصف عليّ عليه السلام : بأنّه خيرُ مَن أخلفه بعدي[3]، أو أتركه بعدي[4]. ومع هذه القرائن كيف يحتمل عاقل فضلاً عن فاضل أن يراد بالوصيّة مجرّد العهد بالعلم والعرفان، فتأمّل جيّداً.

---

١ ـ مسند أحمد بن حنبل ٤ : ٣٨٢.
٢ ـ يونس ١٠/٣٥.
٣ ـ المناقب للخوارزمي ١١٢.
٤ ـ شرح المواقف ٦١٥.

أحاديث الخلافة

فهي أخبار متظافرة.

منها: ما ورد في نزول قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ حيث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية جمع من أهل بيته ثلاثين فأكلوا وشربوا، ثمّ قال لهم: مَن يضمن عنّي دَيني ومواعيدي ويكون خليفتي ويكون معي في الجنّة؟ فقال عليّ عليه‌السلام: أنا، فقال ﷺ: أنت[١]. ورواه الثعلبيّ في تفسيره: ثلاث مرّات روي في كلّ مرّة: سكت القوم غير عليّ عليه‌السلام[٢].

ونقل في كنز العمّال هذا الحديث بقصّة طويلة عن عدّة أشخاص، قال النبيّ ﷺ في آخره: قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيّكم يوازرني على أمري هذا؟ [قال عليّ عليه‌السلام] فقلت: ...أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي فقال: إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي‌طالب: قد أمرك أن تسمع وتطيع لعليّ[٣]!

وحكى ابن أبي الحديد في شرح النهج عن أبي جعفر الإسكافيّ أنّه قال: وروي في الخبر الصحيح: أنّ النبيّ ﷺ كلّف عليّاً في مبدأ الدعوة أن يصنع طعاماً ويدعو له بني عبدالمطّلب، فصنع له طعاماً ودعاهم له... ثمّ ضمن لمن يوازره وينصره على قوله أن يجعله أخاه في الدين ووصيّه بعد موته وخليفته من بعده، فأمسكوا كلّهم وأجابه هو وحده... فقال لهم: هذا أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي، فقاموا يضحكون ويقولون لأبي طالب: أطِع ابنك فقد أمّره عليك[٤]!

ومنها: ما ورد في سبب نزول سورة النجم عن ابن عبّاس، قال: كنت جالساً

١ ـ مسند أحمد بن حنبل ١: ١١١، والآية في سورة الشعراء ٢٦/٢١٤.
٢ ـ مجمع البيان ٤: ٢٠٦ نقلاً عنه.
٣ ـ كنز العمّال ١٣: ١٣١ ـ ١٣٣.
٤ ـ شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٤٤.

مع فِتْية من بني هاشم عند النبيّ ﷺ إذا انقضّ كوكب، فقال رسول الله ﷺ : مَن انقضّ هذا النجم في منزله فهو الوصيّ من بعدي، فقام فِتْية من بني هاشم فنظروا فإذا الكوكب قد انقضّ في منزل عليّ، قالوا : يا رسول الله، لقد غَوَيت في حبّ عليّ عليه السلام ! فأنزل الله ﴿وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَىٰ﴾[١]. وفيما رواه ابن تيميّة خبر يشتمل على لفظ : خليفتي من بعدي[٢].

و منها : ما تقدّم في بعض أحاديث الثقلين حيث عبّر عنهما بالخليفتين.

و منها : ما في المواقف في مبحث الإمامة عن النبيّ ﷺ أنّه قال لعليّ عليه السلام : أنت أخي و وصيّي و خليفتي مِن بعدي و قاضي دَيني[٣]، إلى غير ذلك من الأخبار المشتملة على لفظ الخلافة، و دلالتها على المدّعى واضحة غير قابلة للتشكيك.

تشكيك و ردود

ومع ذلك أنكر بعضهم كابن روزبهان[٤] و ابن تيميّة أصلَ الأخبار و ادّعى أنّها موضوعة بدعوى أنّه كيف يقول النبيّ ﷺ للجماعة : مَن يوازرني على أمري يكن وصيّي و خليفتي من بعدي، و الحال أنّ مجرّد الإجابة إلى مثل ذلك لا يوجب الخلافة، فإنّ جميع المسلمين وازروه ولم يكن منهم أحد خليفة له، و من الجائز أن يجيبه جماعة منهم وحينئذ فمَن يكون الخليفة منهم[٥]؟!

و فيه : إنّ النبيّ ﷺ لم يَقُل : هذا علّة تامّة للخلافة بعدي حتّى تلزم خلافة كلّ من فعل ذلك و إن لم يكن من عشيرته، بل أراد بأمر الله إنذار عشيرته و ترغيبهم في الإسلام ؛ لأنّهم أولى به و بنصرته، فلم يجعل هذه المنزلة إلّا لهم و ليُعلِم من أوّل الأمر أنّ هذه المنزلة لعليّ عليه السلام خاصّة، فإنّ الله و رسوله يعلمان أنّه لا يجيب

---

١ ـ المناقب لابن المغازليّ ٣١٠، و الآية في سورة النجم ٥٣/١ ـ ٢.

٢ ـ منهاج السنّة ٤ : ٨٠.

٣ ـ شرح المواقف ٦١٣.

٤ ـ دلائل الصدق ٢ : ٢٣٢.

٥ ـ منهاج السنّة ٤ : ٨٢.

النبيّ ﷺ ولا يوازره حقّاً إلّا عليّ عليه السلام، فكان ذلك من باب تثبيت خلافته وإمامته وإلقاء الحجّة على قومه، وحينئذ لا يصحّ فرض تعدّد المجيب للنبيّ ﷺ ولو صحّ ووقع لعيّن ﷺ الأولى والأحقّ.

ادّعى بعضهم كالمواقف وشارحه أنّ هذه الأخبار معارَضة بالنصوص الدالّة على خلافة أبي بكر، فقالا: إنّ هذه الأخبار مردودة بوجهين:

الأوّل: إنّها معارضة بالنصوص الدالّة على خلافة أبي بكر.

الثاني: منع صحّة الحديث للدليل القاطع على عدم النصّ الجليّ[1]، لأنّه لو وُجد لتواتر ولعارض عليّ أبابكر في الإمامة، ولصلابة الأصحاب في الدين فكيف لا يتّبعون النصّ المبين؟!

ويرد على الأوّل: إنّه لو سلّم وجود النصّ الدالّ على خلافة أبيبكر فليس حجّة علينا لأنّها من الأخبار الخاصّة بهم بل هي من الكذب المسلّم، لإقرارهم بأنّ النبيّ ﷺ لم يخلف أحداً ولم يعهد إلى أحد.

ويرد على الثاني: بأنّ حصول التواتر مشروط بعدم الشبهة، وهي ثابتة لهم بل الثابت أعظم منها وهو التعصّب الّذي هو قذى البصائر. وهل تبقى شبهة مع نصّ الكتاب العزيز بانحصار الولاية لله ورسوله وأميرالمؤمنين عليه السلام ونصّ حديث الغدير، والمنزلة، والثقلين، وغيرها فإنّها متواترة ونصّ في خلافته ولو بمجموعها لو أنصفوا. ولو سلّم أنّها ليست نصّاً جليّاً ولا متواترة معنىً بإمامته فالمطالبة بتواتر ما هو أجلى منها ليست في محلّها، للصوارف عنه فإنّ عامّة قريش وكثيراً من الأنصار في الصدر الأوّل كانوا أعداءً لأميرالمؤمنين، فمنهم غاصب له ومنهم معين على غصبه ومنهم راضٍ به والباقي رعاع وسوقة إلّا القليل، والقليل لا يقدر على بيان النصّ الجليّ خوفاً من الأمراء بل حتّى الكثير يخاف منهم، ولذا خفي أمر

---

١ ـ شرح المواقف ٦١٣.

الغدير فاحتاج عليّ عليه السلام بعد زمن قريب إلى الاستشهاد بمن بقي من الصحابة، مع أنّه لم يَشهد له بعضُهُم عداوة له، فأصابته دعوته[١].

ولو فرض إمكان بيان النصّ الكامل في الصدر الأوّل فلا ريب في عدم إمكانه أيّام معاوية والشجرة الملعونة؛ لأنّهم أوجبوا سَبّ إمام الموحّدين وتتّبعوا بالقتل والحبس مَن روى له فضيلة أو رأى له فضلاً، فكيف يمكن حينئذ أن تتواتر رواية النصّ الجليّ؟! وكذا في الأيّام المتأخّرة كأيّام كثير من بني العبّاس الّذين هم مثل بني أُميّة أو أشدّ في جحد حقّ أميرالمؤمنين. ولا أعجب من طلب حصول التواتر بالنصّ أجلى عند قوم يخالف مذهبهم اهتمام علمائهم بدنياهم في الانتقاص منه عليه السلام وإثبات مفضوليّته، وإثبات مناصب سلاطينهم وأُمرائهم بإنكار النصّ عليه وعلى الأئمّة من ولده.

وأمّا دعوى عدم معارضة عليّ عليه السلام لأبي بكر فظاهرة المنع، إذ أيّ معارضة في مقام الخوف على الإسلام أكبر من الامتناع عن بيعته وإظهار أنّه ظالم غاصب، ولم يبايعه إلّا قهراً بعد ستّة أشهر أو أكثر[٢]؟! إلى غير ذلك ممّا صدر عن أميرالمؤمنين عليه السلام معارضةً لأبي بكر من حمل الزهراء والحسنين ليلاً مستنصراً بوجوه المسلمين فلم ينصروه[٣]. وذكره معاوية في كتابه المشهور إلى أميرالمؤمنين عليه السلام[٤]، وقوله عليه السلام: ...ما زلتُ مدفوعاً عن حقّي، مستأثَراً عليَّ منذ قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله حتّى يوم الناس هذا[٥]، وقوله عليه السلام: اللّهمّ إنّي أَستعدِيك على قريش ومَن

---

١ ـ إنّ قوماً من أصحاب النبيّ الحضور في يوم غدير خمّ قد كتموا شهادتهم لأميرالمؤمنين عليه السلام بالحديث فدعا عليهم فأخذتهم الدعوة، كما وقع النصّ بذلك في غير واحد من المعاجم، والقوم هم: ١ ـ أبوحمزة أنس بن مالك. ٢ ـ براء بن عازب الأنصاريّ. ٣ ـ جرير بن عبدالله البجليّ. ٤ ـ زيد بن أرقم الخزرجيّ. ٥ ـ عبدالرحمان بن مدلج. ٦ ـ يزيد بن وديعة، الغدير ١: ١٩١ ـ ١٩٢.

٢ ـ شرح نهج البلاغة ٦: ٤٦.

٣ ـ الإمامة والسياسة ١٢.

٤ ـ شرح نهج البلاغة ١٥: ١٨٥ ـ ١٨٧.

٥ ـ نهج البلاغة ٥٣، الخطبة ٦.

أعانهم، فإنّهم قد قَطَعوا رَحِمِي وأكْفَؤُوا إنائي، وأَجْمَعُوا على مُنازَعتي حقّاً كـنتُ أولىٰ به من غيري[١]. وقوله عليه‌السلام : ... فَجَزَتْ قريشاً عنّي الجَوازي؛ فقد قَطَعوا رَحِمي، وسَلَبوني سُلطانَ ابنِ أُمّي...[٢] وقوله عليه‌السلام : ... وإنّه [أبابكر] لَيَعلمُ أنّ مَحلّي منها مَحلّ القُطب من الرَّحا...[٣]. وقوله عليه‌السلام : ... أرى تُراثي نَهْباً...[٤]. وقوله عليه‌السلام : لنا حـقّ فـإنّ أُعطيناه وإلّا ركبنا إعجازَ الإبل وإن طال السُّرىٰ[٥]. إلى غير ذلك من كلماته المشارة بها إلى الاعتراض والمعارضة لهم.

وأمّا دعوى صلابة الأصحاب في الدين فإنّها سخيفة جـدّاً ولا سـيّما بـعد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله، ولنسأل عن قوله تعالى : ﴿أَفَائِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْـقَلَبْتُمْ عَـلَىٰ أَعْـقَابِكُمْ﴾[٦] وسورة البراءة المسمّاة بالفاضحة؛ لأنّها فضحت أكثرهم[٧]. وقوله تعالى ﴿وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[٨] حيث تركوا الواجب ولم يُبالوا بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وانفضّوا إلى اللهو والتجارة ولم يبقَ معه إلّا النادر. ولنسأل أحاديث الحوض الّتي حكم فـيها بارتداد جُلّ الصحابة وأنّهم إلى النار ولم يسلم منهم إلّا مثل همل النَّعَم.

وتوهّم أنّهم كانوا عدولاً بعد موت النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله، مع أنّ إخباره تعالى بأنّ فيهم المنافق والفاسق في زمن حياته مستلزم لأن يكون وجوده صلى‌الله‌عليه‌وآله فيهم نقمة عليهم مع أنّه رحمة للعالمين، فكيف يزعم أنّهم كانوا متصلّبين فيما جاء به سيّد المرسلين مع أنّهم منعوه من الكتابة الّتي لا يضلّون معها بعده، ونسبوه إلى الهُجر فقابلوا إحسانه بأعظم إساءة ونصيحته بأكبر غشّ وهدايته بأضلّ ضلالة ؟! وكيف كانوا يريدون إقامة الحقّ وتقويم الشريعة ووليّهم ـ بنصّ الكتاب وبـيان الرسـول ـ ومـولاهم وأخو نبيّهم بين أظهُرهم لا يلتفتون إليه بوجه، بل انتهزوا الفرصة باشتغاله بتجهيز

---

١ ـ نفس المصدر ٣٣٦، الكلام ٢١٧.

٢ ـ نفس المصدر ٤٠٩، الكتاب ٣٦.

٣ ـ نفس المصدر ٤٨، الخطبة ٣.

٤ ـ نفس المصدر.

٥ ـ نفس المصدر ٤٧٢، الحكمة ٢٢.

٦ ـ آل‌عمران ١٤٤/٣.

٧ ـ الكشّاف ٢ : ٢٤١.

٨ ـ الجمعة ١١/٦٢.

النبيّ ﷺ وتنازعوا الإمرة بينهم في السقيفة واستخدموا في نيلها الحيل والتزويرات ؟!

كيف قصدوا إحياء الحقّ وقد انتهكوا حرمة نبيّهم بترك دفنه وغضب بضعته ولمّا يَطُل العهد، حتّى ماتت مقهورة غَضبىٰ ؟! وغير ذلك ممّا صدر من الجرائم والمصائب على أيديهم.

ثمّ إنّه قد أجاب القوشجيّ في شرح التجريد عن الحديث الّذي حكيناه عن المواقف بعد ذكر نصيرالدين الطوسيّ رحمه الله له، فقال : وأُجيب بأنّه خبر واحد في مقابلة الإجماع، ولو صحّ لما خفي على الصحابة والتابعين والمَهَرَة المتقنين من المحدّثين لاسيّما عليّ وأولاده الطاهرين، ولو سلّم فغايته إثبات خلافته لا نفي خلافة الآخرين[1].

ويشكل عليه بمنع الإجماع كما حقّق في محلّه، مع أنّ النصّ لم يَخْفَ على الصحابة ولكن أخفَوه عن عمد كحديث الغدير، وكذا أخفاه مَن علم من غير الصحابة عداوةً لعليّ عليه السلام أو خوفاً من معاوية. وممّا يشهد لذلك ما قال عمر بن عبد العزيز : كان أبي يخطب فلا يزال مستمرّاً في خطبته، حتّى إذا صار إلى ذكر عليّ وسبّه تقطّع لسانه واصفرّ وجهه وتغيّرت حاله، فقلت له في ذلك، فقال : أوَ قد فطنتَ لذلك ؟! إنّ هؤلاء لو يعلمون من عليّ ما يعلمه أبوك ما تَبِعَنا منهم رجل[2].

وأمّا دعوى خفائه عن أميرالمؤمنين وأولاده عليهم السلام فمخالفه لِما تواتر عنهم من حصول النصّ عليه بالخلافة، ولِما ظهر من أحوالهم في تضليل الأوّلين، فكم صرّحوا بالنصّ من النبيّ ﷺ فمازاد مخالفيهم إلّا عداوة وإعراضاً عن الحقّ.

وأمّا إنكار دلالته على نفي خلافة الآخرين فمكابرة محضة، إذ أيّ دليل أصرح في نفيها من قوله ﷺ : خليفتي من بعدي، ولو كان التقييد بقوله : من بعدي، غير

---

١ ـ شرح تجريد العقائد ٣٧٠.

٢ ـ شرح نهج البلاغة ١٣ : ٢٢١.

دالّ على ذلك لم تثبت خلافة أحد بلا فصل بالنصّ. وليت شعري ما بال وصيّة أبي بكر لعمر كانت نصّاً في خلافته له بلا فصل دون وصيّة النبيّ ﷺ لأميرالمؤمنين، وهي ليست بأصرح منها في الدلالة على عدم الفصل ؟!

تنبيه : ومن جملة الأخبار المصرّحة بخلافة أميرالمؤمنين عليه السلام ما في ميزان الاعتدال في ضمن ترجمة عبدالله بن داهر، روي بسنده عن ابن عبّاس : ستكون فتنة فمَن أدركها فعليه بالقرآن وعليّ بن أبي طالب، فإنّي سمعت رسول‌الله ﷺ ... يقول : هذا أوّل من آمن بي وأوّل من يصافحني، وهو فاروق هذه الأمّة، ويعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الظلمة، وهو الصدّيق الأكبر، وهو خليفتي من بعدي[1].

ومنها ما في اللآلي المصنوعة عن النبيّ ﷺ : إنّ أخي ووزيري وخليفتي من بعدي في أهلي وخير مَن أترك بعدي يقضي دَيني وينجز موعدي: عليّ عليه السلام[2].

وفيه عن سلمان قال : سألت رسول‌الله ﷺ مَن وصيّه؟ فقال : وصيّي وموضع سرّي وخليفتي في أهلي وخير مَن أخلف بعدي: عليّ عليه السلام[3].

ولا يخفى أنّ قول النبيّ ﷺ في بعض هذه الأخبار «فيكم» أو «في أهلي» ليس مقصوداً به تقييد الخلافة؛ للإجماع على عدم الفرق بين عشيرته وغيرهم وللزوم اجتماع خليفتين عامّ و خاصّ، ولا يقوله أحد. ولا يصحّ أن يراد بخلافته في أهله قيامه بأمور دنياهم؛ لعدم قيام عليّ عليه السلام بأمر أرحام النبيّ ﷺ ونسائه وعدم خلافته عنه ﷺ في القيام بأمر فاطمة والحسنين، بل هم عياله الّذين يجب عليه نفقتهم أصالة لا بالخلافة عنه ﷺ. فالمقصود في هذه الأخبار الخلافة والزعامة العامّة، كما يشهد له ذكر الوصيّة مع الخلافة في ما روي عن سلمان وذكر «خير مَن أترك بعدي» فيه وفي غيره، مضافاً إلى إطلاق الخلافة في الأخبار المتقدّمة. والظاهر أنّ تخصيص المخاطبين ـ وهم العشيرة في أحاديث نزول

---

١ ـ ميزان الاعتدال ٢ : ٤١٦ ـ ٤١٧.

٢ ـ اللآلي المصنوعة ١ : ٣٢٦.

٣ ـ نفس المصدر ١ : ٣٥٨.

﴿وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[١] ـ إنّما هو لكون الخطاب لهم أو لأهمّيّتهم أو لأنّه لا أمّة له حينئذ. ويحتمل أن تكون جملة «في أهلي» زيادة عمديّة، أو سهويّة من بعض الرواة.

أحاديث الولاية

وأمّا أحاديث الولاية فهي أيضاً متواترة معنىً بل لفظاً، روى الحاكم في المستدرك عن عمران بن حُصَين وصحّحه على شرط مسلم، قال عمران [ما حاصله]: إنّ النبيّ ﷺ استعمل عليّاً على سَريّة فأصاب جارية فأنكروا عليه، فتعاقد أربعة أن يخبروا النبيّ ﷺ فأخبره أحدهم، فأعرض عنه وكذلك الثاني والثالث، ثمّ قام الرابع فأخبره فأقبل عليه رسول‌الله ﷺ والغضب في وجهه فقال: ما تريدون من عليّ؟! إنّ عليّاً منّي وأنا من عليّ، وهو وليّ كلّ مؤمن[٢]. وكذا في مسند أحمد[٣] وكنز العمّال نقلاً عن ابن أبي بُرَيدة: إنّ النبيّ ﷺ قال: لا تَقَعْ في عليّ؛ فإنّه منّي وأنا منه، وهو وليّكم بعدي[٤].

وفي الكنز أيضاً عن عمران قال ﷺ: عليّ منّي وأنا من عليّ، وعليّ وليّ كلّ مؤمن بعدي[٥]. إلى غير ذلك من الأخبار المصرّحة بأنّ عليّاً وليّ كلّ مؤمن. وهي مرويّة عند الخاصّة والعامّة بطرق كثيرة، ودلالتها على إمامة أميرالمؤمنين عليه السلام ظاهرة؛ لأنّ جعل كلّ من النبيّ ﷺ وأميرالمؤمنين بعضاً من الآخر دليل اتّحادهما بالمزايا والفضل والإمامة، كما يشهد له إمضاء النبيّ ﷺ لفعله عليه السلام في اصطفاء الجارية، كما مرّ في رواية عمران. وبهذا يعلم أنّه أراد الإمامة بقوله ﷺ هو وليّ كلّ

---

١ ـ الشعراء ٢٦/٢١٤.
٢ ـ المستدرك على الصحيحين ٣: ١١٠ ـ ١١١.
٣ ـ مسند أحمد بن حنبل ٤: ٤٣٧ ـ ٤٣٨.
٤ ـ كنز العمّال ١١: ٦٠٨.
٥ ـ نفس المصدر.

مؤمن، إذ لا يصلح إرادة غيرها في المقام.

والحاصل أنّ هذه الرواية دالّة على صحّة اصطفاء أميرالمؤمنين عليه السلام للجارية ومضيّ فعله لأنّه من رسول‌الله صلى الله عليه وآله والرسول منه، فيفهم منها أنّه إمام فعلاً بل يفهم من مجرّد قوله صلى الله عليه وآله: هو منّي وأنا منه، أنّه بمنزلته فعلاً فيكون إماماً فعليّاً. ولا ينافيه التقييد بالبَعديّة في بعض الأخبار؛ لأنّ المراد بها التأخّر في الرتبة والإشارة إلى قيامه بعده بتمام شؤون الإمامة.

ثمّ إنّ المراد بـ«الوليّ» في هذه الأخبار هو الأولى بالتصرّف في الأُمور الدنيويّة والأُخرويّة كما ذكرنا في حديث الغدير، وآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ﴾ وظهورها في ذلك ـ ولو بقرينة المقام ـ ممّا لا حاجة معه إلى التوضيح والبيان، فدلالة هذه الأخبار على المدّعى ممّا لا يعتريه ريب.

حديث الطائر

روى الترمذيّ بسنده عن السديّ عن أنس ورواه النسائيّ في الخصائص عن أنس بهذا اللفظ: إنّه أتى النبيَّ صلى الله عليه وآله وعنده طائر، فقال: اللّهمّ ائتِني بأحبِّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير، فجاء أبوبكر فردّه، ثمّ جاء عمر فردّه، ثمّ جاء عليّ فأذن له[١].

ورواه الحاكم في المستدرك عن أنس أيضاً وذكر فيه: أنّه جاء عليّ عليه السلام مرّتين فقال له: إنّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله على حاجة! ثمّ جاء فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: إفتح، فدخل. فقال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: ما حَبَسك علَيّ؟ فقال: إنّ هذه آخر ثلاث كرّات يردّني أنس يزعم أنّك على حاجة... الخبر، ثمّ قال الحاكم: هذا حديث على شرط الشيخين. وقال: قد رواه عن أنس جماعة من أصحابه زيادة على ثلاثين نفساً، ثمّ صحّت الرواية

---

١ ـ الخصائص للنسائيّ ٦؛ سنن الترمذيّ ٥: ٦٣٦ ـ ٦٣٧ باختلاف.

عن عليّ و أبي سعيد الخدريّ و سفينة [١].

قال في ينابيع المودّة: و لابن المغازليّ حديث الطير من عشرين طريقاً [٢]، فالحديث بحسب السند ممّا لا غبار عليه. أمّا دلالة الحديث على إمامة أميرالمؤمنين عليه السلام فمن أظهر الأمور؛ لأنّ أحبّ الناس إليه تعالى إنّما هو أفضلهم و أتقاهم و أعلمهم بطاعته فلابدّ أن يكون أحقّ بالإمامة، لا سيّما من الشيخين إذ مع دخولهما في عموم الناس صرّح في حديث النسائيّ باسمهما بالخصوص، قال ابن عبّاد في هذا المقام شعراً:

يا أميرالمؤمنين المرتضى	إنّ قلبي عندكم قد وَقَفا
كلّما جدّدتُ مدحي فيكمُ	قال ذو النصب: نَسِيتَ السَّلَفا!
مَنْ كمولايَ عليٍّ زاهدٌ	طلّقَ الدنيا ثلاثاً ووفىٰ
مَنْ دُعي للطير إذ يأكلهُ	ولنا في بعض هذا مُكتفىٰ
مَنْ وصيّ المصطفى عندكمُ	و وصيّ المصطفى مَن يُصطفىٰ [٣]

تشكيك و ردود

ثمّ إنّه أشكل في المواقف و شرحها على الحديث بأنّه لا يفيد كونه أحبّ إليه في كلّ شيء، لصحّة التقسيم و إدخال لفظ الكلّ و البعض، ألا ترى أنّه يصحّ أن يستفسر و يقال: أحبّ خلقه إليه من كلّ الأشياء أو بعضها... فلا يدلّ على الأفضليّة [٤].

و فيه: إنّ الإطلاق مع عدم القرينة على الخصوص يفيد العموم في مثل المقام، ألا ترى أنّ كلمة الشهادة تدلّ على التوحيد، و بمقتضى ما ذكره ينبغي أن لا تدلّ

---

١ ـ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٠ ـ ١٣١.

٢ ـ ينابيع المودّة ٥٦؛ المناقب لابن المغازليّ ١٥٦ ـ ١٧٥.

٣ ـ ديوان الصاحب بن عبّاد ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

٤ ـ شرح المواقف ٦١٥.

عليه لإمكان الاستفسار بأنّه لا إله إلّا هو في السماء أو في الأرض أو في كلّ شيء إلى غير ذلك، فلا تفيد نفي الشريك مطلقاً، وهذا لا يقوله عارف.

والعجب منه حيث يقول بهذا وهو يستدلّ على فضل أبي بكر بقوله تعالى ﴿وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾[١] زاعماً أنّ المراد بـ«الأتقى» أبوبكر فيكون أفضل، والحال أنّه يمكن الاستفسار عن أنّه الأتقى في كلّ شيء أو في بعض الأشياء؟ مضافاً إلى أنّه لا يصحّ حمل الحديث على إرادة الأحبّ في بعض الأمور وإلّا لجاء مع عليّ عليه السلام كلّ من هو أحبّ منه بزعمهم في بعض الأُمور كالشيخين لاستجابة دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله، والحال أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد ردّهما. ونحن نمنع أن يكون أحد أحبّ إلى الله بعد النبيّ صلى الله عليه وآله من عليّ عليه السلام في شيء من الأشياء، لِما سبق في المقدّمات بأنّ الإمام أفضل الناس في كلّ شيء فيكون أحبّهم إلى الله تعالى في كلّ شيء.

وقد زاد ابن تيميّة في الطنبور نغمة أُخرى فيما أورد على الحديث من أُمور تشهد بجهله أو نصبه.

منها: إنّ أكل الطير ليس فيه أمر عظيم هنا يناسب أن يجئ أحبّ الخلق إلى الله ليأكل معه، فإنّ إطعام الطعام مشروع للبَرّ والفاجر، وليس في ذلك زيادة وقربة عند الله لهذا الآكل ولا معونة على مصلحة دين ولا دنياً ليناسب أن يجئ أحبّ الخلق إلى الله يفعله[٢].

وفيه: إنّ الأمر العظيم هنا تعريف الأحبّ إليه تعالى للناس بدليل وجدانيّ، فإنّه آكد من اللفظ وأقوى في الحجّة، كما عرّفهم نبيّ الهدى أنّ عليّاً حبيب الله في قصّة خيبر[٣]. على أنّه يكفي في المناسبة رغبة النبيّ صلى الله عليه وآله بأن يأكل معه أحبّ الخلق إليه تعالى وإليه صلى الله عليه وآله.

ومنها: إنّ الحديث يناقض مذهب الرافضة؛ فإنّهم يقولون: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان

---

١ ـ نفس المصدر ٦١٤، والآية في سورة الليل ٩٢/١٧.

٢ ـ منهاج السنّة ٤: ٩٩.

٣ ـ مسند أحمد بن حنبل ١: ٩٩.

يعلم أنّ عليّاً أحبّ الخلق إلى الله و أنّه جعله خليفة لمن بعده، وهذا الحديث يدلّ على أنّه ما كان يعرف أحبّ الخلق إلى الله تعالى[١].

و فيه : إنّا نطالب بكيفيّة دلالة الحديث على أنّه ﷺ ما كان يعرفه، ألا ترى أنّه لو قال ﷺ : اللّهمّ ائتني بعليّ، فهل يدلّ هذا على عدم معرفته له؟ وكيف لا يعرفه وقد قال ﷺ كما في بعض الأخبار : اللّهمّ ائتني بأحبّ الخلق إليك وإليّ، وقال لعليّ عليه السلام بعد ما جاء : ما حبسك علَيّ أو ما الّذي أبطأ بك؟ فالنبيّ ﷺ كان عارفاً به لكنّه أبهم ولم يَقُل : ائتني بعليّ، ليحصل اليقين منه تعالى فيعرف الناس أنّ عليّاً هو الأحبّ إليه تعالى بنحو الاستدلال.

و منها : إنّ الحديث مناقض للأخبار الثابتة في الصحاح القاضية بأنّ أبابكر هو الأحبّ كما في الصحيحين من قوله ﷺ : لو كنت متّخذاً خليلاً لاتّخذت أبابكر خليلاً... ومناقض لقوله تعالى ﴿وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ فإنّ أئمّة التفسير يقولون : إنّه أبوبكر، و الأتقى هو الأحبّ إليه تعالى و رسوله[٢].

و فيه : إنّ الرواية الواردة في شأن أبي بكر مختصّة بهم لا تكون حجّة علينا، وكذا قول أهل تفسيرهم لأنّه من التفسير بالرأي التابع للهوى ولمقدّمات باطلة، على أنّه ليس مجمعاً عليه بينهم، كما أنّ روايته غير تامّة الدلالة على مدّعاه أيضاً.

أحاديث الودّ و المحبّة و الموالاة

و هي كثيرة جدّاً متضافرة من الطريقين، بل متواترة من الجانبين.

منها : ما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾[٣].

---

١ ـ منهاج السنّة ٤ : ٩٩.
٢ ـ نفس المصدر ٤ : ١٠٠.
٣ ـ مريم ١٩/٩٦.

وقد ذكر في غاية المرام أربعة عشر حديثاً من طرقهم، و أحد عشر حديثاً من طرقنا تدلّ علىٰ أنّ الآية نزلت في عليّ عليه السلام [١]. من جملتها: ما عن ابن المغازليّ الشافعيّ في المناقب عن ابن عبّاس، قال: أخذ رسول‌الله صلى الله عليه وآله بيدي و أخذ بيد عليّ عليه السلام فصلّىٰ أربع ركعات، ثمّ رفع يده إلى السماء فقال: اللّهمّ سألك موسىٰ بن عمران، و إنّ محمّداً سألك أن تشرح لي صدري و تُيسّر لي أمري و تَحلُل عقدة من لساني يفقهوا قولي، و اجعل لي وزيراً من أهلي: عليّاً، أُشدُد به أزري و أشرِكه في أمري. قال ابن عبّاس: فسمعت منادياً ينادي: يا أحمد، قد أُوتيتَ ما سألتَ. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: يا أبا الحسن، ارفَعْ يدك إلى السماء و ادعُ ربّك و سَلْه يُعطِك. فرفع عليّ عليه السلام يده إلى السماء و هو يقول: اللّهمّ اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي عندك وُدّاً. فأنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدّاً﴾، فتلاها النبيّ صلى الله عليه وآله على أصحابه فعجبوا من ذلك عجباً شديداً، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: مِمَّ تعجبون؟ إنّ القرآن أربعة أرباع: فرُبع فينا أهل البيت خاصّة، و ربع حلال، و ربع حرام، و ربع فرائض و أحكام، و الله أنزل في عليّ كرائم القرآن [٢].

وما ورد عن براء بن عازب قال: قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله لعليّ بن أبي طالب: يا عليّ، قل: اللّهمّ اجعَلْ لي عندك عهداً و اجعل لي عندك وُدّاً و اجعل لي في صدور المؤمنين مودّة، فنزلت هذه الآية [٣].

وقد ذكر السيوطيّ [٤] نزول الآية في عليّ عليه السلام وكذا الكشّاف [٥]، وقال في الصواعق في المقصد الثاني من المقاصد المتعلّقة بالآية الرابعة عشرة من الآيات النازلة في أهل البيت: أخرج الحافظ السلفيّ عن محمّد بن الحنفيّة أنّه قال في تفسير هذه الآية: لا يبقى مؤمن إلّا و في قلبه ودّ لعليّ و أهل بيته [٦].

---

١ ـ غاية المرام ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

٢ ـ المناقب لابن المغازليّ ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

٣ ـ نفس المصدر ٣٢٧.

٤ ـ الدرّ المنثور ٤: ٢٨٧.

٥ ـ الكشّاف ٣: ٤٧.

٦ ـ الصواعق المحرقة ١٧٢.

وقد روى الكافي بسنده عن أبي بصير، قال: قلت [لأبي عبدالله عليه السلام]: قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ قال عليه السلام: ولاية أميرالمؤمنين هي الودّ الّذي قال الله تعالى...[1].

وأمّا دلالة هذه الآية والروايات على المدّعى فمحتاجة إلى بيان معنى الودّ، فنقول: قال في الكشّاف: المعنى: سيُحدِث لهم في القلوب مودّة ويزرعها لهم فيها من غير تردّد منهم ولا تعرّض للأسباب الّتي توجب الودّ ويكتسب بها الناس مودّات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرّة أو غير ذلك، وإنّما هو اختراع منه ابتداءً اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصّة، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانهم[2]، ومثله في تفسير الرازيّ[3].

ولا يخفى أنّ مثل هذه العناية الخاصّة والبشارة الإلهيّة الّتي استحقّت الذكر في الكتاب العزيز ناشئة من أهليّةِ مَن له العناية، ومن امتيازه بالقرب إلى الله تعالى، وارتقائه على جميع المؤمنين بالفضل والطاعة، وهي مختصّة بأميرالمؤمنين، ولذا نزلت فيه عليه السلام دون غيره من الصحابة، فيكون أفضل الأُمّة وإمامها بشهادة تعظيمه تعالى له، حيث عبّر بصيغة الجمع كناية عن أنّه بمنزلتهم جميعاً في الإيمان والعمل الصالح، لكونه إمامهم وسبب إيمانهم وأعمالهم، ولذا قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله في حقّه يوم الخندق: برز الإيمان كلّه إلى الشِّرك كلّه[4]، وقال: ضربة عليّ عليه السلام تعدل عبادة الثقلين[5]. وبمقتضى رواية الصواعق[6] تكون العناية ثابتة أيضاً لأبناء أميرالمؤمنين الطاهرين، فثبتت لهم الإمامة أيضاً.

وبتوضيح آخر: إنّ المراد من «الجعل» في الآية إمّا التشريعيّ منه أو التكوينيّ، ومن الودّ إمّا الولاية وإمّا مطلق المحبّة والمودّة؛ فإن قلنا بأنّ المراد من الجعل

---

١ ـ الأُصول من الكافي ١ : ٤٣١.
٢ ـ الكشّاف ٣ : ٤٧.
٣ ـ التفسير الكبير ٢١ : ٢٥٥.
٤ ـ شرح نهج البلاغة ١٩ : ٦١.
٥ ـ شرح المواقف ٦١٧.
٦ ـ مرّ ذكرها آنفاً.

التشريعيّ ومن الودّ الولاية والإمامة ـ كما دلّت عليه الأخبار من طرقنا، وهو الظاهر من العهد المسؤول عنه في رواية ابن المغازليّ[1]، ـ فالدلالة واضحة.

ولا يقال : إنّه لا مجال لأخذ الودّ بمعنى الولاية حيث إنّها لا تكون معنىً حقيقياً ولا مجازيّاً له.

فإنّه يقال : إنّ الودّ يكون بمعنى المحبّة والصادق من الحبّ بالنسبة إلى شخص يستلزم الموافقة له وعدم التخلّف عنه، فيكنّى بالودّ بالنسبة إلى شخص حينئذ عن الموافقة له والاقتداء به. ومن البديهيّ أنّ صدق المحبّة ملازم، فيظهر أثرها في الخارج ويصحّ سلبها عمّن لم يظهر عليه أثرها خارجاً، فيجوز أن يراد منها أثرها كناية، فإرادة الولاية والإمامة من الودّ حينئذ يكون على سبيل الحقيقة ويتمّ المطلوب، غاية ما في الأمر أنّه على سبيل الكناية.

وإن قلنا : أنّ المراد من الجعل التشريعيّ ومن الودّ مطلق المحبّة والمودّة فالدلالة أيضاً ثابتة؛ لأنّ إيجاب المودّة على الإطلاق مستلزم لوجوب الطاعة مطلقاً، وهي مستلزمة للإمامة، والعصمة الّتي هي شرط الإمامة مفقودة في غيره إجماعاً فتعيّنت إمامته، مع أنّ الودّ الصادق إنّما هو الودّ الّذي يترتّب عليه أثره خارجاً فكيف يصدق ادّعاء ودّه مع مخالفته ؟! فإنّه عليه السلام ادّعى الخلافة والإمامة ولم يَرَ غيرَه أهلاً لها وامتنع عن البيعة واحتجّ على أبي بكر وغيره من الأصحاب واستنصرهم لأخذ حقّه من أبي بكر ولم يبايعه اختياراً، فمقتضى ودّه الّذي جعله تعالى له : تصديقه واتّباعه لا مخالفته وعدم متابعته، ومع المخالفة لا يكون مدّعيه صادقاً في موالاته. ودعوى أنّ ثبوت المحبّة لا يلزم تصديق دعوى من يُحبّ ـ إذ قد أمر تعالى المؤمنين بأن يحبّ بعضهم بعضاً ولم يأمر بتصديق ادّعائهم بدون البيّنة ـ إنّما هي دعوى غير سديدة، بداهةَ أنّ الحبّ في ذلك المقام الّذي يشترك فيه

---

١ ـ مرّ ذكره آنفاً.

الكلّ ولا مجال لتخصيص التصديق ببعضهم دون بعض، إنّما هو الحبّ من قبل الإيمان ولا يوجب ذلك الحبّ تصديق ادّعاء أحدهم على الآخر مطلقاً.

وهذا بخلاف الحبّ في المقام، حيث إنّ عامّة المؤمنين أُمروا بمودّة شخص خاصّ هو أميرالمؤمنين عليه‌السلام. وهذه المودّة المطلقة المختصّة به توجب تصديقه واتّباعه مطلقاً، وإنّما وجبت مودّته عليهم لكونه عليه‌السلام أكمل في طاعة الله ورسوله وأقرب وأحبّ عند الله ورسوله، فلا يعقل تقديم غيره عليه.

وإن قلنا: إنّ المراد من الجعل التكوينيّ منه كما هو ظاهر كلام صاحب الكشّاف المتقدّم فدلالته أيضاً ثابتة، سواء أُريد من الودّ الخلافة أو مطلق المحبّة.

وذلك لأنّ الجعل التكوينيّ المتصوّر في المقام إنّما هو تقدير ودّه وتيسّر أسبابه في قلوب المؤمنين بحيث يهتدون إليه ويختارون محبّته، فما من مؤمن إلّا يحبّه وما من منافق إلّا يبغضه، و ليس هو الجعل بمعنى الاضطرار و الإلجاء. وتخصيص ودّه عليه‌السلام من بين المؤمنين لأجل كونه أقرب وأحبّ عند الله ورسوله، فيكون أحقّ بالخلافة عنه تعالى وعن رسوله صلى‌الله‌عليه‌وآله.

تتميم

قد ذكر في غاية المرام من طرقهم ثمانية أحاديث ومن طرقنا ستّة أحاديث في ذيل الآية الشريفة ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ أنّها نزلت في ولاية أهل البيت ومحبّتهم.

منها: عن الشعبيّ وغيره ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ عن ولاية أهل البيت ومحبّتهم[1].

وفي ينابيع المودّة بسنده عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: إذا نُصب الصراط على جهنّم لم

---

١ ـ غاية المرام ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

يَجُز عنها أحد إلّا من كانت معه براءة بولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام[١].

و الأحاديث بهذا المضمون متضافرة من الطرفين، فهذه الآية منضمّة إلى هذه الأخبار دالّة على إمامة أميرالمؤمنين و أولاده الطاهرين؛ لأنّ ولايتهم أوّل ما يُسأل عنه بعد التوحيد و الرسالة و أحقّ ما يحتاج إلى معرفته في الجواز على الصراط، ومن لم يعرف إمامه مات ميتة الجاهلية. وهذا بخلاف سائر الواجبات؛ فإنّ من لا يقوم بها لا يخرج عن الدين حيث إنّها ليست من أُصوله، ولذلك جاءت الآية الشريفة في أثناء ذكر الكافرين.

وبالجملة : الولاية و الحبّ و المودّة ـ الّتي توجب للفاقد لها عدم جوازه على الصراط سالماً و يسأل عنها فيما يُسأل إذا قام من جدثه.[٢] ـ دليل على أنّ لصاحبها منزلة عظمى و مرتبة توجب ذلك لفضله عليهم، و الأفضل أحقّ بالإمامة وليت شعري أكان أبوبكر وعمر وعثمان أئمّة لأميرالمؤمنين وهم لا يجوزون الصراط إلّا ويُسألون عن ولايته، ولا يمرّون عليه إلّا ببراءة منه ؟!

وبتوضيح آخر : إنّ مولانا أميرالمؤمنين والمعصومين من عترته صلوات الله عليهم كانوا مدّعين للولاية و الإمامة بالضرورة معلنين أنّها حقّ خاصّ لهم، متىٰ أطاعتهم الأُمّة قاموا بها ومتى منعوهم و دفعوهم عن مقامهم صبروا على ذلك حتّى يحكم الله لهم، قال عليّ عليه السلام : لنا حقّ فإن أُعطيناه وإلّا ركبنا إعجاز الإبل وإن طال السُّرىٰ[٣].

والمبايعة لمن عداهم لم تكن عن رغبة، حيث إنّ شواهد مخالفة أهل البيت

١ ـ ينابيع المودّة ١١٢.

٢ ـ في الينابيع عن الثعلبيّ و ابن المغازليّ بسندهما عن ابن عبّاس و عن المناقب بسنده عن الباقر عليه السلام و عن الحَمْوينيّ بسنده عن أميرالمؤمنين عليه السلام، قالوا : قال النبيّ صلى الله عليه وآله : لا تزول قدم عبد عن قدم حتّى يُسأل عن عمره فيما أفناه، و عن جسده فيما أبلاه، و عن ماله ممّا كسبه و فيما أنفقه، و عن حبّنا أهل البيت. نفس المصدر ١١٣.

٣ ـ نهج البلاغة ٤٨، الخطبة ٣.

للمتصدّين لأمر الخلافة واضحة؛ فإنّ أميرالمؤمنين قد استنصر المهاجرين والأنصار ليلاً واحتجّ عليهم ولم يبايع أبابكر إلّا بعد ظهور الغدر منهم وعدم وفائهم بما وعدوه إلّا أربعة. وقد هجر القوم القرآنَ الّذي ألّفه وجمعه بأمر الرسول صلى الله عليه وآله، وقد غصبوا فدكاً، وعزلوا عمّال فاطمة عليها السلام، واختلقوا حديثاً لمنعها حقّها، وطلبوا منها البيّنة، وردّوا شهادة زوجها وابنَيها مع نزول آية التطهير في شأنهم، بل جاوزوا الحدّ حتّى ماتت فاطمة وهي عليهم غضبىٰ، فدُفنت ليلاً وأُخفي قبرها. وقد ناشد أميرُالمؤمنين القومَ كما مرّ فيما مضى[1]، وقد اشتكى من الخلفاء في خطبه عليه السلام في مواطن كثيرة حتّى أنّ الأشعث[2] قال له عليه السلام: يا ابن أبي طالب، ما منعك حين بويع أخو بني تيم وأخو عديّ بن كعب وأخو بني أُميّة بعدهما أن تقاتل وتضرب بسيفك، فإنّك لم تخطبنا خطبة منذ قدِمت العراق إلّا قلت فيها: واللهِ إنّي لَأَولى الناس بالناس وما زلت مظلوماً...؟! فقال عليه السلام: يا ابن قيس، اسمع الجواب؛ لم يمنعني من ذلك الجُبنُ ولا كراهية للقاء ربّي وأن لا أكون أعلم أنّ ما عند الله خير لي من الدنيا والبقاء فيها، ولكن منعني من ذلك أمر رسول‌الله صلى الله عليه وآله وعهده إليّ، أخبَرَني رسول‌الله صلى الله عليه وآله بما الأُمّة صانعة بعده، فلم أكن بما صنعوا حينما عاينته بأعلم ولا أشدّ يقيناً به منّي، بل أنا بقَولِ رسول‌الله صلى الله عليه وآله أشدّ يقيناً بما عاينتُ وشاهدت، فقلت: لرسول‌الله صلى الله عليه وآله: فما تَعهدُ إليّ إذا كان ذلك؟ قال: إن وجدتَ أعواناً فأنبذ إليهم وجاهدهم، وإن لم تجد أعواناً فكفّف يدك وأحقن دمك حتّى تجد على إقامة الدين وكتاب الله وسنّتي أعواناً. وأخبَرَني أنّ الأُمّة ستخذلني وتبايع غيري، وأخبرني أنّي منه بمنزلة هارون من موسى ـ إلى أن قال عليه السلام ـ ولمّا قُبض رسول‌الله مالَ الناسُ إلى أبي بكر فبايعوه وأنا مشغول... وآليت على نفسي أن لا أرتدي

---

١ ـ مرّ ذكر هذه القضايا والمناشدة في خلال الأبحاث.

٢ ـ الأشعث بن قيس بن مَعدي كَرب بن معاوية الكِنديّ، له صحبة، نزل الكوفة ومات بها في آخر سنة أربعين. تهذيب الكمال ٣: ٢٨٦ ـ ٢٩٥.

برداء إلّا للصلاة حتّى أجمعه [أي القرآن] في كتاب ففعلت، ثمّ حملتُ فاطمة وأخذت بيد ابنَيّ الحسن والحسين فلم أدَع أحداً من أهل بدر وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار إلّا ناشدتهم الله في حقّي ودعوتهم إلى نصرتي، فلم يستجب لي من جميع الناس إلّا أربعة رهط: الزبير وسلمان وأبوذرّ والمقداد...، هكذا ذكر في كتاب سُلَيم بن قيس[١].

وقدحذا حذوه أولاده الطاهرون من الحسن والحسين وسائرهم في خطبهم ومجالسهم وكلماتهم، فخاصم كلّ منهم التصديق في أمر الخلافة والإمامة وفي استحقاق الخلافة والولاية[٢].

وحينئذ يدور الأمر بين أن يكون أهل البيت صادقين في دعواهم أوكاذبين، والكاذب مبغوض عندالله تعالى لاسيّما في هذا الأمر العظيم، ولا تكون ولايته ومحبّته واجبة مسؤولاً عنها يوم القيامة ومن كمال الإيمان بالله ورسوله بحيث لا يجوز أحد عن الصراط إلّا بولايتهم وأخذ الجواز والبراءة منهم، فتعيّن أن يكونوا صادقين، وإذاكانوا صادقين وهم مدّعون للخلافة والولاية معلنين أنّ القوم غصبوا مقامهم تثبت خلافتهم وولايتهم وبطلان دعوى غيرهم.

حبّ أهل البيت عليهم السلام و بغضهم

كما أنّ حبّهم ومودّتهم من كمال الإيمان، وهو الموجب للجواز عن الصراط وعدم الهبوط في قعر النيران فإنّ بغضهم وعداوتهم علامة النفاق، وموجب لدخول النار؛ فقد ذكر السيوطيّ في تفسيره عند قوله تعالى ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ عن ابن مسعود قال: ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسولالله صلى الله عليه وآله إلّا ببغضهم عليَّ بن

---

١ ـ كتاب سليم بن قيس الهلالي ٩١ ـ ٩٢. و لمزيد الاطلاع راجع الإمامة و السياسة لابن قتيبة، في بيان كيفية بيعته عليه السلام لأبي بكر.

٢ ـ قد مرّ في ما مضى.

أبي طالب، ومثله عن أبي سعيد الخدريّ[١].

وروى أيضاً عن أمّ سلمة قالت: سمعت رسول‌الله ﷺ يقول: لا يحبّ عليّاً منافق ولا يبغضه مؤمن[٢].

وروى مسلم عن عليّ عليه‌السلام قال: والّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة إنّه لَعَهْد النبيّ الأُمّيّ إليّ أن لا يُحبّني إلّا مؤمن ولا يُبغضني إلّا منافق[٣]، ونحوه في سنن النسائيّ في علامة الإيمان من كتاب الإيمان[٤]، ورواه بسند آخر في علامة النفاق[٥]، وكذا في كنز العمّال في فضائل عليّ عليه‌السلام[٦].

وروى الحاكم في المستدرك في مناقب أميرالمؤمنين عليه‌السلام عن أبي ذرّ قال: ما كنّا نعرف المنافقين إلّا بتكذيبهم الله ورسوله، والتخلّف عن الصلوات، والبغض لعليّ بن أبي طالب عليه‌السلام[٧].

ونقل ابن حجر في الصواعق المقصد الثالث من المقاصد المتعلّقة بآية القربىٰ عن أحمد والترمذيّ عن جابر: ما كنّا نعرف المنافقين إلّا ببغضهم عليّاً[٨].

ولا يخفى أنّ الحصر في هذا الحديث ونحوه بلحاظ المنافق لا يتحقّق بجميع النفاق إلّا ببغض عليّ عليه‌السلام لكثرة بغضه، حتّى أنّ النبيّ ﷺ كان يعرفهم بلحن القول مع علمهم بحبّه له وشدّة اختصاصه به، ولذا لمّا قُبض رسول‌الله ﷺ وجدوا الفرصة مُواتية فاتّفق عليه أكثر قريش وكثير من الأنصار.

وهذه الأخبار تدلّ أيضاً على خلافته وولايته؛ لأنّ مَن كان حبّه إيماناً وبغضه كفراً ونفاقاً لابدّ أن يكون متّفقاً بأصل من أُصول الدين ممّا يشترط في الإيمان

---

١ ـ الدرّ المنثور ٦: ٦٦ ـ ٦٧، والآية في سورة محمّد ﷺ ٤٧/ ٣٠.

٢ ـ ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب ٢: ٢٠٩.

٣ ـ صحيح مسلم ١: ٦١.

٤ ـ سنن النسائيّ ٨: ١١٦.

٥ ـ نفس المصدر ٨: ١١٧.

٦ ـ كنز العمّال ٣: ١٢٠.

٧ ـ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٩.

٨ ـ الصواعق المحرقة ١٧٤.

الإقرار به، بداهة أنّه ليس المدار في الايمان والنفاق على ذات الحبّ والبغض بل على ما يلازمهما عادة من الإقرار بخلافته المنصوصة أو إنكارها، فإنّ من أبغضه أنكر إمامته عادة فيكون بإظهاره الايمان منافقاً، ومن أحبّه قال بإمامته إذ لا داعي له لإنكارها بعد اتّضاح ثبوتها بالكتاب والسنّة.

ولا ينافي ما ذكرنا ما رواه القوم من أنّ حبّ الأنصار إيمان وبغضهم نفاق[١]، فإنّه لو صحّ كان مفاده أنّ حبّهم وبغضهم إيمان ونفاق لنصرتهم رسول‌الله صلى الله عليه وآله لأنّ الأنصار وصف، وتعليق الحكم بالوصف مشعر بالحيثيّة، وهذا بخلاف تعليق الحكم بعليّ عليه السلام فإنّه ليس لوصف النصرة بل لذاته الشريفة، ويلزمه أنّ المنشأ هو الإمامة لا النصرة، وإلّا لعاد الأمر إلى الايمان بالنبيّ صلى الله عليه وآله وعدمه ولم يكن لعليّ عليه السلام دخل، وهو خلاف ظاهر الحديث.

---

١ ـ مسند أحمد بن حنبل ٣: ٧٠.

الأصل الرابع
المعاد

الفصل الأوّل
انقضاء الكون

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

﴿اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[2].

﴿أَوَلَمْ يَتَفكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِم مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[3].

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾[4].

تدلّ هذه الآيات على أنّ السماء و الأرض و ما بينهما لها أمد معلوم فإذا انتهى الأمد انتهت حركاتها و جريانها، و ليس لها هذا النظم الدقيق إلّا بمقدار معلوم معيّن من الزمان.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ❊ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ❊ وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ❊ وَ إِذَا الْعِشَارُ

---

١ ـ لقمان ٣١/٢٩.
٢ ـ الرعد ١٣/٢.
٣ ـ الروم ٣٠/٨.
٤ ـ الأحقاف ٤٦/٣.

عُطِّلَتْ * وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[١].

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ * وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ﴾[٢].

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾[٣].

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَـٰوَاتُ﴾[٤].

﴿يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[٥].

إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أنّ السماء و الأرض و الجبال و الكواكب يتغيّر نظمها و تصير إلى غير ما كانت عليه، و لا يكون ذلك إلّا لانقضاء أمدها و وصولها إلى وقت معيّن مضروب لها محكوم بالزوال و التعطيل، و الإنسان ليس مُستثنىً من هذا القانون كما هو المشاهد المحسوس.

---

١ ـ التكوير ٨١/١ ـ ٦.

٢ ـ الانشقاق ٨٤/١ ـ ٤.

٣ ـ القارعة ١٠١/٤ ـ ٥.

٤ ـ إبراهيم ١٤/٤٨.

٥ ـ الأنبياء ٢١/١٠٤.

الفصل الثاني
حتمية الموت

هل الموت الّذي لابدّ من لقائه لكلّ ذي روح من إنسان أو غيره أمر وجوديّ أم فناء محض أم واسطة بينهما هي المعبّر عنه بالعَدَم و المَلَكة؟ قال تعالى:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾[1].

﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2].

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[3].

﴿وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾[4].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[5].

﴿وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَ أَحْيَا﴾[6].

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَ يُمِيتُ﴾[7].

﴿هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[8].

---

١ ـ الواقعة ٥٦/٦٠.
٢ ـ الملك ٦٧/٢.
٣ ـ الزمر ٣٩/٤٢.
٤ ـ آل عمران ٣/١٤٥.
٥ ـ الأعراف ٧/٢٥.
٦ ـ النجم ٥٣/٤٤.
٧ ـ البقرة ٢/٢٥٨.
٨ ـ يونس ١٠/٥٦.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾[١].

الظاهر من هذه الآيات: إسناد الموت فيها إليه تعالى، وأنّه بفعله كإعطائه الحياة، وأنّ الإماتة والإحياء ليس إلّا من فعله وشأنه وإن اسند الموت والإماتة إلى ملائكته أو سائر الأسباب بإذنه تعالى. وتدلّ على أنّ الموت كالحياة أمر وجوديّ وصفة عارضة على الشيء مقارناً لانقضاء مدّته وبلوغ أجله المعيّن له، فإنّه تعالى أفاض عليه الحياة مقدّراً إيّاها إلى أمد محدود ووقت معلوم فإذا انتهى الأمد عارضه الموت بإذنه تعالى.

ويؤيّد ما ذكر من مفاد الآيات ما ورد من أنّ الموت والحياة خَلْقان من خَلْق الله[٢]. وغير خفيّ أنّ هذه الحالة كسائر الحالات العارضة على الحيّ، وكثيراً ما يتّفق تقارنها مع الآفات والعاهات، كما أنّه قد تَعرِض عليه بغتة. وكما أنّ للحياة آثاراً من النموّ والحركات فللموت آثار كالسكون وانفجار البدن بعده. وحيث إنّ الإنسان عند عروض الموت يشتغل بنفسه لا يدري ما يقول وما يقال له كأنّه سكران ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[٣]، فإنّ المراد بالسكرات ما يعرِض للإنسان في تلك الحالة من الوحشة والدهشة. وقد ورد في الأخبار أنّها حالة موحشة[٤]: يرى صحيفة أعماله وما يصير إليه أمره[٥]، فيحضره النبيّ والأئمّة عليهم السلام فربّما يعرفهم فيكون حضورهم رحمة وتسلية، وربّما يتّفق عكس ذلك لمن ليست له بهم مسانخة[٦].

---

١ ـ يس ٣٦/١٢.

٢ ـ الفروع من الكافي ٣: ٢٥٩.

٣ ـ ق ٥٠/١٩.

٤ ـ الخصال ١١٩.

٥ ـ تفسير القمّي ٢: ١١٧.

٦ ـ الفروع من الكافي ٣: ١٣١ ـ ١٣٢.

الفصل الثالث
عالم البرزخ

بين هذه الحياة المادّيّة الدنيويّة وبين الحياة الآخرة حياة برزخيّة يعبّر عنها بعالَم البرزخ أوعالم القبر (و هو عالم متوسط بين الموت و القيامة)، يُنعّم فيه الإنسان أو يعذّب حتّى تقوم الساعة.

قال تعالى ﴿وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. و قال عزّوجلّ ﴿لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ﴾[2]، أي لا تعتقدوا فيهم الفناء كما يفيده لفظ الموت عندكم ويُعين على هذا القول حواسّكم، فهؤلاء ليسوا بأموات بمعنى البطلان و الفناء بل أحياء، ولكن حواسّكم لا تنال ذلك ولا تشعر به.

و يدلّ على هذه الحياة أيضاً قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَ مِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[3]. و المراد بكونه «من ورائهم» كونه أمامهم محيطاً بهم، عُبِّر عنه

---

١ ـ آل عمران ٣/١٦٩ ـ ١٧١.
٢ ـ البقرة ٢/١٥٤.
٣ ـ المؤمنون ٢٣/٩٩ ـ ١٠٠.

بـ«ورائهم» بعناية أنّه يطلبهم كما أنّ مستقبل الزمان أمام الإنسان. و المراد بهذا البرزخ عالم القبر و العالم الّذي يعيش فيه الإنسان بعد موته إلى قيام الساعة.

و قال تعالى ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ۞ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً ۞ وَ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ۞ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَ أَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[1]. و المراد باليوم الّذي تُرى فيه الملائكة هو يوم الموت، قال تعالى ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾[2]، وهذا القول منهم يصدر يوم البعث، ولا يستقيم المعنى إلّا بإثبات البرزخ، فيكون إماتة وإحياء في البرزخ وإحياء في القيامة ولو كان أحد الإحياءين في الدنيا و الآخر في الآخرة لم يكن هناك إلّا إماتة واحدة من غير ثانية.

و قال تعالى ﴿وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۞ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَ عَشِيّاً وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[3]. و من البديهيّ أنّ يوم القيامة لا بكرة فيه و لا عشيّ، فهو يوم غير هذا اليوم، فالنار التي يُعرضون عليها هي نار عالَم البرزخ لا نار الآخرة. إلى غير ذلك ممّا تُشير إليه الآيات، وكذا الأخبار الكثيرة المستفيضة المتكاثرة من طرق الشيعة و السنّة عن النبيّ ﷺ و الأئمّة عليهم السلام.

و المؤمن في هذا العالم في رَوح و ريحان وفضل عميم، و الكافر في نقمة وعذاب ونُزُل من حميم.

تنبيه : ليس المراد من القبر هو المكان المحفور المُعَدّ لاستتار الجسد فيه، بل هو العالَم الّذي يعيش فيه الإنسان بروحه و أجزائه الأصليّة من بدنه، سواء أكان تحت التراب و الجَنادِل أو كان تحت البحار أو فوق الأشجار و الهواء.

---

١ ـ الفرقان ٢٥/٢١ ـ ٢٤.
٢ ـ غافر ٤٠/١١.
٣ ـ غافر ٤٠/٤٥ ـ ٤٦.

الفصل الرابع
المعاد الروحاني و الجسماني

هل تُبعث الأبدان مع الأرواح أم تبعث الأرواح فقط؟

هذا هو البحث المشهور في المعاد. و الواقع أنّ المعاد يطلق على معانٍ ثلاثة:

أحدها: المعنى المصدريّ من العَوْد أي الرجوع إلى مكان، و ثانيها: مكان العَود، أمّا ثالثها: فزمانه، مآل الكلّ واحد.

و هو جسمانيّ و روحانيّ، و الجسمانيّ يعني أنّ الله تعالى يُعيد الأبدان بعد موتها و يُرجعها إلى هيئتها الأُولى. و الروحانيّ يراد به بقاء الروح بعد مفارقة البدن سعيدة متنعّمة أو معذّبة شقيّة بما اكتسبه في الدنيا. وقد أثبت المِليّون المعادَ الروحانيّ و الجسمانيّ معاً، و اتّفق المسلمون على أنّ مُنكره خارج عن رِبْقة الإسلام.

قال الرازيّ في نهاية العقول: لا أعرف عاقلاً ذهب إلى نفي المعاد، و إن ذهب الفلاسفة إلى المعاد الروحانيّ فقط و الدليل على جواز إعادة البدن في الجملة أنّا قد دلّلنا فيما مضى أنّ الله تعالى قادر على كلّ الممكنات، عالم بكلّ المعلومات من الجزئيّات و الكليّات، و العلم بهذه الأُصول يتوقّف على العلم بصحّة المعاد البدنيّ، و إذا كان كذلك أمكن الاستدلال بالسمع على صحّة المعاد، و نحن نعلم باضطرارٍ إجماعَ الأنبياء من أوّلهم إلى آخرهم على إثبات المعاد البدنيّ، فوجب القطع بوجود

هذا المعاد...[١].

و قال العلّامة في شرح الياقوت : اتّفق المسلمون على إعادة الأجساد، خلافاً للفلاسفة. و اعلم أنّ الإعادة تقال بمعنيَين، أحدهما : جمع الأجزاء و تأليفها بعد تفريقها و انفصالها، و الثاني : إيجادها بعد إعدامها[٢].

و الخلاصة أنّ القول بالمعاد الجسمانيّ و الروحانيّ معاً ممّا أجمع عليه المسلمون، بل المليّون. و الآيات الكريمة في ذلك ـ فيما سيأتي إن شاء الله ـ صريحة ناصّة غير قابلة للتأويل. و الأخبار فيه متواترة لا يمكن فيها الترديد، و إنْ نفَى المعاد الجسمانيّ بعض الفلاسفة تمسّكاً بامتناع إعادة المعدوم، و لم يقيموا دليلاً على ذلك و لا برهاناً شافياً هنالك، بل تمسّكوا تارة في مثل هذا الأمر العظيم ـ في مقابلة الآيات و الأخبار و الضرورة ـ بالبداهة، و أُخرى بشبهات واهية ستقف عليها إن شاء الله مع الجواب عنها.

و العقل الصحيح و النظر الصريح يحكم بالمعاد؛ إذ لو لم يجب المعاد و الجزاء لكان التكليف عبثاً، إذ الإيقاع في مشقّة التكليف بلا أجر و لا جزاء و لا ثواب عبث بل ظلم صريح، و لولاه لذهبت مظالم العباد، وتساوى أهل الصلاح و الفساد، وضاعت الدماء ولم تبقَ ثمرة لإرسال الأنبياء، ولم يحسن الوعد و الوعيد، ولساوى أفضلُ الأشياء في الفضيلة أشقى الأشقياء؛ لأنّ ما وقع في هذه الدنيا من الراحة و العناء، و الفقر و الغنى، و المرض و الصحّة ليس الجزاء بل هو امتحان أو ابتلاء كما قال تعالى ﴿وَ بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ﴾[٣]، و﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٤]، و الكاسب للطاعات و المعاصي : البدن و الروح معاً، فيجب عَودهما معاً للجزاء.

تنبيه : اعترف الرئيس ابن سينا بأنّ المعاد الروحانيّ ممّا أثبتته الفلسفة

---

١ ـ لم نعثر عليه.

٢ ـ أنوار الملكوت في شرح الياقوت ١٩١.

٣ ـ الأعراف ١٦٨/٧.

٤ ـ التغابن ١٥/٦٤.

و الحكمة، و أمّا المعاد الجسمانيّ ـ و إن زعم عدم إثبات إمكانه بالعقل ـ فـإنّه قـد اعترف به للنقل، فقال في كتاب النجاة و الشفاء : إنّه يجب أن تعلم أنّ المعاد منه ما هو مقبول من الشرع و لا سبيل إلى إثباته إلّا من طريق الشريعة و تـصديق خـبر النبوّة، و هو الّذي للبدن عند البعث و خيرات البدن و شروره معلومة لا يحتاج إلى أن تعلم، وقد بسطَت الشريعة الحقّة الّتي أتانا بها نبيّنا المصطفى محمّد ﷺ حـال السعادة و الشقاوة الّتي بحسب البدن. و منه ما هو مُدرَك بالعقل و القياس البرهانيّ وقد صدّقته النبوّة، و هو السعادة و الشقاوة الثابتتان بالمقاييس اللّتان للأنفس، و إن كان الأوهام منّا تقصر عن تصوّرها الآن[١].

و يظهر من هذا الكلام أنّ المعاد الجسمانيّ لم يَقُم على استحالته برهان، و إلّا فالمحال لا تأتي به النبوّة و لا يُقبل من مدّعيه، غايته أنّه لم يَقُم دليل عقليّ على إمكانه بزعمه، و نحن نقيم البرهان العقليّ إن شاء الله على ذلك.

استدلال القرآن على المعاد

ثمّ إنّ الله تبارك و تعالى لرأفته و لطفه بعباده قد أكثر ذكر المعاد فـي القـرآن الكريم بطرق عديدة و سبل سديدة، لصعوبته على الأفهام و كثرة ما فيه من الشُّـبَه و الأوهام، فتارة حكم تعالى بأنّه كائن لا محالة من دون ذكر دليل. قال تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۞ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [٢] و ﴿أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِـي القُبُورِ﴾ [٣] و ﴿وَ الْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ [٤]، و تارة ذكره الله تعالى مشفوعاً بالقسم، فـقال عزّوجلّ ﴿وَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَ لَـٰكِنَّ

---

١ ـ النجاة ٦٨٢ ؛ الإلهيّات من الشفاء ٤٢٣.
٢ ـ الزلزلة ٩٩/٧ ـ ٨.
٣ ـ الحجّ ٢٢/٧.
٤ ـ الأنعام ٦/٣٦.

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] و﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾[٢]، وتارة أثبت الله المعاد مستدلاًّ بكونه قادراً على كلّ شيء وعلى أمور تشبه الحشر والنشر فلا تُستبعد قدرته على البعث، كقوله تعالى ردّاً على منكري المعاد ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۞ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾[٣]. وسيأتي تقريب الاستدلال بهذه الآية على البعث.

والحاصل: أنّ الفكرة لمّا كانت تتّضح أبعادها وتنكشف جوانبها إذا تعدّدت الاستدلالات عليها ومن طرق شتّى، استدلّ القرآن على إمكان البعث والمعاد ووقوعه بطرق عديدة، نذكرها على نحو الإجمال، ونكتفي في بيان كلّ طريقٍ بآية أو آيات على كثرتها في كلّ باب.

١ ـ الاستدلال بعموم قدرته على كلّ شيء ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْىِ الْمَوْتَىٰ﴾[٤].

٢ ـ قياس الإعادة على الابتداء ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيْدُهُ﴾[٥]، وقوله ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ ۞ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾[٦].

٣ ـ الاستدلال بإمكان إحياء الموتى بإحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات ﴿يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَ يُحْىِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[٧] و﴿وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٨].

٤ ـ الاستدلال بالوقوع على الإمكان؛ فإنّ أدلّ دليل على إمكان الشيء وقوع

---

١ ـ النحل ٣٨/١٦.
٢ ـ التغابن ٧/٦٤.
٣ ـ الواقعة ٥٨/٥٦ ـ ٥٩.
٤ ـ الأحقاف ٣٣/٤٦.
٥ ـ الأنبياء ١٠٤/٢١.
٦ ـ الطارق ٥/٨٦ ـ ٨.
٧ ـ الروم ١٩/٣٠.
٨ ـ الحجّ ٥/٢٢ ـ ٦.

الشيء، كما في قصّة بقرة بني إسرائيل ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوتَىٰ﴾[١]. و في قصّة عُزَير النبيّ ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِ هَـٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾[٢]. و في قصّة إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوتَىٰ قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَ لَـٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[٣]. و في قصّة أيّوب ﴿وَ ءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾[٤].

٥ ـ الاستدلال ببعض المنامات الطويلة، كما في قصّة أصحاب الكهف ﴿وَ لَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً﴾[٥]؛ فإنّ «الموت أخو النوم»[٦]، كما ورد في الحديث: كما تَستيقظون تُبعَثون[٧].

٦ ـ قياس قدرة الإعادة على قدرة إخراج النار من الشجر الأخضر ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[٨].

و تقريب الاستدلال بهذه الآيات أنّ المنكرين للمعاد استبعدوا الحشر من غير ذكر دليل و لا شبهة و اكتفوا بالاستبعاد و ادّعاء الضرورة، كما يدلّ عليه قوله تعالى حكايةً عنهم في مواضع كثيرة من الذكر الحكيم ﴿وَ قَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾[٩]، و ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[١٠].

---

١ ـ البقرة ٢/٧٣.
٢ ـ البقرة ٢/٢٥٩.
٣ ـ البقرة ٢/٢٦٠.
٤ ـ الأنبياء ٢١/٨٤.
٥ ـ الكهف ١٨/٢٥.
٦ ـ في الحديث النبويّ: النوم أخو الموت. كنز العمّال رقم ٣٩٣٢١.
٧ ـ بحار الأنوار ١٨: ١٩٧.
٨ ـ يس ٣٦/٧٩ ـ ٨١.
٩ ـ السجدة ٣٢/١٠.
١٠ ـ الصافّات ٣٧/٥٣.

وفي هذه الآيات أيضاً بدأ تعالى ـ دفعاً لاستبعادهم ـ بإبطال استبعادهم بقوله ﴿وَ نَسِيَ خَلْقَهُ﴾[١] أي نسي أنّا خلقناهم من تراب ومن نطفة متشابهة الأجـزاء ثـمّ جعلنا لهم ـ من النواصي إلى الأقدام ـ أعضاءً مختلفة الصورة و القوام، وما اكتفينا بذلك حتّى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجزاء وهو النطق والعقل، فإن كانوا يقنعون بمجرّد الاستبعاد فهل لا يستبعدون إعادة النطق والعقل، إلى محلّ كانا فيه.

ثمّ إنّ استبعادهم كان من جهة ما في المعاد من التفتّت والتفرّق، حـيث قـال ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ﴾[٢]. وقد اختاروا العظم للذِّكر لأنّه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه، ووصفوه بما يقوّي جانب الاستبعاد من البِلى والتفتّت. والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في المُعيد من العلم والقدرة فقال ﴿ضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾[٣] أي جعل قدرتنا كقدرته ونسي خلقه العجيب وبدنه الغريب.

وقد أورد المنكرون شبهة أُخرى، هي: أنّه بعد العدم لم يبق شيء فكيف يصحّ على العدم الحكم بالوجود؟ فأجاب تعالى عن هذه الشبهة بقوله ﴿الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٤] يعني أنّه قادر علىٰ إعادتها من جديد كما خلق الإنسان بعد أن ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾[٥].

وأورد المنكرون شبهة ثالثة، هي: أن من تفرّقت أجزاؤه في مشارق الأرض ومغاربها وصار بعضه في أبدان غيره من السّباع والحيوان أو في أجـزاء الجـدار والنبات، كيف يمكن جمع هذه الأجزاء المتفرّقة؟ وأبعد من هذا هو أنّ إنساناً إذا أكل إنساناً وصارت أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فإن أعيد فأجزاء المأكول إمّا أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء حتّى تُبعث، وإمّا أن يعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء تُخلق منها أجزاء وأعضاء.

---

١ ـ يس ٧٨/٣٦.
٢ ـ يس ٧٨/٣٦.
٣ ـ يس ٧٨/٣٦.
٤ ـ يس ٧٩/٣٦.
٥ ـ الإنسان ١/٧٦.

و قد أجاب عنها تعالى ﴿وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1]. ووجهه أنّ في الآكل أجزاء أصليّة و أجزاء فضليّة، و في المأكول كذلك فإذا أكل إنسان إنساناً صار الأصليّ من أجزاء المأكول فضله من أجزاء الآكل، و الأجزاء الأصليّة للآكل هي ما كان له قبل الأكل ﴿وَ خَلَقَ كُلَّ شَیْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَیْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] يعلم الأصليّ من الفضليّ، فيجمع الأجزاء الأصليّة للآكل وينفخ فيها الروح و يجمع الأصليّة للمأكول فينفخ فيها من روحه، كذلك يجمع الأجزاء المتفرّقة في الأصقاع المتباعدة بعلمه الشامل وقدرته الكاملة.

ثمّ إنّه تعالى عاد إلى دفع استبعادهم و إبطال إنكارهم فقال ﴿الَّذِی جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً﴾[3]. ووجهه أنّ الإنسان مشتمل على جسم محسوس، وحياة سارية في جسمه، وحرارة جارية فيه؛ و كيف يُستبعَد إيجاد حرارة وحياة فيه وهذه النار الكامنة في الشجر الأخضر الّذي يقطر منه الماء أعجب و أغرب و أنتم تشهدون أنّكم منه توقدون. وإن استبعدتم خلقَ جسم الإنسان فخلقُ السماوات والأرض أكبر و أعظم من خلق أنفسكم فلامسوّغ لهذا الاستبعاد ﴿أَوَ لَيسَ الَّذِی خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَیٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَیٰ وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[4].

٧ ـ الاستدلال ببعض الأمور الواقعة الشبيهة بالحشر و النشر، و أنّ القادر على هذا كيف لا يقدر على ذاك، قال تعالى خطاباً لمنكري المعاد ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَی أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِی مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَیٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ـ إلى قوله تعالى ـ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَ مَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾[5].

---

١ ـ يس ٧٩/٣٦.
٢ ـ الأنعام ١٠١/٦.
٣ ـ يس ٨٠/٣٦.
٤ ـ يس ٨١/٣٦.
٥ ـ الواقعة ٥٧/٥٦ ـ ٧٣.

أوّلاً : إنّه تعالى يخاطب المنكرين بقوله ﴿نَحنُ خَلَقْنَاكُمْ...﴾ وجعلناكم في صورةِ نطفةٍ في الرحم. وقد أُكمِلتم تدريجاً حتّى وصلتم إلى مرحلة صرتم فيها أُناساً كاملين ؛ فالّذي أمكنه أن يخلقكم بعد أن لم تكونوا هل هو عاجز عن تجديد الحياة بعد الممات ؟!

و ثانياً : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ...﴾ هل أنتم تَهْدون هذه الموادّ حتّى تصل إلى المرحلة النهائية من الزراعة و الإثمار أم نحن نهديها إلى تلك المرحلة، ولو نشاء لجعلناها هباء منثوراً و قشراً بلا لبّ ؟!

و ثالثاً : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرُبُونَ...﴾ فإنّه كان في البحر ماء غير عذب ملح أُجاج قد جعلناه لكم عذباً فراتاً بسبب صعوده إلى السماء بالتبخّر ووقوع التصفية عليه ﴿وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجَاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

و رابعاً : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ...﴾ هل أنتم أوجدتم شجرتها أم نحن المنشئون، فإنّ الشمس و غيرها بإذنٍ منّا قد أثّرت حتّى كَمُلت الشجرة و صلحت لاستمدادكم منها الحرارةَ و النور و غيرهما؛ فهذا المسير قد تحقّق بمشيّة منه تعالى و أنّه الهادي لكلّ شيء، فهل يمكن أن يترك الإنسانَ سُدىً فيموت و يفنىٰ ولم يكمّل سيره النهائي و المراحل الأخيرة من التكامل ؟!

ثمّ لا يخفى أنّه تعالى دعا المنكرين إلى ترك تكذيب المعاد، وقد علّله بقوله ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ و إنّما يوجب خلقه لهم وجوب تصديقه فيما يخبر به من المعاد من وجهين :

أحدهما : إنّه تعالى خلقهم أوّل مرّة فهو قادر على إعادة خلقهم ثانياً، كما قال ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1].

ثانيهما : إنّه تعالى لمّا كان هو خالقهم وهو المدبّر لأمرهم المقدّر لهم فهو

---

١ ـ يس ٧٩/٣٦.

أعلم بما يفعل بهم وبما سيجرى عليهم، فإذا أنبأهم بأنّه سيبعثهم بعد موتهم ويخبرهم بما عملوا لم يكن بدّ من تصديقه، فلا عذر لمن كذّب بما أخبر به من البعث و الجزاء.

و محصّل الآية : نحن خلقناكم و نعلم ما فعلنا و سنفعل بكم، فنخبركم أنّا نبعثكم و نجزيكم بما عملتم فهلّا تصدّقون بما نخبركم به فيما أنزلناه من الكتاب ؟!

و بتقرير آخر : إنّا خلقناكم من نطفة و صيّرناكم في مراحل حتّى كملتم بشراً، وقدّرنا فيكم الموت بتقدير منّا كحياتكم لا من غير رويّة أو نقص في قدرتنا أو سبب يؤثّر بالموت فتبطل الحياة الّتي أفاضها عليه خالقه تعالى. حيث إنّ لازم ذلك كون قدرته محدودة تابعة لافتقاره إلى بعض الأسباب و غلبة إرادته، و هو محال كيف و القدرة مطلقة و الإرادة غير مغلوبة. وقد علمتم النشأة الأُولى، أي الدنيا وعرفتم أنّ المُوجد للأبدان فيها هو الله، وبما قدّر عليها أوّلاً فهو على إيجاد أمثالها ثانياً قادر. و هذا برهان على الإمكان يرتفع به استبعاد البعث من المنكرين حيث إنّ البدن المحشور مثل البدن الدنيويّ، وإذا جاز صنع البدن الدنيويّ وإحياؤه فلْيَجُزْ صنع البدن الأُخرويّ وإحياؤه؛ لأنّه مثله.

و لا يُتوهّم أنّه لو كان البدن الأُخرويّ مثلاً للبدن الدنيويّ، و مثل الشيء غيره، كان الإنسان المُعاد في الآخرة غير الإنسان المُبتدأ في الدنيا لأنّه مثله لا عينه، لأنّ شخصيّة الإنسان كما ثبت في محلّه تكون بروحه لا ببدنه، و الروح لا تنعدم بالموت وإنّما يفسد البدن به و تتلاشى أجزاؤه، ثمّ إذا سوّي ثانياً مثل ما كان في الدنيا ثمّ تعلّقت به الروح كان الإنسان عين الإنسان الّذي في الدنيا، كما كان زيد الشائب عين زيد الشابّ؛ لبقاء الروح على شخصيتها مع تغيّر البدن لحظة بعد لحظة.

٨ ـ الاستدلال بوجوب المجازاة على ثبوت المعاد لتمييز العاصي من المطيع وليتمّ عدل الله وحكمته، إذ لولا الحساب و العقاب و الجزاء و الثواب في يوم يسمّى بيوم المعاد للزم الجور وبطل العدل وضاعت الحقوق ولم يبق فرق بين إحسان

المحسن و إساءة المسيء، بل لكان النفع ضرّاً و الضرّ نفعاً؛ فإنّ الخيرَ و الإحسان في أغلب الأزمان و الأمكنة يوجب المشقّة و المضرّة وفوات اللّذّة، و الشرَّ و الإساءة في الدنيا على خلاف ذلك؛ فلابدّ من نشأة أُخرى تقع فيها المجازاة على الأعمال و الانتقام للمظلومين من الظالمين. و قد أشار تعالى إلى ذلك في آيات منها ﴿إِلَيهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [١] و ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [٢] و ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [٣] و ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [٤].

أدلّة عقليّة على ثبوت المعاد

يدلّ على ثبوت المعاد من العقل أيضاً أُمور، وإن كان أكثرها قد أرشد إليها الذكر الحكيم:

الأوّل: قد قام الدليل القطعيّ في محلّه على أنّه تعالى حكيم لا يفعل عبثاً و لا يترك شيئاً سُدى؛ لأنّه تعالى منزّه عن كلّ نقص في ذاته و أفعاله، و عليه لا يكون خَلقُه العوالَم و الأناسيّ عبثاً و لغواً بل صدر عن حكيم عليم بمصالح شتّى، و إن كنّا غير واقفين عليها.

و من البديهيّ أنّ تلك المصلحة لا ترجع إلى الله تعالى؛ لِغَنائه عنها و عدم الحاجة إليها قطعاً و إلّا استلزم النقص في حقّه، فترجع تلك المصلحة ـ إذاً ـ إلى المخلوقين، لا في هذا العالم بل في عالم آخر، حيث إنّ هذه الدنيا فانية منقطعة و لا يليق بشأنه تعالى أن يوصل المصلحة النهائية إليهم في مثل هذه الدنيا المحفوفة

---

١ ـ يونس ١٠/٤.
٢ ـ طه ٢٠/١٥.
٣ ـ النجم ٥٣/٣١.
٤ ـ ص ٣٨/٢٨.

بالنقص و الآلام و المتصرّمة عاجلاً، الفانية سريعاً، المخلوط عيشها بالتنغيص ولذّتها بالألم. وهذا بخلاف ما إذا أمر المولى عبدَه بما يلزمه المشقّة في زمان قليل فأعقبه راحةً طويلة في دار غير فانية. و ما حضّه به من الكرامة و السعادة فإنّه يليق به و حريّ بجنابه. وقد أشار إلى هذا الدليل في التنزيل بقوله ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

الثاني: إنّه تعالى لكونه حكيماً يفرّق لا محالة بين المحسن و المسيء، وبين العاصي و المطيع، و لا يجعل المجرمين كالمتّقين. وحصول هذه التفرقة و التمييز إمّا أن يكون في هذه النشأة أو في النشأة الآخرة، و الأوّل غير متحقّق وجداناً، حيث نرى أنّ الظالمين و الكافرين كثيراً ما يكونون في أعظم التنعّم و الاعتزاز، بل قد أخبر في كتابه بأنّه لولا مَيل الناس إلى الكفر جميعاً ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَ سُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾[2]. في حين نرى أنّ المؤمنين و الطيّبين كثيراً ما يكونون في غاية التحقير والابتلاء. ولمّا لم تتحقّق هذه التفرقة في هذه النشأة ـ ولابدّ من تحقّقها و إلّا لزم خلاف الحكمة ـ فلا محالة أنّها تتحقّق في دار أُخرى. ولعلّه أشار إلى هذا الدليل بقوله ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[3].

الثالث: لا ريب في جواز انتصافه تعالى للمظلومين من الظالمين، لكونه قادراً عليه. و الفعل حسن، وما جاز عليه تعالى واجب عليه، فلولم ينتصف منهم لهم لزم خلاف الحكمة بل لزم رضاؤه بظلمهم. و الرضاء بالظلم ـ كإقدارهم عليه ـ قبيح، فتعالى عنه جلّ شأنه. ولم يجعل الانتصاف في هذه النشأة حيث إنّ الظالم مشغول بظلمه مع عزّه ودوام ملكه، بل حقّق ذلك بالنسبة إلى عباده المكرمين و أنبيائه

---

١ ـ المؤمنون ١١٥/٢٣.
٢ ـ الزخرف ٣٣/٤٣ ـ ٣٤.
٣ ـ ص ٢٨/٣٨.

المرسلين و الأئمّة الطاهرين و لم ينتقم لهم في هذه النشأة بشيء، فلابدّ من حصولها في دار أُخرى هي دار القرار ﴿وَ لَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْـئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[١] و ﴿لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٢].

الرابع : إنّا نرى بالوجدان تغيّر العالم وفناء أجزائه وحدوث بعضها إثْرَ بعض، وهذا التغيّر دليل على حدوثه. وقد ثبت حدوثه في محلّه أيضاً، وحيث يكون حادثاً فإنّه يحتاج في حدوثه وإيجاده إلى صانع ومؤثّر حكيم قادر عليم بحيث يجد آثار حكمته وقدرته وعلمه فيه. وحيث يكون صانعاً حكيماً لابدّ له من الأمر والنهي؛ إذ لولا هما لما تمّت الحكمة كما قُرّر في محلّه. وبما أنّه قد أمر ونهى لزم من ذلك وعده ووعيده على الطاعة والعصيان، إذ لولاهما لما تمّ الأمر والنهي وقد وعد وأوعد تعالى، ولم يتحقّق وعده و وعيده في هذه النشأة. ولو لم تكن نشأة أخرىٰ لِتحقُّق ذلك لزم التكذيب، فلابدّ من وجود نشأة أُخرى لتحقيق الوعد والوعيد، وما هي إلّا الدار الآخرة الواقع فيها ما بشّر به عبادَه المتّقين وأنذر به المجرمين.

---

١ ـ إبراهيم ١٤/٤٢ ـ ٤٣.

٢ ـ آل عمران ١٧٨/٣.

الفصل الخامس
الشفاعة

قال الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَ لَا خُلَّةٌ وَ لَا شَفَاعَةٌ﴾ [1].

﴿وَ اتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [2].

﴿وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [3].

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [4].

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [5].

﴿وَ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [6].

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [7].

﴿وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [8].

---

١ ـ البقرة ٢/٢٥٤.
٢ ـ البقرة ٢/٤٨.
٣ ـ المدّثر ٧٤/٤٦ ـ ٤٨.
٤ ـ الزمر ٣٩/٤٤.
٥ ـ السجدة ٣٢/٤.
٦ ـ سبأ ٣٤/٢٣.
٧ ـ البقرة ٢/٢٥٥.
٨ ـ الأنبياء ٢١/٢٨.

﴿وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى السَّمٰـوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَرْضَىٰ﴾[١]

وفي الأخبار ما يدلّ على هذا:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: لكلّ نبيّ دعوة قد دعا بها وقد سأل سؤلاً، وقد خبأتُ دعوتي لشفاعتي لأمّتي يوم القيامة[٢].

عن الرضا عن أبيه عن آبائه عن أميرالمؤمنين عليهم السلام قال: قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: مَن لم يؤمن بحوضي فلا أورَدَه الله حوضي، ومَن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي. ثمّ قال عليه السلام: إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي، فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل. قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا عليه السلام: يابن رسول‌الله، فما معنى قول الله عزّوجلّ ﴿وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾؟ قال عليه السلام: لا يشفعون إلّا لمن ارتضى اللهُ دِينَه[٣].

وفي حديث عن الصادق عليه السلام: ... فيقول أهل الجمع: هؤلاء شهداء؟ فيجيئهم النداء من عندالله: ما هؤلاء بشهداء، فيقولون: مَن هم؟ فيجيئهم النداء: يا أهل الجمع، سَلُوهم: مَن أنتم؟ فيقول الجمع: مَن أنتم؟ فيقولون: نحن العَلَويّون، نحن ذرّيّة محمّد رسول‌الله صلى الله عليه وآله، نحن أولاد عليّ وليّ الله، نحن المخصوصون بكرامة الله، نحن الآمنون المطمئنّون، فيجيئهم النداء من عندالله عزّوجلّ: إشفعوا في محبّيكم وأهل مودّتكم وشيعتكم، فيَشفعون فيُشفّعون[٤].

جعفر بن محمّد عن آبائه عن عليّ عليهم السلام قال: قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: ثلاثة يشفعون إلى الله عزّوجلّ فيشفّعون: الأنبياء ثمّ العلماء ثمّ الشهداء[٥].

عن الصادق جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله:

---

١ ـ النجم ٢٦/٥٣.
٢ ـ الخصال ٢٩.
٣ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣٦ ـ ١٣٧، والآية في الأنبياء ٢٨/٢١.
٤ ـ أمالي الصدوق ٢٣٤.
٥ ـ الخصال ١٥٦.

إذا قمتُ المقامَ المحمود تشفّعتُ في أصحاب الكبائر من أمّتي فيشفّعني الله فيهم، والله لا تشفّعت فيمن آذىٰ ذرّيّتي[١].

قال الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام: مَن أنكر ثلاثة أشياء فليس من شيعتنا: المعراج، والمساءلة في القبر، والشفاعة[٢].

وفي حديث عن الصادق عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليهم السلام: ... فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربِّ سلّم شيعتي ومحبّيَّ وأنصاري ومَن تولّاني في دار الدنيا، فإذا النداء من بِطْنان العرش: قد أُجيبَتْ دعوتك وشُفّعتَ في شيعتك، ويشفع كلّ رجل من شيعتي ومن تولّاني ونصرني...[٣].

قال صلى الله عليه وآله: لا شفيع أنجح من التوبة، والشفاعة للأنبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة، وفي المؤمنين مَن يشفع لمثل ربيعة ومضر، وأقلّ المؤمنين شفاعة من يشفع لثلاثين إنساناً، والشفاعة لا تكون لأهل الشكّ والشرك ولا لأهل الكفر والجحود، بل تكون للمؤمنين من أهل التوحيد[٤].

---

١ ـ أمالي الصدوق ٢٤٢.
٢ ـ نفس المصدر.
٣ ـ الخصال ٤٠٨.
٤ ـ بحار الأنوار ٨: ٥٨.

الفهارس العامّة

١ ـ فهرس الآيات القرآنيّة

٢ ـ فهرس الأحاديث و الروايات

٣ ـ المصادر

٤ ـ فهرس موضوعات الكتاب

فهرس الآيات

آل عمران

النساء

المائدة

الأنعام

الأعراف

الأنفال

التوبة

يونس

الإسراء

الحجّ

المؤمنون

النور

الفرقان

الشعراء

النمل

القصص

العنكبوت

الروم

لقمان

السجدة

الأحزاب

سبأ

فاطر

الزمر

المؤمن

فصّلت

الشورى

الزخرف

الدخان

الجاثية

الأحقاف

فهرس الأحاديث و الروايات

المصادر

١ ـ **الإتقان في علوم القرآن** : جلال‌الدين عبدالرحمان السيوطيّ (٩١١ هـ)، تحقيق : محمّد أبوالفضل إبراهيم، نشر : الرضيّ، بيدار، عزيزى ـ قمّ ١٣٦٣ هـ. ش. الطبعة الثانية.

٢ ـ **الاحتجاج** : ابومنصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ (القرن السادس)، تعليق : السيد محمّد باقر الموسويّ الخرساني، نشر : مؤسسة الأعلميّ ـ بيروت ١٤٠٣ هـ، الطبعة الثانية.

٣ ـ **إحقاق الحقّ و إزهاق الباطل** : السيّد نورالله الحسينيّ المرعشيّ التستريّ (١٠١٩ هـ)، تعليق : السيّد شهاب‌الدّين الحسينيّ المرعشيّ النجفيّ، نشر : مكتبة آية‌الله المرعشيّ النجفيّ ـ قمّ.

٤ ـ **الاختصاص** : أبوعبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبريّ المفيد البغداديّ (٤١٣ هـ)، تصحيح : علي أكبر الغفاريّ، نشر : جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة ـ قمّ.

٥ ـ **الأربعين في أصول الدين** : محمّد بن عمر الرازيّ (٦٠٦ هـ)، نشر : مجلس دائرة المعارف العثمانيّة ـ حيدرآباد الدكن ـ ١٣٥٣ هـ.

٦ ـ **أسباب النزول** : أبوالحسن عليّ بن أحمد الواحديّ النيشابوريّ (ت ٤٦٨ هـ)، نشر : دار الكتب العلميّة ـ بيروت ١٤٠٠ هـ.

٧ ـ **الاستيعاب بهامش الإصابة** : ابن عبدالبرّ النمريّ القرطبيّ، (٤٦٣ هـ)، نشر : مكتبة المثنّى ـ بغداد.

٨ ـ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة** : عزالدين بن الأثير أبوالحسن عليّ بن محمّد الجزريّ (٦٣٠ هـ)، نشر : الشعب ـ القاهرة.

٩ ـ **أسنى المطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب** : أبوالخير شمس الدّين محمّد بن محمّد بن محمّد الجزريّ الشافعيّ (٨٣٣ هـ)، تحقيق : محمّد هادي الأمينيّ، نشر : مكتبة الإمام

أميرالمؤمنين عليه السلام ـ النجف.

١٠ ـ **الأصول من الكافي** : أبوجعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكلينيّ الرازيّ (ت ٣٢٨/٣٢٩ هـ)، تصحيح : عليّ أكبر الغفاريّ، نشر : دارالكتب الإسلاميّة ـ طهران ١٣٨٨ ، الطبعة الثالثة.

١١ ـ **الأعلام** : خيرالدين الزركليّ (معاصر)، بيروت، ١٩٨٦ ، الطبعة السابعة.

١٢ ـ **إعلام الورى** : أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسيّ (القرن السادس)، تصحيح : علي أكبر الغفاريّ، نشر : دارالمعرفة ـ بيروت، ١٣٩٩ هـ.

١٣ ـ **الإلهيّات من الشفاء** : أبوعليّ الحسين بن عبدالله بن سينا (٤٢٨ هـ)، تحقيق : الأب قنواتي، و سعيد زايد، نشر : مكتبة آيةالله المرعشيّ النجفيّ ـ قم، ١٤٠٤ ق.

١٤ ـ **الأمالي** : أبوجعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ (٤٦٠ هـ)، نشر : المكتبة الأهليّة ـ بغداد، ١٣٨٤ هـ.

١٥ ـ **الأمالي** : أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القميّ الصدوق (٣٨١ هـ)، نشر : مؤسّسة الأعلميّ ـ بيروت ١٤٠٠ هـ، الطبعة الخامسة.

١٦ ـ **الإمامة و السياسة** : أبو محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ (ت ٢٧٦ هـ)، نشر : شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ ـ مصر ١٣٧٧ هـ. الطبعة الثانية.

١٧ ـ **أنوار الملكوت (في شرح الياقوت)** : جمال‌الدين أبومنصور حسن بن يوسف العلّامة الحلّيّ ـ ٧٧٣هـ)، تحقيق : محمّد نجمي الزنجانيّ، نشر : الرضيّ و بيدار ـ قم.

١٨ ـ **بحارالأنوار** : محمّد باقر المجلسيّ (ت ١١١١ هـ)، نشر : دارالكتب الإسلاميّة ـ طهران، ١٣٦٢ ش، الطبعة الرابعة.

١٩ ـ **البداية و النهاية** : أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن الكثير الدمشقيّ، ٧٧٤ هـ، نشر : مكتبة المعارف ـ بيروت و مكتبة النصر ـ الرياض، ١٩٦٦ م، الطبعة الأولى.

٢٠ ـ **البرهان في تفسير القرآن** : السيّد هاشم بن سليمان بن إسماعيل بن عبدالجواد الحسينيّ البحرانيّ التوبلي الكتكاني (١١٠٩ هـ)، تصحيح : محمود بن جعفر الموسويّ الزرنديّ، مطبعة آفتاب ـ طهران.

٢١ ـ **بصائر الدرجات (في فضائل آل محمّد)** : أبوجعفر محمّد بن الحسن بن فرّوخ الصفار القمّيّ

(ت ٢٩٠ هـ)، تصحيح : ميرزا محسن كوچه‌باغى التبريزيّ، نشر : مكتبة آية‌الله العظمى المرعشيّ النجفيّ ـ قم ١٤٠٤ هـ.

٢٢ ـ **البهجة المرضيّة** : جلال‌الدين السيوطيّ، (٩١١ هـ) تعليق : مصطفى الحسينيّ الدشتيّ، نشر : مكتبة المفيد و الفيروزآبادي ـ قم ١٣٦٣ هـ.

٢٣ ـ **البيان في تفسير القرآن** : السيّد أبوالقاسم الموسويّ الخوئيّ، مطبعة الآداب ـ النجف، ١٣٨٥ هـ، الطبعة الثانية.

٢٤ ـ **تاريخ الخلفاء** : جلال‌الدين عبدالرحمان بن أبي بكر السيوطيّ، (٩١١ ق) نشر : دارالكتب العلميّة ـ بيروت.

٢٥ ـ **تاريخ الطبريّ** : أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريّ (٣١٠ هـ)، نشر : مؤسسة الأعلميّ ـ بيروت، ١٤٠٩ هـ، الطبعة الخامسة.

٢٦ ـ **تحف العقول عن آل الرسول** : أبو محمّد الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة الحرّانيّ (القرن الرابع)، تصحيح : علي أكبر الغفاريّ، نشر : جماعة المدرّسين بقمّ، ١٤٠٤ ق، الطبعة الثانية.

٢٧ ـ **ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام من تاريخ مدينة دمشق** : أبوالقاسم عليّ بن الحسن بن هبة‌الله الشافعيّ المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ)، تحقيق : الشيخ محمّد باقر المحموديّ، نشر : مؤسّسة المحموديّ، بيروت ١٣٩٨ هـ، الطبعة الثانية.

٢٨ ـ **تفسير ابن عبّاس**، ٦٨ هـ، نشر : دارالكتب العلميّة ـ بيروت.

٢٩ ـ **تفسير الخازن** : علاءالدين عليّ بن محمّد بن إبراهيم البغداديّ الصوفيّ (القرن الثامن الهجريّ)، نشر : المكتبة التجاريّة الكبرى ـ مصر.

٣٠ ـ **تفسير الطبريّ** : أبوجعفر محمّد بن جرير الطبريّ (٣١٠ هـ) مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ ـ مصر ١٣٨٨ هـ، الطبعة الثالثة.

٣١ ـ **تفسير العيّاشيّ** : أبوالنضر محمّد بن مسعود بن عيّاش السلميّ السمرقنديّ العيّاشيّ، تحقيق : السيّد هاشم الرسوليّ المحلاتيّ، نشر : المكتبة العلميّة الإسلاميّة ـ طهران.

٣٢ ـ **تفسير القمّيّ** : أبو الحسن عليّ بن إبراهيم القمّيّ (القرن الثالث و الرابع هـ)، تصحيح : السيّد طيّب الموسويّ الجزائريّ، نشر : دارالكتاب ـ قمّ ١٤٠٤ هـ، الطبعة الثالثة.

٣٣ ـ **التفسير الكبير** : محمّد بن عمر، الفخر الرازيّ (٦٠٦ هـ)، الطبعة الثالثة.

٣٤ ـ **التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ** عليه السلام، تحقيق و نشر : مدرسة الإمام المهديّ ـ قم، ١٤٠٩ هـ، الطبعة الأولى.

٣٥ ـ **تلخيص المحصّل** : أبوجعفر محمّد بن محمّد بن الحسن الطّوسيّ الملقّب بخواجه نصيرالدّين الطّوسيّ (ت ٦٧٢)، باهتمام : عبدالله النورانيّ، نشر : مؤسّسة مطالعات اسلامي جامعة مك گيل ـ طهران ١٣٥٩ هـ. ش.

٣٦ ـ **تنبيه الخواطر و نزهة النواظر** : أبوالحسين ورّام بن أبي فرّاس المالكيّ الأشتريّ (٦٠٥ هـ)، نشر : دارالتعارف، بيروت.

٣٧ ـ **التوحيد** : الصدوق، أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّيّ (٣٨١ هـ)، تصحيح : السيّد هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، نشر : جماعة المدرسين ـ قمّ ١٣٩٨ هـ.

٣٨ ـ **تهذيب التهذيب** : ابن حجر العسقلانيّ (٨٥٢ هـ)، نشر : دار صادر ـ بيروت.

٣٩ ـ **تهذيب الكمال (في أسماء الرجال)** : جمال‌الدين أبوالحجّاج يوسف المزيّ (٧٤٢ هـ)، تحقيق : بشار عوّاد معروف، نشر : مؤسّسة الرسالة ـ بيروت، ١٤١٣، الطبعة الرابعة.

٤٠ ـ **تهذيب اللغة** : أبو منصور محمّد بن أحمد الأزهريّ (٣٧٠ هـ)، تحقيق : عبدالسلام محمّد هارون، نشر : الدار القومية، ١٣٨٤.

٤١ ـ **جامع الأخبار (معارج اليقين في أصول الدين)** : محمّد بن محمّد السبزواريّ (القرن السابع الهجريّ)، تحقيق : علاء آل جعفر، نشر : مؤسّسة آل البيت ـ بيروت، ١٤١٣ هـ، الطبعة الأولى.

٤٢ ـ **الجامع لأحكام القرآن** : أبو عبدالله محمّد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ (٦٧١ هـ)، تصحيح : أحمد عبدالعليم البردونيّ، أوفسيت : دار إحياء التراث ـ بيروت.

٤٣ ـ **حلية الأولياء و طبقات الأصفياء** : أبونعيم أحمد بن عبدالله الإصبهانيّ (٤٣٠ هـ)، نشر : دارالكتاب العربيّ ـ بيروت، ١٤٠٧ هـ.

٤٤ ـ **حياة الحيوان الكبرى** : محمّد بن موسى الدميريّ (٨٠٨ هـ)، نشر : مصطفى البابيّ الحلبيّ ـ القاهرة.

٤٥ ـ **الخصال** : أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّيّ الصدوق (٣٨١ هـ)، تصحيح :

علي أكبر الغفّاريّ، نشر : جماعة المدرسين ـ قم، ١٤٠٣.
٤٦ ـ **الخصائص للنسائيّ** : أبو عبدالرحمان أحمد بن عليّ النسائيّ (٣٠٣ هـ)، تصحيح : محمّد السيوطيّ ـ القاهرة، ١٣٠٨ هـ.
٤٧ ـ **الدرّ المنثور** : جلال الدّين، عبدالرحمٰن بن أبي بكر السيوطيّ (٩١١ هـ)، نشر : محمّد أمين دمج ـ بيروت.
٤٨ ـ **دلائل الإمامة** : أبوجعفر محمّد بن جرير بن رستم الطبريّ (القرن الخامس الهجريّ)، نشر : مؤسّسة البعثة ـ قمّ ١٤١٣ هـ، الطبعة الأولى.
٤٩ ـ **دلائل الصدق** : الشيخ محمّد حسن المظفّر (١٣٧٦ هـ)، نشر : تابان.
٥٠ ـ **ديوان الصاحب بن عبّاد** : إسماعيل بن عبّاد بن العبّاس بن أحمد بن إدريس الملقّب بالصاحب (ت ٣٨٥)، تحقيق : الشيخ محمّد حسن آل ياسين، نشر : مؤسّسة قائم آل محمّد ـ قمّ ١٤١٢ هـ.
٥١ ـ **الذخيرة في علم الكلام** : الشريف المرتضى عَلَم الهدى عليّ بن الحسين الموسويّ البغداديّ (٤٣٦ هـ)، تحقيق : السيّد أحمد الحسينيّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ ـ قمّ ١٤١١ هـ.
٥٢ ـ **رسالة الإمامة** (مطبوعة مع تلخيص المحصّل) : خواجه نصيرالدّين الطوسيّ (٦٧٢ هـ) اهتمام : عبدالله النورانيّ، نشر : مؤسّسة مطالعات اسلاميّ ـ طهران، ١٣٥٩ ش.
٥٣ ـ **الروضة من الكافي** : أبوجعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكلينيّ الرازيّ (٣٢٩ هـ)، تصحيح : على أكبر الغفاريّ، نشر : دارالكتب الإسلاميّة ـ قمّ ١٣٦٢ ش.
٥٤ ـ **سفينة البحار** : الشيخ عباس القميّ (١٣٥٩ هـ)، تقديم : علي أكبر إلهي الخراسانيّ، نشر : مجمع البحوث الإسلاميّة ـ مشهد ١٤١٦ هـ، الطبعة الأولى.
٥٥ ـ **سنن ابن ماجة** : أبوعبدالله محمّد بن يزيد القزوينيّ (٢٧٥ هـ)، تحقيق : محمّد فؤاد عبدالباقيّ، نشر : دار إحياء الكتب العربيّة ـ مصر ١٣٧٢ هـ.
٥٦ ـ **سنن الترمذيّ** : أبو عيسى محمّد بن عيسى بن سورة (٢٧٩ هـ)، تحقيق : أحمد محمّد شاكر، نشر : المكتبة الإسلاميّة ـ مصر ١٣٥٧ هـ.
٥٧ ـ **سنن الدارميّ** : أبو محمّد عبدالله بن عبدالرحمٰن بن الفضل بن بهرام الدارميّ (٢٥٥ هـ)، نشر : دار إحياء السنّة النبويّة.

٥٨ ـ السنن الكبرى : أبوبكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقيّ (٤٥٨ هـ)، نشر : دارالمعرفة ـ بيروت.

٥٩ ـ سير أعلام النبلاء : شمس‌الدين محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ (٧٤٨م)، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، نشر : مؤسّسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٢ هـ، الطبعة الثانية.

٦٠ ـ السيرة الحلبية : عليّ بن برهان الدين الحلبيّ الشافعيّ (١٠٤٤ هـ)، نشر : المكتبة الإسلاميّة ـ بيروت.

٦١ ـ السيرة النبويّة : ابن هشام عبدالملك (٢١٣ هـ)، تحقيق : مصطفى السقّا، إبراهيم الأبياري و عبدالحفيظ شلبيّ، نشر : انتشارات إيران (أوفسيت) ـ قمّ ١٣٦٣ هـ. ش.

٦٢ ـ شرح تجريد العقائد : عليّ بن محمّد القوشجيّ (ت ٨٧٩ هـ)، نشر : الرضيّ ـ بيدار ـ عزيزي ـ قمّ.

٦٣ ـ شرح غررالحكم و دررالكلم : عبدالواحد بن محمّد التميميّ الآمديّ (٥١٠ هـ)، تصحيح : جمال‌الدين الحسينيّ الأرمويّ، نشر : مؤسّسة جامعة طهران ١٣٦٦ ش.

٦٤ ـ شرح منظومة الحكمة : الحاج الملّا هادي السبزواريّ (١٢١٢ هـ)، باهتمام : المهديّ المحقّق و توشي هيكو ايزوتسو، نشر : مؤسّسة المطالعات الإسلاميّة ـ طهران ١٣٦٠ ش.

٦٥ ـ شرح المواقف : مير سيّد شريف الجرجانيّ (ت ٨١٦ هـ).

٦٦ ـ شرح نهج البلاغة : أبو حامد بن هبةالله بن محمّد بن محمّد بن الحسين بن أبي الحديد المدائنيّ (٦٥٦ هـ)، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم، نشر : دار إحياء الكتب العربيّة ـ مصر ١٣٧٨ هـ، الطبعة الأولى.

٦٧ ـ صحيح البخاريّ : أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاريّ الجعفيّ (٢٥٦ هـ)، نشر : دارالفكر ـ بيروت ١٤٠١ هـ.

٦٨ ـ صحيح مسلم : أبوالحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيريّ النيشابوريّ (٢٦١ هـ)، نشر : مكتبة محمّد عليّ صبيح ـ مصر.

٦٩ ـ الصواعق المحرقة : أحمد بن حجر الهيتميّ (٩٧٤ هـ)، تحقيق : عبدالوهّاب عبداللطيف نشر : مكتبة القاهرة ١٣٨٥ هـ، الطبعة الثانية.

٧٠ ـ الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف : رضي الدين أبي القاسم عليّ بن موسى بن طاووس

الحسنيّ الحسينيّ (ت ٦٦٤ هـ)، مطبعة الخيّام ـ قمّ ١٤٠٠ هـ.

٧١ ـ **علل الشرائع**: أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّيّ (٣٨١ هـ)، نشر: المكتبة الحيدريّة ـ النجف ١٣٨٥ هـ.

٧٢ ـ **علم اليقين**: محمّد بن المرتضى، المولى محسن الكاشانيّ (١٠٩١ هـ)، تصحيح: محسن بيدارفر، نشر: بيدار ـ قمّ ١٤٠٠ هـ.

٧٣ ـ **عيون أخبار الرضا**: محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّيّ الصّدوق (ت ٣٨١)، تصحيح: السيّد مهدي الحسينيّ اللّاجورديّ، نشر: محمّدرضا المشهديّ ـ قمّ ١٣٧٧ هـ.

٧٤ ـ **غاية المرام و حجّة الخصام**: السيّد هاشم بن سليمان البحرانيّ (١١٠٧ هـ)، نشر: دارالخلافة ـ تهران، ١٢٧٢ هـ.

٧٥ ـ **الغدير (في الكتاب و السنّة و الأدب)**: عبدالحسين أحمد الأمينيّ النجفيّ (ت ١٣٤٩ ش)، نشر: دارالكتاب العربيّ ـ بيروت ١٣٩٧ هـ، الطبعة الرابعة.

٧٦ ـ **غرائب القرآن و رغائب الفرقان**: نظام الدين الحسن بن محمّد بن الحسين القمّيّ النيسابوريّ (٧٢٨ هـ)، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، نشر: مكتبة مصطفى البابي الحلبيّ ـ مصر، ١٣٨١ هـ، الطبعة الأولى.

٧٧ ـ **غوالي اللآلي**: محمّد بن عليّ بن إبراهيم الأحسائيّ ابن أبي جمهور (٩٤٠ هـ)، تحقيق: مجتبى العراقيّ، مطبعة سيّد الشهداء ـ قم، ١٤٠٣ هـ، الطبعة الأولى.

٧٨ ـ **فرائد السمطين (في فضائل المرتضى و البتول و السبطين و الأئمّة من ذرّيّتهم عليهم السلام)**: إبراهيم بن محمّد بن المؤيّد بن عبدالله بن عليّ بن محمّد الجوينيّ الخراسانيّ (ت ٧٣٠ هـ)، تحقيق: الشيخ محمّد باقر المحموديّ، نشر: مؤسّسة المحموديّ ـ بيروت ١٣٩٨ هـ، الطبعة الأولى.

٧٩ ـ **الفروع من الكافي**: أبوجعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكلينيّ الرازيّ، (٣٢٩ هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاريّ، نشر: دارالكتب الإسلاميّة ـ طهران ١٣٩١ هـ.

٨٠ ـ **الفصول المهمّة (في معرفة أحوال الأئمّة) عليهم السلام**: عليّ بن محمّد بن أحمد المالكيّ المكّيّ الشهير بابن الصبّاغ (ت ٨٥٥)، نشر: مؤسّسة الأعلميّ ـ طهران.

٨١ ـ **قرب الإسناد**: أبوالعباس عبدالله بن جعفر الحِميَري (القرن الثالث الهجريّ)، تحقيق و نشر: مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث ـ قمّ ١٤١٣ هـ، الطبعة الأولى.

٨٢ ـ **قصص الأنبياء** : قطب‌الدين سعيد بن هبة‌الله الرّاونـديّ (٥٧٣ هـ)، تـصحيح : غـلام‌رضا عرفانيان، نشر : مجمع البحوث الإسلاميّة ـ مشهد ١٤٠٩ هـ، الطبعة الأولى.

٨٣ ـ **كامل الزيارات** : أبوالقاسم جعفر بن محمّد بن قولوية (٣٦٧ هـ)، تصحيح : عبدالحسين الأمينيّ، نشر : المطبعة المرتضوية ـ النجف ١٣٥٦ هـ.

٨٤ ـ **الكامل في التاريخ** : أبوالحسن عليّ بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بـن عـبدالكـريم بـن عبد الواحد الشيبانيّ المعروف بابن الأثير (٦٣٠ هـ)، نشر : دار صـادر و دار بـيروت ـ بيروت، ١٣٨٥ هـ.

٨٥ ـ **كتاب سُليم بن قيس الهلاليّ** (٩٠ هـ)، تحقيق : علاءالدين الموسويّ، نشر : مؤسّسة البعثة ـ طهران ١٤٠٧هـ.

٨٦ ـ **الكشّاف (عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل)** : جارالله محمود بن عمر الزمخشريّ (ت ٥٢٨ هـ).

٨٧ ـ **كشف الغمّة** : بهاءالدين أبوالحسن عليّ بن فخرالدين عيسى بن أبي الفتح الإربليّ (٦٩٣ هـ)، تصحيح : السيّد هاشم الرسوليّ المحلّاتي، نشر : المطبعة العلميّة ـ قمّ ١٣٨١ هـ.

٨٨ ـ **كشف المراد (في شرح تجريد الاعتقاد)** : جمال‌الدين أبو منصور الحسن بن يوسف بن عليّ بن المطهّر الحلّيّ (٧٢٦ هـ)، نشر : مكتبة المصطفويّ ـ قمّ.

٨٩ ـ **كفاية الأصول** : محمّد كاظم الخراسانيّ (١٣٢٩ هـ)، نشر و تحقيق : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم، ١٤٠٩ هـ، الطبعة الأولى.

٩٠ ـ **كفاية الطالب (في مناقب عليّ بن أبي طالب** عليه السلام**)** : أبوعبدالله محمّد بن يوسف بـن مـحمّد القرشيّ الكَنجيّ الشافعيّ (ت ٦٥٨ هـ)، تحقيق : الدكتور الشيخ محمّد هادي الأمـينيّ، نشر : شركة الكتبيّ ـ بيروت ١٤١٣ ، الطبعة الرابعة.

٩١ ـ **كمال الدين و تمام النعمة** : أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه الصدوق القمّيّ (٣٨١ هـ)، تصحيح : علي أكبر الغفاريّ، نشر : جماعة المدرسين ـ قمّ ١٤٠٥ هـ.

٩٢ ـ **كنزالفوائد** : أبوالفتح محمّد بن عليّ بن عثمان الكراجكي الطرابلسيّ (٤٤٩ هـ)، نشر : مكتبة

المصطفويّ.

٩٣ ـ **اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة** : جلال‌الدين عبدالرحمٰن السيوطيّ (ت ٩١١هـ)، نشر : دارالمعرفة ـ بيروت ١٤٠٣ هـ.

٩٤ ـ **مجاز القرآن** : أبوعبيدة مَعْمَر بن المثنّى التيميّ (٢١٠ هـ)، تعليق : محمّد فؤاد سزكَين، نشر : دارالفكر تركية ١٣٩٠ هـ، الطبعة الثانية.

٩٥ ـ **مجمع الأمثال** : أحمد بن محمّد الميدانيّ (٥١٨ هـ)، تحقيق : محمّد محي‌الدين عبدالحميد، نشر : مجلة السنة المحمّديّة، ١٣٧٤ هـ.

٩٦ ـ **مجمع البيان (في تفسير القرآن)** : الشيخ أبوعليّ الفضل بن الحسن الطبرسيّ (ت ٥٤٨ هـ)، نشر : مكتبة آية‌الله العظمى المرعشيّ ـ قم.

٩٧ ـ **المحاسن** : أبوجعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ، تصحيح : السيّد جلال‌الدين الحسينيّ المحدّث، نشر : دارالكتب الإسلاميّة، الطبعة الثانية.

٩٨ ـ **المحرّر الوجيز** : أبومحمّد عبدالحقّ بن غالب بن عطيّة الأندلسيّ (٥٤٦ هـ)، تحقيق : عبدالسلام عبدالشافي محمّد، نشر : دارالكتب العلميّة ـ بيروت، ١٤١٣ هـ، الطبعة الأُولى.

٩٩ ـ **محصّل أفكار المتقدمين و المتأخّرين** : فخرالدين محمّد بن عمر الخطيب الرازيّ (٦٠٦ هـ)، تصحيح : طه عبدالرؤوف سعد، نشر : دارالكتاب العربيّ ـ بيروت ١٤٠٤ هـ، الطبعة الأولى.

١٠٠ ـ **المراجعات** : السيّد عبدالحسين شرف‌الدّين الموسويّ (ت ١٣٧٧ هـ)، مكتبة الإسلاميّة الكبرى إيران.

١٠١ ـ **المستدرك على الصحيحين** : أبوعبدالحاكم النيسابوريّ (٤٠٥ هـ)، إشراف : الدكتور يوسف عبدالرحمٰن المرعشلي، نشر : دارالمعرفة ـ بيروت.

١٠٢ ـ **مستدرك الوسائل** : الميرزا حسين النوريّ الطبرسيّ (١٣٢٠ هـ)، تحقيق و نشر : مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث ـ قمّ ١٤٠٧ هـ، الطبعة الأُولى.

١٠٣ ـ **مسند** : أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، نشر : دارالفكر ـ بيروت ١٤٠٧ هـ.

١٠٤ ـ المصباح المنير : أحمد بن محمّد بن عليّ المقريّ الفيّوميّ (٧٧٠ هـ)، نشـر : مـؤسّسة دارالهجرة ـ قم، ١٤٠٥ هـ، الطبعة الأولى.
١٠٥ ـ مصنّفات الشيخ المفيد أبي عبدالله محمّد بن النعمان العكبريّ، البغداديّ (ت ٤١٣ هـ)، نشر : المؤتمر العالميّ لألفيّة الشيخ المفيد ـ قمّ ١٤١٣ هـ الطبعة الأولى.
١٠٦ ـ معالم التنزيل (بهامش تفسير الخازن) : أبومحمّد الحسين الفرّاء البغويّ الشافعيّ (٥١٦ هـ)، نشر : المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر.
١٠٧ ـ معاني الأخبار : أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه الصدوق القمّيّ (٣٨١ هـ)، تصحيح : علي أكبر الغفاريّ، نشر : جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ـ قمّ ١٣٦١ ش.
١٠٨ ـ المعجم الكبير : أبوالقاسم سليمان بن أحمد الطبرانيّ (٣٦٠ هـ)، تحقيق : حمدي عبدالمجيد السلفيّ، نشر : مكتبة ابن تيميّة ـ القاهرة، الطبعة الثانية.
١٠٩ ـ المفردات في غريب القرآن : أبوالقاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الإصفهانيّ (ت ٥٠٢ هـ)، دفتر نشر الكتاب ١٤٠٤ هـ، الطبعة الثانية.
١١٠ ـ مكارم الأخلاق : رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسيّ، القرن السادس الهجريّ، تعليق : محمّد حسين الأعلميّ، نشر : مؤسّسة الأعـلميّ ـ بـيروت (١٣٩٢ هـ)، الطـبعة السادسة.
١١١ ـ المناقب للخوارزميّ : الموفّق بن أحمد بن محمّد المكّيّ الخوارزميّ (٥٦٨ هـ)، تحقيق : الشيخ مالك المحموديّ، نشر : جماعة المدرسين ـ قمّ ١٤١١ هـ، الطبعة الثانية.
١١٢ ـ مناقب عليّ بن أبي طالب عليه السلام : أبوالحسن عليّ بن محمّد بن محمّد الواسطيّ الجُلّابيّ الشافعيّ الشهير بابن المغازليّ (ت ٤٨٣)، تحقيق : محمّد باقر البهبوديّ، نشر : المطبعة الإسلاميّة ـ طهران ١٣٩٤ هـ الطبعة الأولى.
١١٣ ـ من لا يحضره الفقيه : أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه الصدوق القمّيّ (٣٨١ هـ)، تصحيح : علي أكبر الغفاريّ، نشر : جماعة المدرسين ـ قمّ ١٤١٤ هـ، الطبعة الثالثة.
١١٤ ـ منهاج السنّة في نقض كلام الشيعة و القدرية : ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم (٧٢٨هـ)، مصر،

١٣٢٢ هـ.

١١٥ ـ **منية المريد** : زين الدين بن عليّ بن أحمد العامليّ الشاميّ (٩٦٦ هـ)، نشر : جماعة المدرسين ـ قمّ ١٤٠٥ هـ.

١١٦ ـ **مهج الدعوات و منهج العبادات** : رضيّ الدين أبوالقاسم عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن طاووس الحسنيّ الحسينيّ (٦٦٤ هـ)، نشر : مؤسّسة الأعلميّ ـ بيروت ١٣٩٩ هـ.

١١٧ ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** : أبوعبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ (٧٤٨هـ)، تحقيق : علي محمّد البجاويّ، نشر : دارالمعرفة ـ بيروت.

١١٨ ـ **الميزان في تفسير القرآن** : السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ (١٣٦٠)، نشر : مؤسّسة إسماعيليان ـ قمّ ١٣٩٣ هـ، الطبعة الثالثة.

١١٩ ـ **النجاة من الغرق في بحر الضلالات** : أبوعلي الحسين بن عبدالله بن سينا (٤٢٨ هـ)، تصحيح : محمّد تقي دانش پژوه، نشر : جامعة طهران ١٣٦٤ ش.

١٢٠ ـ **النّص و الاجتهاد** : الإمام عبدالحسين شرف الدين الموسويّ (ت ١٣٧٧ هـ)، تقديم : السيّد محمّد صادق الصدر، نشر : قسم الدراسات الإسلاميّة ١٤٠٨ هـ، الطبعة الثانية.

١٢١ ـ **نور الأبصار (في مناقب آل بيت النبيّ المختار ﷺ)** : مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجيّ (القرن الثالث عشر الهجري)، نشر : دارالجيل ـ بيروت.

١٢٢ ـ **نور الثقلين** : عبد علي بن جمعة العروسيّ الحويزيّ (١١١٢ هـ)، تصحيح : السيّد هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ، نشر : المطبعة العلميّة ـ قمّ ١٣٨٣ هـ، الطبعة الثانية.

١٢٣ ـ **نهاية الدراية في شرح الكفاية** : محمّد حسين الإصفهاني (١٣٦١ هـ)، تحقيق و نشر : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قمّ ١٤١٤ هـ، الطبعة الأولى.

١٢٤ ـ **نهج البلاغة** : جمع و ترتيب : الشريف أبي الحسن محمّد الرّضيّ بن الحسن الموسويّ (ت ٤٠٤ هـ)، تصحيح و تحقيق : الدكتور صبحي الصالح، نشر : دارالهجرة ـ قمّ.

١٢٥ ـ **وسائل الشيعة** : محمّد بن الحسن الحرّ العامليّ (١١٠٤ هـ)، تحقيق و نشر : مؤسّسة آل‌البيت لإحياء التراث ـ قمّ ١٤٠٩ هـ، الطبعة الأولى.

١٢٦ ـ وفيات الأعيان : أبوالعبّاس شمس‌الدّين أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خلّكان، (٦٨١ هـ)، تحقيق : إحسان عباس، نشر : منشورات الرضيّ ـ قمّ ١٣٦٤ ش، الطبعة الثانية.

١٢٧ ـ ينابيع المودّة : الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزيّ الحنفيّ (ت ١٢٩٤ هـ)، تقديم : السيّد محمّد مهدي السيّد حسن الخرسان، نشر : دارالكتب العراقية و مكتبة المحمّديّ ـ قمّ ١٣٨٥ هـ، الطبعة الثامنة.

فهرس الموضوعات

الأصل الأوّل : التوحيد

الأصل الثاني : النبوّة

الأصل الثالث : الإمامة

الأصل الرابع : المعاد